أنوار الحكم ومحاسن الكلم

شرح الكلمات القصار لأمير المؤمنين (ع)

تأليف
العلامة الشهيد
السيد حسن السيد علي القبانچي النجفي (ره)

الجزء الأول

تقديم وتحقيق
مؤسسة إحياء التراث الشيعي

منشورات
شركة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان


مكتبة الروضة الحيدرية



أنوار الحكم

ومحاسن الكلم

شرح الكلمات القصار لأمير المؤمنين

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م





شركة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - طريق المطار - قرب سنتر زعرور

هاتف: ٠١ / ٤٥٠٤٢٦ - فاكس: ٠١ / ٤٥٠٤٢٧

صندوق بريد: ٧١٢٠

Published by Aalami Est.

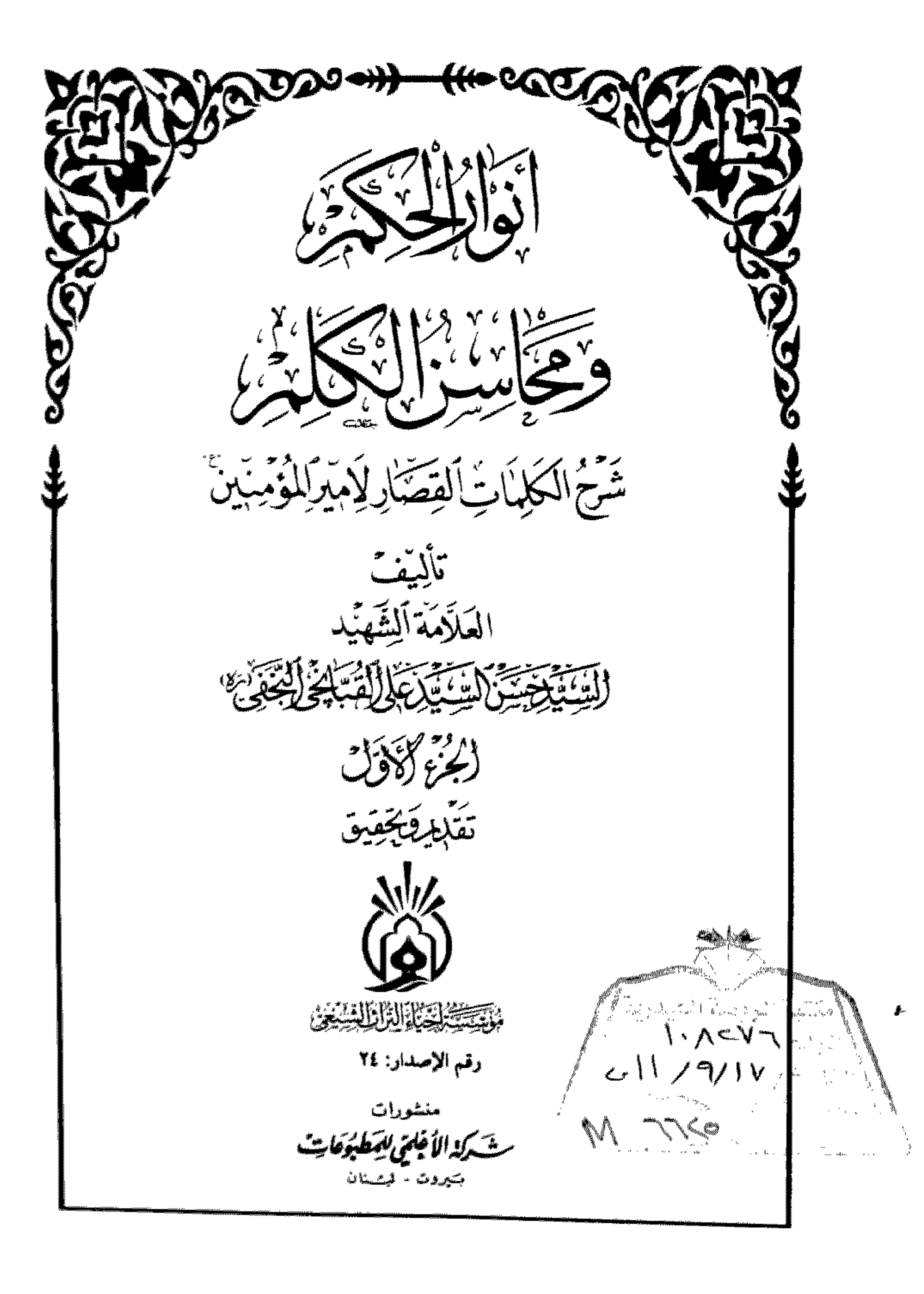
Beirut Airport Road

Tel:01/450426 Fax:01/450427

P.O.Box.7120

E-mail:alaalami@yahoo.com

http://www.alaalami.com



أنوار الحكم

ومحاسن الكلم

شرح الكلمات القصار لأمير المؤمنين (ع)

تأليف

العلامة الشهيد

السيد حسن السيد علي القبانچي النجفي (ره)

الجزء الأول

تقديم وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

رقم الإصدار: ٢٤

منشورات

شركة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤسسة:

لم يكد مطالعُ النهج إلاّ أن تشرأب نفسه بكل وجدانياتها لينظر إلى آفاق الحكمة، وسمو الكلمة، وحديث الروح، ومظان الكمال، وغزارة العلم وكل ما من شأنه أن يرتقي إلى أوج المعرفة المحجوبة بثقافات الآخر دون طائل، والهائمُ في حديث عليّ وبلاغة نهجه لا يكفيه قراءة خطبة من خطبه حتّى يغوص في أعماق بحاره ليُخرج من خلال غوصه درةً من درر حكمته فيعنونها بشرح النهج كما حظي بذلك ابن أبي الحديد الشافعي المعتزلي، وكما سبقه من قبل ابن ميثم البحراني الإمامي، وكما هام في عوالم مدحه الشاعر بولس سلامه المسيحي وهكذا هي صُنعةِ الغوص في أعماق بحار بلاغة عليّ، وأحسب أن العلامة الفقيد السيد حسن القبانچي رحمه الله راح يبحث في غدران هذه البلاغة، تلك الجداول الصغار المعروفة بالكلمات القصار ليخرج منها مكنون النفائس فيشير إلى أننا لم نبحث في غدران هذه الحكمة فما بالنا نسعى إلى أعماق بحارها؟! وهكذا كتب المرحوم السيد حسن القبانچي ما يستطيع من خلاله أن يستخرج معالم هذه النفائس القصار ويضفي عليها بعض تعليقاته وشيئاً من شروحاته حتّى خرج بهذه الحلة القشيبة التي طرزها عنوان (الكلمات القصار) وبذلك فقد أضاف الفقيد معلماً آخر من معالم المشروع المعرفي لنهج البلاغة والتي لا زالت هذه

المعالم لا تُضفي إلاّ تعريفاً وليس شرحاً، فإن كلام عليّ لا يبلغ مدحته الواصفون، ولا يرقى إلى سمائه العارفون، فإن كلام الإمام، إمام الكلام _ كما وصفه بعضهم _ وهل لكلام الإمام منتهى ونهاية؟!

وختاماً إذ تقدّم مؤسسة إحياء التراث الشيعي هذه السفر القيّم إلى المكتبة الإسلاميّة تتقدّم بوافر الشكر لأعضائها في لجنة التحقيق عن جهودهم المشكورة التي أنتجت الكتاب الذي بين يديك ونخصٌّ بالذكر السيّد بلاسم الموسوي والشيخ علاء الزبيدي والشيخ ياسر الصالحي والأستاذ حسن الظالمي.

فهرست أحاديث الأجزاء الثلاثة:

ستقرأ في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة شرحاً وافياً لكلمات وحكم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

ففي الجزء الأوّل الأقوال والحكم التالية:

١ _ قوله عليه السلام: «كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ لا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ وَلا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ»، (ص ٢٩).

٢ _ قوله عليه السلام: «أزْرَى بِنَفْسِهِ مَن اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ»، (ص ٤٣).

٣ _ قوله عليه السلام: «الْبُخْلُ عَارٌ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ»، (ص ٥٧).

٤ _ قوله عليه السلام: «الْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَى»، (ص ١٠٥).

٥ _ قوله عليه السلام: «الْعِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ، وَالآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ، وَالْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ»، (ص ١٦٩).

٦ ـ قوله عليه السلام: «صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالاحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ»، (ص ٢٤٥).

٧ ـ قوله عليه السلام: «وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ، وَالصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجَالِهِمْ»، (ص ٢٩١).

٨ ـ قوله عليه السلام: «اعْجَبُوا لِهَذَا الإِنْسَانِ، يَنْظُرُ بِشَحْم، وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْم، وَيَسْمَعُ بِعَظْم، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْم»، (ص ٣٤٣).

٩ ـ قوله عليه السلام: «إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى قَوْم، أَعَارَتْهُمْ مَحَاسِنَ غَيْرِهِمْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُمْ سَلَبَتْهُمْ مَحَاسِنَ أَنْفُسِهِمْ»، (ص ٤٤٧).

١٠ ـ قوله عليه السلام: «خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ»، (ص ٤٨١).

١١ ـ قوله عليه السلام: «إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ»، (ص ٥٠٧).

١٢ ـ قوله عليه السلام: «أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الإِخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ»، (ص ٥٢٩).

١٣ ـ قوله عليه السلام: «إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ، فَلا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ»، (ص ٥٦٣).

١٤ ـ قوله عليه السلام: «مَنْ ضَيَّعَهُ الأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الأَبْعَدُ»، (ص ٦٠١).

١٥ ـ قوله عليه السلام: «تَذِلُّ الأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ»، (ص ٦٣٣).

١٦ ـ قوله عليه السلام: «... وَلَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ، لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ، إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّى فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ، وَالسَّلامُ»، (ص ٦٥٧).

١٧ ـ وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله: «غَيِّرُوا الشَّيْبَ وَلا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا قَالَ صلى الله عليه وآله ذَلِكَ وَالدِّينُ قُلٌّ، فَأَمَّا الآنَ وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ فَامْرُؤٌ وَمَا اخْتَارَ»، (ص ٦٦٩).

كما تقرأ في الجزء الثاني شرحاً وافياً للحكم التالية:

١٨ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلاَّ وَيَدُ اللَّهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ»، (ص ٥).

١٩ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ»، (ص ٣٣).

٢٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لابْنِهِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً لا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ، إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ، يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الأَحْمَقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ، وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ»، (ص ٥٩).

٢١ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا غِنَى كَالْعَقْلِ، وَلا فَقْرَ كَالْجَهْلِ، وَلا مِيرَاثَ كَالأَدَبِ، وَلا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ»، (ص ٨٩).

٢٢ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا حُيِّيتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيِّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا، وَإِذَا أُسْدِيَتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكَافِئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا، وَالْفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِئِ»، (ص ١٦٧).

٢٣ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ»، (ص ١٩٥).

٢٤ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْقَنَاعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ»، (ص ٢٢٧).

٢٥ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَإِنَّ تَقْوَى اللّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ، بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ...»، (ص ٢٤٥).

٢٦ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ»، (ص ٢٧١).

٢٧ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ»، (ص ٢٨١).

٢٨ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكِ عَنِّي، أَبِي تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ، لا حَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي، لا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثاً لا رَجْعَةَ فِيهَا، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ، آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ، وَطُولِ الطَّرِيقِ، وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ»، (ص ٣١٣).

٢٩ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ «الْعَدْلُ الإِنْصَافُ، وَالإِحْسَانُ التَّفَضُّلُ»، (ص ٣٢٩).

٣٠ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلاثُ عَلامَاتٍ: يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ، وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّلَمَةَ»، (ص ٣٧٧).

٣١ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ».

قال الرضي رَحِمَهُ اللهُ: وهذا مثل قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هَلَكَ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ غَالٍ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ»، (ص ٤٠٣).

٣٢ ـ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لابْنِهِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تَدْعُوَنَّ إِلَى مُبَارَزَةٍ، وَإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا بَاغٍ وَالْبَاغِيَ مَصْرُوعٌ»، (ص ٤١١).

٣٣ ـ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلاَّ كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ، وَإِنَّ

الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لاَ يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلاَ يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ»، (ص ٤٢٣).

٣٤ ـ قوله عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ، إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ، وَالْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ»، (ص ٤٤٣).

٣٥ ـ قوله عليه السلام: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْدَانُ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكَمِ»، (ص ٥٠١).

٣٦ ـ وَسُئِلَ عليه السلام عَنِ الْخَيْرِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: «لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ؛ وَلَكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ، وَأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللَّهَ وَإِنْ أَسَأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللَّهَ، وَلاَ خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلاَّ لِرَجُلَيْنِ: رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَرَجُلٍ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ». وقَالَ عليه السلام: «لا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ»، (ص ٥٣٥).

٣٧ ـ قوله عليه السلام: «يَا ابْنَ آدَمَ الرِّزْقُ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ فَلاَ تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ كَفَاكَ كُلُّ يَوْمٍ عَلَى مَا فِيهِ فَإِنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُؤْتِيكَ فِي كُلِّ غَدٍ جَدِيدٍ مَا قَسَمَ لَكَ وَإِنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِالْهَمِّ فِيمَا لَيْسَ لَكَ وَلَنْ يَسْبِقَكَ إِلَى رِزْقِكَ طَالِبٌ وَلَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غَالِبٌ وَلَنْ يُبْطِئَ عَنْكَ مَا قَدْ قُدِّرَ لَكَ»، (ص ٥٧٩).

٣٨ ـ وَقَالَ عليه السلام لِجَابِر بْن عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ: «قِوَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ: عَالِمٍ مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ، وَجَاهِلٍ لاَ يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لاَ يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لاَ يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ. فَإِذَا ضَيَّعَ الْعَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَإِذَا

بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ. يَا جَابِرُ مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاس إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ لِلَّهِ فِيهَا بِمَا يَجِبُ فِيهَا عَرَّضَهَا لِلدَّوَام وَالْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ»، (ص ٦١١).

٣٩ ـ قوله عليه السلام: «السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً، فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ»، (ص ٦٢٥).

٤٠ ـ قوله عليه السلام: «الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، وَلا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ، وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ»، (ص ٦٦١).

٤١ ـ قوله عليه السلام: «عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الاسْتِغْفَارُ»، (ص ٦٨٣).

٤٢ ـ قوله عليه السلام: «إِذَا اسْتَوْلَى الصَّلاَحُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ حَوْبَةٌ فَقَدْ ظَلَمَ وَإِذَا اسْتَوْلَى الْفَسَادُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ»، (ص ٦٩٧).

وفي الجزء الثالث الأنوار العلوية التالية:

٤٣ ـ قوله عليه السلام: «إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلاَّ أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ»، (ص ٥).

٤٤ ـ قوله عليه السلام: «مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ تِيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الأَغْنِيَاءِ اتِّكَالاً عَلَى اللَّهِ»، (ص ٣٣).

٤٥ ـ قوله عليه السلام: «لا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الإِسْلاَمِ، وَلا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى، وَلا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ، وَلا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ...»، (ص ٥٣).

٤٦ ـ قوله عليه السلام: «مُقَارَبَةُ النَّاس فِي أَخْلاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ»، (ص ٧٩).

٤٧ ـ قوله عليه السلام: «تَوَقَّوُا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ، فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي الأَبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي الأَشْجَارِ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ وَآخِرُهُ يُورِقُ»، (ص ١٥٣).

٤٨ ـ قوله عليه السلام: «مَا الْمُبْتَلَى الَّذِي قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْبَلاَءُ بِأَحْوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ الَّذِي لا يَأْمَنُ الْبَلاَءَ»، (ص ٢١٧).

٤٩ ـ قوله عليه السلام: «إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ حَاجَةٌ فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلاةِ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ، فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ الأُخْرَى»، (ص ٢٥٥).

٥٠ ـ قوله عليه السلام: «إِنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ حَقّاً، وَإِنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حَقّاً، فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَحَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ اسْمَهُ، وَيُحَسِّنَ أَدَبَهُ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ»، (ص ٢٧٧).

٥١ ـ قوله عليه السلام: «الصَّلاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ، وَالْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصِّيَامُ، وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ»، (ص ٣٠٧).

٥٢ ـ قوله عليه السلام: «فَرَضَ اللَّهُ الإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ ابْتِلاءً لإِخْلاصِ الْخَلْقِ، وَالْحَجَّ تَقْرِبَةً لِلدِّينِ، وَالْجِهَادَ عِزّاً لِلإِسْلاَمِ...»، (ص ٤٢٥).

٥٣ ـ قوله عليه السلام: «عِظَمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ، يُصَغِّرُ الْمَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ»، (ص ٤٥٣).

٥٤ ـ قوله عليه السلام: «وَفِي الْقُرْآنِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ»، (ص ٤٦٧).

٥٥ ـ وَقَالَ عليه السلام فِي ذِكْرِ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ: «يَرْحَمُ اللَّهُ خَبَّابَ بْنَ الأَرَتِّ، فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً، وَهَاجَرَ طَائِعاً، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ، وَعَاشَ مُجَاهِداً»، (ص ٤٩٧).

٥٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمّا بَلَغَهُ قَتْلُ مُحَمَّدِ بْنِ أبي بَكْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنَّ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إلاَّ أنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً وَنَقَصْنَا حَبِيباً»، (ص ٥٠٧).

٥٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَ قَدْ جَاءَهُ نَعْيُ الأشْتَر رَحِمَهُ اللهُ: «مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكَانَ فِنْداً، وَلَوْ كَانَ حَجَراً لَكَانَ صَلْداً، لا يَرْتَقِيهِ الْحَافِرُ وَلا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ»، (ص ٥٢٥).

٥٨ ـ قَالَ كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ: أخَذَ بِيَدِي أمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ فَأخْرَجَنِي إلَى الْجَبَّانِ فَلَمَّا أصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ ثُمَّ قَالَ: «يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ إنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أقُولُ لَكَ، النَّاسُ ثَلاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيل نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْم وَلَمْ يَلْجَئُوا إلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ. يَا كُمَيْلُ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُوا عَلَى الإنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ. يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ مَعْرِفَةُ الْعِلْم دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الإنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الأحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ. يَا كُمَيْلُ هَلَكَ خُزَّانُ الأمْوَالِ وَهُمْ أحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ، هَا إنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لَوْ أصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً، بَلَى أصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّين لِلدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَبِحُجَجِهِ عَلَى أوْلِيَائِهِ، أوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أحْنَائِهِ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لأوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، ألا لا ذَا وَلا ذَاكَ، أوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَالادِّخَارِ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا الأنْعَامُ السَّائِمَةُ،

كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ. اللَّهُمَّ بَلَى لا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ، وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ أُولَئِكَ، أُولَئِكَ وَاللَّهِ الأَقَلُّونَ عَدَداً وَالأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً، يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ، آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ، انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ»، (ص ٥٥٧).

٥٩ ـ قوله عليه السلام: «نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي»، (ص ٥٨٧).

٦٠ ـ قوله عليه السلام: «مَنْ قَصَّرَ فِي الْعَمَلِ ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ»، (ص ٦٤٥).

٦١ ـ قوله عليه السلام: «لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ، وَمَا أَدْبَرَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ»، (ص ٦٦٥).

٦٢ ـ قوله عليه السلام: «مَنْ جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ»، (ص ٦٨٩).

مدير المؤسسة

السيّد محمّد القبانچي

الشجرة الطيبة

السيد حسن، السيد عليّ، السيد حسن، السيد صالح، السيد مهدي ـ الملقب بالقبانچي ـ ابن صالح، بن أحمد، بن محمّد الزاهد، ابن الحسين الكريم، ابن محمّد أبو الأشبال، ابن عليّ (وهنا تجتمع قبيلة العرد وآل وردي) وهو ابن الحسين، بن محمّد، بن خميس (وهو جد آل وِتْوت)، ابن يحيى، بن هزّال، بن عليّ، بن محمّد، بن عبد الله بهاء الدين (المعروف بالبهائي)، [بن أبي القاسم، بن أبي البركات، بن القاسم، بن أبي القاسم علي، ابن أبي الفتوح شكر، بن أبي محمّد الحسن الأسمر، بن شمس الدين][1]، ابن النقيب أحمد (توفي ٤٥١ هـ)، ابن النقيب أبو الحسن عليّ، بن النقيب أبو طالب محمّد، بن النقيب الشريف أبي علي عمر (توفي سنة ٣٤٣ هـ)، ابن يحيى نقيب النقباء، ابن أبي عبد الله الحسين النسابة نقيب النقباء، (قدم من الحجاز إلى العراق سنة ٢٥١ هـ)، ابن أحمد المحدّث الفقيه الشاعر، ابن الأمير أبي عليّ عمر الأكبر (المقتول سنة ٢٥٠هـ)، ابن يحيى الراوية نقيب النقباء ـ صاحب الدعوة ـ (توفّي ببغداد سنة ٢٢٠ هـ)، ابن الحسين ذي الدمعة، ابن زيد الشهيد (توفي ١٢٢ هـ)، ابن الإمام عليّ زين العابدين، ابن الإمام الحسين الشهيد عليهما السلام. (الدرّ المنثور في أنساب المعارف والصدور/ السيد جعفر الأعرجي ٢: ٢٨٥).

والذي جاء في خطباء المنبر الحسيني في ترجمة السيد عبد الأمير القبانچي فيه تلفيق، والظاهر غير صحيح.

---

(١) ما بين المعقوفتين أفادها العلاّمة الحبر السيد عبد الستّار الحسني مع تأييد العلاّمة المحقّق الدكتور حسين علي محفوظ، وذلك في إثبات شجرة السادة آل الوردي، والتي أمضاها نحو من ثلاثين من المجتهدين والعلماء والنسّابين، ومنهم السيد حسن الصدر.



تقديم بقلم السيّد صدر الدين القبانجي

كتابات المؤلّف عن الإمام عليّ عليه السلام:

ثلاثـة كتـب مهمّـة صـدرت للمؤلـف عـن الإمـام علـيّ عليه السلام خاصـة، فيمـا صـدرت لـه كتـب موسـوعيّة أخـرى عـن بـاقي الأئمّـة الأطهـار مـن أهـل البيت عليهم السلام،[1] هذه الكتب الثلاثة هي عبارة عن:

الكتـاب الأوّل: هـو (علـيّ والأسـس التربويّـة) الـذي تنـاول فيـه المؤلـف شـرحاً وافيـاً وفريـداً لوصية الإمـام علـيّ عليه السلام لولـده الحسـن الزكـي عليه السلام، ويُعتبـر هـذا الكتـاب هـو الوحيـد فـي المكتبـة الإسـلاميّة الـذي تنـاول وصية الإمام عليّ عليه السلام بالشرح.

ويظهـر أن المؤلـف قـد فـرغ مـن كتابـة سـطوره فـي جمـادى الآخـرة من عام ١٣٧٨ للهجرة كما جاء في خاتمة الكتاب.

الكتـاب الثـاني: هـو (مُسـند الإمـام علـيّ عليه السلام)، وهـو موسـوعة حديثيّـة ضـخمة تتـألف مـن عشـرة مجلـدات. تتضـمن أكثـر مـن أحـد عشـر ألـف حـديث للإمـام علـيّ عليه السلام كـان المؤلـف قـد تمكـن علـى جمعهـا مـن شـتى المصـادر فـي أكثـر مـن عشـرين عامـاً. فـي الوقـت الـذي كـان قـد شـرع فـي تأليفـه عـام ١٣٨٨ للهجـرة، بعـد أن عـاد إلـى مدينـة النجـف الأشـرف مـن

---

(١) منهـا كتـاب (شـرح رسـالة الحقـوق) للإمـام زيـن العابـدين عليه السلام وكتـاب (مـاذا للأئمّـة مـن الفضائل) المؤلف من أربعة مجلدات والجاهز للطبع حالياً وغيرها كثير.

التبعيد الإجباري له إلى مدينة راوة أيام الحكم الطائفي المقيت لعبد الرحمن عارف لدى رئاسته الجمهورية في العراق.

الكتاب الثالث: وهو هذا الكتاب الذي بين يديك (أنوار الحكَم ومحاسن الكلم) الذي يتألف من أربعة مجلدات بقلمه الشريف، تناول فيه المؤلف شرحاً ودراسةً لكلمات قصيرة، وحكم رائعة للإمام عليّ عليه السلام.

ويظهر أن المؤلف قد بدأ بتأليفه منذ الفراغ من كتابه (مسند الإمام عليّ عليه السلام) عام ١٤٠٦ للهجرة، حيث ذكر في نهاية المجلد الأوّل منه أنه قد انتهى منه في شهر ربيع الأوّل من عام ١٤٠٦ للهجرة، وذلك بعد خروجه من السجن الذي دام سنة ونصف.

وقفة تأمّل:

إن أكثر من أمر سيستوقفنا للتأمل في كتابات المؤلف وتاريخه الحافل بالجهاد العلمي والسياسي معاً.

فكيف نفسّر علاقة المؤلف الخاصة بالإمام عليّ عليه السلام التي دعته أن يصرف أكثر من ربع قرن من حياته في الكتابة عنه عليه السلام؟

وكيف نفسّر ظاهرة لم يستطع المؤلف أن يتحدّث عنها بأكثر من الإشارة، وهي تقارن هذه الجهود العلمية بسجون وملاحقات يتعرض لها المؤلف من قبل الحكومات المتتابعة في العراق.

فالكتاب الأوّل (عليّ والأسس التربوية) كان قد صدر له بعد اعتقاله والحكم عليه بالإعدام أيام الحكم الملكي في العراق وعلى عهد حكومة (ياسين الهاشمي) التي منع فيها الشعائر الحسينية في العراق وأوغل في ملاحقة الشيعة ومصادرة حقوقهم، بينما كان المؤلف لساناً

شجاعاً ومدافعاً عن أهل البيت وشيعتهم، الأمر الذي انتهى باعتقاله ثمّ الحكم عليه بالإعدام بتهمة التحريض ضد الحكومة![1]

أمّا الكتاب الثاني (مُسند الإمام عليّ عليه السلام) فقد بدأ المؤلف بكتابته عندما أُطلق سراحه من التبعيد القهري إلى مدينة (راوة) في غرب العراق على عهد حكومة عبد الرحمن عارف، حيث يذكر المؤلف قصته في الاندفاع لتأليف هذا الكتاب إثر تبعيده إلى راوة، ولقائه ببعض الجاهلين، أو المستخفّين بفضل الإمام عليّ عليه السلام حين قالوا له: إنّ الإمام عليّاً عليه السلام ليس له أكثر من عشر روايات، فما هذه المبالغة في فضله!؟

هنا ومرة ثانية تواجهنا ظاهرة (الاعتقال) و(السجن) و(التبعيد) في العراق للباحثين والعلماء والمدافعين عن أهل البيت عليهم السلام، وهي ظاهرة نادرة وغريبة، إلاّ أنها تفرض بصماتها بشكل واضح في بحوث المؤلف خاصة وفي الوضع السياسي والطائفي الحاكم في العراق عامة.

ثمّ نجد هذه الظاهرة تتكرر في الكتاب الثالث للمؤلف وعلى عهد آخر من العهود السياسية السوداء في العراق، ألا وهو عهد (حزب البعث) وحكومة طاغية بغداد صدام حسين.

فقد اعتُقل المؤلف وسُجن هو وعقيلته العلوية الصابرة أم الشهداء الأربعة (فخر السادات الطباطبائي)، واستمر الاعتقال في سجون قاسية موحشة يصعب التصديق بها أكثر من سنة ونصف، لماذا؟ لمجرد أن بعض أولاد المؤلف قد هاجروا من العراق

---

(١) راجع في ذلك ترجمتنا لحياة المؤلف تحت عنوان: (خطيب العلماء).

بصورة غير رسمية! وطلبوا اللجوء إلى دولة أخرى هرباً من الظلم والتعسف.[١]

ومن زاوية أخرى فإن جهود المؤلف ستسجل لنا ظاهرة حفل بها النجف الأشرف، ألا وهي ظاهرة المنازلة العلمية الكبرى ـ التي قد تأخذ لوناً سياسياً أحياناً ـ التي خاضها علماء النجف الأشرف ـ ومعهم آخرون من رجال الحوزات العلمية في كربلاء والكاظمية والكوفة والحلة على مرّ التاريخ ـ بهدف تدوين التراث الإسلامي الأصيل المأخوذ عن أهل البيت عليهم السلام، وقراءة التاريخ الإسلامي بشكل صحيح، والدفاع عن التشيّع فكراً، ومذهباً، وشعباً، على مستوى المواقف العلميّة مرّة، أو المواقف السياسية مرة أخرى.

ولعلّ التاريخ الماضي لم يشهد مدينة أخرى خرّجت من العلماء، وكتبت من البحوث والدراسات عن الإسلام عموماً والتشيع خصوصاً، وبأروع مستوى من العمق والأصالة، بمقدار ما يشهده في هذه المدينة العلمية الصامدة مدينة الإمام عليّ عليه السلام باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله، والتي كان رجالها يستلهمون آفاق المعرفة، ومعاني الصبر والبطولة، ودروس التضحية والعطاء من صاحب هذه المدينة وشاهدها وراقد أرضها الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ظلامة الشيعة:

إن شعوراً عميقاً بالمظلومية والحرمان، والقهر والمصادرة هو

---

(١) يُذكر هنا أن نظام البعث قام بحملة اعتقالات واسعة شملت مئات العوائل التي هاجر بعض أبنائها خارج العراق، وقد غصّت السجون والمعتقلات بهذه العوائل رجالاً ونساءاً حتى لم يكن يتسّع لأحدهم النوم إلاّ قائماً ولفترة شهور طويلة تزيد على السنة أحياناً بمثل هذا الحال، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الذي اكتنفت عليه صدور هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين نذروا أنفسهم لإعلان الحق والمطالبة به.

ظلامة أهل البيت عليهم السلام...

ظلامة التشيع...

وظلامة الشيعة...

هذه الظلامات كانت هي السمة البارزة في العراق وعلى مرّ العهود التي حكمتهم.

ورغم أن ظلامة أهل البيت عليهم السلام، والتشيّع لهم، والشيعة من أتباعهم هي ظاهرة موجودة في بقاع أخرى من العالم الإسلامي، إلاّ أنها تتجلى أوضح في العراق.

العراق الذي يشهد أكثرية شيعية تزيد على (٦٥٪) من مجموع السكّان.

العراق الذي احتضن ستة قبور للأئمّة من أهل البيت عليهم السلام.

العراق الذي كان مركزاً لحكومة الإمام عليّ عليه السلام، ثمّ مركزاً للحركة الفكرية التي قادها الإمام الصادق عليه السلام.

العراق الذي يشهد أكبر مدرسة علمية للتشيع في النجف الأشرف، حيث الحوزة العلمية والمرجعيات الفكرية والدينية لهذا المذهب.

العراق بكل هذه المواصفات، لكنه خضع طوال القرون الماضية منذ نهاية خلافة الإمام عليّ عليه السلام ـ عدا سنوات قليلة لا تكاد تذكر ـ لحكم سياسي وعسكري ومذهبي قائم على أساس اضطهاد الشيعة ومصادرة حقوقهم واستباحة دمائهم، وسلب الحد الأدنى من حرياتهم.

هذا التاريخ الممتد الطويل من الظلامة والاضطهاد هو الذي جعل مدرسة النجف الأشرف تتحفّز للدفاع المستميت عن أهل البيت عليهم السلام وفكرهم وشيعتهم، وتوظف طاقاتهم العلمية والسياسية والجهادية من أجل بقاء شعلة التشيّع متوهجة على مدى القرون.

تحليل الإمام الشهيد الصدر قدس سره:

أذكر يوماً أن سؤالاً طرح على أستاذنا الإمام الشهيد الصدر قدس سره[1] حول الفرق بين الشعب الإيراني والشعب العراقي، حيث استطاع الشعب الإيراني بقيادة الإمام الخميني رحمه الله أن ينزل إلى الشارع في تظاهرات مليونية كبرى ويطيح بحكم الشاه، بينما لم يشهد الشارع العراقي مثل هذا التحرك.

فأجاب السيد الشهيد: (أن شيعة إيران رغم كل الظلم الذي تعرّضوا له أيام الشاه وما قبله إلاّ أن لديهم شعوراً بالعزّ والتفوق والثقة، فالنظام الذي يحكمهم هو نظام يتظاهر بالانتماء للمذهب والدفاع عنه، والمذهب الرسمي في البلاد هو التشيّع لأهل البيت عليهم السلام، بقطع النظر عن مدى واقعية هذا الانتماء وهذا الاعتراف الرسمي، إلاّ أن له مداليله وتأثيراته النفسيّة الكبيرة.

أمّا الشيعة في العراق فإنهم يعيشون منذ حكومة معاوية بن أبي سفيان وإلى هذا اليوم في ظل حكومات قائمة على اضطهادهم

(١) هو المفكر الإسلامي الكبير، والمرجع الديني المجدّد الإمام السيد محمّد باقر الصدر، الذي قتلته عصابة البعث الحاكمة في بغداد على يد السفّاح طاغية عصره وقاتل شعبه الطاغية صدام حسين عام (١٤٠١) للهجرة.

وتحقيرهم وعدم الاعتراف بهم، الأمر الذي أدّى إلى تراكم حالة الإنكار والإحباط وضعف الثقة بإمكانية التغيير).

نعم.. هذه هي الحقيقة المرّة في تاريخ العراق الماضي والمعاصر. فإذا استثنينا عدة سنوات نال فيها شيعة العراق شيئاً من حريتهم، فإن أربعة عشر قرناً مضت على شيعة العراق ـ وهم الأكثرية الساحقة ـ دون أن ينالوا حقاً من حقوقهم المذهبية فضلاً عن السياسية، بل كانت السلطات الحاكمة تنظر إليهم باعتبارهم من العَجم ومواطنين من الدرجة الثانية في أحسن الأحوال!

كان هذا هو الواقع منذ العهد الأموي، ثمّ العبّاسي، ثمّ العثماني، ومروراً بعهد الاحتلال البريطاني للعراق، ثمّ استقلال العراق على العهد الملكي، وانتهاءاً بالحكم الجمهوري. وحتّى حكومة العصابة السوداء الحاقدة على الشعب والإسلام والتشيّع خاصة، وهي حكومة البعث الصليبي الجاثم على أرض العراق وشعبه منذ عام (١٩٦٨م).

إن من غير الممكن أن أقدّم صورة شاملة ومستوعبة لمدى الظلم الذي تعرض له شيعة العراق في العصر الحاضر على يد الطغمة البعثية الحاكمة، ولا أنا بهذا الصدد في هذه المقدمة، إلاّ أن السجل الحافل بتصفية علماء ومراجع الدين الشيعة، والقتل الجمعي لعشرات الآلاف من أبناء هذه الطائفة، واصدار قرارات بمنع الكتاب الشيعي حتّى على مستوى (الصحيفة السجاديّة) للإمام زين العابدين عليه السلام، والاعلان عن حفلات الرقص الساهرة في يوم عاشوراء حيث مقتل الإمام الحسين عليه السلام سيد شباب أهل الجنّة لمزيد النكاية بالشيعة وجرح عواطفهم،

وتهجير عشرات الآلاف منهم، واحتجاز أبنائهم لأكثر من عشرين عاماً، ثمّ تصفيتهم بتجارب كيمياوية وغيرها مما عرف به نظام البعث.

هذه وأمثالها من الأرقام كافية لتوضيح بعض الأبعاد من الظلامة التي تعرض لها شيعة العراق.

وأخيراً أصبحت الحرب معلنة ضد الشيعة وعبر الصحف الرسمية وفي غاية من الوقاحة والجرأة والسماجة.

هكذا صحيفة بابل (التي يشرف عليها عدي ابن الطاغية صدام) تتحدّث عن الشيعة باعتبارهم أولاد حرام، وأصحاب الاباحية الجنسيّة، وتتحدّث عن مراقد الأئمّة الأطهار لأهل البيت عليهم السلام باعتبارها أخصب مكان للاختلاط الجنسي، وغير ذلك مما يندى له الجبين.[1]

وكانت صحيفة الثورة الرسمية قبلها قد تحدّثت بما هو أبشع من ذلك، فيما كان شعار الحزب الحاكم هو (لا شيعة بعد اليوم) حينما واجه انتفاضة الشعب الأبيّة في (١٥) شعبان (١٤١١هـ) المصادف لشهر أذار عام (١٩٩١م)، والتي كان لشيعة العراق الدور الأكبر فيها.

المؤلّف يمثّل نموذجاً:

الحقيقة أن المؤلف وهو أحد رموز العلم والمنبر في العراق يمكن اعتباره أفضل نموذج لتمثيل مستوى النضال الشيعي الذي قاده رجال الحوزة العلمية على المستوى العلمي والسياسي معاً، كما يمثل من ناحية أخرى صورة عن مدى الظلم والاضطهاد الذي تعرض له أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم في العراق.

---

(١) أنظر: صحيفة بابل في عددها الصادر في العاشر من نيسان (٢٠٠٢م).

وقد عكف المؤلف أكثر من خمسين عاماً من عمره على البحث والتأليف دفاعاً عن الدين والمذهب، وصدرت له مؤلفات وبحوث موسوعيّة ضخمة أشهرها: (مسند الإمام عليّ عليه السلام) و(شرح رسالة الحقوق) و(الجواهر الروحيّة).

ولقد كنّا نشهده وقد انقطع إلى التأليف، مُعرضاً عن شؤون الدنيا، بعيداً عن التواصل الاجتماعي حتّى مع خيرة أصدقائه، ولا تقطعه عن الكتاب والقلم إلاّ زيارة يوميّة ـ بعد الظهر ـ إلى مرقد جدّه أمير المؤمنين عليه السلام التي لم ينقطع عنها حتّى في أصعب الظروف الأمنيّة التي كانت تحيط بالنجف الأشرف.

ولقد كان يتعمّد أن يغيّر مساره إلى حرم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ابتعاداً عن عيون أزلام السلطة التي تلاحق الواردين والزائرين وحركة علماء الدين خاصة. ولقد كان يسأل الله تعالى ويلحّ عليه بالسؤال أن لا يقع في قبضتهم، ولا يعطيهم تصريحاً واحداً في تأييدهم، وقد استجاب الله دعاءه. وذات يوم إذ كانت قوى الأمن تقتاد كل من تصطاده في طريقها من العلماء وطلاب العلوم الدينية لتجمعهم قهراً في مسجد (الجامع الهندي الكبير) بهدف تصويرهم تلفزيونياً وهم يدعون للنظام الحاكم ورئيس السلطة المجرم (صدام حسين)، شاء الله تعالى أن يجنب العلامة الشهيد المؤلف ذلك، إذ كان قد اختار طريقاً آخر إلى مرقد أمير المؤمنين عليه السلام غير الطريق الذي يؤدي به إلى (جامع الهندي)، وبقي المؤلف أحد القلائل جداً الذين لم تصدر منهم كلمة واحدة يمكن أن يوظفها النظام الحاكم لصالحه.

لقد قدّم العلامة القبانچي أربعة من أولاده شهداء في طريق العقيدة والمذهب، فيما دخل السجن لأكثر من ثلاث مرات. وكانت شهادته في المرّة الرابعة التي داهمت فيها قوى السلطة مدينة النجف الأشرف واعتقلت أكثر من مائة من علمائها وفضلائها لم تزل أخبارهم مغيبّة أكثر من أثني عشر عاماً، فيما ينقل بعض الرواة أنهم قد قتلوا قتلاً جماعياً في أطراف المدينة، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[١].

وختاماً أتقدّم بالشكر الجزيل لأخي العزيز سماحة السيّد محمّد القبانچي على جهوده المتميّزة في إخراج هذا الكتاب إلى عالم النور سائلاً المولى تعالى المزيد من التوفيق له والسداد.

السيّد صدر الدين القبانچي

١٠/ شعبان/ ١٤٢٣هـ

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

بسم الله خير الأسماء

مقدّمة المؤلّف:

«الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم من عموم نِعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، جمّ عن الاحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها».[1]

والصلاة على رسوله محمّد ﷺ نبي الرحمة، وإمام الأئمّة، وسراج الأمّة، المنتخب من طينة الكرم، وسلالة المجد الأقدم، ومغرس الفخار المُعرقِ، وفرع العلاء المثمر المورق.

وعلى أهل بيته مصابيح الظُلَم، وعصم الأمم، ومنار الدين الواضحة، ومثاقيل الفضل الراجحة، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

وبعد... فيقول الفقير إلى عفو ربه ورضوانه، حسن السيد عليّ القبانچي النجفي: بعد الفراغ من كتابي (الحكمة والحكماء)[2] سنح في الخاطر أن أجمع بعض الشروح عن الكلمات القصار الحِكَمية الصادرة عن مولانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، المتفرقة في مضامين الكتب، في كتاب واحد؛ ليسهل على الطالب تناولها، ولكي يستضيء بنور وحيها، وأسميته (أنوار الحِكَم ومحاسن الكَلِم)، وزدت فيه ما يتسنّى لي حسب ما يناسب الموضوع.

---

(١) من خطبة للزهراء عليها السلام.

(٢) ما زال الكتاب مخطوطاً.

إن الكلمات الحكمية الصادرة عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام هي نهاية الفصاحة، وغاية البلاغة، من حيث عذوبة ألفاظها، وغرابة مضامينها، وجزالة معانيها، مع ما عليها من البهاء والجلالة والرواء، وما حوته من الحكم والعبر، التي تشرق بها مصابيح للأمم في طرق التربية والعِظة، ونسبتها إلى الكلمات الفصيحة نسبة الكواكب النيرة إلى الحجارة المظلمة.

إن هذه الكلمات الحكمية الشهية على الأذن والذوق جميعاً لم تجتمع لأحد كما اجتمعت للإمام عليّ عليه السلام، فإنشاؤه مثلٌ أعلى للبلاغة بعد القرآن، فهو موجز على وضوح، قوي جيّاش تام الانسجام، لما بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من ائتلاف، حلو الرنّة في الأذن، موسيقي الوقع.

وهي مما تتقاصر عن شأوها ملكات العظماء من بلغاء الناس، ثمّ هي في فيضها العربي الرائع أعجوبة اللغة في سعتها وروعتها، وإنّ من أروع وجوه الامتياز في البلاغة العلوية إشعاعها الخاص إلى المعاني الكثيرة، باللفظ القليل، فتارة بالتصريح وأخرى بالتلويح، ومن هنا اتصالها الكثير بالنبوءات الصادقة التي لا يفارقها الاعجاز.

ولا غرابة فإنّ عليها مسحة من نور النبوة وعبقة من أوج الرسالة.

وصادرة من باب مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله وباب حكمته، وأفصح الخلق من بعده منطقاً، وأشدّهم اقتداراً، وأبرعهم حجة، وأمكنهم لغة، يديرها كيف شاء وأنىّ شاء.

وهو الحكيم الذي تصدر الحكمة عن بيانه، والخطيب الذي يملؤ القلب سحر لسانه، والعالم الذي تهيأ له من خلاط الرسول، وكتابة الوحي، والكفاح عن الدين بسيفه وسنانه، منذ حداثته، ما لم يتهيأ لأحد سواه.

قال ابن أبي الحديد في المجلد الرابع من شرح نهج البلاغة (ص ٥٤): (فسبحان الله من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة!، أن يكون غلام من أبناء عرب مكّة، ينشأ بين أهله، لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من إفلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية؛ لأن قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط، ولم يربَّ بين الشجعان، لأنّ أهل مكّة كانوا ذوي تجارة ولم يكونوا ذوي حرب، وخرج أشجع من كلّ بشر مشى على الأرض.

قيل لخلف الأحمر: أيّما أشجع عنبسة وبسطام، أم عليّ بن أبي طالب عليه السلام؟

فقال: إنما يذكر عنبسة وبسطام مع البشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة.

فقيل له: فعلى كل حال.

قال: والله لو صاح في وجوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما.

وخرج أفصح من سحبان وقُس[1] ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها، قالوا: أفصح العرب جرهم وإن لم تكن لهم نباهة. وخرج أزهد الناس في الدنيا، وأعفّهم، مع أنّ قريشاً ذوو حرص ومحبة للدنيا. ولا غرو فيمن كان محمّد صلى الله عليه وآله مربيه ومخرجه، والعناية الإلهية تمده وترفده أن يكون منه ما كان).[2]

---

(١) سحبان بن وائل وقس بن ساعدة من فصحاء العرب المشهورين.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦: ١٤٦.

ثم يعود فيقول في باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام:

(إعلم أن هذا الباب من كتابنا كالروح من البدن، والسواد من العين وهو الدرّة المكنونة التي سائر الكتاب صدفها).[1]

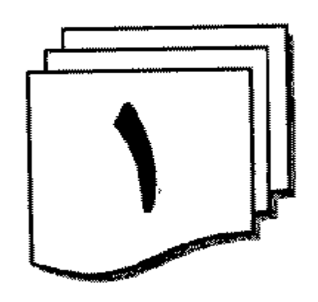
ولنرسم الآن صورة موجزة مختارة من كثير وكثير مما تناقلته الأسانيد المتفاوتة في الثقة من روائع حِكَم الإمام عليه السلام التي ستبقى ما بقي الإنسان، مع شروحها، ومع مالنا فيها من زيادة مباحث واطلاعات وسيعة لا يُستغنى عنها، ومن الله تعالى نستمد العناية والتوفيق.

السيد حسن القبانچي

(١٤٠٤هـ)

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٣.



قوله عليه السلام:

كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ لا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ، وَلا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ.

(نهج البلاغة ٤: ٣)

[الفتنة وأبعادها الاجتماعية]

ضبط الألفاظ اللغوية:

ابن اللبون ـ بفتح اللام وضمّ الباء ـ: ولد الناقة الذكر إذا استكمل سنتين ودخل في الثالثة.

قال ابن عبده: ابن اللبون: ابن الناقة إذا استكمل سنتين، لا له ظهر قويّ فيركبونه، ولا له ضرع فيحلبونه، يريد تجنب الظالمين في الفتنة لا ينتفعوا بك.

* * *

قال ابن أبي الحديد: ابن اللبون: ولد الناقة الذكَر إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة، واللبون من الإبل والشاة ذات اللبن غزيرة كانت أو بكيئة.

وابن اللبون لا يكون قد كمل وقوي ظهره على أن يركب، وليس بأنثى ذات ضرع فتحلب، وهو مطرح لا ينتفع به.

وأيام الفتنة، هي أيام الخصومة والحرب بين رئيسين ضالّين، يدعوان كلاهما إلى ضلالة؛ كفتنة عبد الملك وابن الزبير، وفتنة مروان والضحاك، وفتنة الحجاج وابن الأشعث، ونحو ذلك.

فأما إذا كان أحدهما صاحب حقّ فليست أيام فتنة، كالجمل وصفين ونحوهما، بل يجب الجهاد مع صاحب الحق، وسلّ السيف والنهي عن المنكر، وبذل النفس في إعزاز الدين وإظهار الحق.

يقول عليه السلام: احمل نفسك أيام الفتنة وكن ضعيفاً مغموراً بين الناس، لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك، ولا تنصر هؤلاء.[1]

* * *

قال ابن ميثم: ابن اللبون: ولد الناقة إن استكمل سنتين ودخل في الثالثة؛ لأن أمّهُ على الأغلب قد وضعت ولداً غيره، فهي ذات لبن.

وقد أمر عليه السلام أصحابه أن يتشبّه أحدهم في زمن الفتنة بابن اللبون، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: «لا ظهر له...» إلى آخره، وأراد أنه يكون في زمانها خامل الذكر، ضعيفاً غير مستكثر في المال، كيلا يصلح لمعاونة الظالمين بنفسه ولا بماله، ولا ينتفع به في الفتنة، كابن اللبون لا ينفع بظهره ولا بلبنه.[2]

* * *

وفي (الدرة النجفية):

ابن اللبون: ابن الناقة الذكر إذا استكمل سنتين ودخل في الثالثة؛ لأن أمّهُ في الأغلب تضع غيره، فتكون ذات لبن.

أمر عليه السلام أصحابه في زمن الفتنة أن يتشبه أحدهم بابن اللبون، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: «لا ظهر...» إلخ، وابن اللبون لا يكون قد كمل وقوي ظهره على أن يركب، وليس بأنثى ذات ضرع فتحلب، وهو مطرح لا ينتفع به، وأيام الفتنة: هي أيام الخصومة والحرب بين رئيسين

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٨٢.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٣.

ضالين يدعوان كلاهما إلى ضلالة، كفتنة عبد الملك وابن الزبير، وفتنة الحجاج وابن الأشعث، ونحو ذلك، فأمّا إذا كان أحدهما صاحب حق فليست أيام فتنة كالجمل وصفين ونحوهما، بل يجب الجهاد مع صاحب الحق وسلِّ السيف والنهي عن المنكر، وبذل النفس في إعزاز الدين وإظهار الحق.

* * *

[معاني الفتنة]:

وفي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[(١)]

(الفتنةَ) الامتحان والاختبار، وقال الخليل: الفتن الإحراق، (ابن اللبون) وصف سنّي للبعير، وفي الصحاح: وابن اللبون ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة، والأنثى بنت لبون؛ لأنّ أمّهُ وضعت غيره فصار لها لبن.

المعنى:

فسّر الشّراح كلمة الفتنة على مفهومها العرفي: وهو الاضطراب الواقع بين جماعة، أو أمّة لغرض، والأكثر أن يكون سياسة أو وسيلة لكسب الإمرة والقوة، وحيازة مقام الإمامة.

وفسّروا الدستور: بتكلف الإنزواء والعزلة والخمول وعدم التدخل في الأمور، وخصّصها ابن أبي الحديد بالخصومة بين رئيسين ضالين يدعوان كلاهما إلى ضلالة، كفتنة عبد الملك وابن الزبير، وفتنة مروان والضحاك، وفتنة الحجاج وابن الأشعث، ونحو ذلك، قال: وأما إذا كان

---

(١) ج ٢١: ٧.

أحدهما صاحب حق فليست أيام فتنة، كالجمل وصفين ونحوهما؛ بل يجب الجهاد مع صاحب الحق.

أقول: المقصود من الفتنة أعمّ، والمراد من الدستور أمرٌ أتم، وليس غرضه عليه السلام الأمر بالانزواء والعزلة والاستراحة إلى الخمول والتغافل والغفلة، بل المقصود الحذر عن التعاون مع دعاة الفتنة وشدّ أزرهم في مقاصدهم الفاسدة ومحق الحق، سواء كانت الفتنة لغرض سياسي كما مثّل، أو لغيره كما في فتنة خلق القرآن في أيام المأمون، وسواء كانت لتخاصم بين ضالّين كما ذكر، أو تخاصم الحق والباطل، كفتنة السقيفة والجمل وصفين.

فالمقصود الحذر من إعانة المفتنين، وتأييد أغراض المبطلين.

وأمر عليه السلام بالتمسك بالحق في كلّ حين على ما يجب على المسلمين، ولا عزلة في الإسلام، ولا خمول للمسلم؛ بل يجب عليه القيام، كما قال عزّ من قائل في سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾[١] ولا مندوحة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل يجب الكفاح عن الحق بما تيسر في كل زمان ومكان.

* * *

وفي (ظلال نهج البلاغة)[٢] لمؤلفه العلامة محمّد جواد مغنية:

قوله عليه السلام: «كن في الفتنة كابن اللبون...».

اللبون من الإبل والشاء، هي ذات اللبن قلّ أو كثر، وابن اللّبون فصيل الناقة قبل أن يقوى ظهره للركوب، أو يصلح ضرعها للحليب.

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) ج ٤: ٢١٣.

وظهرٌ بالرفع اسم (لا) العاملة عمل ليس على مذهب الحجازيين، وخبرها محذوف والتقدير لا ظهرٌ صالحاً للركوب، ولا ضرعٌ صالحاً للحليب، والفعل المضارع هنا منصوبٌ بأن مضمرة بعد الفاء لوقوعها بعد النفي المحض مثل: (ما أعرف دارك فأزورك) أي: كي أزورك.

والمراد بالفتنة هنا الباطل، والمعنى: إذا رأيت باطلاً فلا تدخل فيه، أو إحذر من أهله أن يخدعوك ويستغلّوك في أغراضهم ومآربهم... وسكت الإمام في حكمته هذه عن الحق وأهله، وليس معنى سكوته عنه وعنهم أنّه ينهى عن الدخول في شأن المحقين ومناصرتهم، وأنّه يساوي بينهم وبين المبطلين...

كلاّ وألف كلاّ؛ لأنّ مثل هذا الكلام يقتصر فيه على دلالة المنطوق دون المفهوم. هذا إلى أن كلمات الإمام ووصاياه بنصرة الحق وأهله تجاوزت حدّ الإحصاء، من ذلك قوله لولديه الحسن والحسين عليهما السلام: «كونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً...» وذمه للذين لم يحاربوا الناكثين معه بأنّهم لم ينصروا الحق، ولم يخذلوا الباطل.

وخفي المعنى المراد من هذه الحكمة على كثير من الشارحين وخبطوا فيه، وفهموا منه أنّ الإمام أمرنا بأن نسكت أيام الفتنة ونعتزل إذا رأينا باطلاً يتّبعه قوم ويعارضه آخرون، حتّى أنّ بعض الشارحين قال: أراد الإمام أن يكون الإنسان أيام الفتنة ضعيفاً غير مستكثر من المال! ولا أعرف السبب الموجب لحشر المال هنا! وحاشا لله وللإمام الذي أوقف نفسه للحقّ، وضحّى بها في سبيله أن يأمر بالفرار من جهاد الباطل والفساد.

* * *

وفي المجلد الثاني من دين وتمدين (ص ١٩٢):[1]

ابن اللبون: الرضيع من الحيوان، والضرع من أمّه بمنزلة الثدي من المرأة.

ومعنى هذه الكلمة الجامعة الجليلة تحذيره عليه السلام من الدخول في الفتنة، وأن يكون المسلم منها كالرضيع من الحيوان لا يُرجى منه ركوبه ولا حليبه؛ لأنه وهو رضيع فاقد الأمرين.

[المقصود من الفتنة في الحديث]:

أمّا الفتنة فستكون مدار بحثنا في هذه الكلمة، فما هي الفتنة التي يعنيها الإمام؟ وكيف يفهمها المسلمون الأول؟ وهل نعتبر خلافه عليه السلام مع معاوية فتنة؟ ذلك ما أحببت أن يدور حوله البحث في هذه الكلمة:

الفتنة في الأصل: البلاء الذي يقع فيه الإنسان عن طريق العقل أو القلب، فالفتنة العقلية هي ثورة تنشب في جماعة أو شعب أو أمّة، يضلّ فيها العقل فلا يتبين عللها وأهدافها، فيهلك فيها، أو يذهب بعيداً عنها عملاً بقول الإمام: «لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب»، والفتنة القلبية هي ثورة في النفس تنشأ عن تأثر بجمال الحياة عن طريق العين والأذن، دون أن يتحكم بها العقل، فافتتان المرء بالمرأة أو بالمال أو بالولد أو بالمنصب، أو بأيّ غرض من أغراض الدنيا، هي من الفتن القلبية التي يجب على العاقل أن يفرّ منها. وافتتان الجماعة أو الشعب أو الأمّة

---

(١) لمؤلفه محمّد عليّ بن أمين... الحاروفي العاملي الحوماني (١٣١٦ - ١٣٨٣هـ)، شاعر أديب رحّالة، تفقه في النجف، ودرس العربية في مدرسة النبطية.. له عدة دواوين شعر.. توفي في بيروت ودفن في حاروف.

بالعصبيات للعنصر أو للقبيلة أو للبلد هي من الفتن التي يجب على العاقل أن يبرأ منها ويمكث بعيداً عنها.

أما الفتن التي تنشأ عن العصبية للحق في سبيل السلام العالمي وعن العصبية في سبيل الشهوات الدنيا.

كالفتنة التي نشأت عن عصبية عليّ بن أبي طالب عليه السلام للدين، وعن عصبية معاوية بن أبي سفيان للدنيا، وذهب ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين.

وكالفتنة التي نشأت عن تعصب عائشة وطلحة والزبير لشهواتهم الدنيا، وعن تعصب الإمام عليّ لرسالة محمّد صلى الله عليه وآله في إقامة نصاب العدل ونشر السلام في العالم، وذهبت ضحيتها كذلك.

أقول: أما هذه الفترة التي أدت إلى حروب ونزاع ديني وسياسي لا يزال قائماً حتّى اليوم، يأكل من قوة الإسلام وعزّه ما لو سلمت منه تلك النفوس والعقول، لاستمرت سيادة الإسلام العالم إلى نهاية العالم.

أقول: أما هذه الحروب فهي في جانب علي جهادٌ في سبيل الحق، يجب اتّباعه، وفي جانب غيره ممن خرجوا عليه فهي فتن يجب الفرار منها.

يؤلمني كثيراً أن أقرأ في تاريخ الإسلام أن أمثال عبد الله بن عمر، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قد تخلّفوا عن عليّ عليه السلام في جهاد معاوية، يحسبون أن القتال بينهما كان فتنة؛ ففرّوا منها، وهكذا قعد كثير من الصحابة وتابعيهم عن نصرة الحسين بن عليّ عليهما السلام يوم ثورته على بغي معاوية وظلم يزيد يوم كربلاء، يحسبون هذه فتنة أيضاً ففرّوا منها.

ويؤلمني أكثر أن أقرأ في هذا التاريخ أنّ عبد الله بن عمر ندم بعد قتل عليّ واستتباب الأمر لمعاوية، وبعد قتل الحسين واستكانة السلطان لابنه يزيد، يؤلمني أن أقرأ أن هذا الصحابي الجليل ندم بعد ذلك على عدم جهاده مع الإمام عليّ، وقصوره عن نصرة ابنه الحسين.

[عائشة وفتنة يوم الجمل]:

والذي هو أشد إيلاماً وحزازةً في نفسي أن أقرأ أن عائشة ندمت بعد قتالها عليّاً وتابت (على ما يُزعم) وخرجت يوم بلغها قتل عليّ إلى قبر الرسول تبكي وتعزيه بأخيه (على ما زُعم)، ثمّ هي لم تنبس[1] بكلمة واحدة طوال أيّامها على عهد معاوية، وهكذا نجد عبد الله بن الزبير بعد أن رأى طغيان معاوية وخروجه على الحق في قتاله عليّاً، نجده يخنس ويتربص ريثما تواتيه الفرص لاغتنامها في طلب الخلافة، بينما نجده قد خنس بعد قتل عليّ، وحبس نفسه على الجبن والذلة أيام الطاغية معاوية، وقد كان الشجاع المشيع يوم الجمل، وكان الناقم على أبيه الزبير لأنه ترك قتال علي ورجع تائباً.

وأما عبد الله بن عمر، هذا الذي يذكر التاريخ أنّه كان أحد الأبدال في صدر الإسلام، والذي تورّع ـ وهو ابن الخليفة عمر ـ عن أن يطمع بالخلافة، وأنّ أباه يوم قيل له: ليكن ابنك الخليفة بعدك، فقال: لايليها اثنان من آل الخطّاب، وقد امتثل لأبيه ولم يطمع بها، أمّا هذا عبد

---

(١) لا تنبس: لا ترغوا، كما في الصحاح ٣: ٨٨٥؛ لسان العرب ٥: ٣٧٧. وقيل أصل النبس الحركة، والنابس المتحرك، ولم يستعمل إلاّ في النفي نحو: لا تنس، كما جاء في الفائق لغريب الحديث للزمخشري: ٢٧٤.

الله، هذا التقي الورع الزاهد، فيتخلف عن علي في جهاده معاوية، ولعله أعرف من أبيه بعليّ ومعاوية، يترك علياً وقد سمع أباه يقول: «لو لا علي لهلك عمر»،(١) وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أبيه يقول: «أقضاكم عليّ»،(٢) ويقول: «عليّ مع الحق والحق مع عليّ».(٣)

أقول: إنّ عبد الله هذا يتخلف عن عليّ ثمّ يتخلف عن ابنه الحسين، وقد سمع قول الرسول فيه: «حسين مني وأنا من حسين»،(٤) وقوله فيه وفي أخيه الحسن: «إنهما سيدا شباب أهل الجنّة»،(٥) ثمّ لم يكتف بهذا الجفاء وهذا التنكر للحق حتّى أنكر على بعض جلسائه لعن يزيد قاتل الحسين.

وعائشة هذه بضعة أبي بكر الصديق الذي أنفد حياته في صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وتعزيز رسالته، وزوجة رسول الله القائل في نسائه وهي بينهن: «أيتكنّ صاحبة الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحوأب، ثمّ يضرب بيده على فخذها ويقول: إيّاك أن تكونيها يا حميراء».(٦)

أقول: إنّ عائشة هذه الحبيبة إلى قلب الرسول تسمعه وهو يقول: «أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها»(٧) ويقول: «عليّ منّي وأنا من عليّ»،(٨) وتراه يوم المباهلة

---

(١) أنظر: شرح نهج البلاغة ١: ١٨ و١٢: ٢٠٥؛ ينابيع المودة ١: ٢١٦؛ الغدير ٣: ٩٧.
(٢) أنظر: شرح نهج البلاغة ١: ١٨ و٧: ٢١٩؛ مناقب آل أبي طالب ١: ٣١٢.
(٣) أنظر: أمالي الصدوق: ١٥٠؛ شرح نهج البلاغة ٢: ٢٩٧؛ مجمع الزوائد ٧: ٢٣٥.
(٤) الإرشاد: ١٢٧؛ سنن الترمذي ٥: ٣٢٤.
(٥) أمالي الطوسي: ٣١٢؛ مسند أحمد ٣: ٣.
(٦) أنظر: شرح نهج البلاغة ٦: ٢١٨.
(٧) أمالي الصدوق: ١٨٨؛ البحار ٤٠: ٢٠١.
(٨) أمالي الصدوق: ٧٥٧؛ سنن الترمذي ٥: ٣٠٠.

يختار من نسائه فاطمة، ومن رجاله عليّاً، ومن أبنائه الحسن والحسين، عائشة هذه التي لبثت السنين الطوال بين يدي رسول الله ﷺ وهي ترى مكانة عليّ من نفس محمّد، وتسمع أقوال محمّد في مكانة علي هذه.

أقول: إنّ عائشة هذه تخفّ بدون تورع إلى إنشاء الفتنة، ثمّ بعد أن أريقت دماء عشرات الألوف من المسلمين بسبب فتنتها، وبعد أن اعترفت بخطئها وتابت (كما زُعم)، وبعد أن وقعت الأمّة بفتنة معاوية بعد فتنتها، خنست أيضاً ولزمت السكوت، فلم تُسمع لها كلمة واحدة تثبت فيها أنها جديرة بالثورة للحق على الباطل، وأنّها إن أخطأت في ثورتها على عليّ، فلن تخطيء في ثورتها على معاوية، سيّما وأنها قد زارت قبر رسول الله لدى سماعها بمقتل علي لتعزّيه به، والعجب كل العجب من أنّا ننتحل لها العذر في فتنتها بالثورة على عليّ وهو خليفة مفترض الطاعة، ثمّ لا نلومها في الصمت والخنس عن أن تقول كلمتها في فتنة معاوية، وهي جدّ عليمة بأنه فيها على غير حق.

هذه عائشة التي أثبتت أنها فوق الرجال في إثارة الفتن بقيادتها ثلاثين ألفاً يوم الجمل، وأنها فوق الرجال في استحقاقها قول الرسول (كما زُعم): «خذوا دينكم عن هذه الحميراء»[1] كما يرويه عامة المسلمين.

هذه عائشة التي هي كذلك، وهذا عبد الله بن عمر الذي ورث عن أبيه الورع والزهد والتقوى، وهذا الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري الذي فاز باختيار جيش العراق ليكون أحد الحكمين بين عليّ ومعاوية في الهدنة لاختيار أحدهما خليفة للمسلمين.

---

(١) رواه الترمذي في المناقب ٥: ٧٦٠/ ح٣٨٨٥، ورووه عنه بلفظ: «خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء».

[فتنة معاوية]:

أقول: إنّ هؤلاء الأعلام وغيرهم كثير من الصحابة لم يهتدوا إلى أنّ ثورة عليّ عليه السلام جهاد في سبيل الحق، وإنّ ثورة معاوية فتنة في سبيل الباطل؛ لذلك عدّوا القتال بينهما فتنة يجب على المسلمين تحاميها والفرار منها، وفي صميم عقيدتهم أن عليّاً محق ومعاوية مبطل.

والأعجب من هذا كله أنّا نحن المسلمون، حتّى عهدنا الحاضر الذي هو عهد تحرر وتبصّر، وعهد علوم وفنون، نكشف كلّ معمى من عَمهٍ في القلب وعمى في البصر.

أقول: الأعجب من ذلك أنّا في هذا العصر نتابع البله من أوائلنا في إقامة هؤلاء جميعاً على عذر فيما خرقوا به ناموس الحق المنزل على محمّد من ربّ محمّد، واعتبارهم مجتهدين أخطأوا فيما فعلوا، فهم مأجورون على ذلك، ونجيز الرضى عنهم وطلب الرحمة لهم، والتجاوز عن هناتهم، ثمّ لا نجيز لأنفسنا الاجتهاد ولو في التنكّر لما فعلوه، والنقمة على ما اقترفوه من سفك الدماء البريئة والجرأة على الله في ذلك كله.

لمَ لا نكون نحن مجتهدين أيضاً فيما نقترفه من آثام تتصدع لها الجبال وتخزى منها الأرض، وتصب اللعنة من السماء، كالخروج على الخليفة العادل، وسفك الدماء البريئة، وتشريع الكفر، ثمّ نكون بعد ذلك مأجورين لأنّا قد اجتهدنا فأخطأنا، وللمجتهد المخطئ أجر واحد؟ وهل معاوية أولى منّا بالاجتهاد؟ وكيف؟ أليس الاجتهاد إلماماً بالعلوم؟ وهل كان معاوية أكثر إلماماً بالعلوم منّا اليوم؟ وبماذا كان عالماً؟ أفي الدين! وقد هتك حرمات الدين، وخالف إجماع الأمّة في الخروج على الدين؟ أو كان مجتهداً في علم السياسة، وقد سنّ فيها الكذب والنفاق والغدر والخداع؟

أعجب من هؤلاء البهائم الذين يقرّون اجتهاد معاوية فيما فعل، ويقررون القاعدة الشرعية: أن للمجتهد أجرين إذا أصاب، وأجراً واحداً إذا أخطأ، ثمّ يغفلون عن أن هذا الحكم مشروط بالقول المأثور:

«لا اجتهاد في مورد النص».

فكيف يجتهد معاوية ونص الكتاب والسُّنّة يصفعه ويصفع من يتبعه؟!

أليس في الكتاب قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ﴾[1] أوليس في الحديث الصحيح: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية»[2] إذن فالفئة الباغية هي جماعة معاوية؛ لأنها قتلت عماراً، فأين إذن صحة نسبة الاجتهاد إلى معاوية بعد هذا كله؟

وإذن فالفتنة التي ينهى الإمام عن دخولها، في كلمته بين يدي هذا البحث، والتي ينهى الله عنها في قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[3] إنما هي الفتنة التي تقوم على غير حق، كفتنة معاوية.

وأما قتال عليّ عليه السلام له فهو جهاد يجب على كل من بلغه أن يدخل فيه، فالدخول مع معاوية دخول في فتنة يجب اجتنابها، والدخول مع علي دخول في جهاد يجب العمل به.

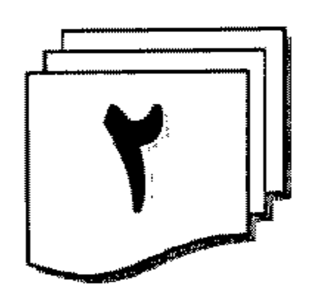
* * *

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) البخاري ٣: ٢٠٧؛ مسند أحمد ٣: ٩١.

(٣) الأنفال: ٢٥.



قوله عليه السلام:

أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ.

(نهج البلاغة ٤: ٣)



[الطمع وتداعياته النفسية]

ضبط الألفاظ اللغوية:

في (الصحاح) يقال: (أزريت به) إذا قصرت به، وأزريته، أي: حقّرته،[1] (واستشعر) فلان خوفاً، أي: أضمره،[2] (طمع) فيه طمعاً وطماعة وطماعية مخفّف فهو طمعٌ،[3] (الضر) بالضم: الهزال وسوء الحال.[4]

قال محمّد عبده:

أزرى بها: حقرها، واستشعره: تبطنه وتخلّق به، ومن كشف ضره للناس ودعاهم للتهاون به، فقد رضي بالذل، وأمّر لسانه: جعله أميراً.[5]

* * *

قال ابن أبي الحديد: هذه ثلاثة فصول:

(الفصل الأول): في الطمع، قال عليه السلام: «أزرى بنفسه»، أي: قصّر بها، من استشعر الطمع، أي: جعله شعاره، أي: لازمه، وفي الحديث

---

(١) الصحاح ٦: ٢٣٦٨.

(٢) الصحاح ٢: ٦٩٩.

(٣) الصحاح ٣: ١٢٥٤.

(٤) الصحاح ٢: ٧٢٠.

(٥) نهج البلاغة ٤: ٣ (شرح محمّد عبده).

المرفوع: «إن الصفا الزلال الذي لا يثبت عليه أقدام العلماء الطمع»، وفي الحديث أنه قال للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع» أي: عند طمع الرزق، وكان يقال: أكثر مصارع الألباب تحت ظلال الطمع، وقال بعضهم: العبيد ثلاثة: عبد رق، وعبد شهوة، وعبد طمع، وسُئِل رسول اللّه ﷺ عن الغنى، فقال: «اليأس عمّا في أيدي الناس، ومن مشى منكم إلى طمع الدنيا فليمش رويداً».

وقال أبو الأسود:

ألبس عدوك في رفق وفي دعة ... طوبى لذي إربة للدهر لبّاس

ولا تَغرّنّك أحقاد مزملة ... قد يركب الدبر الدامي بأحلاس

واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... إن الغني الذي استغنى عن الناس

قال عمر: ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

وفي الحديث المرفوع: «الطمع الفقر الحاضر».

قال الشاعر:

رأيت مخيلة فطمعت فيها ... وفي الطمع المذلة للرقاب

(الفصل الثاني): في الشكوى، قال عليه السلام: «من كشف للناس ضرّه» أي: شكى إليهم بؤسه وفقره «فقد رضي بالذل»، كان يقال: لا تشكون إلى أحد، فإنه إن كان عدواً سرّه، وإن كان صديقاً ساءه، وليست مسرة العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة.

سمع الأحنف رجلاً يقول: لم أنم الليلة من وجع ضرسي، فجعل يكثر، فقال: يا هذا لِمَ تكثر؟ فو الله لقد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة فما شكوت ذلك إلى أحد، ولا أعلمت بها أحداً.

(الفصل الثالث): في حفظ اللسان، وكان يقال: حفظ اللسان راحة الإنسان. وكان يقال: رُبَّ كلمة سفكت دماً، وأورثت ندماً. وفي الأمثال العامية: قال اللسان للرأس: كيف أنت؟ قال: بخير لو تركتني.

وفي وصية المهلب لولده: يا بنيّ،تباذلوا تحابّوا، فإنّ بني الأعيان يختلفون فكيف ببني العلات، إنّ البرَّ ينسأ في الأجل ويزيد في العدد، وإنّ القطيعة تورث القلة وتعقب النار بعد الذلة، اتقوا زلّة اللسان. فإنّ الرجل تزل رجله فينتعش، ويزلّ لسانه فيهلك.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

يموت الفتى من عثرة بلسانه   وليس يموت المرء من عثرة الرجل[1]

* * *

قال ابن ميثم البحراني:

قوله عليه السلام: «أزرى بنفسه من استشعر الطمع»: وهو تنفير عن الطمع المضاد لفضيلة القناعة، بذكر ما يستلزمه من التهاون بالنفس والازدراء لها. وذلك أن الطمع بما في أيدي الناس يستلزم الحاجة إليهم والخضوع لهم، وهو يستلزم الهوان عليهم وسقوط المنزلة، واستعار وصف الاستشعار لملازمة الطمع ومباشرته للقلب، كالشعار للجسد.

وقوله عليه السلام: «ورضي بالذلّ من كشف ضُرّه»: وهو أيضاً تنفير للإنسان عن شكاية فقره وضرّه للناس بذكر ما يلزم ذلك من المذلة والرضى به.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٨٤.

وقوله عليه السلام: «وهانت عليه نفسه من أمّر عليها لسانه»: وهو تنفير للإنسان عن الاكثار في القول من غير تدبّر ومراجعة لعقله، بما يلزم ذلك من هوان نفسه عليه، أما في الدنيا فلأنّ زيادة القول قد يكون سبباً للهلاك، وإليه أشار القائل:

احفظ لسانك أيّها الإنسان ... لا يَلدَغَنَّك إنّه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الأقران

وأما في الآخرة فلقوله صلى الله عليه وآله: «وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم» ولنفس الإنسان عليه أعظم من هلاكها، واستعار وصف التأمير لتسليط اللسان على ما يؤذي النفس من غير مراجعتها، فكأنّها صارت محكومة له.[1]

* * *

وفي (في ظلال نهج البلاغة):[2]

قوله عليه السلام: «أزرى بنفسه من استشعر الطمع».

[الطمع ضد القناعة]:

الطمع ضد القناعة، ولكن كثر استعماله ضد المروءة والورع حتّى صار حقيقة فيه، أما حكمه فيقاس بآثاره ونتائجه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقول الإمام عليه السلام: «من استشعر الطمع» معناه: من اتخذه ديناً له

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٣.

(٢) ج ٤: ٢١٤.

وديدناً. بحيث لا يلتزم بشيء إلاّ على أساس منفعته الخاصة. ومن كان كذلك فقد حقّر نفسه بنفسه؛ لأنّ الإنسان يقاس بأهدافه وأمانيه. ومن كانت همّته بطنه كانت قيمته ما يخرج منها، كما قال الإمام.

وقد يُبتلى الإنسان بمرض أو فقر أو غيرهما من الآفات، وما من شكٍ أن المرض بلاء والفقر مصيبة، ولكن الكشف والإعلان عنهما وعن أية آفة فضيحة، وقديماً قيل: الشكوى لغير الله ذل... وأيّة جدوى من الشكوى إلى الناس ما دامت لا تدفع ضراً، ولا تجلب نفعاً، وتسوء المحب وتسرّ المبغض؟ وأيضاً لا جدوى من أمر المبتلى وحثّه على الصبر وكتمان العلة إلاّ إذا كان ذا عقل رزين؛ لأنّ الصبر على قدر العقل.

والشكوى من مقولة الكلام وصفاته، ولذا عقّبها الإمام بالإشارة إلى اللسان، وقال مجرب حكيم:

يتنازع لسانك عقلك وهواك، فإن غلب الأوّل فهو لك، وإن غلب الثاني فهو عليك، فلا تطلق لسانك حتّى تعلم أنّ كلامه لك لا عليك.

* * *

وفي (جامع السعادات):[١]

(الطمع): هو التوقع من الناس في أموالهم، وهو أيضاً من شعب حبّ الدنيا ومن أنواعه، ومن الرذائل المهلكة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إيّاك والطمع فإنه الفقر الحاضر» وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «استغن عمّن شئت تكن نظيره، وارغب إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره»، وقال الباقر عليه السلام: «بئس العبد عبد له طمع يقوده،

(١) ج ٢: ٨٢

وبئس العبد عبد له رغبة تذله»، وقيل للصادق عليه السلام: ما الذي يثبت الإيمان في العبد؟ قال: «الورع، والذي يخرجه منه الطمع».

* * *

وفي (الدرة النجفية):

قوله عليه السلام: «أزرى بنفسه من استشعر الطمع...» والإزراء التهاون بالشيء، واستعار وصف الإستشعار لملازمة الطمع ومباشرته للقلب كالشعار للجسد، وهو تنفير عن الطمع المضاد لفضيلة القناعة بذكر ما يستلزم من التهاون بالنفس والإزدراء بها، وكان يقال: أكثر مصارع الألباب تحت ظلال الطمع...».

وقوله عليه السلام: «رضي بالذل من كشف ضره» هو أيضاً تنفير للإنسان عن شكاية فقره وضره للناس بذكر ما يلزم ذلك من المذلة والرضى، وكان يقال: لا تشكون إلى أحد، فإنه إن كان عدواً سرّه، وإن كان صديقاً ساءه، وليست مسرة العدو ولا اساءة الصديق بمحمودة».

* * *

وفي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):

قوله عليه السلام: «أزرى بنفسه من استشعر الطمع...».

(الطمع): توقع ما لا يستحق، أو ما ليس بحق، فقد يكون مباحاً كطمع الجائزة من الأمراء والهبة من الأغنياء، وقد يكون أمراً محرّماً كالطمع فيما لا يحلّ له من مال أو جمال، وهو مذموم وممنوع أخلاقاً. وهو من الصفات العامة قلما يخلو منه إنسان إلاّ من ارتاض نفسه، وأزال أصل هذه الصفة الذميمة عن نفسه، فإنه من لهبات الشهوة الكامنة في الطبائع الإنسانية.

وقد اشتهر أشعب (أحد التابعين) بهذه الصفة، ونسب إليه مطامع عجيبة إلى حدّ السخف والسفه.

فمنها: أنه اجتمع عليه الصبيان يؤذونه، فأراد تفريقهم وطردهم، فأشار إليهم إلى بيت أنه يقسم فيه الحلوى، فشرعوا يركضون نحوه، وركض معهم، فقيل له في ذلك، فأجاب أنّه ربما يكون صادقاً.

ومنها: أنه إذا مشى تحت السماء يبسط طرف ردائه، فسُئل عن ذلك؟ فقال: عسى أن يبيض طائر في الهواء فتقع بيضته في طرفي.

فالطمع بما في أيدي الناس يستلزم الخضوع لهم، ويجرّ الهوان وسقوط المنزلة عندهم وعند الله.

وقد ورد في ذم الطمع أخبار وأحاديث كثيرة.

ففي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام: «بئس العبد عبد له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذلّه».

وهو مع ذلك يوجب تنفير الناس ومذلة عندهم، انتهى.

* * *

الطمع:

أقول: إن القانع أبداً عزيز، وأما الطامع فهو أذل من عبد الرق؛ لأنه يعبد شهوته، يقول الإمام عليه السلام: «عبد الشهوة أذلّ من عبد الرق».[1]

فالذي يطمع في شيء ينشده ويضحّي في سبيله بأفضل ما عنده من كرامات، هذا هو الذلّ الذي لا يخضع الإنسان بين يديه إلاّ وهو تراب.

---

(١) عيون المواعظ والحكم: ٣٤١؛ شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣٤٢.

وهذا أقسى ما يصرع العقل، ويهدم الشرف، ويحطّ الكرامة؛ لأنّه لا يملك من أمره إلاّ أنه مملوك لهواه، ولقد صدق إمام البلغاء حيث يقول: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»[١] وصدق عليه السلام في قوله: «العزة في القناعة، والذلّ في الطمع».[٢]

والأخبار في ذم الطمع كثيرة، وكفى به ذماً أنّ كل طامع يكون ذليلاً مهيناً عند الناس، وأنّ وثوقه بالناس واعتماده عليهم أكثر من وثوقه بالله، إذ لو كان اعتماده على الله أكثر من اعتماده على الناس لم يكن نظره إليهم، بل لم يطمع من أحد شيئاً إلاّ من الله سبحانه.

ولا ريب أن الطمع من الأخلاق الذميمة، وفي المثل: «تقطع أعناق الرجال المطامع».[٣]

قال الشاعر:

تعفف وعش حراً ولا تكُ طامعاً فما قَطَع الأعناقَ إلاّ المطامعُ[٤]

أرسل عثمان بن عفان إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه كيساً من الدراهم مع عبد له، وقال: إن قَبل هذا فأنت حر، فأتى الغلام بالكيس لأبي ذر، وألحّ عليه في قبوله، فقال له: إقبل؛ فإنّ فيه عتقي، فقال: نعم، ولكن فيه رقيّ.[٥]

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٤٩.

(٢) في شرح نهج البلاغة ١٩: ٥٠: وقالوا: (عز من قنع، وذل من طمع).

(٣) من بيت لامرئ القيس، أنظر ديوانه: ١٨٦، وصدره: طمعت بليلى أن تريع وإنما...

(٤) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ٤١٣.

(٥) أنظر: شجرة طوبى ١: ٧٥.

[بواعث الطمع]:

والباعث للإنسان على الطمع شيئان: الشرَه، وقلّة الأنفة، فلا يقنع بما أوتي وإن كان كثيراً، ولا يستنكف بما مُنع وإن كان حقيراً، وهذه حال من لا يرى لنفسه قدراً، ويرى المال أعظم خطراً، وليس لمن كان المال عنده أجلّ ونفسه عليه أقلّ إصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب.

وروي أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أوصني، قال صلى الله عليه وآله: «عليك باليأس ممّا في أيدي الناس، وإيّاك والطمع فإنه فقر حاضر».[١]

قال عبد الله بن سلام لكعب: ما يذهب العلم من قلوب العلماء بعد إذ وَعوه وعقلوه؟ قال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوائج.[٢]

قال رجل للفضيل: فسِّر لي قول كعب؟ قال: يطمع الرجل في الشيء فيطلبه فيذهب عليه دينه، وشره النفس في هذا وفي هذا حتّى لا تحب أن يفوتها شيء، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة، فإذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء، واستمكن منك، وخضعتَ له، فمن حبّك للدنيا سلّمت عليه إذا مررت به، وعُدته إذا مرض، لم تسلّم عليه لله تعالى، ولم تعِده لله، فلو لم تكن لك إليه حاجة كان خيراً لك، ثمّ قال: هذا خير لك من مائة حديث عن فلان وفلان.[٣]

قال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رق، وعبد شهوة، وعبد طمع.[٤]

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ١٦٣.

(٢) نحوه في الإصابة ٥: ٤٨٤.

(٣) إحياء علوم الدين ٣: ٢٤١.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٨: ٨٤.

وقال بعضهم: من أراد أن يعيش حراً أيّام حياته فلا يُسكن الطمع قلبه.[١]

اجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصوا، ثمّ افترقوا وهم مُجمعون على أنّ أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع.[٢]

وقيل: لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع، والحسد، فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة، فالعاقل يخفيها، والجاهل يبديها، ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه.[٣]

قال إسماعيل ابن قطري القراطيسي:

حسبي بعلمي إن نفع ... ما الذلّ إلاّ في الطمع
من راقب الله نزع ... عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع ... إلاّ كما طار وقع[٤]

وقال سابق البربري:

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى ... سفاهاً وريب الدهر عنها يخادعهُ
ويطمع في سوف ويهلك دونها ... وكم من حريص أهلكته مطامعهُ[٥]

* * *

---

(١) تنبيه الخواطر ١:٤٩.
(٢) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٩: ١٢.
(٣) المستطرف ١: ١٦٤.
(٤) نفس المصدر.
(٥) تاريخ دمشق ٢٠: ٨.

[قصة أشعب]:

وقيل لأشعب:[١] ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري فأفتّ خبزي. وقال أيضاً: ما رأيت رجلين يتساران في جنازة إلاّ قدّرت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله، وما زفّت عروس إلاّ كنست بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إليّ.

ورأى سلاّلاً يصنع سلة، فقال له: أوسعها، قال: ما لك وذاك؟! قال: لعلّ صاحبها يهدي لي فيها شيئاً.

ومرّ بمكتب وغلام يقرأ على الأستاذ: «إن أبي يدعوك» فقال: قم بين يديّ حفظك الله وحفظ أباك، فقال: إنما كنت أقرأ وردي، فقال: أنكرت في أن تفلح أو يفلح أبوك.

وقيل: لم يكن أطمع من أشعب إلاّ كلبه، رأى صورة القمر في البئر فظنّه رغيفاً فألقى نفسه في البئر يطلبه، فمات.

قال بعضهم:

لا تغضبنّ على امرئٍ	لك مانع ما في يديه
واغضب على الطمع الـ	ذي استدعاك تطلب ما لديه[٢]

* * *

---

(١) أشعب بن جبير، المعروف بالطامع، ويقال له ابن أم حميدة، ظريف من أهل المدينة، عاش عمراً طويلاً، أدرك عثمان وسكن المدينة أيامه، وقدم بغداد أيام المنصور، يضرب المثل في طمعه، وأخباره متفرقة في كتب الأدب. أنظر: تاريخ بغداد ٧: ٤٦؛ تاريخ دمشق ٩: ١٦١؛ سير أعلام النبلاء ٧: ٦٨؟ ...

(٢) المستطرف ١: ١٦٥.

وفي المجلد السادس من المحجة البيضاء (ص ٥٣):

قال الشعبي: حُكي أن رجلاً صاد قنبرة، قالت: ما تريد أن تصنع بي؟

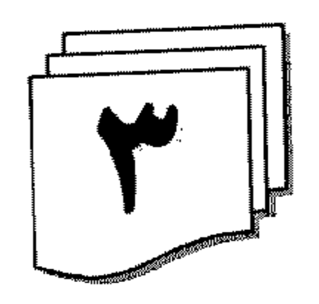
قال: أذبحك وآكلك، قالت: والله ما أشفي من قَرَم، ولا أُشبع من جوع، ولكن أعلِّمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي: أما واحدة فأعلمك وأنا في يدك، وأمّا الثانية: فإذا صرت على الشجرة، وأما الثالثة: فإذا صرت على الجبل.

قال: هات الأولى، قالت: لا تلهفنَّ على ما فات، فخلاّها، فلمّا طارت على الشجرة قال: هات الثانية، قالت: لا تصدقنّ بما لا يكون أنه يكون، ثمّ طارت فصارت على الجبل، وقالت: يا شقيّ لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين في كل واحدة عشرون مثقالاً.

قال: فعضّ على شفتيه وتلهّف، وقال: هات الثالثة، فقالت: أنت قد نسيت اثنتين، فكيف أخبرك بالثالثة، ألم أقل لك لا تلهفنّ على ما فاتك، ولا تصدّقنّ ما لا يكون، ألا إن لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً، فكيف يكون في حوصلتي درتان في كلٍّ واحدة عشرون مثقالاً؟! ثمّ طارت، فذهبت.

وهذا مثال لفرط طمع الآدمي، فإنّه يعميه عن درك الحق حتّى يقدّر ما لا يكون أنّه يكون.

* * *



قوله عليه السلام:

البُخْلُ عَارٌ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ.

(نهج البلاغة ٤: ٣)



[البخل وأسبابه النفسية]

ضبط الألفاظ اللغوية:

البخل لغة: هو الشحّ من واجده، وشرعاً: هو منع الواجب من الحقوق، وفي عرف العرب: هو منع المسؤول السائل ممّا يفضل عنده.[1]

و(الخَرَس) بالتحريك: مصدر الأخرس، وقد خرس وأخرسه الله،[2] (والمُقِل): الفقير الذي لا مال له.[3]

* * *

قال ابن أبي الحديد: هذه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في البخل، ومن كلام بعض الحكماء في ذلك: ما أقلّ من يحمده الطالب وتستقلّ به العشائر، ويرضى عنه السائل، وما زالت أمّ الكرم نزوراً وأمّ اللؤم ذلولاً، وأكثر الواجدين من لا يجود، وأكثر الأجواد من لا يجد.

وما أحسن قول القائل: كفى حزناً أنّ الجواد مقتر عليه، ولا معروف عند بخيل، وكان يقال: البخل مهانة والجود مهابة.

الفصل الثاني: الجبن، وقد تقدم قولنا في فضل الشجاعة.

الفصل الثالث: في الفقر، وقد تقدم القول فيه أيضاً.

---

(١) أنظر: مجمع البحرين ١: ١٦٠.

(٢) أنظر: الصحاح ٣: ٩٢٢.

(٣) أنظر: مجمع البحرين ٣: ٥٤٤.

ومثل قوله عليه السلام: «الفقر يخرس الفطن عن حجته»، قول الشاعر:

سأعمل قض العيش حتّى يكفني غنى المال يوماً أو غنى الحدثان

فللموت خير من حياة يرى لها على الحر بالاقلال وسْمَ هوان

متى يتكلم يلغ حكم كلامه وإن لم يقل قالوا: عديم بيان

كأن الغنى عن أهله بورك الغنى بغير لسان ناطق بلسان

ومثل قوله عليه السلام: والمقِلّ غريب في بلدته، قول خلف الأحمر:

لا تظني أن الغريب هو النائي ولكنما الغريب المقلُّ

وكان يقال: مالك نورك، فإن أردت أن تنكسف ففرّقه واتلفه. قيل للاسكندر: لِمَ حفظت الفلاسفة المال مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا؟ قال: لئلاّ تحوجهم الدنيا إلى أن يقوموا مقاماً لا يستحقونه.

وقال بعض الزهاد: ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثمّ تعبّد.

وقال الحسن عليه السلام: «من زعم أنّه لا يحب المال فهو عندي كاذب، فإن علمت صدقه فهو عندي أحمق».(١)

* * *

قال ابن ميثم البحراني:

قوله عليه السلام: «والبخل عار»؛ وذلك لأنّه رذيلة التفريط من فضيلة الكرم، وبقدر حمد الناس على الكرم يكون ذمه وتعييره برذيلة البخل.

وقوله عليه السلام: «والجبن منقصة»؛ لأنه رذيلة التفريط من فضيلة الشجاعة التي هي أصل من الكمالات النفسانية، كأنّ الجبن رذيلة ومنقصة.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٨٧.

وقولـه عليه السلام: «الفقـر يخـرس الفطـن عـن حجّتـه»؛ وذلـك لكونـه مذلّـة، ولـه في النفس فعل عظيم بالقبض والفتور والانفعال عن الغير، ومبدأ كل ذلك تصوّر العجز وتوهم القصور بسبب عدم المال عن مقاومة الخصوم، فيحصل التخوف من الكلام والعيّ عنه، وإن كان صاحبه فطناً، واستعار لذلك وصف الخرس ملاحظة الشبه به.

وقولـه عليه السلام: «والمقلّ غريب في بلدته» أي: الفقير، واستعار له لفظ الغريب، باعتبار عدم التفات الناس إليه، وقلّة الأعوان والاخوان له لإقلاله، فهو كالغريب الذي لا يُعرف.

* * *

وفي(الدرة النجفية):

وقولـه عليه السلام: «والبخل عار» وذلك لأنّه رذيلة التفريط من فضيلة الكرم، وبقدر حمد الإنسان على الكرم يكون ذمه وتعييره برذيلة البخل، ومن كلام بعض الحكماء: أكثر الواجدين من لا يجود، وأكثر الأجواد من لا يجد، ويقال: الجود مهابة والبخل مهانة.

* * *

[معنى البخل]:

وفي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[1]

قال: (والبخل): حبس ما يقدر على إنفاقه من مال أو معاونة بيد ولسان، فقد يصل إلى حدّ منع أداء الحقوق الواجبة، كمنع النفقة على الأهل والأقرباء

---

(١) ج ٢١: ١١.

الواجبي النفقة، أو منع حقّ الزكاة للفقراء وسائر مصارفه، أو الخمس عن أربابه، فيوجب العقاب والمؤاخذة، وقد يكون سبباً لمنع ذوي الحقوق العامة فيبلغ إلى حدّ الوبال والنكال، وفي الحديث أنّه «لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع»، فلذا قال عليه السلام: «إنه عار».

«والجبن منقصة»؛ لمضادته مع الشجاعة التي هي ركنٌ من أركان الإيمان وحلية لنفس الإنسان، فالجبان لا يقوم بالدفاع عن عرضه ودينه، ويخاف في كل موطن على نفسه.

[الفقر بين السلب والايجاب]:

(وأما الفقر) قد وردت فيه الأخبار وكلمات الأخيار بالمدح تارة والذم أخرى، فقد ورد في الكافي في باب (الكفر والإيمان) عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر».

وقد وصف عليّ عليه السلام الفقر في هذه العبارة بطبعه المؤثر في الفقير بالنظر إلى الاجتماع، فإنّ الناس عبيد الدينار، ولا ينظرون إلى الفقير إلاّ بعين الاحتقار، ولا يتوجّهون إلى كلامه وحجته وإن كان حقاً، ويؤثر هذا الأمر في الفقير فلا يرى نشاطاً له في إظهار حجّته عند المخاصمة حتّى كأنّه أخرس، ونعم ما قيل:

فصاحة سحبان وخطّ ابن مقلة وحكمة لقمان وزهد ابن أدهم

لو اجتمعت في المرء والمرء مفلس فليس له قدر بمقدار درهم

وقد بيّن عليه السلام سوء أثر الفقر بأبلغ بيان في الفقرة التالية، وهي قوله عليه السلام: «والمُقل غريب في بلدته» وإن يمكن التفريق بين الفقير والمقل،

حيث إن الفقير من أظهر حاجته للناس، والمقل ربما يظهر الغناء والاستغناء، ولكن الناس لا يفرّقون بينهما، فإنّهم غالباً كالذباب يدورون حول الحلوى، فإذا كان الإنسان مثلاً لا يقدر على جلبهم ببذل المال يعرضون عنه، ولا يتقربون إليه ولا يسألون عن حاله ولا يتوجهون إليه، وبهذا النظر يصير غريباً وإن كان في بلدته وبين عشيرته، فإنّ الغريب من لا يُتوجه إليه ولا يُسأل عن حاله، ونعم ما قيل:

لا تظنن الغريب بعيد دار ولكنّ الغريب هو المقلُّ

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):[1]

في قوله عليه السلام:

«البخل عار...» إلخ: البخل يخطط لصاحبه منهجاً يسير عليه في تفكيره وسلوكه، ولا يحيد عنه بحال، وهذا المنهج يرفض بطبعه التعاون على الخير ومصلحة الفرد والجماعة، ويهدي إلى القوة وعدم الأكتراث بالناس ومشاكلهم. ومن لا يهتم بهموم الناس فليس منهم، ولا من الإنسانية في شيء، ونعطف على ذلك ما جاء في الآثار من «أن البخيل يعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء» وإنه كالخنزير لا ينتفع به إلاّ بعد موته حيث تنهشه الكلاب، وإن البخل يفسد الرأي، ويمنع صاحبه عن رؤية الحقيقة، لأنه ينظر إلى الأشياء من خلال ذاته الشخصية الشاحبة.

وإذا كان الإمساك رذيلة، فالبذل والتضحية فضيلة في كل زمان

---

(١) ج ٤: ٢١٥.

ومكان، ولكن اطعام الطعام قد بلغ الغاية والنهاية من التقديس عند القدامى، وبخاصة العرب الذين اعتبروه سبباً رئيسياً من أسباب السيادة والقيادة، وملأوا الدنيا في المديح والثناء نظماً ونثراً على صاحب الخوان، وكنّوا عنه بـ(جبان الكلب،[1] وكثير الرماد والنيران...) ووضع الجاحظ كتاباً في البخلاء، وأفرد الكثير من المؤلفين باباً طويلاً في كتبهم لذمّ البخل والبخلاء، ومدح الجود والأجواد.

والسرّ[2] العسرُ والمعيشة الضنكى في ذاك العصر، حيث الجائعون من كل بلد بالآلاف أو بالمئات... هذا إلى أن المسافرين كانوا يسيرون أياماً أو أشهراً على الأقدام أو على الحيوان، ولا مطاعم وفنادق، فلا بدع إذا كان لإطعام الطعام شأنه ووزنه. ومن هنا ساوى رسول الله ﷺ بينه وبين السلام في قوله: «أفضل الأعمال إفشاء السلام وإطعام الطعام».

حتّى الماء كان لباذله أجرٌ وفضل على قدر عطش الظمآن ولهفته، لتعذر الوصول إلى مجرى الماء ومصدره، أما الآن وقد غيّر العلم الأرض ومن عليها، وخطا بالبشرية خطوات يسّرت لها العسير، وقربت لها البعيد، وحققت الكثير من مطالبها، أما الآن فلم يعد لإطعام الطعام ونحوه ذلك الوزن والأثر الذي كان له من قبل. وليس معنى هذا أن الكرم قد تحوّل عن طبيعته ونزل عن مرتبته، وإنّما يعني أن مظاهر الكرم قد تغيرت وانتقلت من التعاون الفردي إلى التعاون الاجتماعي، من إطعام الرغيف إلى بناء دار للأيتام ومستشفى للمعوزين، ومدارس للمتعلمين، ومن سقي الظمآن إلى ريّ الأرض، وتحويل الصحراء الجرداء إلى جنّات وعيون،

---

(١) فلان جبان الكلب: إذا كان نهاية في السخاء. (لسان العرب ١٣: ٨٥).

(٢) كذا، ويعني: أن السّر في ذلك وسببه هو...

ومعنى هذا أن معنى الكرم قد عمّ واتسع بعد أن كان ضيقاً محدوداً، وأن اسم الكريم قد تطور إلى اسم المصلح والمنقذ.

«والجبن منقصة»؛ لأنّ الجبان يرى المنكر فيتعامى عنه، ويسمع دعوة الجهاد في سبيل الله والحق فيصد عنها، وإذا شكى إليه مظلوم أدار له ظهره، وإذا أراد أن يتكلم خاف من النقد. وهكذا سلبه الخوف ما يملك من طاقات، ويعيش حبيساً بين جدران الهواجس والأوهام بلا شخصية وإرادة، ولا زهرة أو ثمرة إلاّ الهدير والثرثرة. وهل علمتَ أو سمعتَ أنّ للجبان شأناً أو تاريخاً؟

«والفقر يخرس الفطن عن حجّته»؛ لأن الفقر يضغط على العقل، ويسدّ أمامه منافذ الرؤية. اللهم إلاّ إذا كان للفقير هدف أعلى، يضحي بحياته من أجله وينسى معه نفسه وبؤسه، كطلب العلم أو الحرية لوطنه، كما حدث لكثير من الفقراء المناضلين الأحرار.

«والمقل غريب في بلدته».

ومثله قوله عليه السلام: «الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة»؛ لأن من شأن الوطن أن يسهل لك العسير، ويستجيب لحاجتك وأمنيتك، والمال قاضي الحاجات، والفقر أصل الويلات، ومن هنا كان الفقر غربة في الوطن، والغنى وطناً في الغربة.

أقول: اقتصر الشراح بعبارات وجيزة حول هذه الفقرات النيرة، ومن الحق أن تعطى نصيباً أوفر ممّا ذكروه، لأنها ركنٌ ركين في الأخلاق؛ لذلك رأينا من الخير أن نستوفي من بعض الفقرات ونعطيها حقها مع زيادة وإيضاح ليستغني بها الطالب ويكتفي بها عن غيرها.

* * *

جاء في (مناهل الأشواق):[١]

البخل داء مركب من أمور يتوقف وجوده عليها، وكلها قبيحة، وما يتركب من القبيح يكون قبيحاً.

يتوقف وجود البخل في صاحبه على خساسة نفسه وحقارتها في واقع أمرها وحقيقة وجودها، ولا يغرّك منه إظهار علوّ نفسه وكبرها.

يتوقف وجود البخل في صاحبه على لؤمه ورداءة ذاته، وتغلب هاتين الصفتين على نفيس جوهره ومدارك عقله.

يتوقف وجود البخل في صاحبه على طول الأمل وخوف الفقر وحب المال لأنه مال.

البخل في نوعين:

١ ــ البخل في الواجبات:

وهو أقبح أنواع البخل، وأشدها إثماً، وله مراتب:

أوّلها: بخل الشخص بما وجب عليه في ماله، وهو الزكاة الواجبة في النقدين الذهب والفضة، وفي الغلات الأربعة: الحنطة والشعير والتمر والزبيب، وفي الأنعام السائمة: الغنم والماعز، والجاموس والإبل، على حسب ما ذكر لها من الشروط في محلها، وقد أوجبها الله سبحانه على الأغنياء سداً لحاجة الفقراء وحفظاً لانتظام الإنسان في معاشه، والبخل بالواجب من الزكاة يكشف عن عدم الإيمان وعدم الخوف من عذاب الله سبحانه.

---

(١) للسيد محمّد حسين صفي الدين المعاصر، قاضي الجعفرية بلبنان، وهو مطبوع بصيدا (الذريعة ٢٢: ٣٥٣).

ثانيها: بخل الشخص بما وجب عليه في المال الزائد عن مصرفه بحسب حاله، وهذا هو الخمس كما فرضه الله سبحانه لأهله، بعد أن كانوا كرسول الله في حرمة أكل الزكاة، فكما كرّم الله سبحانه رسوله وأهل بيته بتحريم الصدقة عليهم، ونزّههم عنها أوجب لهم الخمس، فرضاً منه لهم وإشفاقاً عليهم، والمانع بخلاً لما وجب عليه من الخمس معدود عند الله في زمرة الظالمين لحقّ محمّد وآله صلى الله عليه وآله، وقد روي عن آل بيت محمّد عليهم السلام قولهم: «إنّ من أكل علينا درهماً واحداً فهو ظالم غاصب لنا».

ثالثها: بخل الشخص بما وجب عليه عن نفسه وعياله، وهو الزكاة الواجبة يوم العيد بعد صوم شهر رمضان، وتسمى بالفطرة والصدقة عن النفس، وهي بسيطة جداً، ومقدارها وشروط وجوبها مذكور في محله، والبخل بها يكشف عن عدم المبالاة في الدين أكثر مما يكشف عن الشحّ المطاع[1]، نظراً لعدم أهمّيتها.

رابعها: بخل الشخص بما أوجبه على نفسه بنذر أو عهد أو يمين. فإنّه إذا نذر أو عاهد أو حلف بأن يعطي الفقراء أو رجلاً معيناً شيئاً من ماله وجب عليه الوفاء بما أوجبه على نفسه، فإذا بخل به ولم يدفعه كان مخالفاً لما عاهد الله عليه مستخفاً بدينه.

ولا ريب أنّ المانع لهذه الواجبات المذكورة بخلاً وشحاً مذموم مُطالب بها في الدنيا ويحاسب عليها في الآخرة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم تُجزى كلّ نفس بما عملت.

---

(١) عن الصادق عليه السلام أنه قال: «الشح المطاع سوء الظن بالله عز وجل» الخصال: ٨٤؛ وفي تاج العروس ٥: ٤٤٤: الشح المطاع: هو أن يطيعه صاحبه في منع الحقوق التي أوجبها الله تعالى عليه في ماله.

والمانع للزكاة والخمس والفطرة والواجب بنذر ونحوه عن عدم اعتقاده بوجوبها، خارج عن دائرة الإيمان بالله وكتبه ورسله، وحسابه على الله سبحانه.

٢ ـ البخل في غير الواجبات:

له مراتب، ولأهله صفات.

منها: بخل الشخص على السائلين من الفقراء والضعفاء الطالبين بعض الخبز، أو الأدام أو القطع النقدية كنصف القرش ونحوه، والبخلاء في هذه المرتبة قلائل، إذ قلّ من يبخل بمثل ذلك، ومن بخل به فهو خارج عن دائرة الإنسانية.

ومنها: بخل الشخص بما يندب إليه من العطايا والهبات بحسب حاله وحال الطالبين منه كثرة وقلّة، فإذا كان ممن يفعل الخير لوجه الله سبحانه فعليه أن يبذل من ماله ما لا يضرّ بحاله ابتغاء مرضاة الله، وإن كان ممن يفعل الإحسان رغبة بالثناء عليه وحباً بنسبته إليه، فعليه أن يبني مجده على دعائم كرمه قبل بناء مسكنه على التلال والجبال.

ليس بالمغبون عقلاً من شرى عزاً بمالٍ

والبخل من أهل هذا القسم حرصاً منهم على المال، وحباً به يدل على نقص في عقولهم؛ لأنّ العاقل إنما يحب المال، ويدخره ليكون به سعيداً. والبخل يحول بين أهله وبين السعادة في الدارين، ويمنع نسبة الفضائل والكمالات إليهم، ونصرة القريب والبعيد لهم.

ومنها: بخل الشخص بماله على نفسه وعياله، حتّى تجد ذلك الشخص كأنه حرّم على نفسه اللذات، أو رغب في مساواة من لا يملك ما يكفيه لقضاء الحاجات، فهذا يحاسب في الدنيا والآخرة محاسبة الأغنياء ويعيش معيشة الفقراء.

ومنها: بخل الشخص بمال غيره فيما إذا كانت له ولاية صرف مال الغير على الفقراء والضعفاء، فبخل به ولم يصرفه كما فوّضه به مالكه، أو فيما إذا أنكر فعل الخير والإحسان على فاعليه وحملهم على البخل والشح. وهذا منتهى اللؤم والخساسة وخبث النفس؛ لأنّ أبخل البخلاء من بخل بمال غيره.

هذه الأقسام التي تصورناها للبخل، وكيف كان البخل، فإنّه يسبب الأضرار الكثيرة على البخلاء في أموالهم وأنفسهم واعتبارهم، يسبب العداوة بينهم وبين الناس، يسبب غضب الله سبحانه عليهم إذا بخلوا بما أمر الله به.

[النص الإسلامي يذم البخل]:

جاء النص في القانون الإسلامي على ذم البخلاء وتوبيخهم وتهديدهم، وإعلامهم عاقبة أمرهم بما لا مزيد عليه. فقال سبحانه:

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.(1)

دلّت هذه الآية الشريفة بكلّ صراحة ووضوح على أن البخل شرّ على البخلاء، وأنهم سيُطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة، فيجعله الله سبحانه طوقاً في أعناقهم، تشهيراً لهم وتنكيلاً بهم، لأنهم بخلوا ببعض ما تفضّل الله به عليهم، وأمرهم ببذله لمن خصّه به، فلا خير لهم في بخلهم، بل هو شرّ لهم، والله عالم بما يكونون عليه من البخل، وعدم امتثال أمره، وبيده سبحانه إزالة النعمة عنهم ودوامها لهم.

---

(١) آل عمران: ١٨٠.

وقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾(١).

قد تضمّنت هذه الآية الشريفة بيان أمور: البخل البسيط، والأمر بالبخل شحاً حتّى بمال غيره، وهذا منتهى البخل، وكتمان النعمة التي وصلت إليه خوفاً من الطلب، والحكم على من اتصف بهذه الصفات بأنه كافر وإن الله أعدّ له عذاباً مهيناً.

ولا ريب في قبح البخل وإن كان بسيطاً وتولد الضرر الكثير منه، فكيف بالبخل المركّب من بخل الشخص بماله وإلزامه الغير بالبخل، وما ظنّك بهذا، هل يمنحه أحد الكرامة أو يمنّيه السلامة؟ هيهات هيهات.

وأما من كتم النعمة وأظهر الفقر والفاقة خوفاً من البذل والسخاء، فقد ارتدى نجاستي البخل والكذب، واستغشى رداء الكفر؛ لأنه ستر النعمة، وساتر نعمة المنعم كافر بها، ولأنّ من لم يمتثل أمر مولاه فهو كافر، وقد أمر الله سبحانه ببذل ما وجب بذله من نعمه، وقد أعدّ الله للكافرين عذاباً مهيناً.

وقال سبحانه:

﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(٢).

دلّت هذه الآية الشريفة على أن ضرر البخل وقبحه إنما يتوجه إلى البخيل نفسه، ولا يصيب سواه، ويكون ببخله وشحه متصفاً بعدم النجاح والفلاح.

---

(١) النساء: ٣٧.

(٢) محمّد: ٣٨.

ودلّت بالملازمة العقلية على أن من دافع داء الشح وصرفه عن نفسه حتّى طابت نفسه عن بذل ما وجب بذله فقد اتصف بالفلاح والصلاح عند الله سبحانه، وأما عند الناس فقل في السخي ما شئت، تسمع من الناس ما يزينه ولا تسمع منهم إذا عمّ سخاؤه ما يشينه وإن كثرت مساويه، فالكرم يستر كل عيب كان فيه.

[أحاديث في ذم البخل]:

وقال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين محمّد صلى الله عليه وآله: «إيّاكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم، فسفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم وقطعوا أرحامهم».[١]

وقال صلى الله عليه وآله: «ثلاثٌ مهلكات: شحٌ مطاع، وهوى مُتّبع، وإعجاب المرءِ بنفسه».[٢]

وقال صلى الله عليه وآله: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق».[٣]

وقال صلى الله عليه وآله: «إن الله يبغض البخيل في حياته، السخي عند وفاته».[٤]

وقال صلى الله عليه وآله: «لا يدخل الجنّة بخيل، ولا خائن، ولا منّان».[٥]

---

(١) سفينة البحار ٥: ٣٧٤.

(٢) الوسائل ١: ١٠٢.

(٣) الوسائل ٩: ٤٠.

(٤) بحار الأنوار ٧٤: ١٧٣.

(٥) أنظر: كنز العمال ٦: ٣٩٣، وفيه: «لا يدخل الجنّة بخيل، ولا عاق لوالديه، ولا منان بما أعطى» وفي ج ١٦: ٦٤: «لا يدخل الجنّة بخيل، ولا خب، ولا خائن...»؛ مستدرك الوسائل ٧: ٢٣٣.

وقال ﷺ: «شرٌ ما في الرجل شحٌ هالع، أوجبن خالع».[١]

وقال ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً».[٢]

وقال ﷺ: «السخي الجهول أحبُّ إلى الله من العابد البخيل».[٣]

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«البخل جامع لمساوئ العيوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء».[٤]

وقال عليه السلام: «لا يجتمع شحٌ وإيمان في قلبِ مؤمن أبداً».[٥]

وقال عليه السلام: «اللهم اجعل لمنفق خلفاً ولممسك تلفاً».[٦]

وقال عليه السلام: «عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إيّاه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء».[٧]

وقال عليه السلام: «إنّ الله سبحانه ينزل المعونة على قدر المؤونة».[٨]

وقال عليه السلام: «من وسَّع وسَّع الله عليه».[٩]

وقال عبد الله بن عبّاس محدّثاً بما علمه: لمّا خلق الله سبحانه جنّة عدن، قال لها: تزيّني، فتزينت، ثمّ قال لها: أظهري أنهارك، فأظهرت عين

---

(١) مستدرك الوسائل ٧: ٣٢.

(٢) كنز العمال ٣: ٤٥٣.

(٣) كنز العمال ٦: ٣٩٢، وفيه: (العالم البخيل) بدل: (العابد البخيل).

(٤) نهج البلاغة ٤: ٩٠.

(٥) الغدير ٢: ١٧٤.

(٦) مستدرك الوسائل ٧: ٣١.

(٧) نهج البلاغة ٤: ٢٩.

(٨) نهج البلاغة ٤: ٣٤.

(٩) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٣٦.

السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم، فتفجرت منها الأنهار، ثمّ قال لها: أظهري سُررك وحجالك وكراسيك وحُللك وحور عينك، فأظهرت، فنظر إليها وقال لها: تكلمي.

فقالت: طوبى لمن دخلني.

فقال الله تعالى: وعزتي لا أسكنّنك بخيلاً.

وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز: (أفٍ للبخيل، لو كان البخل قميصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته).

[كسرى والحكيم الهندي]:

وروي أنه ورد على كسرى أنوشروان حكيم من الهند وفيلسوف من الروم، فقال كسرى لحكيم الهند: تكلم، فقام وقال: خير الناس من كان سخياً، وعند الغضب وقوراً، وفي القول متأنياً، وفي الرفعة متواضعاً، وعلى كل ذي رحم مشفقاً.

وقال لفيلسوف الروم: تكلم، فقام وقال: من كان بخيلاً ورث عدوّه ماله، ومن قلّ شكره لم ينل النجح، وأهل الكذب مذمومون، وأهل النميمة يموتون فقراً، ومن لم يرحم سلّط الله عليه من لا يرحمه.

ولا يخفى ما في هذه الأخبار من تقبيح البخل وذمه وبُعد أهله عما تألفه طباع البشر، وعمّا يكسب الذكر الجميل والثواب الجليل، وعمّا يقرب من الله والجنّة والناس؛ لأنّ البخيل بعيد عن رحمة الله، بعيد عن رضى الناس؛ لتوقف البخل على اللؤم وخيانة الذات، ومخالفة الله سبحانه.

وإليك ما روي في رجل أفرط في بخله عن لؤم سريرة وخبثها:

[النبي ﷺ يذم بخيلاً]:

روي أن رسول الله ﷺ كان يطوف في البيت، فإذا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلاّ غفرت لي ذنبي.

فقال ﷺ: وما ذنبك صفه لي؟

فقال: هو أعظم من أن أصفه لك.

فقال ﷺ: ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون؟

فقال: ذنبي أعظم يا رسول الله.

فقال ﷺ: فذنبك أعظم أم الجبال؟

قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله.

قال ﷺ: فذنبك أعظم أم البحار؟

فقال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله.

قال ﷺ: فذنبك أعظم أم السماوات؟

قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله.

قال ﷺ: فذنبك أعظم أم العرش؟

قال: فذنبي أعظم يا رسول الله.

قال ﷺ: فذنبك أعظم أم الله؟

قال: بل الله أعظم وأعلى.

قال ﷺ: ويحك فصف لي ذنبك؟

قال: يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال، وإن السائل ليأتيني يسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من نار.

فقال ﷺ: إليك عنّي لا تحرقني بنارك، فو الذي بعثني بالهداية والكرامة، لو قمتَ بين الركن والمقام، ثمّ صليتَ ألف ألف عام وبكيتَ

حتّى تجري دموعك كالأنهار ثمّ متّ وأنت لئيم هكذا لأكبك الله في النار، أما علمت أنّ البخل كفر وأن الكفر في النار، ويحك أما علمت أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾،[١] ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢] [٣].

لا ريب في تناهي هذا الرجل في بخله الذاتي، لأنه يصرح بأنّ كلام السائل عنده كشعلة نار يستقبله بها، ولو كان يعتقد أن السائل ينال من ماله شيئاً لمات من شدّة خوفه. فكأنّه مصداق وصفر بعض الشعراء لبعض البخلاء بالبيتين المعروفين:

رأى الصيف مكتوباً على باب داره فصحّفه ضيفاً فقام إلى السيف

فقلنا له خيراً تريد فظنّنا نقول له خبزاً فمات من الخوف

نوادر البخلاء:

للبخلاء أحوال غريبة لولا نقلها في صفحات التاريخ لأنكرناها.

منها: أن بخيلاً أفرط في البخل حتّى على نفسه، ولم يصرف الطيب من الطعام، فدعاه بعض جيرانه إلى طعام جيّد فأكل منه فوق عادته، فاضطر للإكثار من شرب الماء حتّى انتفخت بطنه ونزل به الكرب، فقال له بعض العارفين: لا بأس عليك إذا تقيأت ما أكلته، فقال: كيف أتقيأه وهو طيّب لذيذ، الموت أهون من ذلك.

ومنها: أنه قيل لرجل أديب له قرابة مع بخيل غني: من يحضر على

---

(١) محمّد: ٣٨.

(٢) الحشر: ٩؛ التغابن: ١٦.

(٣) أنظر: أسد الغابة ٥: ٧٦.

مائدة قرابتك؟ قال: الكرام الكاتبون، قيل له: إذاً فلا يأكل معه أحد، قال: بلى الذباب، قيل له: فما بال ثيابك خلقِة مخرّقة وأنت قرابته؟ قال: لو ملك هذا بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً إبراً، ثمّ جاء جبرائيل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي يطلبون منه إعارة إبرة ليخيط بها يعقوب قميص ولده يوسف الذي قدّ من دُبر ما أعارهم تلك الإبرة.

ومنها: أنه كان لبعض العلماء جار يتعرض له بالدخول إلى بيته، ويقول له: لو دخلت وأكلت كسرة خبز وملحاً كان لنا بذلك الشرف وحلّت علينا البركة، ولما طال الإلتماس دخل ذلك العالم إلى بيت جاره، فقدّم له كسرة خبز وملحاً بلا زيادة، فأخذ يأكل منها وهو يقول: الحمد لله _ معجباً بما صدر من جاره _ فطرق الباب سائل، فقال له صاحب المنزل: اذهب، فألحّ، فقال له: اذهب وإلاّ ضربتك بالعصا، فعاود السائل الطلب، فأعاد عليه التهديد، فصاح به العالم: اذهب فإنّ الرجل صادق القول، ومن جرّب عرف.

انتهى ما نقلناه من (مناهل الأشواق).

* * *

ومما انتخبته من المجلد الأوّل من كتاب (المستطرف في كل فنّ مستظرف)[١] لشهاب الدين أحمد الأبشيهي:

كان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً جداً، أصابه القولنج في بطنه، فحقنه الطبيب بدهن كثير، فانحلّ ما في بطنه في الطست، فقال لغلامه: أجمع الدهن الذي نزل من الحقنة وأسرج به.

---

(١) ص ٣٧٤ - ٣٨٣.

وكان المنصور شديد البخل جداً، مرَّ به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج، فحدا له يوماً بقول الشاعر:

أغرّ بين الحاجبين نوره ... يزينه حياؤه وخيرهُ

ومسكه يشوبه كافوره ... إذا تغدى رفعت ستورهُ

فطرب حتّى ضرب برجله المحمل، ثمّ قال: يا ربيع أعطه نصف درهم، فقال مسلم: نصف درهم يا أمير المؤمنين!، والله لقد حدوت لهشام فأمر لي بثلاثين ألف درهم؟ فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم، يا ربيع وكّل به من يستخلص منه هذا المال، قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتّى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وقيل لبخيل: من أشجع الناس؟ قال: من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته.

وكان المتنبئ بخيلاً جداً، مدحه إنسان بقصيدة، فقال له: كم أملت منّا على مدحك؟ قال: عشرة دنانير، قال له: والله لو ندفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقاً.

وقال دعبل: كنّا عند سهل بن هارون، فلم نبرح حتّى كاد يموت من الجوع، فقال: يا غلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس، فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته، فقال: والله إنّي لأكره من يرمي برجله فكيف برأسه، ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذي يُتبرك به، وعينه التي يُضرب بها المثل، فيقال:

شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم نرَ عظماً أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وهبك ظننتَ أني لا آكله، أما قلت: عنده من يأكله، أنظر في أيِّ مكان رميته فأتني به، فقال: والله ما أدري أين رميته، فقال: لكني أعرف أين رميته، رميته في بطنك، الله حسبك.

* * *

واشتكى رجل مروزي صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز، فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء، فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام، إذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة، وقال: إنه يجلو الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها فجلا صدره ووجده يعصم، فلما حضر غداؤه أمر به فرفع إلى العشاء، وقال لامرأته: اطبخي لأهل بيتنا النخالة، فإني وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر.

فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء، فالحمد لله على هذه النعمة.

* * *

وعن خاقان بن صبح، قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً، فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة، وقد علّق فيها عود بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً؟ قال: قد شرب الدهن، وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلاّ عوداً عطشاناً ونخشى أن يشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية، إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود، فقال الرجل: يا فلان لقد فررت من شيء ووقعت فيما هو شرٌ منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر

الأشياء وينشفان هذا العود، لِمَ لا أخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإنّ الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشّاف، والعود أيضاً ربّما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها، فقال له الرجل الخراساني: أرشدك الله ونفع بك، فلقد كنتُ في ذلك من المسرفين.

* * *

وقال الهيثم بن عدي: نزل على أبي حفصة الشاعر رجل من اليمامة، فأخلى له المنزل، ثمّ هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة، فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه، ثمّ رجع وكتب إليه:

يا أيها الخارج من بيته ... وهارباً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له ... فارجع وكن ضيفاً على الضيف

* * *

وأكل أعرابي مع أبي الأسود الدؤلي رطباً فأكثر، ومدّ أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها فسقطت منه في التراب، فأخذها أبو الأسود، وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها، فقال الأعرابي: والله، ولا لجبرئيل وميكائيل لو نزلا من السماء ما تركتها.

* * *

ووقف أعرابي على أبي الأسود وهو يتغدى، فسلم فرد عليه، ثمّ أقبل على الأكل ولم يعزم عليه، فقال الأعرابي: أما إنّي قد مررت بأهلك، قال: كذلك كان طريقك، قال: وامرأتك حبلى، قال كذلك كان عهدي بها، قال: قد ولدت، قال: كان لا بدّ لها أن تلد، قال: ولدت

غلامين، قال: كذلك كانت أمها، قال: مات أحدهما، قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين، قال: ثمّ مات الآخر، قال: ما كان ليبقى بعد موت أخيه، قال: وماتت الأم، قال: حزناً على ولديها، قال: ما أطيب طعامك، قال: لأجل ذلك أكلته وحدي، ووالله لا ذقته يا أعرابي.

* * *

وقيل: خرج أعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي، فأقام بها مدة طويلة. فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيّه، فقدّم إليه الطعام وكان إذ ذاك جائعاً، فسأله عن أهله وقال: ما حال ابني عمير؟ قال: على ما تحب، قد ملأ الأرض والحي رجالاً ونساء، قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضاً، قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها، قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: قد ملأ الحي نبحاً، قال: فما حال جملي زريق؟ قال: على ما يسرّك، قال: فالتفت إلى خادمه وقال: ارفع الطعام، فرفعه، ولم يشبع الأعرابي، ثمّ أقبل عليه يسأله، وقال: يا مبارك الناصية، أعد عليّ ما ذكرت، قال: سل عمّا بدا لك.

قال: فما حال كلبي إيقاع؟ قال: مات، قال: وما الذي أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات، قال: أوَمات جملي زريق؟ قال: نعم، قال: وما الذي أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير، قال: أوَماتت أم عمير؟ قال: نعم، قال: وما الذي أماتها؟ قال: كثرة بكائها على عمير، قال: أوَمات عمير؟ قال: نعم، قال: وما الذي أماته؟ قال سقطت عليه الدار، قال: أوَسقطت الدار؟ قال: نعم، قال: فقام إليه بالعصا ضارباً فولى من بين يديه هارباً.

* * *

وحكى بعضهم: قال: كنت في سفر فضللت عن الطريق، فرأيت بيتاً في الفلاة، فأتيته فإذا به أعرابية، فلما رأتني قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف، أنزل على الرحب والسعة، قال: فنزلت، فقدّمت لي طعاماً، فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت، فقال: من هذا؟ فقالت: ضيف، فقال: لا أهلاً ولا مرحباً، ما لنا وللضيف، فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت، فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته، فإذا فيه أعرابية، فلما رأتني قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف، ما لنا وللضيف، فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت، فلما رآني قال: من هذا؟ قالت: ضيف، قال: مرحباً وأهلاً بالضيف، ثم أتى بطعام حسن فأكلت، وماء فشربت، فتذكرت ما مرّ بي بالأمس فتبسمت، فقال: ممّن تبسمت؟ فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلها، وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب، إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي، وإنّ بعلها أخو امرأتي هذه، فغلب على كل طبع أهله.

وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة، وأخبارهم ونوادرهم شهيرة، وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله التوفيق والهداية.

* * *

[البخل في رؤية أدبية]:

وهنا نضع ملتقطات من الشعر المناسبة لذلك:

ومن قول الحمدوني في ذلك:

رأيت أبا زرارة قال يوماً ... لحاجبه وفي يده الحسامُ

لئن وضع الخوان ولاح شخص ... لأختطفنّ رأسك والسلامُ

فقال سوى أبيك فذاك شيخ ... بغيض ليس يردعه الكلامُ
فقام وقال من حنق إليه ... ببيت لم يرد فيه القيامُ
أبي وابنا أبي والكلب عندي ... بمنزلة إذا حضر الطعامُ
وقال له ابن لي يا ابن كلب ... على خبزي أصادر أو أضامُ
إذا حضر الطعام فلا حقوق ... عليّ لوالديّ ولا ذمامُ
فما في الأرض أقبح من خوان ... عليه الخبز يحضره الزحامُ

وقال آخر:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري ... فليس إليه ما حييت سبيلُ
أرى الناس إخوان الكريم وما أرى ... بخيلاً له في العالمين خليلُ

ومما قالته الشعراء أيضاً في البخلاء وطعامهم، فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب:

والتغلبي إذا تنحنح للقرى ... حك استه وتمثّل الأمثالا

وله فيهم:

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم ... واستوثقوا من رتاج الباب والدارِ
قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم ... قالوا لأمّهم بولي على النارِ
فتمنع البول شحاً أن تجود به ... وما تبول لهم إلاّ بمقدارِ
والخبز كالعنبر الهندي عندهم ... والقمح خمسون إردياً بدينارِ

وقال بعضهم في بخيل:

أتانا بخيل بخبز له ... كمثل الدراهم في رقتِهْ
إذا ما تنفس حول الخوان ... تطاير في البيت من خفتِهْ

وقال آخر:

تـراهم خشـية الأضـياف خرسـاً ... يقيمـون الصـلاة بـلا أذانِ

وقال آخر وقد بات عند بخيل:

فبتنـا كأنّـا بيـنهم أهـل مـأتم ... علـى ميـت مسـتودع بطـن ملحـدِ

يحـدث بعضـاً بعضـنا بمصـابه ... ويـأمر بعضـاً بعضـنا بالتجلـدِ

وقال آخر:

وجيـرة لا نـرى فـي النـاس مـثلهم ... يكـون لهـم عيـدٌ وإفطـارُ

إن يوقـدوا يوسـعونا مـن دخـانهم ... ولـيس يبلغنـا مـا تطـبخ النـارُ

وقال آخر وأجاد:

فصـدّقْ أيمانـه إن كـان مجتهـداً ... لا والرغيـف فـذاك البـر مـن قسـمِهْ

فـإن هممـت بـه فاعبـث بخبزتـه ... فـإن موقعهـا مـن لحمـه ودمِـهْ

قـد كـان يعجبنـي لـو أن غيرتـه ... علـى جرادقـه كانـت علـى حرمِـهْ

وقال آخر:

ذهـب الكـرام فـلا كـرام ... وبقـى العضـاريط[1] اللئـامُ

مـن لا يقيـل ولا ينيـل ... ولا يشـمّ لـه طعـامُ

وقال آخر:

خليلـيّ مـن كعـب أعينـا أخاكمـا ... علـى دهـره إنّ الكـريم معـينُ

ولا تـبخلا بخـل ابـن قزعـة أنـه ... مخافـة أن يرجـى نـداه حـزينُ

إذا جئتـه فـي حاجـة سـدّ بابـه ... فلـم تلقـه إلاّ وأنـت كمـينُ

---

(١) العضاريط: جمع عضروط، وهو الرجل الذي يخدم بطعام بطنه. (لسان العرب ٧: ٣٥١).

وقال آخر:

لـه يومـان يـوم نـدى ويـوم ... يسلّ السيف فيه من القرابِ
فأما جوده فعلى قحاب[1] ... وأما سيفه فعلى الكلابِ

وقال آخر:

زففت إلى نبهان من صفو فكرتي ... عروساً غدا بطن الكتاب لها صدرا
فقبّلها عشراً وهام بحبّها ... فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

وقال آخر:

لو عبر البحر بأمواجه ... في ليلة مظلمة باردَه
وكفه مملوءة خردلاً ... ما سقطت من كفّه واحدَه

وقال آخر:

يا قائماً في داره قاعداً ... من غير معنى لا ولا فائدَه
قد مات أضيافك من جوعهم ... فاقرأ عليهم سورة المائدَه

وقال آخر:

نوالك دونه شوك القتاد ... وخبزك كالثريا في البعادِ
فلو أبصرت ضيفاً في منام ... لحرمت الرقاد إلى المعادِ[2]

* * *

---

(١) القحاب: السعال.

(٢) انتهى من المستطرف.

[الجبن والإحساس بالنقص]:

قوله عليه السلام: «والجبنُ منقَصَة».

في لسان العرب:[١] الجبان من الرجال الذي يهاب التقدم على كل شيء ليلاً كان أو نهاراً، وهكذا جاء في (تاج العروس).[٢]

وفي جامع السعادات:[٣] الجبن هو سكون النفس عن الحركة إلى الانتقام أو غيره مع كونها أولى، والغضب إفراط في تلك الحركة، فله ضدية للغضب باعتبار، وللتهور باعتبار آخر، وعلى الاعتبارين هو في طرف التفريط من المهلكات العظيمة، ويلزمه من الأعراض الذميمة: مهانة النفس، والذلة وسوء العيش، وطمع الناس فيما يملكه، وقلة ثباته في الأمور، والكسل، وحبّ الراحة، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها، وتمكين الظالمين من الظلم عليه، وتحمله للفضائح في نفسه وأهله، واستماع القبائح من الشتم والقذف، وعدم مبالاته بما يوجب الفضيحة والعار، وتعطيل مقاصده ومهمّاته، ولذلك ورد في ذمه من الشريعة ما ورد.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً».

وقال صلى الله عليه وآله: «اللّهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر».

وعلاجه ـ بعد تنبيه نفسه على نقصانها وهلاكها ـ أن يحرك الدواعي الغضبية فيما يحصل به الجبن، فإنّ القوة الغضبية موجودة في

---

(١) ج ١٣: ٨٤.

(٢) ج ٩: ١٥٩.

(٣) ج ١: ١٩٢ - ١٩٤.

كل أحد، ولكنها تضعف وتنقص في بعض الناس فيحدث فيهم الجبن، وإذا حركت وهيّجت على التواتر تقوى وتزيد، كما أن النار الضعيفة تتوقد وتلتهب بالتحريك المتواتر.

وقد نقل عن الحكماء أنهم يلقون أنفسهم في المخاطرات الشديدة والمخاوف العظيمة دفعاً لهذه الرذيلة.

ومما ينفع من المعالجات أن يكلّف نفسه على المخاصمة مع من يأمن غوائله، تحريكاً لقوة الغضب، وإذا وجد من نفسه حصول ملكة الشجاعة فليحفظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع في طرف الإفراط.

وفي الخلق الكامل:[١]

يمنع الجبن كثيراً من الناس عن إظهار عملهم كاملاً، فلا ينتفعون بما عندهم من علم وتجربة، إنّ هؤلاء وأمثالهم تظهر أعمالهم ناقصة دائماً، فيألمون لما يصيبهم من فوات المنفعة التي كانوا ينالونها لولا فقدان الشجاعة...

* * *

وفي (سفينة البحار): في مادة (جبن):[٢]

عن الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام قال: «لا يؤمن رجل فيه الشحّ والحسد والجبن، ولا يكون المؤمن جباناً ولا حريصاً ولا شحيحاً».

وقال عليه السلام: «ثلاث إذا كنّ في الرجل فلا تحرّج أن يقول إنّه في جهنم: الجفاء، والجبن، والبخل، وثلاث إذا كن في المرأة فلا تحرج أن تقول: إنها في جهنم: البذاء، والخيلاء، والفجر».

---

(١) تأيف: محمّد أحمد جاد المولى (١٣٠٠ - ١٣٦٣هـ) عالم، أديب، وباحث مصري...

(٢) أنظر: مستدرك سفينة البحار ٢: ٣٢.

ومن أخبار الجبناء ما رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار (ج ١ ص ١٦٩):

قال: رأى عمرو بن العاص معاوية يوماً يضحك، فقال: مِمّ تضحك يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك؟

قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوأتك يوم ابن أبي طالب، والله لقد وجدته مناناً، ولو شاء أن يقتلك لقتلك. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، أما والله إني لَعَن يمينك حين دعاك إلى البراز، فاحولّت عيناك، وربا سحرك، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك أو فدع.

* * *

قال ابن قتيبة: وقدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك، وعليه درع وعمامة سوداء وقوس عربية وكنانة، فبعثت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد ـ وهي تحته يومئذٍ ـ: من هذا الأعرابي المستلئم في السلاح عندك على خلوة وأنت في غِلالة؟ فأرسل إليها الوليد: أنّه الحجاج، فأعادت عليه الرسول: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحبّ إليّ من أن يخلو بك الحجاج، فضحك وأخبر الحجاج بقولها وهو يمازحه، فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعها على سرك ومكايدة عدوك.

فلما انصرف الحجاج ودخل الوليد على امرأته أخبرها بمقالة الحجاج، فقالت: يا أمير المؤمنين حاجتي إليك اليوم أن تأمره غداً أن يأتيني مستلئماً، ففعل ذلك، وأتاها الحجاج فحجبته، ثمّ أدخلته ولم تأذن له بالقعود، فلم يزل قائماً، ثمّ قالت: إيه يا حجاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأشعث، أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام،

ولا بقتل ابن ذات النطاقين أوّل مولود في الإسلام، وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره، فإن كنّ ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالقبول منك، وإن كن ينفرجن عن مثله فهو غير قابل لقولك، أما والله لو نفض نساء أمير المؤمنين الطيب من غدائرهن فبعته في أعطية أهل الشام حين كنت في أضيق من القرن قد أضلتك الرماح وأثخنك الكفاح، وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، فأنجاك الله من عدو أمير المؤمنين بحبهم إيّاه، قاتل الله القائل حين ينظر إليك وسنان غزالة بين كتفيك:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ربداء تنفر من صفير الصافر

هلاّ برزت إلى غزالة في الوغى أم كان قلبك في جناحي طائر

ثمّ قالت لجواريها: أخرجنه، فأُخرج.

* * *

[حكايات الجبناء]:

ومن ظريف حكايات الجبناء، ما ذكره ابن قتيبة أيضاً في الكتاب المذكور:

قال: كان بالبصرة شيخ من بني نهشل بن دارم يقال له عروة بن مرثد ويكنى أبا الأغر، ينزل في بني أخت له من الأزد في سكة بني مازن، فخرج رجالهم إلى ضياعهم في شهر رمضان، وخرجت النساء يصلين في مسجدهم، ولم يبق في الدار إلاّ الإماء، فدخل كلب يتعسس فرأى بيتاً مفتوحاً فدخله، وانصفق الباب عليه، فسمع بعض الإماء الحركة فظنّوا أنه لص دخل الدار، فذهبت إحداهن إلى أبي الأغر فأخبرته، فقال أبو الأغر: إلام يبتغي اللص عندنا؟!، وأخذ عصاه وجاء حتّى وقف بباب البيت، وقال: إيه يا فلان، أما والله

إني بك لعارف، فهل أنت من لصوص بني مازن، شربت حامضاً خبيثاً حتّى إذا دارت في رأسك منّتك نفسك الأماني، وقلت: أطرق دور بني عمرو، والرجال خلوف، والنساء يصلين في مسجدهن فأسرقهم، سوأة لك! والله ما يفعل هذا ولد الأحرار، وأيم الله لتخرجنّ أو لأهتفنّ هتفة مشؤمة يلتقي فيها الحيان عمرو وحنظلة، وتجيء سعد عدد الحصى، وتسيل عليك الرجال من هنا وهنا، ولئن فعلت لتكوننّ أشأم مولود.

فلما رأى أنه لا يجيبه أحد، أخذ باللين فقال: أخرج بأبي وأمي، أنت مستور، إني والله ما أراك تعرفني، ولو عرفتني لقنعت بقولي واطمأننت إليّ، أنا ـ فديتك ـ أبو الأغر النهشلي، وأنا خال القوم وجلدة بين أعينهم لا يعصونني ولن تضار الليلة، فاخرج فأنت في ذمتي، وعندي قوصرّتان أهداهما إليّ ابن أختي البار الوصول، فخذ إحداهما فانتبذها حلالاً من الله ورسوله، وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق وإذا سكت أبو الأغر وثب يريد الخروج، فتهافت أبو الأغر، ثمّ تضاحك وقال: يا ألأم الناس وأوضعهم، لا أرى إلاّ أني لك الليلة في واد وأنت لي في واد، اقلب السوداء والبيضاء فتصيح وتطرق، وإذا سكتُ عنك وثبت تريد المخرج، والله لتخرجنَّ أو لألجنّ عليك البيت، فلما طال وقوفه جاءت إحدى الإماء فقالت: أعرابي مجنون، والله ما أرى في البيت شيئاً، فدفعت الباب فخرج الكلب شارداً، وحاد عنه أبو الأغر ساقطاً على قفاه شائلة رجلاه، ثمّ قال: يا لله ما رأيت كالليلة، والله ما أراه إلاّ كلباً، أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه.

ونظير هذه الحكاية حكاية أبي حيّة النميري التي ذكرها ابن أبي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج (ص ٤١) في الطبعة الأولى، قال: (أي: أبو حية

النميري): وكان جباناً، قيل: كان لأبي حية سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق، كان يسمّيه لعاب المنية، فحكى عنه جيرانه أنه قال: أشرفت عليه ليلة وقد انتضاه وهو واقف بباب بيت في داره وقد سمع فيه حساً وهو يقول: أيها المغتر بنا، المجترئ علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورة صولته، لا تخاف نبوته، أخرج بالعفو عنك لا أدخل بالعقوبة عليك، إني والله إن أدعُ قيساً تملأ الفضاء عليك خيلاً ورجلاً، سبحان الله! ما أكثرها وأطيبها، والله ما أنت ببعيد من تابعها والرسوب في تيار لجتها، قال: وهبّت ريح ففتحت الباب، فخرج كلب يشتد، فلبط[1] بأبي حية وأربد وشغر برجليه، وتبادرت إليه نساء الحي، فقلن: يا أبا حيّة لتفرخ روعتك إنما هو كلب، فجلس وهو يقول: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفاني حرباً.

* * *

قال ابن قتيبة في عيون الأخبار (ج ١ ص ١٦٣):

ابن دأب قال: قال عمرو بن العاص لمعاوية: لقد أعياني أن أعلم أجبان أنت أم شجاع؟ فقال معاوية:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة ... وإلاّ تكن لي فرصة فجبانُ

حدّثني عبد الرحمن بن عبد الله، عن عمّه الأصمعي، قال: أرسل عبيد الله بن زياد رجلاً في ألفين إلى مرداس بن أديّة وهو في أربعين، فهزمه مرداس، فعنفه ابن زياد وأغلظ له، فقال: يشتمني الأمير وأنا حيّ أحبُّ إليّ من أن يدعو لي وأنا ميت.

---

(١) لبط: لبط فلان بفلان الأرض لبط لبطاً مثل لبج به: ضربها به، وقيل: صرعه صرعاً عنيفاً. (لسان العرب ٧: ٣٨٧).

فقال شاعر الخوارج:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ... ويهزمهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذلكم كذاكم[1] ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة يُنصرونا

* * *

أبو المنذر قال: حدّثنا زيد بن وهب، قال: قال لي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «عجباً لابن النابغة! يزعم أني تلعابة، أعافِس وأمارس! أما وشَرُّ القول أكذبه، إنه يسأل فيلحِف، ويُسأل فيبخل، فإذا كان عند البأس فإنه امرؤ زاجر ما لم تأخذ السيوف مأخذها من هام القوم، فإذا كان كذلك كان أكبر همّه أن يبرقِطَ ويمنح الناس أسته، قبّحه الله وترّحه».

* * *

قيل لأعرابي: ألا تغزو؟ فإنّ الله قد أنذرك، قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أمضي إليه ركضاً؟

وقال عبد الملك بن مروان في أمية بن عبد الله بن خالد:

إذا صوّت العصفور طار فؤاده ... وليث حديد الناب عند الثرائدِ

ونحوه قول الآخر:

ولو أنّها عصفورة لحسبتها ... مسوّمة تدعو عبيداً وأزنَما

* * *

(١) في بعض المصادر: كذبتم ليس ذاك كما زعمتم...

ولما قتل عبد الملك مصعبَ بن الزبير، وجّه أخاه بشر بن مروان على الكوفة، ووجّه معه روح بن زنباع الجذامي كالوزير، وكان روح رجلاً عالماً داهية، غير أنه كان من أجبن الناس وأبخلهم، فلما رأى أهل الكوفة من بخله ما رأوا تخوّفوا أن يفسد عليهم أمرهم، وكانوا قد عرفوا جبنه، فاحتالوا في إخراجه عنهم، فكتبوا ليلاً على بابه:

إن ابن مروان قد حانت منيته فاحتل لنفسك يا رَوحُ بن زِنباع

فلما أصبح ورأى ذلك لم يشكّ أنه مقتول، فدخل على بشر، فاستأذنه في الشخوص، فأذن له وخرج حتّى قدم على عبد الملك، فقال له: ما أقدمك! قال: يا أمير المؤمنين، تركت أخاك مقتولاً أو مخلوعاً، قال: كيف عرفت ذلك؟ فأخبره الخبر، فضحك عبد الملك حتّى فحص برجليه، ثمّ قال: احتال لك أهل الكوفة حتّى أخرجوك عنهم.

* * *

[أقسام الفقر]:

قوله عليه السلام: «الفَقْر يخرسُ الفطِن عن حاجَتِهِ أو حجته».

أقول: الفقر على قسمين: فقر إلى الله تعالى، وهو ممدوح، وهو شعار الأنبياء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الفقر شعاري» وقال صلى الله عليه وآله: «الفقر فخري».[1] وفقر إلى الناس، وهو مذموم، وفيه مذلة ومهانة في العقل وحقارة في المجتمع.

* * *

(١) بحار الأنوار ٦٩: ٤٩.

ففي جامع السعادات (ج ٢ ص ٧٧ ط النجف):

الفقر: ضد الغنى (الفقر)، وهو فقد ما يحتاج إليه، ولا يسمى فقد ما لا حاجة إليه فقراً، فإن عمم ما يحتاج إليه ولم يخص بالمال لكان كل موجود ممكن محتاجاً؛ لاحتياجه إلى دوام الوجود وغيره من الحاجات المستفادة من الله سبحانه، وانحصر الغنى بواحد واجب لذاته ومفيد لوجود غيره من الموجودات ـ أعني الله سبحانه ـ فهو الغني المطلق، وسائر الأشياء الموجودة فقراء محتاجون، وقد أُشير إلى هذا الحصر في الكتاب الآلهي بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[1] وإن خص بالمال لم يكن كل الناس فقراء، بل من فقد المال الذي هو محتاج إليه كان فقيراً بالإضافة إليه، والفقر بهذا المعنى هو الذي نريد بيانه هنا.

اختلاف أحوال الفقراء:

(الفقير) إما أن يكون راغباً في المال محباً له، بحيث لو وجد إليه سبيلاً لطلبه ولو بالتعب والمشقة، وإنما ترك طلبه لعجزه منه، ويسمى هذا فقيراً (حريصاً).

أو يكون وجود المال أحبّ إليه من عدمه، ولكن لم يبلغ حبه له حداً يبعثه على طلبه، بل إن أتاه بلا طلب أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى سعي في طلبه لم يشتغل به، ويسمى هذا فقيراً (قانعاً).

أو يكون بحيث لا يحبه، ولا يرغب فيه ويكره وجوده ويتأذى به، ولو أتاه هرب منه، بغضاً له ومحترزاً عن شره، ويسمى هذا فقيراً (زاهداً).

فإعراضه عنه وعدم سعيه في محافظته وضبطه لو وجده، إن كان

---

(١) محمّد: ٣٨.

لخوف العقاب فهو (فقر الخائفين)، وإن كان لشوق الثواب فهو (فقر الراجين)، وان كان لعدم التفاته اللازم لاقباله على الله تعالى بشراشره[1] من دون غرض دنيوي أو أخروي فهو (فقر العارفين).

أو يكون بحيث لا يحبه حباً يفرح بحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه، بل يستوي عنده وجوده وعدمه، فلا يفرح بحصوله ولا يتأذى به ويزهد فيه، بل كان راضياً بالحالتين على السواء، وغنياً عن دخوله وبقائه وخروجه من يده، من غير خوف من الإحتياج إذا فُقد. كالحريص والقانع، ولا حذار من شرّه وإضراره إذا وجد كالزاهد. فمثله لو كانت أموال الدنيا بأسرها في يده لم تضره. إذ هو يرى الأموال في خزانة الله لا في يد نفسه، فلا فرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، فيكون بحيث يستوي عنده الماء والهواء المخلوق في الجو، فكما أن كثرة الهواء في جواره لا يؤبه به، ولا يكون قلبه مشغولاً بالفرار عنه ولا يبغضه، بل يستنشق منه بقدر الضرورة ولا يبخل به على أحد، فكذلك كثرة المال لا تؤذيه ولا تشغل قلبه، ويرى نفسه وغيره فيه على السواء في المالكية.

ومثله ينبغي أن يسمّى (مستغنياً راضياً) لاستغنائه عنه وجوداً وعدماً، ورضائه بالحالين من دون تفاوت، ومرتبته فوق الزاهد، إذ غاية درجة الزهد كمال الأبرار، وصاحب هذه المرتبة من المقربين. فالزهد في حقه نقصان. إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، والسرّ فيه أنّ الزاهد كاره للدنيا فهو مشغول بالدنيا، كما أنّ الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله سبحانه حجاب عن الله، سواء كان بالحب أو بالبغض، فكلّ

---

(١) الشراشر: النفس، أو الثقل، أو المحبة، يقال: ألقى عليه شراشره، أي: أثقاله، أو نفسه حرصاً ومحبة. (أنظر: تاج العروس ٣: ٢٩٦).

ما سوى الله كالرقيب الحاضر في مجلس جمع العاشق والمعشوق، فكما أن التفات قلب العاشق إلى الرقيب وبغضه وكراهته حضوره نقص في الشوق، فكذلك التفات قلب العبد إلى غير الله تعالى وبغضه وكراهته نقصان في الحب والأنس، كما أن التفاته بالحب نقص فيهما، إذ كما لا يجتمع في قلب واحد حبّان في حالة واحدة، فكذلك لا يجتمع فيه حبّ وبغض في حالة واحدة، فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، وإن كان الثاني أسوأ حالاً من الآخر، إذ المشغول بحبها غافل في غفلته، سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل في غفلته سالك في طريق القرب، فيحتمل زوال غفلته وتبدلها بالشهود، فالكمال مرتقب له، إذ بغض الدنيا مظنة توصل العبد إلى الله.

وهرب الأنبياء والأولياء من المال، وفرارهم عنه، وترجيحهم فقده على وجوده، كما أشير إليه في بعض الأخبار والآثار، إمّا نزول منهم إلى درجة الضعفاء ليقتدوا بهم في الترك، إذ الكمال في حقّهم حب الترك وبغض الوجود؛ لأنّ مع وجوده يتعذر في حقهم استواء وجوده وفقده، وكونه عندهم كماء البحر، فلو لم يظهر الأنبياء النفار والكراهة من المال ويقتدي الضعفاء بهم في الأخذ لهلكوا.

فمثل النبي كمثل المعزّم الحاذق يفر بين يدي أولاده من الحية، لا لضعفه عن أخذها، بل لعلمه بأنه لو أخذها لأخذها أولاده أيضاً إذا رأوها وهلكوا.

فالسير بسيرة الضعفاء صفة الأنبياء والأوصياء، أو غير الهرب والنفار اللازمين للبغض والكراهة وخوف الاشتغال به، بل كان نفارهم منه كنفارهم من الماء، على معنى أنهم شربوا منه بقدر حاجتهم وتركوا

الباقي في الشطوط والأنهار للمحتاجين، من غير اشتغال قلوبهم بحبه وبغضه، ألا ترى أنه قد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله وخلفائه، فاخذوها ووضعوها في مواضعها، من غير هرب منه وبغض له؛ وذلك لإستواء المال والماء والحجر والذهب عندهم.

ثمّ تسمية صاحب هذه المرتبة بالفقير والمستغني لا يوجب التنافي، إذ إطلاق الفقير عليه لمعرفته بكونه محتاجاً إليه تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّ بها، فإنّه أحقّ باسم العبد من الغافلين وإن كان عاماً للخلق.

ثمّ كل مرتبة من المراتب المذكورة للفقر _ ما عدا الأخيرة _ أعمّ من أن يكون بالغاً حدّ الإضطرار، بأن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه، كالجائع الفاقد للخبز، والعاري الفاقد للثوب أم لا.

وأنت بعد ما فهمت اشتراك الفقر بين المعاني المذكورة لم يشكل عليك الجمع بين ما ورد في مدح الفقر كما يأتي، وبين ما ورد في ذمه، كقوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً» وقوله ﷺ: «الفقر الموت الأكبر» وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «من ابتلى بالفقر فقد ابتلى بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقة في دينه، وقلة الحياء في وجهه. فنعوذ بالله من الفقر».

مراتب الفقر ومدحه:

قد عرفت أن بعض مراتب الفقر راجع إلى الزهد، وبعضها إلى ما هو فوقه، أعني الرضى والاستغناء، وبعضها إلى القناعة، ففضيلة هذه

المراتب ظاهرة، والأخبار الواردة في فضيلة الزهد والرضى والقناعة تدل على فضيلة المراتب المذكورة من الفقر.

وأما المرتبة الأولى المتضمّنة للحرص، فهو أيضاً لا يخلو عن فضيلة بالنظر إلى الغنى المتضمن له، والأخبار الواردة في مدح الفقر تتناول بعمومها جميع مراتبه.

قال الله سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوالِهِم﴾،[1] وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ...﴾[2] الآية.

ساق الله سبحانه الكلام في معرض المدح، وقدّم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة جلية على مدح الفقر.

[ما ورد عن النبي ﷺ في الفقر]:

وقال رسول الله ﷺ: «خير هذه الأمّة فقراؤها، وأسرعها تصعداً في الجنّة ضعفاؤها».

وقال ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين».

وقال ﷺ: «إنّ لي حرفتين اثنتين، فمن أحبّهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني: الفقر، والجهاد».

وقال ﷺ: «الفقر أزين للمؤمنين من العذار الحسن على خد الفرس».

وسئل ﷺ عن الفقر، فقال: «خزانة من خزائن الله». وسئل عنه

---

(١) الحشر: ٨.

(٢) البقرة: ٢٧٣.

ثانياً، فقال ﷺ: «كرامة من الله» وسئل عنه ثالثاً، فقال ﷺ: «شيء لا يعطيه الله إلاّ نبياً مرسلاً، أو مؤمناً كريماً على الله».

وقال ﷺ: «إنّ في الجنّة غرفة من ياقوتة حمراء ينظر إليها أهل الجنّة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخل فيها إلاّ نبي فقير، أو مؤمن فقير».

وقال ﷺ: «يقوم فقراء أمّتي يوم القيامة وثيابهم خضر، وشعورهم منسوجة بالدر والياقوت، بأيديهم قضبان من نور يخطبون على المنابر، فيمرّ عليهم الأنبياء، فيقولون: هؤلاء من الملائكة، وتقول الملائكة هؤلاء من الأنبياء، فيقولون: نحن لا ملائكة ولا أنبياء، بل من فقراء أمّة محمّد ﷺ، فيقولون: بمَ نِلتم هذه الكرامة؟ فيقولون: لم تكن أعمالنا شديدة، ولم نصُم الدهر، ولم نقم الليل، ولكن أقمنا على الصلوات الخمس، وإذا سمعنا ذكر محمّد فاضت دموعنا على خدودنا».

وقال ﷺ: «كلّمني ربي، فقال: يا محمّد، إذا أحببتُ عبداً أجْعلُ له ثلاثة أشياء: قلبه حزيناً، وبدنه سقيماً، ويده خالية من حطام الدنيا، وإذا أبغضتُ عبداً، أجعل له ثلاثة أشياء: قلبه مسروراً، وبدنه صحيحاً، ويده مملوءة من حطام الدنيا».

وقال ﷺ: «الناس كلهم مشتاقون إلى الجنّة، والجنّة مشتاقة إلى الفقراء».

وقال ﷺ: «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر».

وقال ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيعتذر الله تعالى إليه، كما يعتذر الأخ إلى أخيه في الدنيا، فيقول: وعزّتي وجلالي، ما زويت الدنيا عنك لهوانك عليّ، ولكن أعددت لك من الكرامة والفضيلة، أخرج يا

عبدي إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك فيّ، أو كساك فيّ يريد بذلك وجهي، فخذ بيده، فهو لك، والناس يومئذٍ قد ألجمهم العرق، فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به ويدخله الجنّة».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بملوك أهل الجنّة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «كلّ ضعيف مستضعف، أغبر أشعث، ذي طمرين لا يؤبَه به، لو أقسم على الله لأبرّه».

ودخل ﷺ على رجل فقير ولم يَرَ لَهُ شيئاً، فقال: «لو قُسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم».

وقال ﷺ: «إذا أبغض الناس فقراءهم، وأظهروا عمارة الدنيا، وتكالبوا على جمع الدراهم والدنانير، رماهم الله بأربع خصال: بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والجبانة من ولاة الحكام، والشوكة من الأعداء».

* * *

وورد من طريق أهل البيت عليهم السلام في الفقر:

«إنّ الله تعالى إذا أحبّ عبداً ابتلاه، فإذا أحبّه الحبّ البالغ اقتناه».

قيل: وما اقتناه؟

قال: «لم يترك له أهلاً ولا مالاً».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وُكِّل الرزق بالحمق، ووُكّل الحرمان بالعقل، ووُكّل البلاء بالصبر».

وقال الباقر عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى منادياً ينادي بين يديه: أين الفقراء؟ فيقوم عنق من الناس كثير، فيقول: عبادي! فيقولون: لبّيك ربنا! فيقول: إني لم أفقركم لهون بكم عليّ، ولكن إنما

اخترتكم لمثل هذا اليوم، تصفحوا وجوه الناس، فمن صنع إليكم معروفاً لم يصنعه إلاّ فيّ، فكافوه عنّي بالجنّة».

وقال الصادق عليه السلام: «لولا إلحاح المؤمنين على الله في طلب الرزق لنقلهم من الحال التي هم فيها إلى حال أضيق منها».

وقال عليه السلام: «ليس لمصاص ـ أي: خالص كل شيء ـ شيعتنا في دولة الباطل إلاّ القوت، شرّقوا إن شئتم أو غرّبوا لن ترزقوا إلاّ القوت».

وقال عليه السلام: «ما كان من ولد آدم مؤمن إلاّ فقيراً، ولا كافراً إلاّ غنياً، حتّى جاء إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١] فصيّر الله في هؤلاء أموالاً وحاجة، وفي هؤلاء أموالاً وحاجة».

وقال عليه السلام: «إن فقراء المؤمنين يتقلّبون في رياض الجنّة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً»، ثمّ قال: «سأضرب لك مثل ذلك، إنما مثل ذلك مثل سفينتين مرّ بهما على عاشر[٢]، فنظر في إحداهما فلم يرَ فيها شيئاً، فقال: أسربوها، ونظر في الأخرى فإذا هي موقرة، فقال: احبسوها».

وقال عليه السلام: «المصائب منح من الله، والفقر مخزون عند الله».

(أي المصائب عطايا من الله يعطيها عباده، والفقر من جملتها مخزون عنده عزيز لا يعطيه إلاّ من خصّه بمزيد العناية).

وقال الكاظم عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: إنـي لم أُغن الغني لكرامة به عليّ ولم أُفقِر الفقير لهوانٍ به عليّ، وهو ما ابتليت به الأغنياء بالفقراء، ولو لا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنّة».

---

(١) الممتحنة: ٥.

(٢) العاشر: من يأخذ العشر.

وقال عليه السلام: «إنّ الأنبياء وأولاد الأنبياء خُصّوا بثلاث خصال: السقم في الأبدان، وخوف السلطان، والفقر».

وقال الإمام الرضا عليه السلام: «الفقر شينٌ عند الناس، وزين عند الله يوم القيامة».

وقال موسى بن عمران عليه السلام في بعض مناجاته: «إلهي من أحبّاؤك من خلقك حتّى أحبّهم لأجلك؟» فقال: «كل فقير».

وقال عيسى عليه السلام: «إنّ أحبَّ الأسماء إليَّ أن يقال: يا مسكين».

ومما يدل على فضيلة الفقر إذا كان مع الرضى أو القناعة أو الصبر أو الصدق أو الستر قوله صلى الله عليه وآله: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضى من قلوبكم، تظفروا بثواب فقركم، فإن لم تفعلوا فلا ثواب لكم».

وقوله صلى الله عليه وآله: «إنّ أحبّ العباد إلى الله الفقير القانع برزقه، الراضي عن الله تعالى».

وقوله صلى الله عليه وآله: «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً».

وقوله صلى الله عليه وآله: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي، فتقول الملائكة: من هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعين بعطائي الراضين بقدري، أدخلوهم الجنّة، فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون».

وما روي أن الفقراء بعثوا رسولاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: إنّي رسول الفقراء إليك، فقال: «مرحباً بك وبمن جئت من عندهم، جئت من عند قوم أُحبهم، فقال: قالوا: إنّ الأغنياء ذهبوا بالجنّة يحجّون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بَعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم، فقال النبي صلى الله عليه وآله: بلّغ عنّي الفقراء أنّ لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء:

أما الأولى: فإنّ في الجنّة غرفاً ينظر إليها أهل الجنّة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلاّ نبي فقير أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير.

والثانية: يدخل الفقراء الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام.

والثالثة: إذا قال الغني: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك، لم يلحق الغني بالفقير وإن أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البرّ كلها. فرجع إليهم، فقالوا: رضينا». انتهى.

* * *

وقرأت في المجلد الثاني من كتاب (المستطرف في كلّ فنٍّ مستظرف):[١]

وكان الصحابة يرون الفقر فضيلة. وحدّث ابن عبّاس قال: كان النبي ﷺ، يبيت طاوياً ليالي ما له ولأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول، هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه.

وقال جابر رضي الله عنه: دخل النبي ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل فبكى وقال: تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.[٢]

---

(١) ص ١٠٦ – ١٠٨.

(٢) الضحى: ٥.

وقال ﷺ: «الفقر موهبة من مواهب الآخرة، وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختاره إلاّ أولياء الله تعالى».

وقال ﷺ: «هل تُنصرون إلاّ بفقرائكم وضعفائكم، والذي نفسي بيده ليدخلنّ فقراء أمّتي الجنّة قبل أغنيائها بخمسمائة عام، والأغنياء يحاسبون على زكاتهم».

قال عون بن عبد الله: صحبت الأغنياء، فلم أجد فيهم أحداً أكثر همّاً منّي، لأنّي كنت أرى ثياباً أحسن من ثيابي، ودابة أحسَن من دابتي، ثمّ صحبت الفقراء بعد ذلك فاسترحت. قال بعضهم:

وقد يُهلك الإنسان كثرة ماله ... كما يذبح الطاووس من أجل ريشهِ

وقال عبد الله بن طاهر:

ألم ترَ أنّ الدهر يهدم ما بنى ... ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى

فمن سرّه أن لا يرى ما يسوؤه ... فلا يتّخذ شيئاً ينال به فقدا

وكان من دعاء السلف: «اللهم إنّي أعوذ بك من ذلّ الفقر وبطر الغنى».

وقيل: مكتوب على باب مدينة الرقة: ويل لمن جمع المال من غير حقه، وويلان لمن ورّثه لمن لا يحمده وقدم على من لا يعذره.

ولما فتحت بلخ في زمن عمر، وجد على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغني بعد الانصراف من بين يدي الله تعالى، أي بعد العرض.

قال الشاعر:

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل ... حزيناً على الدنيا رهين غبونها

إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن ... على حالة إلاّ رضيت بدونها

وقال آخر:

ولا ترهبنَّ الفقر ما عشت في غد ... لكل غد رزقٌ من الله واردُ

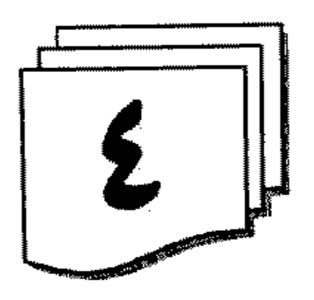
وقال هارون بن جعفر الطالبي:

بُوعدت همّي وقورب ما بي ... ففعالي مقصّر عن مقالي

ما اكتسى الناس مثل ثوب اقتناع ... وهو من بين ما اكتسوا سربالي

ولقد تعلم الحوادث أني ... ذو اصطبار على صروف الليالي

* * *



قوله عليه السلام:

الْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَى.

(نهج البلاغة ٤: ٣)



[العجز عن مقاومة الهوى]

قال ابن أبي الحديد: فهذه فصول خمسة:

الفصل الأوّل: قوله عليه السلام: «العَجز آفة»، وهذا حق؛ لأنّ الآفة هي النقص، أو ما أوجب النقص، والعجز كذلك، وكان يقال: العجز المفرط ترك التأهب للمعاد، وقالوا: العجز عجزان، أحدهما: عجز التقصير وقد أمكن الأمر، والثاني: الجد في طلبه وقد فات، وقالوا: العجز نائم والحزم يقظان.

الفصل الثاني: في الصبر والشجاعة:

وكان يقال: الصبر مرّ لا يتجرّعه إلاّ حُر، وكان يقال: إنّ للأزمان المحمودة والمذمومة أعماراً وآجالاً كأعمار الناس وآجالهم، فاصبروا لزمان السوء حتّى يفنى عمره ويأتي أجله، وكان يقال: إذا تضيفتك نازلة فأقرّها الصبر عليها، وأكرم مثواها لديك بالتوكل والاحتساب، لترحل عنك وقد أبقت عليك أكثر مما سلبت منك، ولا تنسها عند رخائك، فإن تذكرك لها أوقات الرخاء يبعد السوء عن فعلك، وينفي القساوة عن قلبك، ويوزعك حمد الله وتقواه.

الفصل الثالث: قوله عليه السلام: «والزهد ثروة»، وهذا حق؛ لأنّ الثروة ما استغنى به الإنسان عن الناس، ولا غناء عنهم كالزهد في دنياهم، فالزهد على الحقيقة هو الغناء الأكبر.

وَقَف ملكٌ على سقراط وهو في المشرقة، قد أسند ظهره إلى جبّ كان يأوي إليه، فقال له: سل حاجتك؟

فقال: حاجتي أن تتنحى عني، فقد منعني ظلك الموقف بالشمس، فسأله عن الجب؟ قال: آوي إليه قال: فإن انكسر الجب لم ينكسر المكان.

وكان يقال: الزهد في الدنيا هو الزهد في المحمدة والرياسة لا في المطعم والمشرب. وعند العارفين الزهد ترك كل شيء يشغلك عن الله، وكان يقال: العالم إذا لم يكن زاهداً لكان عقوبة لأهل زمانه، لأنّهم يقولون لولا أنّ علمه لم يصوب عنده الزهد فهم يقتدون بزهده في الزهد.

الفصل الرابع: قوله عليه السلام: «والورع جُنّة»، كان يقال: لا عصمة كعصمة الورع والعبادة، أما الورع فيعصمك من المعاصي، وأما العبادة فتعصمك من خصمك، فإنّ عدوك لو رآك قائماً تصلي، وقد دخل ليقتلك لصدّ عنك وهابك.

الفصل الخامس: قوله عليه السلام: «ونعم القرين الرضا» قال أبو عمرو بن العلاء: دُفعت إلى أرض مجدبة بها نفر من الأعراب، فقلت لبعضهم: ما أرضكم هذه؟ قال: كما ترى لا زرع ولا ضرع، قلت: فكيف تعيشون؟ قالوا: نحترش الضباب ونصيد الدواب، قلت: وكيف صبركم على ذلك؟ قالوا: يا هذا، سل خالق الخلق هل سوّيت؟ فقال: بل رضيت.

وكان يقال: من سخطَ القضاءَ طاح، ومن رضي به استراح.

وكان يقال: عليك بالرضا ولو قلبت على جمر الغضا، وفي الخبر المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال عن الله تعالى: «من لم يرضَ بقضائي فليتخذ رباً سواي».[1]

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٩٠ – ٩٢.

وقال صاحب (الدرة النجفية) في قوله عليه السلام: «والعَجزُ آفَةٌ».

العجز يحتمل العجز البدني والعجز النفساني، وهو عدم القدرة على مقاومة الهوى ودفعه، والأوّل آفة بدنية، والثاني آفة في العقل وعاهة فيه.

وقوله عليه السلام: «والصبر شجاعةٌ».

وهو جهاد مع النفس الأمارة ليستلزم فضيلة الشجاعة، فكذلك حمل الشجاعة عليه حمل اللازم على ملزومه.

وقوله عليه السلام: «والزُهدُ ثَروةٌ».

ورُسّمَ بأنه إعراض النفس عن متاع الدنيا وطيباتها، ولما كانت الثروة في العرف الغنى بالمال وكثرته، استعار لفظها للزهد لمشابهته إياها في استلزامها الغنى وعدم الحاجة.

وقوله عليه السلام: «والوَرَعُ جُنّة».

وحقيقة الورع لزوم الأعمال الجميلة، فلذلك استعار له لفظ الجنّة لمشابهتها في الوقاية من عذاب الله في الآخرة، ومن أكبر المصائب الدنيوية، كما يجنّن بالترس وغيره من السلاح.

وقوله عليه السلام: «ونعم القرين الرضا».

وقد علمت أنّ الرضا بقضاء الله باب عظيم من أبواب الجنّة، وظاهر أنّه نعم القرين.

* * *

وقال الشيخ بن ميثم في قوله عليه السلام: «والعَجزُ آفةٌ».

لفظ مهمل يحتمل العجز البدني. وهو عدم القدرة على التصرفات

البدنية عما من شأنه أن يقدر. ويحتمل العجز النفساني وهو عدم القدرة على مقاومة الهوى ودفعه. والأوّل آفة بدنية ونقصان فيه، والثاني آفة بالعقل وعاهة فيه.

وقوله عليه السلام: «والصبر شجاعة».

الصبر فضيلة تحت العفة ترسّم بأنّها مقاومة الهوى؛ لئلا يقود النفس إلى قبائح اللذات، وهو جهاد مع النفس الأمارة ليستلزم فضيلة الشجاعة، فلذلك حمل اللازم على ملزومه.

وقوله عليه السلام: «والزُّهدَ ثروة».

وهو فضيلة تحت العفة، ورسّم بأنّه إعراض النفس عن متاع الدنيا وطيباتها. ولما كانت الثروة في العرف عبارة عن الغنى بالمال وكثرته استعار لفظها للزهد لمشابهته إياها في استلزامهما للغنى وعدم الحاجة.

وقوله عليه السلام: «والوَرَعُ جُنّة».

وحقيقة الورع لزوم الأعمال الجميلة، فلذلك استعار له لفظ الجنّة لمشابهتها في الوقاية من عذاب الله في الآخرة، ومن أكبر المصائب الدنيوية، كما تجتن بالترس وغيره من السلاح.

وقوله عليه السلام: «ونعم القرين الرضا».

وقد علمت أن الرضا بقضاء الله وما نزل به القدر باب عظيم من أبواب الجنّة، وغاية من الملكات الفاضلة، وظاهر أنه نعم القرين في الدنيا والآخرة».[1]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٤.

وفي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[١]

قوله عليه السلام: «والعجز آفة».

إن العجز في الإنسان نوع من الفقر والإقلال، لأنه عوز ما يحتاج إليه في العمل وإنفاد الأمور الدنيوية أو الدينية، فكما أنّ الفقر وعدم المال نوع من العجز، حيث إنّ الفقير لا يقدر على إنفاد الأمور المحتاجة إلى بذل، فهو عاجز عن كثير من الأعمال، فكذا العاجز الجسمي مثل الأعمى والزمني والأشل، والعاجز النفساني كالسفيه والكسلان لا يقدر على كثير من الأعمال، فهو كمن عراه مرض أو عاهة منعته عن العمل.

قوله عليه السلام: «والصبرُ شجاعةٌ».

الشجاعة هي المقاومة تجاه العدو المهاجم، ودفع هجومه بما تيسّر، أو الهجوم على العدو اللدود لدفعه، وكلما لا يلائم عدوّ، كالبلاء وهجران الأصدقاء ومفارقة الأقرباء، وترك التمتع بما اشتهاه الإنسان، والصبر هو المقاومة تجاه عدو المكاره والبلايا، فحقيقة الشجاعة هي الصبر، وهو من الصفات الممدوحة التي ورد في الحث عليها آيات الكتاب ومستفيض السُّنّة بغير حساب.

وقوله عليه السلام: «والزُهد ثَروةٌ».

والثروة المال والمتاع المصروفان في إنجاز الحوائج. والزاهد هو الذي ترك الحوائج العادية ورغب عنها وكرهها، فيتحصل بالزهد للزاهد ما يحصله غيره بصرف الثروة. مضافاً إلى أن الزاهد في راحة عن تحصيل الحاجة وعواقبها، فمن صرف الدينار والدرهم في تحصيل

---

(١) ج ٢١: ١٢.

غذاء لذيذ تعَب نفسه بتحصيله، وتحمّل ألم ما يعقبه من البطنة والكسل والدفع، وربما بعض الأمراض، ولكن الزاهد في راحة عن ذلك كله، فالزهد ثروة بلا تعب.

وقوله عليه السلام: «والوَرَعُ جُنّةٌ».

الورع هو التجرّد عمّا يضر عاجلا أو آجلا فهو (جُنّة) دون أيّ بلية وعاهة في الدنيا، ودون أيّ عذاب وعقوبة في الآخرة.

وقوله عليه السلام: «ونعم القرين الرضا».

والرضا هو حسن الاستقبال عما يعرض للإنسان في كلّ حال، من حيث لا يقدر على تغييره بتدبيره، فمن تلبّس بالرضا تجاه ما قدّر وقضى فقد قرن بما حسن حاله في كل حين، وجعل لنفسه من نفسه رفيقاً يفيض السرور في قلبه.

* * *

وقال الشيخ محمّد جواد مغنية (في ظلال نهج البلاغة):[١]

قوله عليه السلام: «والعَجزُ آفَةٌ».

وكلمة العجز تعمّ وتشمل وباء الفقر والمرض والجهل، وهذه الأوباء الثلاثة آفة الإنسانية بكاملها، ومنها تتبع القبائح والرذائل، وبخاصة الفقر فإنّه السبب القريب والبعيد لأكثر الآفات والمشكلات.

وقوله عليه السلام: «والصبر شجاعة».

وحين يتحدّث الإمام عليه السلام عن الصبر وفوائده فإنه يتحدّث عن علم وتجربة، فلقد رأى وشاهد صبر رسول الله صلى الله عليه وآله والصحابة على

---

(١) ج ٤: ٢١٧.

الأذى والتنكيل في سبيل الإسلام، وثباته عليه مستهينين بكلِّ شيء، وهذا الصبر هو الأصل والأساس لحياة الإسلام وانتشاره، وعلى صخرته تحطّم الكفر والشرك، ولولا هذا الصبر والثبات ما كانت الهجرة، ولا بدر، وأحد، والأحزاب. بالتالي ما كان للإسلام عين ولا أثر.

وقوله عليه السلام: «والزهد ثروة، والورع جُنةٌ».

المراد بالزهد التورع عن الحرام، وبالورع الكف عنه، وعليه يكون العطف للبيان والتفسير، والمعنى أنّ العفيف النزيه في غنى عن الناس، وأمان من شرهم، لأنه بعفته ونزاهته يرضى ويقنع بالميسور، ويكف أذاه عن الآخرين، والقناعة كنز، وكفّ الأذى حصن وصيانة.

وقوله عليه السلام: «ونعمَ القَرين الرضى».

عليك أن تسعى جهدك للرزق، ولا تتكّل على القدر. وإذا سعيت ونلت من الحلال دون ما أمّلت فأرضَ بما تيسر، ولا ترفضه وتتبرم به. وقديماً قيل: لا يترك الميسور بالمعسور كيف والحرمان أقل منه؟ وبعض الشر أهون من بعض خذ ما تيسر، وانتظر الفرصة إلى ما هو أفضل ولا تتعجل الشيء قبل أوانه، فإن الأمور مرهونة بأوقاتها. ولا أظن مخلوقاً حقق كل ما ينشد من سعادة إلاّ من روّض نفسه على التسليم والرضا بما لا سبيل إلى سواه، ولا يقول لشيء لم يكن ليته كان ، أو لما كان ليته لم يكن.

والرضا بمنطق الواقع هو الذي عناه الإمام عليه السلام وأثنى عليه بقوله: «نعم القرين الرضا» لأنّه يحرر صاحبه من الحيرة والقلق، والتبرم والسخط بلا جدوى.

وبالاختصار إنّ تعاسة الإنسان قد تأتي من داخله لا من خارجه، ومن صنع يده لا من صنع القدر، لأنه يرفض الانسجام مع ظروفه الخاصة

التي تمسّه في الصميم، وتؤثر عليه وعلى شؤونه، ولا يجني من معاندتها إلاّ الآهات والحسرات.

ورأيت من الشباب الجامعي من يأنف ويحتقر بعض الأعمال، لأنها ـ بزعمه ـ عيب يمسّ كرامته، ويطمح إلى وظائف الأغَوات وأبناء الذوات، فيبحث ويلهث وراء كل مترعم حتّى إذا يئس عاد إلى ما استنكف عنه من قبل، وطلبه بلهفة. ولكن بعد فوات الفرصة التي لا سبيل إلى مردّها. فقعد كسيحاً خاسراً، لأنه أراد القفز أكثر مما تستطيع عضلاته.

وهكذا قضت حكمة الخالق جلّ وعلا أن يعاقب بالحرمان من استنكف عن رزقه المكتوب.

وأيضاً رأيت كثيراً من الشباب الجامعي يستسلمون لمنطق الواقع، ولا يأنفون من وظيفة كاتب بسيط، وبعضهم من حملة الدكتوراه، ومع الصبر والأيام صار أحدهم مديراً عاماً، وآخر استاذاً جامعياً، أو رئيساً لمصلحة، أو قاضياً مرموقاً، ولا سرّ ـ فيما أعتقد ـ إلاّ الرضا والصبر، الذي هو من مظاهر الحمد والشكر، فأنجز لهم سبحانه قوله ووعده: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١].

أقول: جاء في (مجمع البحرين): العجز ترك ما يجب فعله بالتسويف وهو عام في أمور الدنيا والدين.

وفي نهاية ابن الأثير: ومنه الحديث: «كل شيء بقَدَر حتّى العَجزُ والكَيَس»، وقيل: أراد بالعجز ترك ما يجب فعله بالتسويف، وهو عام في أمور الدنيا والدين.

---

(١) إبراهيم: ٧.

ذكر ابن عبد ربه الأندلسي تحت عنوان العجز عن العمل: قال رجل لمورق العجلي: أشكو إليك نفسي إنّها لا تريد الصلاة، ولا تستطيع الصبر على الصيام، قال: بئس الثناء أثنيت على نفسك، فإذا ضعفت عن الخير فاضعف عن الشر، فإنّ الشاعر قال:

إحزن على أنك لا تحزن ... ولا تسئ إن كنت لا تحسن

واضعف عن الشرّ كما تدعي ... ضعفاً عن الخير وقد يمكن

* * *

وقال بكر بن عبد الله: اجتهدوا في العمل، فإن قصّر بكم ضعف فامسكوا عن المعاصي.

وقال الحسن رحمه الله: من كان قوياً فليعتمد على قوته في طاعة الله، وإن كان ضعيفاً فليكف عن معاصي الله.

وقال عليّ: لا تكن كمن يعجز عن شكر ما أوتي، فيبتغي الزيادة فيما بقي، وينهى الناس ولا ينتهي.

وكان الحسن إذا وعظ يقول: يا لها موعظة لو صادفت من القلوب حياة، أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً، ما لهم تفاقدوا عقولهم، فراش نار وذباب طمع.

وكان ابن السماك إذا فرغ من موعظته يقول: ألسنة تصف، وقلوب تقف، وأعمال تخالف.

وقال: الحسنة نور في القلب وقوة في العمل، والسيئة ظلمة في القلب وضعف في العمل.

وقال بعض الحكماء: يا أيها المشيخة الذين لم يتركوا الذنوب حتّى تركتهم الذنوب، ثمّ ظنوا أنّ تركها لهم توبة، وليتهم إذ ذهبت عنهم لم يتمنوا عودها إليهم.

وكان مالك بن دينار يقول: ما أشدّ فطام الكبير وينشد:

تروض عرسك بعدما هرمت ... ومن العناء رياضة الهرم

ومن حديث محمّد بن وضاح قال: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب، مسح إبليس بيده على وجهه وقال: بأبي وجه لا أفلح أبداً، قال الشاعر:

فإذا رأى إبليس غرة وجهه ... حيّا وقال فديت من لا يفلح

وقال رجل للحسن: أبا سعيد أردت البارحة أن أصلي فلم أستطع، قال: قيدتك ذنوبك.

قوله عليه السلام: «والصَبرُ شجاعةٌ».

أقول: الصبر فضيلة محمودة تمكن العاقل من تأدية وظيفته في هدوء وثبات، وتنقذ من الإضطراب في وقت الشدائد واقتحام الأخطار، وتبعده عن الطيش والإندفاع، وإقحام نفسه فيما لا يستطيعه من غير تفكير في العواقب، ولا تقدير للنتائج.

* * *

جاء في كتاب (الأخلاق في حديث واحد):

الصبر جوهر من جواهر العقل، وفضيلة من الفضائل الخلقية، ونفحة من النفحات الروحية، يعتصم به المؤمن فيخفف من بأسائه، ويدخل إلى قلبه السكينة والاطمئنان. وهو دعامة للإيمان، تفرعت منه فروع البرّ والإحسان، ومنزل من منازل السالكين، ومقام من مقامات الموحدين، وبه يسلك العبد في سلك المقربين، وهو محمود العاقبة، وفيه النجاح والنجاة، فمن هداه الله بنور توفيقه ألهمه الصبر والتثبت في حركاته وسكناته، والجامع لخصال البرّ، وعمل ما يرضي الله في أحوال الطاعة، والصاد للشهوات النفسانية بترك ما نُهي عنه،

والحابس للنفس على المكاره واحتمال المصائب من غير جزع، والمقاوم لهوى النفس بغير المباح.

وإنّ لكلّ شيء جوهراً، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر، وإنّ العقل يأمر بالصبر، والهوى يأمر النفس بلذات قبائح الدنيا، والنفس تسعى لذلك وهي مجبولة على حبّ الهوى.

ولا يقدر على الصبر إلاّ من عرف عيب الهوى، وعاقبته الخسران، ونظر إلى عقبى الصبر وعاقبته النجاة، فحينئذٍ يهون عليه ما صبر عليه، وما صبر عنه.

* * *

وفي كتاب (روح الدين الإسلامي):

الصبر من الفضائل الخلقية، وهو النفحة الروحية التي يعتصم بها المؤمن، فتخفف من بأسائه، وتدخل إلى قلبه السكينة والاطمئنان إلى الغد، وتكون بلسماً لجراحاته التي يتألم منها. فالصابر يتلقّى المكاره بالقبول ويراها من عند الله، وعند التأمل نرى العناية الآلهية تسوق إلينا الشدائد لحكمة عالية، والجاهل هو الذي يضجر ويحزن ويكتئب، أما العاقل فيلتمس وجوه الخير فيما يبتليه الله به من الشدائد.

ولولا الصبر لانهارت نفس الإنسان من البلايا التي تنزل عليه، ولأصبح عاجزاً عن السير في ركب الحياة، وأصبح في حالة يكفر فيها بالقيم الأخلاقية فضلاً عن أنه يصبح عنصر شرٍ لا نفع منه، وعضواً فاسداً يجب بتره.

ونستطيع أن نصف الصبر بحق: بأنه الفاصل بين الحياة الروحية والمادية.

إعتنى القرآن بالصبر ومدحه ورفع منزلته، وأثنى على المتحلّين به ثناء لا مزيد عليه، وذكره حوالي سبعين مرة، ولم تذكر فضيلة أخرى بهذا المقدار،

وهذا يدل على عِظم أمره؛ لأنه أساس كثير من الفضائل؛ بل هو أمّها، لأنه يربي ملكات الخير في النفس. فما من فضيلة إلا وهي محتاجة إليه.

فالشجاعة، هي الصبر على مكاره الجهاد.

والعفاف، هو الصبر على الشهوات.

والحلم، هو الصبر على المثيرات.

والكتمان هو الصبر على إذاعة الأسرار.

لهذا كله أحبَّ الله الصابرين، وأعلن في القرآن أنهم ينالون مزيداً من الفضل والرحمة في الدنيا والآخرة. قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)] ويقول سبحانه أيضاً: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٢)] ويقول سبحانه في موضع آخر: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[(٣)].

والصابرون زيادة على هذا مؤيدون بمعونة الله، قال الله تعالى:

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.[(٤)] ويخوّلهم الله إمامة الناس إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا ما حكاه عن بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.[(٥)]

ويخبر الله بأن الصبر من الخصال العظيمة التي يجب أن يتصف بها المؤمنون: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.[(٦)]

---

(١) الزمر: ١٠.

(٢) النحل: ٩٦.

(٣) الإنسان: ١٢.

(٤) الأنفال: ٤٦.

(٥) السجدة: ٢٤.

(٦) آل عمران: ١٨٦.

أي إن العبر والتقوى من صواب التدبير الذي ينبغي أن يعزمه كل أحد.

ومدح الله نبيه أيّوب لاتصافه بالصبر بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ﴾.[١]

والصبر الذي دعا إليه القرآن هو ملكة الثبات والاحتمال التي تهوّن على صاحبها ما يلاقيه في سبيل تأييد الحق وإزالة الباطل، أو احتمال أذى الناس، وما يلاقيه من مصائب كالفقر والمرض وفقد عزيز.

دعا القرآن إلى الصبر في موطن الجهاد في سبيل الله، فقال سبحانه:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.[٢]

ودعا إليه في موطن تحمل أذى الناس: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.[٣]

ودعا إليه في موطن المثابرة على العبادة: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾،[٤] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.[٥]

ودعا إليه في موطن البلاء الذي يمتحن الله به عباده ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾.[٦]

وعدّد الله أنوع البلاء الذي في الآية التالية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ

---

(١) ص: ٤٤.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

(٣) النحل: ١٢٦.

(٤) مريم: ٦٥.

(٥) طه: ١٣٢.

(٦) محمّد: ٣١.

الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(١).

فهنا يذكر الله بأن الصابرين يفوزون بثلاث خصال لا تتوفر لغيرهم وهي: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ فصلوات الله عليهم، أي يثني عليهم ويزيدهم تشريفاً وتكريماً، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ هي: ما يكون لهم في نفس المصيبة من لطف الله وإحسانه، فيكون لهم منه حسن العزاء والرضا والتسليم بقضاء الله، وأولئك هم المهتدون، أي إلى الحق والصواب فيما ينبغي عمله في أوقات الشدائد والمصائب فلا يستحوذ الجزع على نفوسهم، ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم.

هذا هو الصبر الذي ذكره القرآن، فيه العزاء للقلوب المكلومة، وفيه الشفاء للنفوس الحزينة، والنجاح في هذه الحياة، إنه من الصفات الروحية التي تجلب كثيراً من الخير للمعذبين الذين يلتمسون الخلاص ممّا هم فيه ولا يجدون العلاج.

* * *

[معاني الصبر وأقسامه]:

جاء في (مناهل الأشواق):

الصبر حبس النفس، وله معنى واسع باعتبار ما يقع عليه، فتارة يصبر الإنسان على امتثال أمر الله ونهيه، فيفعل ما أمره الله به صابراً على ما يلحقه من التعب والنصب، ويترك ما نهاه الله عنه صابراً على ترك شهواته وملذاته، وتارة يصبر على البلاء في جسمه من مرض أو ألم جراحة أو

---

(١) البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

نحو ذلك، وتارة يصبر على ما يكابده من فقره وضيق معاشه، وتارة يصبر على ما يلحقه من ظلم ظالم له في ماله أو عرضه، وتارة يصبر على هضم حق له بقول أو فعل، وتارة يصبر على فقد قريب أو صديق له، وتارة يصبر على فقد إحدى حواسه أو أحد أعضائه، وتارة يصبر على فقد الكمالات النفسية والمعارف العلمية، فهذه أقسام ثمانية تصورناها للصبر، ويمكن تصوّر الصبر على غيرها إلاّ أنه يرجع لدى الحقيقة والبرهان إليها، والصبر في محله حسن بجميع أقسامه.

الصبر على امتثال أمر الله ونهيه:

إنّ هذا القسم من الصبر أكمل مراتب الصبر وأعلاه، وهو بجميع أقسامه حسن لأنّه إطاعة للمنعم الواجب الإطاعة، وهو وظيفة العبد في أداء حق مولاه، فمهما تحمل من الشدائد في امتثال أمر مولاه، وألزم نفسه بترك شهواته وملاذه لامتثال نواهيه، فهو لم يقم إلاّ بما هو ملزوم به عقلاً.

الصبر على مرض الجسم وألمه:

إذا عرض على الجسم مرض أو ألم بأحد أسبابه، وصبر من عرضت عليه الأسقام على تحملها، فلا ريب في حسن صبره، إذا لم يكُن قادراً على دفع ذلك العارض قبل وقوعه أو رفعه بعد وقوعه، وأما في صورة تمكنه من الدفع أو الرفع فلا يحسن الصبر، ولا يكون التارك لإزالة المرض أو الألم عن جسمه مع قدرته على الإزالة صابراً بالحقيقة؛ بل هو ممن وجد فيه ـ وهو كذلك ـ ضرب من ضعف العقل؛ لأن دفع الضرر والألم عن الجسم المكرّم واجب عقلاً وشرعاً.

الصبر على الفقر وضيق المعاش:

الصابر على فقره وضيق معاشه، هو صابر على بلاء عظيم. وصبره

حسن إذا كان من ابتلى به سعى إلى رزقه بحسب حاله، ووضع ما وصل إليه من الرزق في محله، ومع ذلك كان رزقه ونصيبه من الدنيا قليلاً، فلا ريب في حسن صبره لاسيّما إذا كان مع شكره لله سبحانه متحلياً بصفات المعارف والكمال، فإنه في هذه الحالة خير ممن كثر نصيبه من المال وكان لا يفقه كثيراً من الكمالات النفسية، وأما من ترك السعي إلى رزقه ولم يتحرك له كما هو المطلوب منه عقلاً وشرعاً، فليس صبره على فقره وضيق معاشه صبراً حسناً، بل هو مذموم شرعاً وعقلاً؛ لأنَّ الله أمر بالسعي، ونهى عن أن يكون الإنسان كلاًّ على غيره، فإنه ملعون ملعون من ألقى كلّه على غيره وهو يقدر على طلب رزقه والسعي إليه، وبابُ النقل عن النبي وأوصيائه ﷺ وكيف كانوا يسعون إلى رزقهم، وكذلك حال الأنبياء والأوصياء قبلهم، واسعٌ جداً يعرفه كلّ من كانت له في أحوالهم التاريخية نظرة استبصار ومعرفة.

الصبر على ظلم الظالم:

إنما يكون الصبر على ظلم الظالم حسناً إذا لم يجد المظلوم باباً للتخلص من ظلمه، أمّا بنفسه أو بانضمامه واعتصامه وتماسكه بغيره كي يتمكن من رفع الظلم عنه، وإلا فببُعده عنه، وخروجه من دائرته. فإنْ تمكن ولم يفعل كان معيناً على نفسه، ولا حسن في صبره، وإن لم يجد باباً للتخلص فهو الصابر المظلوم المحتسب، والله يخلف عليه ويأخذ بحقه ممن ظلمه وبغى عليه، إنّ الله لا يضيع مثقال ذرة.

الصبر على هضم الحق:

إذا كان هضم الحق بقول أو فعل من المساوي أو الأدنى، وصبر المهضوم وعفا، فهو الصابر العافي عن الناس، وهو مصداق قوله تعالى:

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[1] وإن كان ذلك الهضم ممن هو فوقه ولا يقدر على التخلص منه، كما في القسم السابق فهو صابر محتسب.

الصبر على فقد القريب أو الصديق:

إنّ هذا هو الصبر الحسن الجميل، وإن حزن القلب ودمعت العين، كما ورد عن النبي ﷺ فهو حسن بجميع أقسامه.

الصبر على فقد بعض الأعضاء أو الحواس:

لا نرتاب في حسن الصبر على فقد أحد الحواس أو أحد الأعضاء، بلا فرق بين أن يكون فقدها بأصل الخلقة أو بالتسبيب من نفسه أو غيره، أو بسبب سماويّ؛ لأنه صابر على بلائه في الحالة الفعلية التي لا يمكن رفعها فالصبر حسن جميل، وعدم الصبر في هذا القسم وسابقه ضرب من الحمق.

الصبر على فقد الكمالات النفسية:

إنّ الصبر على فقد الكمالات النفسية والمعارف العلمية يمكننا أن نقول: إنه لا مصداق له في العالم الإنساني، والذي يمكن أن يكون مصداقاً له ومنطبقاً عليه هو صبر من حبس عن الاجتماع بأهل العلم بالكمالات النفسية والمعارف العلمية، ولم يقدر في حياته على الوصول إليها، وهيهات وهيهات وجود هذا الفرد؛ لأنّ الأبواب لكسب الكمال واسعة وطرقها كثيرة، ولو انتبه من لم يتحلّ بها لعلم أن ذلك هو الخسران العظيم؛ لأنّ فقد الكمال والعلم والمعرفة هو فقد الحياة النفسية، وفقد سواها فقد الحياة الجسمية.

---

(١) آل عمران: ١٣٤.

يا خادمَ الجسم كم تسعى لخدمته أتلفت عمرك فيما فيه خسرانُ
اقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

ولا ريب بأنّ الإنسان بروحه يتحقق كمال وجوده لا بكمال جسمه.

[إضاءات قرآنية في الصبر]:

وإذا عرفت أقسام الصبر، وما هو منها مورد المدحة الربانية، ومصداق النصوص القرآنية، فإليك بيان الآيات الواردة في مدح أهل الصبر والآمرة به، قال سبحانه في سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.[١]

أي احبس نفسك مع الذين يدعون ربّهم ويعملون بما أمرهم به وينتهون عمّا نهاهم عنه، ولا ترغب عنهم إلى غيرهم ممن لم يكن عارفاً بالله شاكراً له، ممتثلاً لأمره ونهيه، بل كان متبعاً لهواه، مفرطاً في أمر مولاه.

وقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.[٢]

هذا جمع مفرده صابر وهو الذي يحبس نفسه عن إظهار الجزع والمكروه في الأمور التي ترد عليه، ويلزم نفسه بطاعة الله سبحانه وأداء تكليفاته الربانية ابتغاء لمرضاته.

وقال سبحانه في سورة طه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.[٣]

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) البقرة: ١٥٥.

(٣) طه: ١٣٢.

أي احمل نفسك على الصلاة ومشاقها، وإن نازعتك الطبيعة إلى تركها طلباً للراحة فانهرها، ولذلك عدل سبحانه وتعالى إلى الإصطبار في التعبير؛ لأنّ الافتعال فيه زيادة معنى ليست في الفعل الثلاثي، وهذه خاصة في مدح الصابرين على إطاعة الله سبحانه، وآمرة بالصبر عليها، فتخص القسم الأوّل من الصبر.

ومن الآيات العامة لأقسامه قوله سبحانه: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾.[1] أي في الشدائد، ولم تعطف على ما قبلها، بل نصبت على المدح بياناً لفضل الصبر على سائر الأعمال في جميع أقسامه.

وقال سبحانه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.[2] قيل إن هذه خاصة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى التوحيد، والأقوى أنّها بحالها من المعنى تعمّ جميع أقسام الصبر، ولا نرتاب بأنّ مهمات موارد الصبر هي المهمات في الإبتلاء، ولذلك قال سبحانه: في سورة محمّد: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾.[3]

ففي موارد الابتلاء يتميز العقلاء، فهل يكون ذلك العاقل قادراً على تحمل ما نزل بساحته، وصابراً عليه، أو أنه يأخذه الجزع والهلع فيخرج عن دائرة الأدب تارة مع المخلوقين، وتارة مع الخالق سبحانه، ولربّما كفر بالله بأقل بلاء نزل به، وهذا مسبب عن ضعف المدارك والإيمان، فإنّ أبواب المغفرة والرحمة تفتح بالصبر على البلاء والحمد في موارده. قال سبحانه:

---

(١) البقرة: ١٧٧.

(٢) العصر: ٣.

(٣) محمّد: ٣١.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

فانظر بعقلك إلى هذه المدحة الربانية للصابرين، وإلى ما ينالهم من المغفرة والرحمة والهداية، وقد عرفت في تقسيم الموارد التي يتحقق حسن الصبر فيها أنّ من لم يكن صابراً على ما وصل إليه، كان عدم صبره مجرداً عن كل فائدة عقلائية، بل ربّما أدى إظهار الجزع إلى إساءة الصديق وشماتة العدو، فيكون مذموماً عند العقلاء. ومن صبر وحمد الله على ما هو عليه ترى ألسنة العقلاء جارية بالثناء عليه حتّى أنّ من لم يتصف بالصبر يراه من الصفات الجميلة الجليلة، و«الصبر مفتاح الفرج» انتهى.

لا جرم أن جميع خلال الخير، وخصال البرّ، وأحوال الطاعة، وما جعل الله في الإنسان من حسن الشيم، وكرم الأخلاق، وأسباب الديانة، ودواعي الإيمان إنما هي كلها مرتبطة بالصبر، وراجعة على الصبر، ومحمولة على الصبر، وجارية مع الصبر، كيف تأملتها، وعلى أي حال تدبرتها؛ فإنه قطب تدور عليه جميع الأفعال المحمودة، ألا ترى أن الكرم صبر على مفارقة المال وعلى حبه، وأن العدل صبر على إمضاء الحكم وإن شقّ، وأن الصدق صبر فربما خالطه شوائب تُكره، وأن الحلم جامع لأشتات الصبر، فما منح الله الصبر عبداً من عبيده وهو يريد به شيئاً سوى الصبر.

---

(١) البقرة: ١٥٥ – ١٥٧.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللّهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيراً منها إلاّ فعل الله ذلك به».[1]

وقال صلى الله عليه وآله: «من أعطي فشكر، ومُنِعَ فصبر، وظُلم فغفر، وظَلَمَ فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون».[2]

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه الصبر، إلاّ كان ما عوضه الله أفضل مما انتزعه منه.[3]

* * *

ذكر الأبشيهي في المجلد الثاني من كتابه (المستطرف: ص ٧٦/ ط بولاق):

إن الله تعالى مدح الصبر في كتابه العزيز في مواضع، وأمر به وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأثنى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه وحثّ على التثبت في الأشياء ومجانبة الاستعجال فيها. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.[4]

فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثمّ جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾.[5]

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ٢٢٧.

(٢) بحار الأنوار ٦٤: ٢٣٦.

(٣) تاريخ دمشق ٤٥: ٢٣١ (نحوه).

(٤) البقرة: ١٥٣.

(٥) الزمر: ١٠.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾.(١)

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾.(٢)

وبالجملة، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه في نيف وسبعين موضعاً، وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.(٣)

[أحاديث شريفة في الصبر]:

وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة، فمن ذلك قوله ﷺ: «النصر في الصبر».

وقوله ﷺ: «بالصبر يتوقع الفرج».

وقوله ﷺ: «الأناة من الله تعالى، والعجلة من الشيطان. فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته، والتثبت في حركاته وسكناته، وكثيراً ما أدرك الصابر مرامه أو كاد، وفات المستعجل غرضه أو كاد».

قال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت: يا أمير المؤمنين إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟! فما زادني إلاّ أن قال:

اصبر على مضض الإدلاج في السحر ... وفي الرواح إلى الطاعات في البكر

إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقلّ من جدّ في أمر يؤمله ... واستصحب الصبر إلاّ فاز بالظفر

---

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) الأعراف: ١٣٧.

(٣) الأحقاف: ٣٥.

فحفظتها منه وألزمت نفسي بالصبر في الأمور فوجدت بركة ذلك.

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «احفظوا عني خمساً، ثنتين، وثنتين، وواحدة: لا يخافنّ أحدكم إلاّ ذنبه، ولا يرجو إلاّ ربّه، ولا يستح أحد منكم إذا لم يعلم أن يتعلم، وإذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد. إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات في حبسه مات شهيداً، فإن ضربه فمات فهو شهيد».

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ثلاث من رزقهنّ فقد رزق خيرَي الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء».

[حكاية امرأة في الصبر]:

(ويحكى) أنّ امرأة من بني إسرائيل لم يكن لها إلاّ دجاجة فسرقها سارق، فصبرت وردّت أمرها إلى الله تعالى ولم تدعُ عليه، فلمّا ذبحها السارق ونتف ريشها ثبت جميعه في وجهه، فسعى في إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل فشكا له، فقال: لا أجد لك دواء إلاّ أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سُرقت، فقال: لقد آذاكِ من سرقها، قالت: قد فعل، ولم تدعُ عليه، قال: وقد فجعكِ في بيضها، قالت: هو كذلك، فما زال بها حتّى أثار الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه، فقيل لذلك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدعُ انتصر الله لها، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه.

فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة، ويحمد الله تعالى، ويعلم أن النّصر مع الصبر، وأنّ المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج والفرح عاجلاً.

[الصبر في رحاب الأدب]:

ومن أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم:

وإذا مسَّك الزمان بضر ... عظمت دونه الخطوب وجلّتِ

وأتت بعده نوائب أخرى ... سئمت نفسك الحياة وملّتِ

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني ... فالرزايا إذا توالت تولّتِ

وإذا أوهنت قواك وجلّت ... كشفت عنك جملة وتخلّتِ

ولمحمّد بن بشر الخارجي:

إن الأمور إذا اشتدّت مسالكها ... فالصبر يفتح منه كلّ مارتجا

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبه ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

ولزهير بن أبي سلمى:

ثلاث يعزّ الصبر عند حلولها ... ويذهل عنها عقل كلّ لبيبِ

خروج اضطرار من بلاد يحبّها ... وفرقة إخوان وفقد حبيبِ

وقال بعضهم:

عليك بإظهار التجلّد للعدا ... ولا تظهرنّ منك الذبول فتحقرا

أما تنظر الريحان يُشم ناضراً ... ويطرح في البيدا إذا ما تغيرا

ولابن نباتة:

صبراً على نوب الزمان ... وإن أبى القلبُ الجريحُ

فلكـــلّ شـــيء آخـــرٌ إمـــا جميـــلٌ أو قبـــيحُ

وقال أبو الأسود وأجاد:

وإن امرءاً قد جرّب الدهر لم يخف تقلـب عصـريه لغيـر لبيـبِ

ومـا الـدهر والأيـام إلاّ كمـا تـرى رزيـة مـال أو فـراق حبيـبِ

ومـن كـلام الحكمـاء: مـا جوهـد الهـوى بمثـل الـرأي، ولا اسـتنبط الـرأي بمثـل المشـورة، ولا حفظـت الـنعم بمثـل المواسـاة، ولا اكتسـبت البغضاء بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر.

وقال نهشل:

ويـوم كـأن المصـطلين بحـرِّهِ وإن لـم يكـن نـار قيام على الجمر

صـبرنا لـه صـبراً جمـيلاً وإنمـا تفـرج أبـواب الكريهـة بالصبر

وقال ابن طاهر:

حـــذّرتني وذا الحـــذر لـــيس يغنـــي مـــن القـــدرْ

لـــيس مـــن يكـــتم الهـــوى مثـــل مـــن بـــاح واشـــتهرْ

إنمـــا يعـــرف الهـــوى مـــن علـــى مـــرّه صـــبرْ

نفـــس يـــا نفـــس فاصـــبري فـــاز بالصـــبر مـــن صـــبرْ

وكـان يقـال: مـن تبصّـر تصبّر، وكـان يقـال: إنّ نوائـب الـدهر لا تـدفع إلاّ بعـزائم الصـبر، وكـان يقـال: لا دواء لـداء الـدهر إلاّ بالصـبر، ولله درّ القائل:

الـدهر أدّبنـي والصـبر ربّـاني والقـوت أقنعنـي واليـأس أغنـاني

وحنّكتنـي مـن الأيـام تجربـة حتّى نهيت الذي قد كان ينهاني

وما أحسن ما قال محمود الوراق:

إني رأيت الصبر خير معوّل ... في النائبات لمن أراد معوّلا

ورأيت أسباب القناعة أكدت ... بطر الغنى فجعلتها لي معقلا

فإذا نبا بي منزل جاوزته ... وجعلت منه غيره لي منزلا

وإذا غلا شيء علي تركته ... فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبة ... فأفرغ لها صبراً ووسّع لها صدرا

فإن تصاريف الزمان عجيبة ... فيوماً ترى يسراً ويوماً ترى عُسرا

وما أحسن ما قيل:

الدهر لا يبقى على حالة ... لا بدّ أن يُقبل أو يُدبر

فإنْ تلقّاك بمكروهة ... فاصبر فإنّ الدهر لا يصبر

* * *

[قصة محمّد بن الحسن في المعتقل]:

ونقل عن محمّد بن الحسن، قال: كنت معتقلاً بالكوفة، فخرجت يوماً من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همّي وكادت نفسي أن تزهق وضاقت علي الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل علي ورأى ما أنا فيه من الكآبة، فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ستر للكروب، وعون على الخطوب». وروي عن ابن عمّه عليّ رضي الله عنه أنه قال: «الصبر مطية لا تدبر، وسيف لا يكلّ».

وأنا أقول:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله   عند الإله وأنجاه من الجزع

من شدّ بالصبر كفاً عند مؤلمة   ألوت يداه بحبل غير منقطع

فقلت له: بالله عليك زدني، فقد وجدت بك راحة، فقال: ما يحضرني شيء عن النبي ﷺ ولكني أقول:

أما والذي لا يعلم الغيب غيره   ومن ليس في كلّ الأمور له كفوُ

لئن كان بدء الصبر مرّاً مذاقه   لقد يجتني من بعده الثمر الحلوُ

ثمّ ذهب، فسألت عنه فما وجدت أحداً يعرفه، ولا رآه أحد قبل ذلك في الكوفة، ثمّ أخرجت في ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لي سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به، ووقع في نفسي أنه من الأبدال الصالحين قيّضه الله تعالى لي يوقظني ويؤدبني ويسليني.

وقيل: إنّ رجلاً كان يُضرب بالسياط ويُجلد جلداً بليغاً ولم يتكلم، ويصبر ولم يتأوه، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة، فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى، قال لِمَ لا تصيح؟ فقال: إنّ في هذا القوم الذين وقفوا عليّ صديقاً لي يعتقد فيّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينه، فأخشى إن صحت يذهب ماء وجهي عنده ويسوء ظنّه بي، فأنا أصبر على شدّة الضرب، واحتمله لأجل ذلك.

قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه   ويُحمد منه الصبر ممّا يصيبهُ

فمن قلّ مما يلتقيه اصطباره   لقد قلّ فيما يرتجيه نصيبهُ

* * *

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلاّ بالصبر، ولم يكلفني إلاّ ما كلفوا به، فقال ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[1] وإني والله لأصبرّن كما صبروا»، فإنّ النبي ﷺ لما صبر كما أُمر، أسفر وجه صبره عن ظفره ونصره. وكذلك الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولو العزم لمّا صبروا ظفروا وانتصروا.

وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة، فقال مقاتل: هم نوح، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب ويونس، وأيّوب عليهم السلام.

وقال قتادة: هم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، ويقال: ما الذي صبروا عليه حتّى سمّاهم الله تعالى أولي العزم؟

فأقول:

ذكر ما صبر عليه الأنبياء عليهم السلام:

[نوح عليه السلام]:

أما نوح عليه السلام، فقد قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كان نوح عليه السلام يُضرب ثمّ يُلف في لبد ويُلقى في بيته، يرون أنه قد مات، ثمّ يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منهم ومن إيمانهم، جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه، فقال لابنه: يا بني أنظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرّك، فقال له أبنه: يا أبت مكّني من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوح عليه السلام شجّ بها رأسه وسال الدم على وجهه، فقال: ربّ قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم وإلاّ فصبّرني إلى أن تحكم.

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾،[1] واصنع الفلك، قال: يا رب، وما الفلك؟

قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء، أنجي فيه أهل طاعتي، وأغرق فيه أهل معصيتي، قال: يا رب وأين الماء؟

قال: أنا على كل شيء قدير، قال: يا ربّ وأين الخشب؟ قال: أغرس الخشب، فغرس الساج عشرين سنة، وكف عن دعائهم، وكفّوا عن ضربه إلاّ أنّهم كانوا يستهزؤن به، فلما أدرك الشجر أمره ربّه فقطّعها وجفّفها، وقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟

قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبرئيل فعلّمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عجّل بعمل السفينة، فقد اشتد غضبي على من عصاني. فلما فرغ من السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته، وإهلاك قومه وعذابهم إلاّ من آمن معه، وفار التنور وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب، حتّى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال وعلا فوق أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً، وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين، ونصر نبيّه نوح عليه السلام، وفي تمام قصته وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه، فهذا زبدة تصبّر نوح عليه السلام وانتصاره على قومه.

[إبراهيم عليه السلام]:

وأما إبراهيم عليه السلام فإنّه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها، لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه فأخذوه وحبسوه ببيت،

---

(١) هود: ٣٦.

ثمّ بنوا حاجزاً كالحوش طول جدرانه ستون ذراعاً إلى سفح جبل عالٍ، ونادى منادي ملكهم أن احتطبوا لاحراق إبراهيم، ومن تخلف عن الإحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يوماً ليلاً ونهاراً حتّى كاد الحطب يساوي رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحاجز، وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها حتّى الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها، ثمّ بنوا بنياناً شامخاً وبنوا فوقه منجنيقاً، ثمّ رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم عليه السلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى، وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، وقيل: كان عمره يومئذٍ ستة وعشرين سنة.

فنزل إليه جبرئيل عليه السلام وقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبرئيل: سلْ ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فقال الله تعالى: ﴿يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبراهِيمَ﴾، فلما قذفوه فيها نزل معه جبرئيل عليه السلام فجلس به على الأرض، وأخرج الله له ماءً عذباً... وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام وقيل أكثر من ذلك، ونجّاه الله تعالى ثمّ أهلك نمرود وقومه بأخس الأشياء، وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه السلام بهم، فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى ولم يجزع، وصبر وفوّض أمره إلى الله تعالى في ذلك وتوكل عليه ووثق به.

ثمّ جاءته قصة ذبح ولده، وأمره الله تعالى بذلك، فقابل أمره بالتسليم والامتثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إمهال. وقصته مشهورة. وتفاصيل القصة في كتب التفسير مسطورة، فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولاه، وصبره على ما قدّره وقضاه عوّضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه، واتخذه خليلاً من بين خلقه واجتباه.

[إسماعيل عليه السلام]:

وأما الذبيح، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه صبر على بلية الذبح، وتلخيصها: أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، قال: إني أريد أن أقرّب قرباناً فأخذ ولده والسكين والحبل وانطلق، فلما دخل بين الجبال، قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إن الله تعالى قد أمرني بِذبحك ﴿فَانظُرْ مَا ذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾،[1] يا أبت اشدد وثاقي كي لا أضطرب واجمع ثيابك حتّى لا يصل إليها رشاش الدم، فتراه أمّي فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقي ليكون أهون للموت عليَّ، وإذا لقيت أمّي فاقرأ السلام عليها، فأقبل إبراهيم عليه السلام على ولده يقبّله ويبكي ويقول: نعم العون أنت يا بني على ما أمر الله سبحانه.

قال مجاهد: لما أمرّ السكين على حلقه انقلبت السكين، فقال: يا أبت اطعن بها طعناً، قال السدي: جعل الله حلقه كصفيحة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئاً، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودي يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأتاه جبرئيل عليه السلام بكبش أملح فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصبره وامتثاله لأمره.

[يعقوب عليه السلام]:

وأما يعقوب عليه السلام فإنه لما ابتلى بفراق ولده وذهاب بصره واشتداد حزنه قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، وكذلك يوسف عليه السلام، لما ابتلاه الله تعالى بالقائه في ظلمة الجبّ وبيعه كما تُباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله

---

(١) الصافات: ١٠٢.

السجن، وحبسه فيه بضع سنين، وإنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما، واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة.

[أيّوب عليه السلام]:

وأما أيّوب عليه السلام فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله، وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك، حتّى أفضى أمره على ما تضعف القوى البشرية عن حمله، ولنذكر شيئاً مختصراً من ذلك:

وهو أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم، وسكت عنه أيّوب عليه السلام فلم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته، فأوحى الله تعالى إلى أيّوب عليه السلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك لأطيلن بلاءك، فقال إبليس (لعنه الله): يا رب سلطني على أولاده وماله، فسلّطه، فبشّر إبليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاتها فاحتملوها جميعاً وقذفوها في البحر، وبعث بعضهم إلى زرعه وجنانه فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازله وفيها أولاده، وكانوا ثلاثة عشر ولداً وخدمه وأهله فزلزلوها فهلكوا ثمّ جاء إبليس إلى أيّوب عليه السلام وهو يصلي فتمثل له في صورة رجل من غلمانه فقال: يا أيّوب أنت تصلي ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة وقذفت الجميع في البحر، وأحرقت زرعك وهدمت منازلك على أولادك وأهلك فهلك الجميع، ما هذه الصلاة، فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذي أعطاني ذلك كله ثمّ قبله مني، ثمّ قام إلى صلاته.

فرجع إبليس ثانياً فقال: يا رب سلطني على جسده، فسلطه فنفخ في إبهام

رجله فانتفخ ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقي أمعاؤه تبين. وهو مع ذلك كله صابر محتسب مفوض أمره إلى الله تعالى. وكان الناس قد هجروه واستقذروه، وألقوه خارجاً عن البيوت من نتن ريحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت، فترددت إليه متفقدة، فجاءها إبليس يوماً في صورة شيخ ومعه سخلة وقال لها: يذبح أيّوب هذه السخلة على اسمي فيبرأ، فجاءته فأخبرته، فقال لها: إن شفاني الله تعالى لأجلدنّك مائة جلدة، تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى، فطردها عنه، فذهبت وبقي ليس له من يقوم به، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا أحد من الناس يتفقده، خرّ ساجداً لله تعالى وقال: ربّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾،[١] فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طول هذه المدة، وهي على ما قيل ثمان عشرة سنة وقيل غير ذلك، وأنّه تلقى جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق ما نزل به، عاد الله تعالى بألطافه عليه، فقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا﴾[٢] وأفاض عليه من نعمه ما أنساه به بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه في يمينه تحلّة قسمه، ومدحه في نص الكتاب فقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣] فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوي الحزم، وسماهم بسبب صبرهم أولي العزم، وفتح لهم بصبرهم أبواب مرادهم وسؤالهم، ومنحهم من لدنه غاية أمرهم.

فما أسعد من اهتدى بهداهم، واقتدى بهم، وإن قصر عن مداهم.

---

(١) الأنبياء: ٨٣.

(٢) الأنبياء: ٨٤.

(٣) ص: ٤٤.

وقيل: العسر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الرخاء، والتعب تعقبه الراحة، والضيق تعقبه السعة، والصبر يعقبه الفرج، وعند تناهي الشدة تنزل الرحمة، والموفق من رُزق صبراً وأجراً، والشقي من ساق القدر إليه جزعاً ووزراً.

قال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها دقار، فبينما أنا أطوف في خرابها إذ رأيت مكتوباً بباب قصر خرب بماء الذهب واللآزورد هذه الأبيات:

يا من ألحّ عليه الهم والفكر ... وغيّرت حاله الأيام والغيرُ
أما سمعت لما قد قيل في مثل ... عند الأياس فأين الله والقدرُ
ثمّ الخطوب إذا أحداثها طرقت ... فاصبر فقد فاز أقوام بما صبروا
وكلّ ضيق سيأتي بعده سعة ... وكل فوت وشيك بعده الظفرُ

انتهى.[١]

[أحاديث وروايات في الصبر]:

قال ابن أبي الحديد:

والصبر من المقامات الشريفة، وقد ورد فيه آثار كثيرة. روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «إن الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله».

قال جابر بن عبد الله: سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال: «الصبر والسماحة».

وقال عليّ عليه السلام: «الصبر إما على المصيبة، أو على الطاعة أو عن المعصية، وهذا القسم الثالث أعلى درجة من القسمين الأولين».

---

(١) عن المستطرف للأبشيهي.

وعنه عليه السلام: «الحياء زينة، والتقوى كرم، وخير المراكب مركب الصبر».

وعنه عليه السلام: «القناعة سيف لا ينبو، والصبر مطية لا تكبو، وأفضل العدة الصبر على الشدة».

وسئل عليه السلام: أيّ شيء أقرب على الكفر؟ قال: «ذو فاقة لا صبر له».

وفي كلامه عليه السلام: «الصبر يناضل الحدثان، والجزع من أعوان الزمان».

وقال عليه السلام: «الصبر مفتاح الظفر، والتوكل على الله رسول الفرج».

وفي كلامه عليه السلام: «انتظار الفرج بالصبر عبادة».

ووصف الحسن البصري علياً عليه السلام فقال: كان لا يجهل، وإن جُهِلَ عليه حَلم، ولا يظلم، وإنْ ظُلِمَ غفر، ولا يبخل، وإن بخلت الدنيا عليه صبر.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «أوصيكم بخمس لو ضربتم إليهن آباط الإبل كانت لذلك أهلاً: لا يرَجوَّن أحدٌ إلاّ ربّه، ولا يخافنَّ إلاّ ذنبه، ولا يستحينّ إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، ولا يستحي إذا جهل أمراً أن يتعلمه، وعليكم بالصبر فإنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فكما لا خير في جسد لا رأس له لا خير في إيمان لا صبر معه».

وعنه عليه السلام: «لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان».

وقال عليه السلام: «اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين».

وفي كتابه عليه السلام الذي كتبه إلى عقيل أخيه: ولا تحسبن ابن أمك ولو أسلمه الناس متضرعاً متخشعاً، ولا وطيء الظهر للراكب، ولكنه كما قال أخو بني سليم:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني ... صبور على ريب الزمان صليبُ

يعزّ عليَّ أن يرى بي كآبة ... فيشمت عاد أو يساء حبيبُ

وقال الحسن عليه السلام: «جرّبنا وجرّب المجربون، فلم نرَ شيئاً أنفع وجداناً ولا أضرّ فقداناً من الصبر، تُداوى به الأمور، ولا يُداوى هو بغيره»[(١)].

ولنكتف بهذا القدر مما ذكرناه عن الصبر، وإلاّ فالباب أوسع وأوسع، وما قيل فيه أكثر وأكثر، والحمد لله رب العالمين.

* * *

[الملازمة بين الصبر والشجاعة]:

قوله عليه السلام: «والصبر شجاعة».

ولنوضح هنا الملازمة بين الصبر والشجاعة في قوله عليه السلام: «والصبر شجاعة».

جاء في الخلق الكامل (ج ٤ ص ٢٧٨):

الصبر والشجاعة: هما من الخلال الشخصية التي ينبغي للمرء أن يتدرّع بهما، ويروّض نفسه عليهما منذ زمن الحداثة، والصبر في أصل معناه اللغوي الحبس، وهو باعتبار متعلقه ينقسم ثلاثة أقسام: (الصبر عن...)، و(الصبر على...)، (والصبر في...).

[أقسام الصبر]:

فالأوّل: حبس النفس عن فعل السوء والشر، ودواعي الهوى والشهوة، وكل ما يمس كرامة الإنسان، ويشوّه سمعته.

والثاني: الصبر على المكروه والألم، وتحمل الرزايا والمصائب،

---

(١) أنظر: شرح نهج البلاغة ١: ٣١٩.

وكل ما يقلق الراحة، وينغّص العيش. ومن ذلك الصبر على ما يفوت الإنسان من المآرب والحظوظ الدنيوية.

والثالث: الصبر في مواطن الخوف والذعر، بل في مواطن الخطر أحياناً، دفاعاً عن حق، أو حماية لمصلحة أو وقاية لِعرض وشرف. وهذا النوع من الصبر يسمى الشجاعة والإقدام. فالشجاعة إذ ذاك ضرب من الصبر، قال الله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.[١]

وقال بعض الحكماء: ليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والتعب؛ لأنّ هذا تشاركه فيه الدابة؛ ولكن أن يكون للنفس غلوباً، وللخطوب حمولاً، ولجأشه عند الحفاظ مرتبطاً، ـ أي: مالكاً نفسه عند الغضب ـ.

وإنّ أعزّ شعوب هذا العصر، وأرفعها شأناً، وأوسعها سلطاناً، هو الشعب الذي عرف من أخلاقه الصبر والثبات في مواطن الأخطار ولدى اشتداد الأحوال، فهو يعدّ للأمور عدّتها، ويهيّئ لها أسبابها ووسائلها، ثمّ يصبر صبراً بعد صبر، حتّى يحين الوقت، ويتضح الأمر. وإذ ذاك يجني ثمرته، ويحتجن فائدته.

هذا الخلق يصح أن نسمّيه (الخلق القرآني) لكثرة ما ذكر في القرآن من التنويه به، والحض عليه في أكثر من سبعين آية، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.[٢]

---

(١) البقرة: ١٧٧.

(٢) لقمان: ١٧.

ومعنى كون الصبر من عزم الأمور أنه مما يتأكد طلبه، وتجب على الشخص ممارسته من أمور الأخلاق. ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.[١] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.[٢] ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾.[٣]

وأما الاستسلام إلى المكروه والصبر على المصيبة، والتقاعد عن دفعها بالطرق والوسائل المشروعة الممكنة فليس مما يرضاه الشرع ولا العقل لنا، ولا يكون الصبر صبراً حينئذ صبراً محموداً، ولا خُلقاً مشكوراً.

ينزل بالمرء فقر أو ضائقة، وله عيال يتضوّرون جوعاً، وأسباب الرزق ممهدة بين يديه، فيعرض عنها ويقول: إنّه صابر، وإن الصبر مفتاح الفرج.

يصاب المرء بمرض مؤلم، ويكون له علاج، أو دواء ناجع، أو مخفف بإذن الله، فيتقاعد المريض عن تناول ذلك العلاج، ويقول عن نفسه: إنه صابر، وإن الصبر سلاح المؤمن.

يعتدي معتدٍ عليك، أو يغتصب بعض حقك، ويكون في مكنتك كفّ أذاه بإحدى الطرق والوسائل، لكنّك لا تفعل، بل تذلّ وتخضع، وتدّعي أنك صابر، وأنّ الله مع الصابرين.

وغير ذلك كثير من أحوال الناس وأطوارهم التي تتكرر مشاهدها تحت مواقع أبصارنا من وقت إلى آخر.

كل أولئك ليس من الصبر ولا من الشجاعة في قليل ولا كثير، ولا ينبغي أن يُقرظ صاحبه عليه، وإنّ استنكار ذلك، وبعده عن الأخلاق،

---

(١) النساء: ٢٥.

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) السجدة: ٢٤.

ومنافاته للخلال الفاضلة أمرٌ ظاهر لا يحتاج إلى استدلال، بل يكاد يكون الشعور باستنكاره أمراً بدهياً.

وقد مُني المسلمون في آخريات أيامهم بشيء كثير من هذا الذي يسمّونه صبراً وتوكلاً، فساءت حالهم، ووهت عزائمهم، وكلّت هممهم، فصاروا أكلة لآكل، وغرضاً لنابل.

وبالتالي إنّ الشجاعة من أهمّ عناصر الشخصية القوية، وهي صفة في الإنسان يستطيع بها ضبط نفسه وقت الخطر الذي يتهدده، وإن أجدر الناس بالفوز أصبرهم على الشدائد، وأقدرهم على احتمال الآلام، وهي فضيلة في سائر الناس، وتتوقف على مقدار ما فيهم من القوة الجسمية والخلقية.

وقد أضعفت المدنية قوة الشجاعة في الناس، ولكنّهم فطنوا لذلك، فأخذوا يتعهدون الأطفال منذ نعومة أظفارهم بغرس الشجاعة فيهم، وذلك بتعويدهم الصبر، وضبط النفس، واحتمال الآلام.

وأهم مظاهر الشجاعة ضبط النفس، فيجب أن نكون في حالتنا الطبيعية حين نحاضر، وحين نناظر، وحين نقف لإبداء رأي، أو الدفاع عن عقيدة، فإنّه إذا أدرك الإنسان الخَورُ في مثل هذه الحال، وفقد الثقة بنفسه، فقد يضيع على نفسه فرصة من فرص الحياة قد لا تسنح له مرة أخرى، على أنّ كثيراً من المخاوف التي تساورنا في هذه المواقف لا يكون لها نصيب من الصحة.

وتكثر هذه المخاوف وتعظم لدى الشخصيات الضعيفة، أما الشخصيات القويّة فإنّها تصبر وتبتسم للشدائد، ولا تُلين قناتها الخطوب.

* * *

[الزهد ثروة]:

قوله عليه السلام: «والزهد ثروة».

سبق أن ذكرنا في كتابنا (صوت الإمام عليّ في نهج البلاغة)[١] فصلاً مهمّاً عن الزهد وأقسامه، وما يتفرع عنه، ومن اتصف به، ما كفانا عن ذكره هنا.

لكن لمّا كان المقام يتطلب أن نعود إلى الموضوع لمناسبة قوله عليه السلام: «الزهد ثروة» لذلك التزمنا أن نستعرض جملة قصيرة ممّا ورد في فضله عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

* * *

قال الطريحي في (مجمع البحرين):[٢]

في الحديث «أفضل الزهد إخفاء الزهد» الزهد في الشيء خلاف الرغبة فيه، تقول: زهِد في الشيء بالكسر، زهداً وزهادة، بمعنى: تركه وأعرض عنه، فهو زاهد.

وفي (معاني الأخبار): الزاهد من يحب ما يحب خالقه، ويبغض ما يبغضه خالقه، ويتحرّج من حلال الدنيا ولا يلتفت إلى حرامها.

وفي الحديث: «أعلى درجات الزهد أدنى درجات الورع، وأعلى درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا، ألا وإنّ الزهد في آية واحدة في كتاب الله تعالى، وهي ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾[٣]».

---

(١) طبع حديثاً في جزءين.

(٢) مجمع البحرين ٢: ٢٩٦.

(٣) الحديد: ٢٣.

وعن بعض الأعلام: الزهد يحصل بترك ثلاثة أشياء: ترك الزينة، وترك الهوى، وترك الدنيا، فالزاي علامة الأوّل، والهاء علامة الثاني، والدال علامة الثالث.

[روايات شريفة في الزهد]:

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن الهيثم بن واقد الحريري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السّلام».[1]

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، وعليّ بن محمّد القاساني، جميعاً، عن القاسم بن محمّد، عن سليمان بن داود المنقري، عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «جُعل الخير كلّه في بيت، وجُعل مفتاحه الزهد في الدنيا»، ثمّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يجد الرجل حلاوة الإيمان في قلبه حتّى لا يبالي مَن أكل الدنيا»، ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: «حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتّى تزهد في الدنيا».

عليّ بن إبراهيم، عن محمّد بن عيسى، عن يونس، عن أبي أيّوب الخزاز، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا».

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، وعليّ بن محمّد، عن القاسم بن محمّد، عن سليمان بن داود المنقري، عن عليّ بن هاشم بن البريد، عن أبيه، أنّ رجلاً سأل عليّ بن الحسين عليه السلام عن الزهد؟ فقال: «عشرة أشياء، فأعلى

---

(١) أصول الكافي ٢: ١٢٨.

درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا، ألا وإنّ الزهد في آية من كتاب الله ﷻ: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾[1]».

وبهذا الإسناد، عن المنقري، عن سفيان بن عيينة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وهو يقول: «كلّ قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط، وإنّما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة».

عليّ، عن أبيه، عن ابن محبوب، عن العلاء بن رزين، عن محمّد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ علامة الراغب في ثواب الآخرة زهده في عاجل زهرة الدنيا، أما إنّ زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقصه مما قسم الله ﷻ له فيها وإن زهد؛ وإنّ حرص الحريص على عاجل زهرة الحياة الدنيا لا يزيده فيها وإن حرص، فالمغبون من حرم حظه من الآخرة».

عليّ بن إبراهيم، عن عليّ بن محمّد القاساني، عمن ذكره، عن عبد الله بن القاسم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً زهّده في الدنيا وفقّهه في الدين، وبصره عيوبها، ومن أوتيهنّ فقد أوتي خير الدنيا والآخرة».

وقال: لم يطلب أحدٌ الحق بباب أفضل من الزهد في الدنيا، وهو ضدّ لما طلب أعداء الحق، قلت: جعلت فداك لماذا؟

قال: من الرغبة فيها، وقال: «إلاّ مِن صبّار كريم، فإنما هي أيام قلائل، ألا إنّه حرام عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتّى تزهدوا في الدنيا».

* * *

---

(١) الحديد: ٢٣.

وفي إرشاد القلوب للديلمي:[1]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الزاهد في الدنيا يريح قلبه ويتعب بدنه، والراغب فيها يتعب قلبه وبدنه».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الزهد قصر الأمل، والشكر على النعم، والورع عن المحارم، فإن عزب ذلك عنكم فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم، فإن الله تعالى قد أعذر إليكم بحجج ظاهرة مستقرة، وكتب مسفرة ظاهرة».

وقال عليه السلام: «الزاهدون في الدنيا ملوك الدنيا والآخرة، والراغبون فيها فقراء الدنيا والآخرة. ومن لم يزهد في الدنيا ورغب فيها فهو فقير في الدنيا والآخرة. ومن زهد في الدنيا ملكها. ومن رغب فيها ملكته».

[كلام عليّ عليه السلام مع نوف]:

وقال نوف البكالي: كنت عند أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة، فقام من فراشه ونظر إلى النجوم، ثمّ قرأ آيات من آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾[2] الآية، ثمّ قال: «يا نوف أراقد أنت أم رامق؟» فقلت: بل رامق يا أمير المؤمنين.

فقال: «يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن شعاراً، والدعاء دثاراً، ثمّ قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح.

يا نوف إن الله تعالى أوحى إلى المسيح: أن قل لبني إسرائيل لا يدخلوا

---

(١) أنظر: ج ١: ٢٧.

(٢) آل عمران: ١٩٠.

بيتاً من بيوتي إلاّ بقلوب صافية طاهرة، وثياب نقية وألسنة ناطقة صادقة، وأعْلِمْهم أنّني لا أستجيب لأحد منهم دعاء ولأحد من خلقي قِبَلَهُ مظلمة.

يا نوف: إن رسول الله ﷺ قام في مثل هذه الساعة فقال: إنّ هذه الساعة لا ترد لأحد فيها دعوة إلاّ أن يكون عريفاً، أو عشاراً، أو شرطياً، أو شاعراً، أو صاحب عرطبة وكوبة[1]» انتهى.

* * *

وفي العقد الفريد:[2]

العتبي يرفعه قال: قيل لرسول الله ﷺ: ما الزهد في الدنيا؟ قال: «أما إنّه ما هو بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك».

وقيل للزهري: ما الزهد؟ قال: إنّه ليس تشعيث اللمة، ولا قشف الهيأة، ولكنه صرف النفس عن الشهوة.

وقيل لآخر: ما الزهد في الدنيا؟ قال: أن لا يغلب الحرام صبرُك، ولا الحلالَ شُكرك.

وقيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله من أزهد الناس في الدنيا؟ قال: «من لم ينسَ المقابر والبلى، وآثر ما يبقى على ما يفنى، وعدّ نفسه مع الموتى».

وقيل لمحمّد بن واسع: من أزهد الناس في الدنيا؟ قال: من لا يبالي بيد من كانت الدنيا.

---

(١) العرطبة والكوبة: الطبل والطنبور.

(٢) ج ٢.

وقيل للخليل بن أحمد: من أزهد الناس في الدنيا؟ قال: من لم يطلب المفقود حتّى يفقد الموجود.

وقال النبي ﷺ: «الزهد في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة».

وقال ابن السماك: الزاهد الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح، وإن أصابته الدنيا لم يحزن، يضحك في الملا ويبكي في الخلا.

* * *

وفي محاضرات الراغب الاصبهاني (ج ١ ص ٢٤٦):

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: الزهد ثلاثة: زهد فرض وذلك في الحرام، وزهد فضل وذلك في الحلال، وزهد سلامة وذلك في الشهوات.

وقال ذو النون: الزهد، الاستخفاف بثلاثة أشياء: بالنفس، والشيء، والخلق، فإذا استخف بالنفس عزّ به، وإذا استخفّ بالشيء ملكه، وإذا استخف بالخلق خدمه.

* * *

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة (ج ٢ ص ٣٣٦):

قال يوسف بن أسباط: لو أنّ رجلاً في ترك الدنيا مثل أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان، ما قلنا له: إنك زاهد؛ لأن الزهد لا يكون إلاّ على ترك الحلال المحض، والحلال المحض لا نعرفه اليوم، وإنما الدنيا حلالٌ وحرام وشبهات، فالحلال حساب، والحرام عذاب، والشبهات عتاب، فأنزلِ الدنيا منزلة الميتة خذ منها ما يقيمك، فإن كان ذلك حلالاً كنت زاهداً فيها، وإن كان حراماً لم تكن أخذت منها إلاّ ما يقيمك، كما يأخذ المضطر من الميتة، وإنْ كان عتاباً كان العتاب يسيراً.

ومثله قول بعضهم: ليس الزهد بترك كلّ الدنيا، ولكن الزهد التهاون بها، وأخذ البلاغ منها، قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[١] فأخبر أنّهم زهدوا فيه، وقد أخذوا له ثمناً.

* * *

[الورع جُنَة]:

قوله عليه السلام: «والوَرَع جُنةٌ».

أقول: جاء في (مجمع البحرين: مادة: ورع):[٢]

في الحديث: «صونوا دينكم بالورع».

وفيه: «ملاك الدين الورع».

وفيه: «أورع الناس من تورّع عن محارم الله تعالى».

وفيه: «لا معقل أحرز من الورع».

والورع في الأصل، الكف عن المحارم والتحرج منها، يقال: ورع الرجل يرع بالكسر فيها، ورعاً ورعة فهو ورع، إذا كفّ عمّا حرّم الله انتهاكه، ثمّ استعمل في الكفّ المطلق.

قال بعض شراح الحديث: وهو أقسام: فمنه ما يخرج المكلف عن الفسق. وهو الموجب لقبول الشهادة ويسمى ورع التائبين، ومنه ما يخرج به من الشبهات. فإنّ من رتع حول الحمى يوشك أن يدخل فيه ويسمّى ورع الصالحين. ومنه ترك الحلال الذي يتخوف انجراره إلى المحرم، ويسمى ورع المتقين، وعليه حمل قوله صلى الله عليه وآله: «لا يكون الرجل من المتقين حتّى يدع ما لا بأس به

---

(١) يوسف: ٢٠.

(٢) ج ٢: ١٣٥.

مخافة أن يكون فيه بأس» ومثل من يترك الكلام عن الغير مخافة الوقوع في الغيبة، ومنه الإعراض عن غير الله خوفاً من ضياع ساعة من العمر فيما لا فائدة فيه، ويسمى ورع الصدّيقين. انتهى.

* * *

مدح الورع:

جاء في (جامع السعادات):[1]

الورع عن المحرمات من أعظم المنجيات، وبه يتوصل المرء إلى السعادة ورفع الدرجة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خير دينكم الورع».

وقال صلى الله عليه وآله: «من لقي الله سبحانه ورعاً أعطاه الله ثواب الإسلام كلّه».

وفي بعض الكتب السماوية: وأما الورعون فإني أستحي أن أحاسبهم.

وقال الباقر عليه السلام: «إنّ أشدّ العبادة الورع».

وقال الصادق عليه السلام: «اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع».

وقال عليه السلام: «عليكم بالورع، فإنّه لا ينال ما عند الله إلاّ بالورع».

وقال عليه السلام: «إنما أصحابي من اشتد ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، هؤلاء أصحابي».

وسئل عليه السلام عن الورع من الناس؟ فقال: «الذي يتورع عن محارم الله عزّ وجلّ».

وقال أبو جعفر عليه السلام: قال الله عزّ وجلّ: «يا ابن آدم اجتنب ما حرّمت عليك تكن من أورع الناس».

* * *

---

(١) ج ٢: ١٣٥.

[أحاديث شريفة في الورع]:

وممّا جاء في المجلد الثاني من أصول الكافي (ص ٧٢):

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي المغرا، عن زيد الشحّام، عن عمرو بن سعيد بن هلال الثقفي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: إنيَ لا ألقاك إلاّ في السنين، فأخبرني بشيء آخذ به، فقال: «أوصيك بتقوى الله، والورع، والاجتهاد، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه».

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن محمّد بن إسماعيل بن بزيع، عن حنان بن سدير، قال: قال أبو الصباح الكناني لأبي عبد الله عليه السلام: ما نلقى من الناس فيك؟!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «وما الذي تلقى من الناس فيّ؟».

فقال: لا يزال يكون بيننا وبين الرجل الكلام، فيقول: جعفري خبيث، فقال: «يعيّركم الناس بي!» فقال له أبو الصباح: نعم.

قال: فقال: «ما أقلّ والله من يتبع جعفراً منكم، إنما أصحابي من اشتدّ ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، فهؤلاء أصحابي».

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن عليّ بن النعمان، عن أبي أسامة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «عليك بتقوى الله والورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة، وحسن الخلق وحسن الجوار، وكونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، وعليكم بطول الركوع والسجود، فإنّ أحدكم إذا أطال الركوع والسجود هتف إبليس من خلفه وقال: يا ويله أطاع وعصيت، وسجد وأبيت».

وعنه: عن أحمد بن محمّد، عن عليّ بن الحكم، عن سيف بن عميرة، عن أبي الصباح الكناني، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أعينونا

بالورع، فإنّه من لقي الله عزّ وجلّ منكم بالورع كان له عند الله فرجاً، وإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾[١] فمنّا النبي، ومنّا الصدّيق، والشهداء، والصالحون».

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن محبوب، عن ابن رئاب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّا لا نعدّ الرجل مؤمناً حتّى يكون بجميع أمرنا متبعاً مريداً، ألا وإنّ من أتباع أمرنا وإرادته الورع، فتزيّنوا به يرحمكم الله وكبّدوا أعداءنا به ينعشكم الله».

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن الحجّال، عن العلاء، عن ابن أبي يعفور، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية».

* * *

وفي إرشاد القلوب للديلمي:

قال الصادق عليه السلام: «إنّ أحق الناس بالورع آل محمّد صلى الله عليه وآله وشيعتهم لكي يقتدي الناس بهم، فإنّهم القدوة لمن اقتدى، فاتقوا الله وأطيعوه، فإنه لا يُنال ما عند الله إلاّ بالتقوى والورع والاجتهاد، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢]».

وقال عليه السلام: «أما والله إنكم على دين الله ودين ملائكته، فأعينونا على ذلك بالورع والاجتهاد وكثرة العبادة، وعليكم بالورع».

---

(١) النساء: ٦٩.

(٢) الحجرات: ١٣.

وقال عليه السلام: «كنت مع أبي حتّى انتهينا إلى القبر والمنبر، فإذا بأناس من أصحابه، فوقف عليهم وسلّم فقال: والله إنيّ لأحبكم وأحبّ ريحكم، وأرواحكم، فأعينونا على ذلك بورع واجتهاد، فإنكم لن تنالوا ولايتنا إلاّ بالورع والإجتهاد، ومن ائتم بإمام فليعمل بعلمه...».

ومما ورد في سفينة البحار في مادة (ورع) في المجلد الثاني منه:

سئل أمير المؤمنين عليه السلام: ما ثبات الإيمان؟ فقال: «الورع»، فقيل له: ما زواله؟ قال: «الطمع».[١]

وعن زيد بن عليّ، عن أبيه عليه السلام قال: «الورع نظام العبادة، فإذا انقطع الورع ذهبت الديانة، كما أنه إذا انقطع السلك أتبعه النظام».[٢]

(مشكاة الأنوار)[٣] عن خيثمة، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام لأودّعه، فقال: «أبلغ موالينا السلام عنّا وأوصهم بتقوى الله العظيم، وأعلمهم يا خيثمة إنّا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلاّ بعمل، ولن ينالوا ولايتنا إلاّ بورع، وإنّ أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلى غيره».

* * *

[الرضا نعم القرين]:

قوله عليه السلام: «ونعمَ القَرينُ الرّضى».

أقول: في (مجمع البحرين):[٤]

---

(١) رواه الصدوق في أماليه: ٣٦٥؛ وروى نحوه الكليني في الكافي ٢: ٣٢٠ عن الصادق عليه السلام.

(٢) رواه الطوسي في أماليه: ٧٠٣.

(٣) ص ٩٦.

(٤) ج ٢: ١٨٨.

الرضا عن الله تعالى والرحمة للخلق درجة المسلمين، وما تعرف الملائكة حدّ الرضا.

ورضيت بالشيء رضىً اخترته، وارتضيته مثله. ورضيت عن زيد، ورضيت عليه لغة، والاسم الرضاء، بالمد ورضيت بالله رباً قنعت به، ولا أطلب معه غيره.

وفي الحديث: «من رضي بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفّت مؤنته وتنعّم أهله، وبصّره الله داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام».

و(الراضي) الذي لا يسخط بما قدّر عليه، ولا يرضى لنفسه بالقليل من العمل.

قال بن أبي الحديد:

الرضا هو أن يرضى العبد بالشدائد والمصائب التي يقيّضها الله تعالى عليه، وليس المراد بالرضا رضى العبد بالمعاصي والفواحش، أو نسبتها إلى الربّ تعالى عنها فإنه سبحانه لا يرضاها، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ﴾[1] وقال: ﴿كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾[2].

قال رويم: الرضا أن لو أدخلك جهنم لما سخطت عليه. وقيل لبعضهم: متى يكون العبد راضياً؟ قال: إذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة. قال الشبلي مرة والجنيد حاضر: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، فقال الجنيد: أرى أن قولك هذا ضيق صدر، وضيق الصدر يكون من ترك الرضا بالقضاء، وقال أبو سليمان الداراني: الرضا أن لا تسأل الله الجنّة،

---

(١) الإسراء: ٣٨.

(٢) الزمر: ٧.

ولا تستعيذ به من النار، وقال تعالى فيمن سخط قسمته: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[١] ثم نبّه على ما حُرموه من فضيلة الرضا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[٢] وجواب (لو) ههنا محذوف لِفهم المخاطب وعلمه به، وفي حذفه فائدة لطيفة وهو أن تقديره لرضي الله عنهم، ولما كان رضاه عن عباده مقاماً جليلاً جداً حذف ذكره، لأنّ الذكر له لا ينبئ عن كنهه وحقيقة فضله، فكان الإضراب عن ذكره أبلغ في تعظيم مقامه.

ومن الأخبار المرفوعة أنه ﷺ قال: «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء» قالوا: إنما قال: بعد القضاء لأن الرضا قبل القضاء لا يتصور. وإنما يتصوّر توطين النفس عليه، وإنما يتحقق الرضا بالشيء بعد وقوع ذلك الشيء.

وفي الحديث أنه قال لابن عبّاس يوصيه: «اعمل لله باليقين والرضا، فإن لم يكن فالصبر فإنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً».

وفي الحديث أنه ﷺ رأى رجلاً من أصحابه وقد أجهده المرض والحاجة، فقال: «ما الذي بلغ بك ما أرى؟» قال: المرض والحاجة، قال: «أو لا أعلّمك كلاماً إنْ أنت قلته أذهب الله عنك ما بك؟» قال: والذي نفسي بيده ما يسرني بحظي منهما أن شهدت معك بدراً والحديبية، فقال ﷺ: «وهل لأهل بدر والحديبية، ما للراضي والقانع؟».

وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر والرضا.

---

(١) التوبة: ٥٨.

(٢) التوبة: ٥٩.

وكان يقال: كن بالرضا عاملاً قبل أن تكون معمولاً، وسر إليه عادلاً وإلاّ سرت نحوه معدولاً.

وقيل للحسن: من أين أتى الخلق؟ قال: من قلة الرضا عن الله، فقيل: ومن أين دخلت عليهم قلة الرضا عن الله؟ قال: من قلة المعرفة بالله.

وقال صاحب سلوان المطاع في الرضا:

يا مفزعي فيما يجيء وراحمي فيما مضى
عندي لما تقضيه ما يرضيك من حسن الرضا
ومن القطيعة أستعيذ مصرحاً ومعرضاً

وقال أيضاً:

يا من يرى حالي وأن ليس لي ... في غير قربي منه أوطارُ
وليس لي ملتحد دونه ... ولا عليه لي أنصارُ
حاشا لذاك العز والفضل أن ... يهلك من أنت له جارُ
وإن تشأ هلكي فهب لي رضاً ... بكل ما تقضي وتختارُ
كل عذاب منك مستعذب ... ما لم يكن سخطك والنارُ[1]

* * *

[الرضا ضد السخط]:

ومما انتخبته من المجلد الثالث من جامع السعادات (ص ١٦٢):

قوله: ضد السخط الرضا، وهو ترك الاعتراض والسخط باطناً وظاهراً، قولاً وفعلاً، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها، إذ المحب يستحسن كلما يصدر عن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٠٥ - ٢٠٨.

محبوبه، وصاحب الرضا يستوي عنده الفقر والغنى، والراحة والعناء، والبقاء والفناء، والعزّ والذلّ، والصحة والمرض، والموت والحياة، ولا يرجح بعضها على بعض، ولا يثقل شيء منها على طبعه، إذ يرى صدور الكل من الله سبحانه، وقد رسخ حبّه في قلبه والعناء، بحيث يحب أفعاله، ويرجح على مراده مراده تعالى، فيرضى لكل ما يكون ويرد.

وروي أنّ واحداً من أرباب الرضا عمّر سبعين سنة، ولم يقل في هذه المدة لشيء كان: ليته لم يكن، ولا شيء لم يكن: ليته كان.

وقيل لبعضهم: ما وجدت من آثار الرضا في نفسك؟ فقال: «ما فيَّ رائحةٌ من الرضا، ومع ذلك لو جعلني الله جسراً على جهنم، وعبر عليه الأولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنّة، ثمّ يلقوني في النار وملأ بي جهنم لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه، ولم يختلج ببالي أن لِمَ كان كذا؟ وليت لم يكن كذا، ولِمَ هذا حظّي؟ وذاك حظّهم؟

وصاحب الرضا أبداً في رَوح وراحة، وسرور وبهجة؛ لأنه يشاهد كلّ شيء بعين الرضا، وينظر في كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية، وسرّ الحكمة الأزلية، فكأنّ كلّ شيء حصل على وفق مراده وهواه.

ففائدة الرضا عاجلاً فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم، وآجلاً رضوان الله والنجاة من غضبه تعالى. انتهى.

* * *

[حقيقة الرضا]:

وفي المجلد الرابع من الخلق الكامل (ص ٣٣١):

من أراد أن يعلم حقيقة الرضا عن الله ﷻ في أفعاله، وأن يدري من أين

نشأ الرضا، فليفكر في أحوال رسول الله ﷺ: فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه، رأى أنّ الخالق مالك، وللمالك التصرف في مملوكه، ورآه حكيماً لا يصنع شيئاً عبثاً، فسلّم تسليم مملوك لحكيم، فكانت العجائب تجري عليه ولا يوجد منه تغيّر، ولا من الطبع تأفف، ولا يقول بلسان الحال لو كان كذا، بل ثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح.

هذا سيد الرسل ﷺ بعث إلى الخلق وحده، والكفر قد ملأ الآفاق، فجعل يفرّ من مكان إلى مكان واستتر في دار الخيزران، وهم يضربونه إذا خرج ويرمون عقبه، ويضعون السلى على ظهره وهو ساكت ساكن، ويخرج في كل موسم فيقول: من يؤويني؟ من ينصرني؟ ثمّ خرج من مكّة فلم يقدر على العود إلاّ في جوار كافر، ولم يوجد من الطبع تأفّف، ولا من الباطن اعتراض؛ إذ لو كان غيره لقال: يا رب أنت مالك الخلق وقادر على النصر: فَلِمَ أُذَل؟ ثم يبتلى بالجوع فيشدّ الحجر، ولله خزائن السماوات والأرض، وتقتل أصحابه، ويشجّ وجهه، وتُكسر رباعيته ويُمثّل بعمّه، وهو ساكت، ثمّ يرزق إبناً ويسلب منه، فيتعلل بالحسن والحسين فيخبر بما سيجري عليهما، ويبالغ في إظهار المعجزات، فيقام في وجهه مسيلمة والعنسي وابن صياد، ويقيم سنّة الأمانة والصدق، فيقال كذاب ساحر، ثمّ يشدد عليه الموت فيسلب روحه الشريفة في كساء ملبد وأزار غليظ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليلته.

هذا الشيء ما قدر على الصبر عليه كما ينبغي نبي قبله، ولو ابتليت به الملائكة ما صبرت.

وهذا والله فعلُ رجل عرف الوجود والموجد، فماتت أغراضه وسكنت اعتراضاته، فصار هواه فيما يجري، وهذا منتهى الرضا.

* * *

فضيلة الرضا:

ففي (جامع السعادات):[١]

«الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين، وأشرف منازل المقربين، وهو باب الله الأعظم، ومن دخله دخل الجنّة. قال الله سبحانه: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.[٢]

وعن النبي ﷺ أنه سأل طائفة من أصحابه: «ما أنتم؟» فقالوا: مؤمنون. فقال: «ما علامة إيمانكم؟».

فقالوا: نصبر على البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء، فقال: «مؤمنون ورب الكعبة».

وفي خبر آخر قال: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء».

وقال ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه».

وقال ﷺ: «أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم».

وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمّتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاؤوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فتقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة، من أمّةِ مَن أنتم؟ فيقولون: من أمّة محمّد ﷺ، فتقول: ناشدناكم الله حدّثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه

---

(١) ج ٣: ١٦٣ - ١٦٥.

(٢) المائدة: ١١٩.

المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير ممّا قسم لنا، فتقول الملائكة: يحقّ لكم هذا».

وقال الصادق عليه السلام: «إنّ الله بعدله وحكمته وعلمه جعل الروح والفرج في اليقين والرضا عن الله تعالى، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط».

وروي أنّ موسى عليه السلام قال: «يا رب دلني على أمر فيه رضاك؟ فقال تعالى: إنّ رضاي في رضاك بقضائي».

وروي أنّ بني إسرائيل قالوا له: سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى عنّا، فقال موسى عليه السلام: «إلهي قد سمعت ما قالوا: فقال: يا موسى قل لهم يرضون عني حتّى أرضى عنهم».

وقال سيد الساجدين عليه السلام: «الصبر والرضا رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما أحب أو كره لم يقض الله عز وجل له فيما أحب أو كره إلاّ ما هو خير له».

وقال الباقر عليه السلام: «أحق خلق الله أن يسلّم لما قضى الله عز وجل، من عرف الله عز وجل، ومن رضي بالقضاء أتى عليه القضاء وعظم الله أجره».

وقال عليه السلام: «الزهد عشرة أجزاء، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا».

وقال الصادق عليه السلام: «أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله».

وقال عليه السلام: قال الله عز وجل: «عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلاّ جعلته خيراً له، فليرضَ بقضائي، وليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، أكتبه يا محمّد من الصدّيقين عندي».

وقال عليه السلام: «إنّ فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن، وإنّي إنما ابتليه لما هو

خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرضَ بقضائي، أكتبه في الصدّيقين عندي، إذا عمل برضاي، وأطاع أمري».

وقيل له عليه السلام: بأي شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن؟ قال: «بالتسليم لله، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط».

* * *

وجاء في أصول الكافي (ج ٢ ص ٦٢):

عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن محمّد بن عليّ، عن عليّ بن أسباط، عمّن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السلام. قال: «لقي الحسن بن عليّ عليهما السلام عبد الله بن جعفر، فقال: يا عبد الله كيف يكون المؤمن مؤمناً وهو يسخط قسمه ويحقّر منزلته، والحاكم عليه الله، وأنا الضامن لمن لم يهجس في قلبه إلاّ الرضا أن يدعو الله فيستجاب له».

* * *

وفي الباب (٨٩) من كتاب (جامع الأخبار) في الرضا:

قال الصادق عليه السلام: «صفة الرضا أن يرضى المحبوب والمكروه، والرضا شعاع نور المعرفة، والراضي فانٍ عن جميع اختياره، والراضي حقيقة هو المرضي عنه، والرضا اسم يجتمع فيه معاني العبودية، وتفسير الرضا سرور القلب، سمعت أبي محمّد الباقر عليه السلام يقول: تعلّق القلب بالموجود شرك، وبالمفقود كفر، وهما جناحان من سنّة، وأعجب بمن يدعي العبودية لله كيف ينازعه في مقدوراته، حاشا الراضين العارفين عن ذلك».

* * *

وفي المجلد الأوّل من (سفينة البحار)[١] في مادة (رضا):

جاء فيها عن (أعلام الدين) للديلمي: روي أنّ موسى عليه السلام قال: يا ربِّ أخبرني عن آية رضاك عن عبدك؟

فأوحى الله تعالى إليه: «إذا رأيتني أهيّئ عبدي لطاعتي وأصرفه عن معصيتي فذلك آية رضاي».

وفي رواية أخرى: «إذا رأيت نفسك تحب المساكين وتبغض الجبارين، فذلك آية رضاي».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود تريد وأريد ولا يكون إلاّ ما أريد، فإنّ أسلمت لما أريد أعطيتك ما تريد، وإنْ لم تسلّم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثمّ لا يكون إلاّ ما أريد».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الإيمان أربعة أركان: الرضا بقضاء الله، والتوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والتسليم لأمر الله».[٢]

[طلب موسى عليه السلام من الله]:

وفي (السفينة) أيضاً:

وفي الحديث أنّ موسى عليه السلام قال: أرني أحبّ خلقك إليك، وأكثرهم لك عبادة، فأمره الله تعالى أن ينتهي إلى قرية على ساحل بحر وأخبره أنه يجده في مكان قد سماه له، فوصل عليه السلام إلى ذلك المكان، فوقع على رجل مجذوم مقعد أبرص يسبّح الله تعالى، فقال موسى: يا جبرائيل أين الرجل الذي سألت ربي أن يريني إياه؟ فقال جبرئيل: هو يا كليم الله هذا. فقال: يا جبرائيل إني كنت أحبّ

(١) سفينة البحار:

(٢) أنظر: الكافي ٢: ٥٦.

أن أراه صوّاماً قواماً، فقال جبرئيل: هذا أحبّ إلى الله تعالى وأعبد له من الصوّام والقوّام، وقد أمرت بإذهاب كريمتيه فاسمع ما يقول، فأشار جبرائيل إلى عينيه فسالتا على خديه، فقال: متعتني بهما حيث شئت وسلبتني إياهما حيث شئت، وأبقيت لي فيك طول الأمل يا بار، يا وصول، فقال له موسى عليه السلام: يا عبد الله إني رجل مجاب الدعوة فإن أحببت أن أدعو لك الله تعالى يردّ عليك ما ذهب من جوارحك ويبريك من العلة فعلت، فقال رحمة الله عليه: لا أريد شيئاً من ذلك، إختياره لي أحبّ إليّ من اختياري لنفسي، وهذا هو الرضا المحض كما نرى.

فقال له موسى: سمعتك تقول: يا بار يا وصول، ما هذا البر والصلة الواصلان إليك من ربك؟

فقال: ما أجد في هذا البلد يعرفه غيري، أو قال: يعبده، فراح عليه السلام متعجباً وقال: هذا أعبد أهل الدنيا.(١)

ومثل تعجبه عليه السلام ممن رضي بقضاء الفعل، تعجبنا ممن رضي بقضاء الأمر المؤدي إلى تلف النفوس وذهاب الأعضاء، ومفارقة الأولاد والنساء، كزهير بن القين البجلي، ومسلم بن عوسجة الأسدي، وحبيب بن مظاهر، وأمثالهم ممن أبلغهم من رحمته غاية الرضا، فإنّهم رأوا بحاراً من الحديد تلظّى تحتها عبيد الدنيا، فخاضوها رضا بالقضاء وتعرضاً للرضا.

[لقمان وولده]:

وقد ضرب لقمان الحكيم لولده مثالاً، فخرج هو وابنه، ومعهما بهيمة، فركب لقمان وجعل ولده يمشي وراءه، فقال الناس: هذا شيخ قاسي القلب قليل الرحمة، وعكس الأمر، فقال الناس: هذا بئس الوالد،

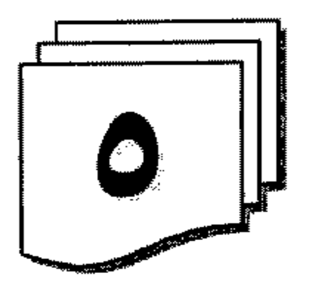
---

(١) أنظر: سفينة البحار.

لأنه ما أدب ولده، وهذا بئس الولد؛ لأنه عقّ والده، فكلاهما أساءا في الفعال، فركبا معاً، فقال الناس: ما في قلب هذين من رحمة ولا عندهما خير، يركبان معاً الدابة ويقطعان ظهرها، فنزلا، فقال الناس: عجباً من هذين الشخصين يتركان دابة تمشي فارغة ويمشيان، فقال لولده: ترى في تحصيل رضاهم حيلة لمحتال، فلا تلتفت إليه واشتغل برضا الله ففيه شغل شاغل، وسعادة وإقبال في الدنيا، ويوم الحساب والسؤال.[1]

* * *

(١) أنظر: فتح الأبواب لابن طاووس: ٣٠٨؛ عنه: بحار الأنوار ١٣: ٤٣٤.



قوله عليه السلام:

الْعِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ، وَالآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ، وَالْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ.

(نهج البلاغة ٤: ٣)

[العلم من أصول الكرم]

قال ابن أبي الحديد:

إنما قال: العلم وراثة؛ لأنّ كل عالم من البشر إنما يكتسب علمه من أستاذ يهذبه وموقف يعلمه، فكأنه ورث العلم عنه كما يرث الابن المال عن أبيه.

وكان يقال: عطية العالم شبيهة بمواهب الله ﷻ، لأنها لا تنفد عند الجود بها وتبقى بكمالها عند مفيدها.

وكان يقال: الفضائل العلمية تشبه النخل بطيء الثمرة بعيد الفساد.

وكان يقال: ينبغي للعالم أن لا يترفع على الجاهل، وأن يتطامن له بمقدار ما رفعه الله عليه، وينقله من الشك إلى اليقين، ومن الحيرة إلى التبيين، لأن مكافحته قسوة، والصبر عليه وإرشاده سياسة، ومثاله قول بعض الحكماء: الخيّر من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو بالرحمة أحقّ منه بالغلظة، ويعذره بنقصه فيما فرط منه ولا يعذر نفسه في التأخر عن هدايته.

وكان يقال: العالم في الأرض بمنزلة الشمس في الفلك لولا الشمس لأظلمّ الجوّ، ولولا العالم لأظلمّ أهل الأرض.

وكان يقال: لا حلّة أجمل من حلّة الأدب، لأنّ حلل الثياب تبلى وحلل الأدب تبقى، وحلل الثياب قد يغتصبها الغاصب ويسرقها السارق، وحلل الآداب باقية مع جوهر النفس.

وكان يقال: الفكرة الصحيحة اصطرلاب روحاني.

وقال أوس بن حجر يرثي:

إنّ الذي جمع السماحة والنجدة والحزم والنهي جمعا
الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

* * *

ومن كلام الحكماء: النار لا ينقصها ما أخذ منها، ولكن يخمدها أن لا تجد حطباً، وكذلك العلم لا يفنيه الإقتباس، ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه.

قيل لبعضهم: أيّ العلوم أفضل؟ قال: ما العامة فيه أزهد.

وقال أفلاطون: من جهل الشيء ولم يسأل عنه جمع على نفسه فضيحتين، وكان يقال: ثلاثة لا تجربة معهنّ: أدب يزين، ومجانبة الريبة، وكف الأذى. وكان يقال: عليكم بالأدب فإنّه صاحب في السفر، ومؤنس في الوحدة، وجمال في المحفل، وسبب إلى طلب الحاجة.

وأنشد منشد بحضرة الواثق هارون بن المعتصم:

أظلوم إنّ مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلمُ

فقال شخص: رجل هو خبر إنّ، ووافقه على ذلك قوم وخالفه آخرون، فقال الواثق: من بقي من علماء النحو؟ قالوا: أبو عثمان المازني، فأمر بإشخاصه إلى سر من رأى بعد إزاحة علته، قال أبو عثمان: فأُشخصتُ، فلما دخلتُ عليه، قال: ممن الرجل؟ قلت: من مازن، قال: من مازن تميم، أم من مازن ربيعة، أم من مازن قيس أم مازن اليمن؟ قلت: من مازن ربيعة.

قال: باسمك بالباء يريد ما اسمك؛ لأنّ لغة مازن ربيعة هكذا يبدلون الميم باء والباء ميماً، فقلت: مكر أي بكر، فضحك وقال: اجلس واطمئن، فجلست، فسألني عن البيت فأنشدته منصوباً، فقال: فأين خبر إنّ؟ فقلت: ظلم قال: كيف هذا، قلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترضى انّ البيت إن لم نجعل (ظلم) خبر أنّ يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة، فلما كررت القول عليه فهم وقال: قبح الله من لا أدب له، ثمّ قال: ألك ولد؟

قلت: بنية، قال: فما قالت حين ودعتها؟ قلت: ما قالت بنت الأعشى:

تقول ابنتي حين جدّ الرحيل ... أرانا سواء ومَن قد يُتم

أبانا فلا رمت من عندنا ... فإنا بخير إذا لم ترم

أبانا إذا أضمرتك البلاد ... تخفى ويقطع منا الرحم

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت: أنشدتها بيت جرير:

ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح

فقال: ثق بالنجاح إن شاء الله، ثمّ أمر لي بألف دينار وكسوة، وردّني إلى البصرة.[1]

* * *

وقال ابن ميثم في قوله عليه السلام: «العِلم وَراثةٌ كريمةٌ».

وهو فضيلة النفس العاقلة، وهو أشرف الكمالات التي تُقتَنى، وبحسب ذلك كان وراثة كريمة من العلماء، بل كان أكرم موروث

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٩٣ – ٩٦.

ومكتسب، وأراد الوراثة اللغوية، كقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[1] أي العلم والحكمة.

«والآداب حلل مجددة» أراد الآداب الشرعية ومكارم الأخلاق، استعار لها لفظ الحلل المجددة، باعتبار دوام زينة الإنسان بها، وتجدد بهائه وحسنه وتهذيب نفسه على استمرار الزمان بلزومها، واستخراج محاسنها كالحلل التي لا تزال تجدد على لابسها.

«والفكر مرآة صافية».

الفكر قد يراد به القوة المفكرة، وقد يراد به حركة هذه القوة مطلقاً، أيّة حركة كانت، وقد يراد به معنى آخر. وعنى هنا القوة نفسها، واستعار لها لفظ المرآة باعتبار أنّها إذا وجهت نحو تحصيل المطالب التصورية والتصديقية أدركتها وتمثلت بها كما يتمثل في المرآة صور ما يحاذى بها».[2]

* * *

وقال صاحب (الدرّة النجفية):

قوله عليه السلام: «والعِلم وراثةٌ كَريمةٌ».

هو أشرف الكمالات التي تُقتنى، وبحسب ذلك كان وراثة كريمة من العلماء، بل كان أكرم موروث ومكتسب، وكان يقال: عطية العالم شبيهة بمواهب الله عز وجل لأنها لا تنفد عند الجود بها وتبقى بكمالها عند مفيدها، وكان يقال: العلم في الأرض كالشمس في السماء. لولا الشمس لأظلم الجو، ولولا العلم لأظلم أهل الأرض.

---

(١) مريم: ٥ و٦.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٥.

وقيل لبعضهم: أيّ العلوم أفضل؟ قال: ما العامة فيه أزهد، وقال أفلاطون: من جهل الشيء ولم يسأل عنه جمع على نفسه فضيحتين.

وكان يقال: لا حلّة أجمل من حلّة الأدب؛ لأنّ حلل الثياب تبلى وحلل الأدب تبقى، وحلل الثياب قد يغتصبها الغاصب ويسرقها السارق، وحلل الآداب باقية مع جوهر النفس.

* * *

[العلم موهبة إلهية]:

وفي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[(١)]

قال في قوله عليه السلام: «والعلم وراثة كريمة».

العلم فطري، وهو موهبة إلهية أُلهِمَ بها قلب العالم بعناية الله، أو اكتسابي أوحي إليه بعد تحصيل مقدماته المفضية إليه، والتعبير عنه بأنه (وراثة) تشير إلى أنّ العلم، وهو النور الساطع من باطن العالم ينكشف به الأشياء المجهولة لديه، موهبة من الله، وإن تكلف تحصيل مقدماته في العلوم الإكتسابية، فهو كالرزق للأبدان بذلهُ الله لكل من يستحقه مؤمناً كان أو غيره، إلاّ ما كان من العلوم الإلهية والمعارف القدسية التي تختص بالمؤمن، ومن يرد الله أن يهديه.

والإرث ما يتحصل للوارث بلا عوض، وبهذا الإعتبار عبّر عنه بالوراثة، وليس المقصود أن العلم ميراث من العلماء والأساتذة، كما في الشرحين لابن ميثم وابن أبي الحديد، فإنّ العلم أعمّ، والمقصود أتم.

«والأدب حلل مجددة» والأدب لفظة تشعر بالنظم والترتيب، ومنه مأدبة لسفرة الغذاء، لأنه يراعى فيه النظم، والأدب رعاية القوانين المقررة

---

(١) ج ٢١: ١٣.

في المعاشرة والمعاملة مع الناس، فرعاية الأدب التحلي بأعمال وأقوال تجاه الخالق أو الخلق.

وحيث إن الإنسان دائماً مسؤول عن فعله وقوله أمام الخالق والمخلوق، ولا بدّ له من رعاية وظائفه حيناً بعد حين، فكأنه برعاية الأدب يجدّد حلية جماله المعنوي، ويلبس حللاً ويبدلها بأخرى، وهذا من أحسن التعبيرات والاستعارات.

وقد ذكر صاحب الشرح في ذيل هذه الجملة قصة لنا عليها نكتة وتعليق نذكرها بنصها، ثم نردفها بهذه النكتة ونعلق عليها وهذا نصها:

أظلوم أنّ مصابكم رجلاً   أهدى السلام تحية ظلمُ

فقال شخص: رجل هو خبر (إنّ) ووافقه على ذلك قوم، وخالفه آخرون، فقال الواثق: من بقي مِن علماء النحو؟

قالوا: أبو عثمان المازني بالبصرة، (والقصة قد تقدمت فلا حاجة إلى إعادتها).

ففيها نكتتان:

١ ـ صاحب الشرح حمل لفظة الآداب الواردة في كلام مولانا عليه السلام على المعنى الإصطلاحي المحدث، وهو علم العربية وما يلحق بها، وما يسمونه بعلوم الأدب، والأدبيات، ومفهوم العلوم الأدبية ليس بواضح من وجهين:

الأوّل: ما هي العلوم الأدبية؟

الثاني: لم سميت تلك العلوم بالأدبية والأدبيات؟

أما جواب السؤال الأوّل: فليس بمحرر من حيث إنّ علم اللغة، والصرف، والنحو، والبلاغة والشعر أدبيات، ولكن هل تشمل اللفظة علم التاريخ والمنطق؟

ونوضح أوّلاً جواب السؤال الثاني، فنقول: إنّ لفظة أدب، كما ذُكر، يشعر بالنظم والترتيب، وعلوم اللغة والصرف والنحو تنظم الكلام، فيقال لها: علوم الأدب أو الأدب العربي، قال في (المنجد): أدب إيداباً، السلطان البلاد ملأها قسطاً وعدلاً، والعدل هو استقرار النظم الإجتماعي الصحيح... إلى أن قال: الآداب تطلق على العلوم والمعارف، أو على المستظرف منها فقط، ويطلقونها على ما يليق بالشيء أو الشخص فيقال: آداب الدرس، وآداب القاضي... إلخ.

وعلم الأدب هو علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة... انتهى.

وعلى كلّ حال حمل لفظة الآداب في كلام مولانا عليه السلام على هذا الإصطلاح، كما يشعر به كلام الشارح المعتزلي بعيد جداً، فإنّ هذا الإصطلاح غير موجود في ذلك العصر، وليس بمقصود في المقام، كما أوضحناه.

٢ ــ يظهر من هذه القصة انحطاط بلاط الخلافة في العلم والأدب إلى حيث لا يفهم المعتصم هذا البيت العربي الصريح حتّى فهّمه المازني، وأوضح له المراد، مع أنّه قريب العصر بالمأمون العبّاسي الشهير بالفضل والتوجه إلى أهله.

وأما تعليقنا على هذه القصة فقد نلفت نظر القراء الكرام إلى وضع هذه الشخصية الفذة ــ وهو أبو عثمان المازني ــ أحد أعيان العلوم الأدبية وواضع علم الصرف، وقد كان من أعيان الشيعة الإمامية في عصره الرهيب.

قال في تنقيح المقال (ج ١ ص ١٨٠):

بكر، بن محمّد، بن حبيب، بن بقية، أبو عثمان، المازني... إلى أن قال: قال النجاشي:

بكر بن محمّد بن حبيب بن بقية أبو عثمان المازني، مازن بني

شيبان، كان سيد أهل العلم، بالنحو، والغريب واللغة بالبصرة، ومقدمته مشهورة بذلك... إلى أن قال: ولا إشكال في كون الرجل إمامياً، وقد سمع من النجاشي أنه من علماء الإمامية... إلخ.

أقول: ويشعر بعض مضامين القصة المنقولة أنه من الإمامية حيث إن دعوته إلى سرّ من رأى بأمر الخليفة كانت معرض خطر، وبهذه المناسبة سأله المعتصم عن أولاده وعما قالت له ابنته حين سفره، وأعطاه الأمان بقوله: اجلس واطمئن، فيظهر منها أنه كان معروفاً بالتشيع، ومبتلى بالضغط وضيق المعاش.

[الفكر مرآة صافية]:

«والفكر مرآة صافية».

الفكر شعاع عقلي ينور القلب، وتنكشف به الحقائق، وهو حركة روحية من المبادئ إلى المقاصد، ومن المقاصد إلى المباديء. وعرفه الشيخ البهائي ﷺ في المباديء المنطقية لزبدة الأصول: بأنه تأمل معقول لكسب مجهول.

ووصفها عليه السلام بأنها مرآة صافية ينعكس فيها الحقائق، فيجب على كلِّ استعمالها في شتى أموره ويخلّصها من شوب الوهم والتخيل ليرى الأشياء فيها كما هي. انتهى.

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):[1]

في قوله عليه السلام: «والعلم وراثة كريمة».

قال ابن أبي الحديد في شرحه: كل عالم يأخذ العلم من أستاذه

---

(١) ج ٤: ٢١٨.

فكأنه ورث العلم عنه، وتبعه ابن ميثم في هذا التفسير، وقال: العلم وراثة العلماء، وقال شارح ثالث: أخطأ الاثنان، والحق في التفسير أن العلم يأخذ بلا عوض تماماً كالإرث.

ولو تنبه هؤلاء الشارحون لقول الإمام رقم (١٤٧) لأراحوا واستراحوا من هذا التكلّف والتعسّف.

قال الإمام في هذه الحكمة: من جملة ما قال: «العلم يكسب الإنسان جميل الأحدوثة بعد وفاته»، وهذا بالذات هو مراد الإمام بقول: «والعلم وراثة كريمة» فإنّ كلام الإمام يفسر بعضه بعضاً، لأنّ مصدره واحد، وكلّنا يعلم أنّ الناس يذكرون الإنسان بعد وفاته بأفعاله وصفاته، وإن العلم من الصفات الجلية.

[الآداب حلل مجددة]:

«والآداب حلل مجددة».

الحلل المجددة كناية عن البهجة والزينة الدائمة، والمراد بالآداب هنا الصفات الحميدة عند العقل والعقلاء، كالبلاغة والذكاء وحسن السلوك، وما إلى ذلك من الفضائل الشخصية والإجتماعية... نقول هذا مع العلم أن تحديد المفاهيم ومعاني الألفاظ من أدقّ الأشياء وأصعبها. ولكن هذا ما فهمناه من سياق الكلام، أو منطق الواقع. فإن كان هذا ما أراده الإمام من كلامه هنا فذلك، وإلاّ فإنّ الإمام لا يرفض المعنى الذي فهمناه، لأنه حقّ في نفسه، ومن حيث هو.

«والفكر مرآة صافية».

المراد بالفكر هنا القوة المدركة العاقلة التي إذا عملها الإنسان بعيداً عن الهوى والمحاكاة دلّت على الحق والصواب، وكنّى الإمام عن هذه الدلالة

الصادقة بالمرآة الصافية التي تعكس الشيء كما هو في واقعه. وأخذنا هذا التفسير من قول الإمام في الرسالة (٣٠): «مَن تَفكَّر أبصر» وقوله في الحكمة (١١٣): «لا علم كالتفكر» أي إنّ العلم بلا تفكير أكثر خطورة من التفكير الذي لا يدعمه علم، كما قال كونفوشيوس.

أقول: يقول بعض العلماء ولعله أحد الغربيين، ولعلّه كارليل، صاحب كتاب (الأبطال)، يقول، على ما أذكر: مما يدل بديهة على أن محمَداً صادق في دعواه، وواثق من صحة هذه الدعوى، حثه على العلم، فإنّ الوحي المنزل عليه حافل بالدعوة إليه، وأن السُنّة الصحيحة تحمل في كثير من كلماتها الجوامع تعزيزاً لدعوة القرآن أهله إلى العلم، فلو لم يكن واثقاً من أنّ دينه حقّ لما حضّ على العلم.

قال ﷺ «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة، فاطلبوا العلم في مظانه واقتبسوه من أهله، فإنّ تعلمه لله تعالى حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنّة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً ويجعلهم في الخير قادة، تُقتبس آثارهم، ويُقتدى بأفعالهم، ويُنتهى إلى آرائهم، ترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كلّ رطب ويابس حتّى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه».

إنّ العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة، وقوة الإيمان من الضعف يَبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الأبرار، والدرجات العلى في الآخرة والأولى.

الذكر فيه يُعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، به يُطاع الربّ ويُعبد، وبه توصل الأرحام، ويُعرف الحلال والحرام. العلم إمام والعمل تابعه يُلهمه السعداء ويُحرمه الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه.

وبالتالي: أن العلم أفضل الفضائل الكمالية وأشرف النعوت الجمالية، بل هو أجلّ الصفات الربوبية، وأجمل السمات الألوهية، وهو الموصل إلى جوار ربِّ العالمين، والدخول في أفق الملائكة المقربين، وهو المؤدي إلى دار المقامة التي لا تزول، ومحل الكرامة التي لا تحول.

* * *

جاء في الخلق الكامل (ج ١ ص ٧٢) تحت عنوان:

العلم وأثره:

إن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلاّ بانتظام الدنيا، ولا يستقيم نظام الدنيا إلاّ بتفهم عالم المخلوقات، بالبحث عن طبائع الموجودات وخواصها، وذرائع استخدام ما لا غنى عنه، في بقاء الإنسان أو كماله، ثمّ استقرار شؤون الإجتماع وما يتبع ذلك من سنن التعاون على أسباب المعيشة وضبطها وطرق إصلاح الأخلاق، وتهذيب النفوس، وإرشادها إلى ما فيه رفعتها في الدنيا وسعادتها في الآخرة.

ومن هذا يتبين أنّ الإنسان لا تتم له حكمة خلقه، وتسخير هذا الكون له إلاّ بالعلم والتربية، فبهما سعادة الدنيا، وهما طريق الفوز في الأخرى.

قال تعالى وهو أحكم القائلين: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

---

(١) الجمعة: ٢.

فالقرآن حوى المقصدين: التعليم، وهو مثقّف العقول ومروّضها، والتربية، وهي مقوّمة الأخلاق ومطهرتها، العلم هو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة والمصبّر على السرّاء والضرّاء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلَم، أهله سادة قادة، آثارهم متبَعة، وأفعالهم مرموقة، أولئك سُرج الأزمنة وأئمّة الخير.

وكفى العلم رفعة قوله تعالى في محكم كتابه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.(١)

وقوله جلّت حكمته: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.(٢)

وقوله عزّ شأنه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾.(٣)

وقول النبي ﷺ: «إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع المملوك حتّى يدرك مدارك الملوك».

وقول النبي ﷺ: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد» أما أهل العلم فدلّوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بسيوفهم على ما جاءت به الرسل، وجاهدوا أنفسهم على اتّباع ما جاءت به الرسل.

ولقد خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين: أحدهما يدعون الله ﷻ ويرغبون إليه، والناس يعلّمون الناس، فقال: «أما هؤلاء

---

(١) المجادلة: ١١.

(٢) الزمر: ٩.

(٣) القصص: ٨٠.

فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلّمون الناس، وإنّما بعثتُ معلّماً»، ثمّ عدل إليهم وجلس معهم.

وقال صلى الله عليه وآله: «مَثَلُ ما بَعثَني الله به من الهدى والعلم كَمَثَلِ الغيثِ الكثير أصابَ أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاءً».

الأولى: لمن تعلّم واستفاد وأفاد. والثانية: لمن تعلم وأفاد غيره ولم يفِد نفسه، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[1] والثالثة: للمحروم المطرود ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾.[2]

العِلم الذي نعنيه ليس استظهار المسائل واستيعاب فروعها، بل هو تحصيل ملكة في الإحاطة بمباديء العلوم، والوقوف على مسائلها، واستنباط فروعها من أصولها، وإذا لم تحصل هذه الملكة، فلا أثر له في تكوين القوى العقلية، ذلك بأنّ العلم صناعة، وكلّ صناعة منظمة يرجع إلى النفس منها أثر يكسبها رجاحة في العقل، وإضاءة في الفكر، ووفرة في الكيس.

يجعل صاحبه أدنى إلى كمال الذهن، وتفهّم حقائق الأمور، والأخذ بالأحسن من الأعمال والعادات والمعاملات، مما يزيد في بناء الأخلاق، ويمكن دعائمها، وهذا هو سر التذرع بتربية العقول وترويضها إلى بلوغ كمال الأخلاق.

هذا الضرب من التعليم هو الذي يوقظ الشعور الغريزي، وينمي العقول ويروضها على طويل التفكير، والنظر في كتاب الكائنات، ونظام المخلوقات حتّى تقوى ملكة الترقّب، ويتحقق سرّ قوله تعالى: ﴿أَفَلا

---

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) البقرة: ٧.

يَنظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيفَ خُلِقَتْ * وَالى السَّماءِ كَيفَ رُفِعَتْ * وَالى الجِبالِ كَيفَ نُصِبَتْ * وَالى الأرْضِ كَيفَ سُطِحَتْ﴾.[١]

ولقد جنى الغربيون ثمرة هذا النمط من التعليم فتفهموا به أسرار الصنعة الإلهية في الكون، وأخذوا ينتهجون نهجها، فَدأبوا على محاكاتها، والجري على سننها. وبذلك ارتقت صناعاتهم واتسعت متاجرهم بما سخّر لهم من الأرض ومعادنها، والبحار ومسالكها والرياح ومهابها.

ومن ذلك أنهم يمّموا وكنات الطيور، فرأوا ضروباً كثيرة وأجناساً مختلفة القدر والتقطيع والألوان، ثمّ راقبوا عن كثب الحمامة وهي في محضنتها، والقطا وهي في أفحوصها، والبازي وهو في ميقَعتِه، ثمّ نظروا في خلق الطير عامة نظرة استقصاء وتتبع فتفهموا أقسام ريش الجناح: من القوادم، والمناكب، والأباهر والخوافي، ثمّ فطنوا إلى تكوين منقارها ودوابرها وقطونها، فأماطوا اللثام عن علاقة هذا التصوير البديع بطيران الطير وعكوفها، فشاهدوا منها القوي والضعيف، والسريع والخفيف، والبطيء والثقيل، وكلها لا تعدمها الصرامة، وذكاء الفؤاد والشهومة، ثمّ صنعوا على ذلك مثلها سفائن هي كالطير إذا نشرت ـ أي: أسرعت في هويّها ـ، ثمّ إذا أسفت ـ أي: دنت من الأرض، وكلّ قريب مُسف ـ أو لفتت[٢] أو دوّمت في السماء،[٣] أو اصطفت،[٤] أو حامت على شيء.[٥]

---

(١) الغاشية: ١٧ – ٢٠.

(٢) تقلبت في طيرانها ظهراً لبطن.

(٣) جعلت تدور.

(٤) صفت أجنحتها دون حركة.

(٥) استدارت عليه.

لقد نقلوا إلى هذه السفائن هيأة العقاب إذا خاتت[١] ثمّ إذا كنعت[٢] ألم تر كيف تدف دفيف الطائر فهي كالحمامة في زوفها[٣] والعقاب في وحاتها[٤] تخترق جو السماء، فلا اضطراب ولا اختلاط، وتنفذ في طبقات الجوّ صُعداً، وربما حال السحاب دونها، فتوارت عن الأبصار.

نعم إنّ الله سبحانه وتعالى قد يخص بألطافه الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه، رزانة عقل، وزيادة معرفة، تخرجه عن حدّ الإكتساب يصير بها راجحاً على ذوي التجارب والآداب، أولئكم الأنبياء عليهم السلام الذين أدركتهم العناية الأزلية، فأشرقت على بواطنهم أنوارها الكونية، وشملتهم الهداية الربانية، فاتصفت بالفطنة والذكاء قلوبهم، وأسفرت عن وجه الإصابة ظنونهم، وحسبنا دليلاً آثارهم وأعمالهم، وسيرهم وأخبارهم، وتلك مرتبة دونها خرط القتاد، فلا ينبغي لعاقل أن يطمع في بلوغها بالكسب والعمل والمثابرة، بيد أن هناك مرتبة هي من متناول العقول التجريبية الكسبية يبلغها من بيضت الحوادث سواد لمّتهم، وأخلقت التجارب لبس جدتهم، وتلك هي التي يطمع فيها المتمسكون باهداب العلم، الدائبون على دراسته، العاكفون على العمل به، وآية هذه المرتبة أن يكون صاحبها بحيث لا يرى شرفاً إلاّ شرف العقل، ولا غنى إلاّ غنى النفس، يقول إذا فكّر، ويعمل إذا تدبر، رأيه في إمداد، وعقله في إرشاد، عند العقلاء موسوم بالعقل، مرموق بعين الفضل.

* * *

---

(١) انقضت.

(٢) ضمت جناحيها للانقضاض.

(٣) دف الطير حرك جناحيه ورجليه في الأرض.

(٤) وحاة العقاب هو صوت انقضاضها.

[أقسام العلم]:

جاء في (مناهل الأشواق) لمؤلفه العلامة السيد محمّد صفي الدين العاملي (ص ٢٢) ما يلي:

العلم نور يستضاء به، العلم حياة سارية، وشمس طالعة، ونعمة نافعة. العلم مصباح في الظلمة، أنيس في الوحشة، ميراث الأنبياء، وناموس العرفاء وكنز الفقراء.

يطلق العلم على تصور الأشياء، وعلى التصديق بها وفهمها ومعرفتها.

وحقيقة معناه الكشف عن العلوم، حتّى كأنّ العالم به يراه وإن غاب عنه.

وبعد: لا ريب أنّ العلم يختلف حال ما يقع عليه، فتارة يقع على الصناعات فيضاف إلى صنعة منها.

فنقول: علم الصياغة والحياكة مثلاً، ويكون ما ينكشف بهذا العلم لا ربط له بعلم اللغة، أو الطبابة، أو الهيأة، أو الحساب، وجملة من العلوم يرتبط بعضها بالآخر، فإن العلوم الدينية ترتبط بعلم اللغة وبعلم الحساب والهيئة بالجملة، وهكذا الحال في جملة من العلوم، فقد يتوقف تحققها وإتقانها على غيرها، وقد تتقوى بغيرها، ويحكم العقل والوجدان أن بعض العلوم يمتاز على غيره، فعلم الأديان يمتاز على كل علم سواه، وبعده علم الأبدان يمتاز على ما عداه، وبقية العلوم متساوية بحكم العقل، وإن كان لبعضها تفوّق على غيره باعتبار آثاره.

السبب في امتياز علم الأديان، إنه الواسطة الوحيدة لمعرفة شكر الله سبحانه على النحو الذي أمر به، وشكر المنعم لازم وواجب بحكم العقل والعقلاء، وبشكره سبحانه يفوز الإنسان بالنعيم الدائم ويتخلص من العذاب الأليم والخلود في الجحيم.

السبب في امتياز علم الأبدان أنه بقدرة الله سبحانه واسطة لملاطفة المزاج، وحفظ الصحة، وإزالة الألم، وصرف قوة المرض عن جسم الإنسان المكرم على غيره من الأجسام.

فبقية العلوم في مرتبة واحدة بحكم العقل؛ لأنها بالنسبة لحفظ انتظام الإنسان في عالمه لها الدخالة والتوسط، وإن اختلفت قوة وضعفاً، وكان بعضها أحسن نفعاً للعالم به من غيره.

العلم أمرٌ وجودي، والجهل أمر عدمي، والوجود أشرف من العدم، وقد جعل سبحانه وتعالى نعمة العلم مقترنة بنعمة الإيجاد في خطابه للنبي محمّد عليه السلام فقال سبحانه:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

هذا أوّل ما نزل على محمّد صلى الله عليه وآله بنصّ جملة من المفسرين، فانظر كيف افتتح سبحانه كتابه المجيد بذكر نعمة الإيجاد وأتبعها بذكر نعمة العلم، ليبين للإنسان أن العلم هو النعمة الكبرى بعد الخلق من علقة، وهي بمكان من الخساسة، ولا ينتقل الإنسان من هذه المرتبة الخسيسة إلاّ بالعقل والعلم.

نعم، ينتقل إذا استنار بمصباح العلم وتخلّص من هوّة الجهل، فالعلم الذي به يعرف الإنسان أنه مخلوق من صنعة خالق منعم، متوحّد في خلقه، متفرّد في إنعامه، واجب طلبه على كلّ إنسان بلا فرق بين الذكر والأنثى والحرّ والمملوك؛ لأنه مقدمة لشكر المنعم، وشكر المنعم

---

(١) العلق: ١ – ٥.

واجب بحكم العقل، ومقدمة الواجب واجبة، فهذا المقدار من العلم واجب تحصيله على كلّ فرد من أفراد الإنسان إذا كان بالغاً عاقلاً.

أما الإجتهاد في علم الدين فهو واجب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الباقي، وهذه المرتبة من علم الدين هي التي شرف الله أهلها العاملين بما عملوا، وفضّلهم على غيرهم.

[آيات من الذكر في فضل العلم]:

قال سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبابِ﴾.(١)

وقال سبحانه: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾.(٢)

وقال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾.(٣)

وقال سبحانه: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾.(٤)

وقال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.(٥)

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ﴾.(٦)

وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾.(٧)

---

(١) الزمر: ٩.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) آل عمران: ١٨.

(٤) الرعد: ٤٣.

(٥) العنكبوت: ٤٩.

(٦) العنكبوت: ٤٣.

(٧) المجادلة: ١١.

[أحاديث في فضل العلم]:

ويكفيك برهاناً على شرف العلم وعظمته أنّ الله سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وآله بزيادة طلب العلم مع ما أعطاه من العلم والحكمة، فقال سبحانه مخاطباً لنبيه: ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلماً﴾.(١)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «العلم علمان: العلم في القلب وذلك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك الحجة على العباد».(٢)

وقال صلى الله عليه وآله: «العلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان»(٣) أي إنّهما أشرف العلوم، والأوّل أشرف من الثاني.

وقال صلى الله عليه وآله: «أربع تلزم على كلّ ذي حجى من أمّتي»، قيل: وما هنّ يا رسول الله؟ فقال: «استماع العلم، وحفظه، والعمل به، ونشره».(٤)

وقال صلى الله عليه وآله: «العلم خزائن ومفاتيحها السؤال، فاسألوا يرحمكم الله فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والمجيب والمستمع والمحبّ لهم».(٥)

وقال صلى الله عليه وآله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».(٦)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «تعلموا العلم فإنّ تعليمه حسنة، وطلبه عبادة، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنّه علم الحلال والحرام وسبل منازل الجنّة، والأنيس في الوحشة،

---

(١) طه: ١١٤.

(٢) بحار الأنوار ٢: ٢٧.

(٣) بحار الأنوار ١: ٢٢٠.

(٤) بحار الأنوار ٢: ٢٤.

(٥) ميزان الحكمة ٢: ١٢١٦.

(٦) كنز العمال ١٠: ١٤٠.

والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزينة عند الخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم للخير قادة وأئمة تُقتفى آثارهم ويقتدى بفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كلّ رطب ويابس؛ لأنّ العلم حياة القلوب ومصابيح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، ويبلغ بالعباد منازل الأخيار والدرجات العُلا، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، وهو امام العمل، والعمل تابع له، يلهمه الله أنفس السعداء ويحرمه الأشقياء».[1]

وقال عليه السلام: «لا راحة في العيش إلاّ لعالم ناطق، أو مستمع واع».[2]

وقال عليه السلام: «عُدْ عالماً أو متعلّماً، ولا تكن الثالث فتعطب».[3]

وقال عليه السلام: «العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الزمان».[4]

وقال عليه السلام: «قيمة كلّ امرئ ما يحسنه، والناس أبناء ما يحسنون، العلم وراثة مستفادة، الجاهل صغير وإن كان شيخاً، والعالم كبير وإن كان حدثاً، الأدب يغني عن الحسب، من عُرف بالحكمة لحظته العيون بالوقار، من جالس العلماء وُقرّ، ومن جالس الجهلاء حُقّر، العلم أشرف الأحساب، لا كنز أنفع من العلم، ولا قرين أسوء شراً من الجهل، العلم خير من المال لأنّ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على

---

(١) بحار الأنوار ١: ١٦٦.

(٢) كنز الفوائد: ٢٤٠.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

الإنفاق والمال ينفد بالنفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، عليكم بطلب العلم فإنّ طلبه فريضة، وهو صلة بين الاخوان ودال على المروءة، وتحفة في المجالس، وصاحب في السفر، وأنيس في الغربة، الشريف من شرّفه علمه».[١]

وقال محمّد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين الشهيد بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد».[٢]

وقال عليه السلام: «من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتواه».[٣]

وقال جعفر الصادق بن محمّد الباقر عليهما السلام: «تفقّهوا في دين الله ولا تكونوا أعراباً فإنّه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزكّ له عملاً».[٤]

وقال عليه السلام: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا تزيده سرعة السير إلاّ بعداً».[٥]

وقيل لبعض الحكماء: أيحسن بالشيخ أن يتعلّم؟ فقال: إن كانت الجهالة تقبح منه، فإن التعلّم يحسن منه، والمراد بالشيخ كبير السن.

وقيل له: متى يحسن به التعلّم؟ فقال: ما حسنت به الحياة.

---

(١) كنز الفوائد: ٢٤٧.

(٢) بحار الأنوار ٢: ١٨.

(٣) منية المريد: ٢٨٣.

(٤) كنز الفوائد: ٢٤٠.

(٥) الكافي ١: ٤٣.

وقيل لبزرجمهر: العلم أفضل أم المال؟ فقال: العلم، قيل له: ما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء منفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم.[(١)]

* * *

[شرائط طلب العلم]:

هنا بعض ما ورد في فضل العلم وأهله، إلاّ أن لأهل العلم شرائط يلزمهم القيام بها، وإلاّ كان الجهلاء خيراً منهم.

ففي (الكافي): عن معاوية بن وهب، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «اطلبوا العلم وتزيّنوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلّمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبّارين، فيذهب باطلكم بحقكم».[(٢)]

وفيه عن أبي حمزة، عن عليّ بن الحسين عليهما السلام، قال: «لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج، إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى دانيال: إنّ أمقت عبيدي إليّ الجاهل المستخف بحق أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وإنّ أحبّ عبيدي إليّ التقي الطالب للثواب الجزيل، الملازم للعلماء التابع للحلماء، القابل عن الحكماء».[(٣)]

وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قام عيسى بن مريم خطيباً في بني إسرائيل، فقال: يا بني إسرائيل لا تحدّثوا الجهال بالحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم».[(٤)]

---

(١) كنز الفوائد: ٢٤٠.

(٢) الكافي ١: ٣٦.

(٣) الكافي ١: ٣٥.

(٤) الكافي ١: ٤٢.

وفيه أنّه قال: يا معشر الحواريين لي إليكم حاجة اقضوها؟ فقالوا: قضيت حاجتك يا روح الله، فقام فغسل أقدامهم! فقالوا: نحن أحقّ بهذا يا روح الله، فقال: إنّ أحق الناس بالخدمة العالم، إنما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي إلى الناس كتواضعي لكم، ثمّ قال: بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر، وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل.(١)

وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: «يا طالب العلم إنّ للعالم ثلاث علامات: العلم والحلم والصمت، وللمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه بالمعصية، ويظلم من دونه بالغلبة، ويظاهر الظلمة».(٢)

وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٣) قال: «يعني بالعلماء من صدّق فعله قوله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم».(٤) انتهى.

* * *

قال ابن عبد ربّه في العقد الفريد (ج ١) في العلم والأدب:

العلم والأدب هما القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا، وفرق ما بين الإنسان وسائر الحيوان، وما بين الطبيعة الملكية والطبيعة البهيمية، وهو مادة العقل وسراج البدن، ونور القلب، وعماد الروح. وقد جعل الله بلطيف قدرته وعظيم سلطانه، بعض الأشياء عمداً لبعض، ومتولّداً من بعض، فإجالة الوهم فيما

---

(١) الكافي ١: ٣٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) فاطر: ٢٨.

(٤) الكافي ١: ٣٦.

تدركه الحواس تبعث خواطر الذكر، وخواطر الذكر تنبّه رويّة الفكر، ورويّة الفكر تثير مكامن الإرادة، والإرادة تحكّم أسباب العمل، فكلّ شيء يقوم في العقل ويمثل في الوهم يكون ذكراً، ثمّ فكراً، ثمّ إرادة، ثمّ عملاً.

والعقل متقبل للعلم لا يعمل في غير ذلك شيئاً، والعلم علمان: علم حمل، وعلم استعمل، فما حمل منه ضرّ، وما استعمل نفع، والدليل على أنّ العقل إنما يعمل في تقبل العلوم كالبصر في تقبل الألوان، والسمع في تقبل الأصوات، وإنّ العاقل إذا لم يعلم شيئاً كان كمن لا عقل له، والطفل الصغير لو لم تُعرّفه أدباً وتُلقّنه كتاباً كان كأبله البهائم، وأضلّ الدواب، فإن زعم زاعم فقال: إنا نجد عاقلاً قليل العلم، فهو يستعمل عقله في قلّة علمه، فيكون أشدّ رأياً وأنبه فطنة، وأحسن موارد ومصادر من الكثير العلم مع قلة العقل، فإنّ حجتنا عليه ما قد ذكرناه من حمل العلم واستعماله، فقليل العلم يستعمله العقل خير من كثيره يحفظه القلب.

قيل للمهلب: بم أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم، قيل له: فإنّ غيرك قد علم أكثر ممّا علمت، ولم يدرك ما أدركت؟ قال: ذاك علم حُمل، وهذا علم اُستعمل.

وقد قالت الحكماء: العلم قائد، والعقل سائق والنفس ذود، فإن كان قائداً بلا سائق هلكت، وإن كان سائقاً بلا قائد أخذت يميناً وشمالاً، وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرهاً.

فنون العلم:

قال سهل بن هارون وهو عند المأمون: من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن ينظروا فيه، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض

الحلال، فقال المأمون: قد يسمي بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم، فإن كان هذا أردت فوجهه الذي ذكرت، ولو قلت أيضاً: إن العلم لا يُدرك غوره، ولا يُسبر قعره، ولا تبلغ غايته ولا تستقصى أصوله، ولا تنضبط أجزاؤه، صدقت، فإن كان الأمر كذلك فابدأ بالأهم فالأهم، والأوكد فالأوكد، وبالفرض قبل النفل، يكن ذلك عدلاً قصدوا مذهباً جميلاً.

وقد قال بعض الحكماء: لست أطلب العلم طمعاً في غايته، والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله، فهذا وجهٌ لما ذكرت.

وقال آخرون: علم الملوك النسب والخبر، وعلم التجار الكتاب والحساب، فأما أن يسمّى الشيء علماً وينهى عنه، من غير أن يسئل عما هو أنفع منه فلا.

وقال ابن سيرين: العلم أكثر من أن يحاط به، فخذوا من كلّ شيء أحسنه.

الحض على طلب العلم:

قال النبي صلى الله عليه وآله: «لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل».

وقال صلى الله عليه وآله: «الناس عالم ومتعلم، وسائرهم همج».

وعنه صلى الله عليه وآله: «إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما طلب»، و«لمداد ما جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله».

وقال داود لابنه سليمان عليهما السلام: «لفّ العلم حول عنقك، واكتبه في ألواح قلبك». وقال أيضاً: «اجعل العلم مالك، والأدب حليتك».

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «قيمة كلّ إنسان ما يحسن».

قال ملك الهند لوُلده وكان له أربعون ولداً: يا بنيّ اكثروا من النظر في

الكتب، وازدادوا في كلّ يوم حرفاً، فإنّ ثلاثة لا يستوحشون في غربة: الفقيه العالم، والبطل الشجاع، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأي، انتهى.

* * *

وما اخترته من (معادن الجواهر)، لمؤلفه العلامة السيد محسن الأمين العاملي (مجلد ١ ص ٥) قوله: تحت عنوان (الأمر الثاني):

في فضيلة العلم وذم الجهل:

إعلم أنّ فضيلة العلم وارتفاع درجته، أمر كفى انتظامه في سلك الضرورة مؤنة الإهتمام ببيانه، وما يورد في فضله إنما هو من قبيل ما يذكره الوعاظ من أخبار الترغيب والترهيب لتحريك النفوس وتنبيه الغافل، ويدل على فضل العلم بعد الضرورة عند جميع العقلاء العقل والنقل من الكتاب والسُنّة.

دلالة العقل على فضل العلم:

أما العقل: فمن وجهين:

الأوّل: إنّ الأسماء تنقسم إلى موجود ومعدوم، والموجود أشرف من المعدوم ببديهة العقل، والموجود ينقسم إلى جماد ونام، والنامي أشرف من الجامد، والنامي ينقسم إلى حساس وغيره، والحساس أشرف من غيره، والحساس ينقسم إلى عاقل وغير عاقل، والعاقل أشرف من غيره، والعاقل ينقسم إلى عالم وجاهل، والعالم أشرف من الجاهل، كلّ ذلك ببداهة العقل، فالعالم أشرف المعقولات والموجودات.

الثاني: إنّ الأمور على أربعة أقسام: قسم يرضاه العقل ولا ترضاه الشهوة، وقسم عكسه، وقسم يرضيانه، وقسم لا يرضيانه، فالأوّل كالأمراض والمكاره في الدنيا، والثاني المعاصي، والثالث العلم، والرابع الجهل.

الآيات الواردة في فضل العلم:

أما الكتاب فآيات كثيرة العدد يعسر حصرها:

١ ـ في سورة العلق، وهي أوّل ما أنزل في قول بعض المفسرين، وفي قول بعض إنّها الفاتحة.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسان ما لَمْ يَعْلَمْ﴾.[1]

حيث افتتح كلامه المجيد بذكر نعمة الإيجاد، وأتبعه بذكر نعمة العلم. فلو كان بعد نعمة الإيجاد نعمة أعلى من العلم لكانت أجدر بالذكر، وقد قيل في وجه التناسب بين الآي المذكورة في صدر هذه السورة المشتمل بعضها على خلق الإنسان من علق، وبعضها على تعليمه ما لم يعلم، أنه تعالى ذكر أوّل حال الإنسان، أعني كونه علقة وهي بمكانة من الخساسة، وآخر حاله وهي صيرورته عالماً، وذلك كمال الرفعة والجلالة، فكأنّه سبحانه قال: كنت في أوّل أمرك في تلك المنزل الدنية الخسيسة، ثمّ صرت في آخره إلى هذه الدرجة الشريفة النفيسة.

قال الشهيد الثاني في (منية المريد):[2] هذا يدل على أنّه سبحانه اختص بوصف الأكرمية؛ لأنّه علّم الإنسان العلم فلو كان شيء أفضل من العلم أو النفس، لكان اقترانه بالأكرمية المؤداة بأفعل التفضيل أولى.

٢ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلماً﴾. (الطلاق: ١٢).

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

(٢) ص ٩٥.

فجعل العلم علة لخلق العالم العلوي والسفلي، وكفى بذلك دلالة على شرف العلم، سيما علم التوحيد.

٣ ـ ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرا كَثِيرا﴾. (البقرة: ٢٦٩).

وفسّرت الحكمة في هذه الآية، وفي آية ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم: ١٢) وغيرهما بمواعظ القرآن والعلم والفهم والنبوة، والكل يرجع إلى العلم.

٤ ـ ﴿هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبابِ﴾. (الزمر: ٩).

وقرن الله في كتابه العزيز بين عشرة أشياء: ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ (المائدة: ١٠٠)، ﴿وَما يَسْتَوِي الأَعْمى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُلماتُ وَلاَ النُورُ * وَلاَ الظِلُ وَلاَ الْحَرُورُ * وَما يَسْتَوِي الأَحْياءُ وَلاَ الأَمْواتُ﴾ (فاطر: ١٩ ـ ٢٢)، وإذا تأملت تفسير ذلك وجدت مرجعه جميعاً إلى العلم.

٥ ـ ﴿إِنما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾. (فاطر: ٢٨).

فقرن أولي العلم بنفسه وملائكته.

٦ ـ ﴿شَهِدَ اللهُ أَنهُ لا إِلهَ إلاَ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولوا الْعِلْمِ﴾. (آل عمران: ١٨).

٧ ـ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾. (آل عمران: ٧).

٨ ـ ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتاب﴾. (الرعد: ٤٣).

٩ ـ ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالذِينَ أُوتوا العِلْمَ دَرَجاتٍ﴾. (المجادلة: ١١).

١٠ ـ ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلما﴾. (طه: ١١٤).

١١ ـ ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُور الذِينَ أُوتوا الْعِلْمَ﴾. (العنكبوت: ٤٩).

١٢ ـ ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاس وَما يَعْقِلُها إلا العالِمُونَ﴾. (العنكبوت: ٤٣).

١٣ ـ ﴿إِنَّ الذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ

سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾. (الإسراء: ١٠٧ _ ١٠٩).

١٤ _ ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾. (الرعد: ١٩).

١٥ _ ﴿وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾. (النساء: ١١٣).

١٦ _ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾. (الأعراف: ٦٢).

١٧ _ ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (البقرة: ٢٣).

١٨ _ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (الأنعام: ٩٧).

١٩ _ ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (الأنعام: ١٠٥).

٢٠ _ ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (النمل: ٥٢).

٢١ _ ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (فصلت: ٣).

٢٢ _ ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾. (العنكبوت: ٤٣).

٢٣ _ ﴿هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾. (العنكبوت: ٤٩).

٢٤ _ ﴿وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ﴾. (الأنعام: ٩١).

٢٥ _ ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾. (الإسراء: ١٢).

٢٦ _ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾. (الشعراء: ١٩٧).

٢٧ _ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾. (محمّد: ١٩).

٢٨ _ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها﴾. (البقرة: ٣١).

٢٩ _ ﴿الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾. (الرحمن ١ _ ٤).

٣٠ _ ﴿ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾. (يوسف: ٣٧).

٣١ _ ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ﴾. (البقرة: ٢٥١).

٣٢ ـ ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. (البقرة: ٢٣٩).
٣٣ ـ ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ﴾. (يوسف: ١٠١).
٣٤ ـ ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ﴾. (المائدة: ٢٣٩).
٣٥ ـ ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ﴾. (يوسف: ٦٨).
٣٦ ـ ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾. (الكهف: ٦٥).
٣٧ ـ ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. (آل عمران: ٤٨).
٣٨ ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. (البقرة: ١٥١).
٣٩ ـ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾. (الرعد: ٤٣).
٤٠ ـ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. (يوسف: ٧٦).
٤١ ـ ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً﴾. (الإسراء: ٨٥).
٤٢ ـ ﴿وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾. (البقرة: ٢٤٧).
إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.
وأما السُّنَّة فكثيرة لا تحصى:

ما جاء عن النبي ﷺ في فضل العلم:

قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ألا إن الله تعالى يحبّ بغاة العلم».[١]

وقال ﷺ: «أطلبوا العلم ولو بالصين».[٢]

وقال ﷺ: «فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة».[٣]

---

(١) الكافي ١: ٣٠.
(٢) بحار الأنوار ١: ١٧٧.
(٣) الفصول المهمة ١: ٤٦٩.

وقال صلى الله عليه وآله: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر».[(١)]

وقال صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «يا عليّ نوم العالم أفضل من عبادة العابد، يا عليّ ركعتان يصليهما العالم أفضل من سبعين ركعة يصليها العابد».[(٢)]

وقال صلى الله عليه وآله: «نوم مع علم خير من صلاة مع جهل».[(٣)]

وقال صلى الله عليه وآله: «قليل العلم خير من كثير العبادة».[(٤)]

وقال صلى الله عليه وآله: «ساعة العالم يتكئ على فراشه ينظر في علم خيرٌ من عبادة سبعين سنة».[(٥)]

وقال صلى الله عليه وآله: «فضل العالم على العابد سبعون درجة، بين كلّ درجتين حضر الفرس سبعين عاماً، وذلك لأن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فيزيلها، والعابد مقبل على عبادته».[(٦)]

وقال صلى الله عليه وآله: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إنّ الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتّى النملة في حجرها، وحتّى الحوت في الماء ليصلون على معلم الخير».[(٧)]

وقال صلى الله عليه وآله: «فقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد».[(٨)]

---

(١) بحار الأنوار ٢: ١٨.

(٢) بحار الأنوار ٢: ٢٥.

(٣) بحار الأنوار ٢: ١٨٥.

(٤) منية المريد: ١٠٥.

(٥) بحار الأنوار ٢: ٢٣.

(٦) منية المريد: ١٠٠.

(٧) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٥.

(٨) بحار الأنوار ١: ١٧٧.

وخرج ﷺ فإذا في المسجد مجلسان: مجلس يتفقهون، ومجلس يدعون الله ويسألونه، فقال ﷺ: «كلا المجلسين إلى خير أما هؤلاء فيدعون الله، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل، هؤلاء أفضل بالتعليم، بالتعليم أرسلت لما أرسلت»، ثمّ قعد معهم.[1]

أقول: ستأتي أخبار كثيرة عن الأئمة عليهم السلام في فضل العالم على العابد، وبه يحكم العقل، وجعل النظر إلى العالم عبادة، بل وإلى باب العالم عبادة.

وعنه ﷺ: «من أراد الدنيا فليتّجر، ومن أراد الآخرة فليتزهد، ومن أرادهما فليتعلم».

وقال ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنّة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً به، وإنّه ليستغفر لطالب العلم مَن في السماء ومن في الأرض حتّى الحوت في البحر...».[2]

وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين».[3]

وقال ﷺ: «من طلب علماً فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علماً فلم يدركه كتب الله له كفلاً من الأجر».[4]

وقال ﷺ: «من أحبّ أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلّمين فو الذي نفسي بيده ما من متعلّم يختلف إلى باب العالم إلاّ كتب الله له بكل قدم عبادة سنة، وبنى الله له بكل قدم مدينة في الجنّة،

---

(١) بحار الأنوار ١: ٢٠٦.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٦٤.

(٣) بحار الأنوار ١: ١٧٧.

(٤) بحار الأنوار ١: ١٨٣.

ويمشي على الأرض وهي تستغفر له، ويمسي ويصبح مغفوراً له، وشهدت الملائكة أنه من عتقاء الله من النار».[(١)]

وقال صلى الله عليه وآله: «من طلب العلم فهو كالصائم نهاره القائم ليله، وإنّ باباً من العلم يتعلّمه الرجل خير له من أن يكون أبو قبيس ذهباً فأنفقه في سبيل الله».[(٢)]

وقال صلى الله عليه وآله: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة في الجنّة».[(٣)]

وقال صلى الله عليه وآله: «إذا جاء الموت إلى طالب العلم وهو على هذه الحال مات شهيداً».[(٤)]

وقال صلى الله عليه وآله: «من خرج في طلب العلم فهو خارج في سبيل الله حتّى يرجع».[(٥)]

وقال صلى الله عليه وآله: «من خرج يطلب باباً من العلم ليردّ به باطلاً إلى حق، وضالاً إلى هدى، كان علمه كعبادة أربعين عاماً».[(٦)] إلى كثير وكثير ممّا ورد عنه صلى الله عليه وآله في فضل العلم، ولقد تركنا الكثير ممّا ذكره المرحوم السيد الأمين قدس سره.

ما جاء عن أهل البيت عليهم السلام في فضل العلم وحامليه:

وعن عليّ عليه السلام: «جلوس ساعة عند العلماء أحبّ إلى الله من عبادة ألف سنة، والنظر إلى العالم أحبّ إلى الله تعالى من سبعين طوافاً حول البيت، وأفضل

(١) بحار الأنوار ١: ١٨٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) بحار الأنوار ١: ١٨٦.

(٥) منية المريد: ١٠١.

(٦) نفس المصدر.

من سبعين حجة وعمرة مبرورة مقبولة، ورفع الله له سبعين درجة، وأنزل عليه الرحمة، وشهدت له الملائكة أنّ الجنّة وجبت له».[١]

وعنه عليه السلام: «تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وهو عند الله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، وسالك بطالبه سبيل الجنّة، وهو أنيس في الوحشة، وصاحب في الوحدة، وسلاح على الأعداء وزين عند الأخلاّء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئمّة يقتدى بهم، وترمق أعمالهم، وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلتهم، يمسحونهم بأجنحتهم في صلواتهم؛ لأنّ العلم حياة القلوب من الجهل ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف، ينزل الله حامله منازل الأبرار، ويمنحه مجالسة الأخيار في الدنيا والآخرة، وبالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحّد، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، والعلم إمام العقل والعقل تابعه، يلهمه الله السعداء ويحرمه الأشقياء».[٢]

وعنه عليه السلام أنه قال: «أيها الناس اعلموا أنّ كمال الدين طلب العلم والعمل به، ألا وإنّ طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال؛ لأن المال مقسوم مضمون لكم، قد قسّمه عادل بينكم وضمنه، وسيَفي لكم، والعلم مخزون عند أهله وقد أمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه».[٣]

وعنه عليه السلام: «العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلاّ خلف منه».[٤]

---

(١) بحار الأنوار ١: ٢٠٥.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٦٦.

(٣) منية المريد: ١٠٩.

(٤) نفس المصدر.

وعنه عليه السلام: «كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذمّاً أن يبرأ منه من هو فيه».(١)

وقال عليه السلام لكميل بن زياد: «يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو وينمو على الإنفاق».(٢)

وعنه عليه السلام: «العلم أفضل من المال بسبعة:

١ _ إنه ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة.

٢ _ العلم لا ينقص بالنفقة، والمال ينقص بها.

٣ _ يحتاج المال إلى الحافظ، والعلم يحفظ صاحبه.

٤ _ العلم يدخل في الكفن، والمال لا يدخل.

٥ _ المال يحصل للمؤمن والكافر، والعلم لا يحصل إلاّ للمؤمن خاصة.

٦ _ جميع الناس يحتاجون إلى العلم في أمر دينهم ولا يحتاجون إلى المال.

٧ _ العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه».(٣)

* * *

ما جاء عن سيدة النساء الزهراء عليها السلام في فضل العلم:

وحضرت امرأة عند فاطمة الصديقة عليها السلام فقالت: إنّ لي والدة ضعيفة، وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء، وقد بعثتني إليك أسألك،

---

(١) بحار الأنوار ١: ١٨٥.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٨٨.

(٣) ميزان الحكمة ٣: ٢٠٦٦.

فأجابتها عن ذلك، ثمّ ثنّت فأجابت، ثمّ ثلثت فأجابت، إلى عشر مرات، ثمّ خجلت من الكثرة، فقالت: لا أشقّ عليك يا بنت رسول الله، قالت فاطمة عليها السلام: «هاتي فاسألي عمّا بدا لك، أرأيت من ذا الذي يصعد يوماً إلى سطح بحمل ثقيل، وكراه مائة ألف دينار أيثقل عليه ذلك؟» فقالت: لا، فقالت: «اكتريت أنا لكل مسألة بأكثر من ذلك ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً، فأحرى إذاً أن لا يثقل عليّ لأنّي سمعت أبي صلى الله عليه وآله يقول: إنّ علماء شيعتنا يحشرون، فيخلع عليهم من خلع من الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في إرشاد عباد الله»، ... إلى أن قالت فاطمة عليها السلام: «يا أمة الله، إنّ سلكاً من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة، وما فضل ما طلعت عليه الشمس فإنه مشوب بالتنغيص والكدر».(١)

* * *

ما جاء عن الحسن المجتبى عليه السلام في فضل العلم:

وعن الحسن بن عليّ عليهما السلام: «فضل كافل يتيم آل محمّد، المنقطع عن مواليه، الناشب في تيه الجهل يخرجه من جهله، ويوضح له ما اشتبه عليه ويطعمه ويسقيه كفضل الشمس على السهى».(٢)

ما جاء عن الحسين عليه السلام في فضل العلم:

وعن الحسين بن عليّ عليهما السلام: «من كفل لنا يتيماً قطعته عنّا محنتنا باستتارنا، فواساه من علومنا التي سقطت إليه حتّى أرشده بهداه، قال له الله عزّ وجلّ: يا أيها العبد الكريم المواسي إنّي أولى بهذا الكرم، اجعلوا له يا

---

(١) منية المريد: ١١٥.

(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة ١: ٦٠١.

ملائكتي في الجنان بعدد كل حرف علّمه أخاه ألف ألف قصر، وضمّوا إليها ما يليق بها من سائر النعم».[١]

* * *

ما جاء عن عليّ بن الحسين عليه السلام في فضل العلم:

وعن عليّ بن الحسين عليهما السلام: «لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج. إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى دانيال: إنّ أمقت عبيدي إليّ الجاهل المستخف بحق أهل العلم، التارك للإقتداء بهم، وإنّ أحبّ عبيدي إليّ التقي الطالب للثواب الجزيل، الملازم للعلماء، التابع للحلماء، القائل عن الحكماء».[٢]

* * *

ما جاء عن الباقر عليه السلام في فضل العلم:

وقال محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد».[٣]

وعنه عليه السلام: «العالم كمن معه شمعة تضيء للناس، فكلّ من أبصر بشمعته دعا له بخير، وكذلك العالم معه شمعة يزيل بها ظلمة الجهل والحيرة، فكل من أضاءت له فخرج بها من حيرة أو نجا بها من جهل فهو من عتقائه من النار. والله تعالى يعوضه عن ذلك بكلّ شعرة لمن أعتقه ما هو أفضل له من الصدقة بمائة ألف قنطار على غير الوجه الذي

---

(١) بحار الأنوار ٢: ٤.

(٢) منية المريد: ١١١.

(٣) مستدرك سفية البحار ٧: ٦٤.

أمر الله ﷻ، بل تلك الصدقة وبال على صاحبها، لكن يعطيه الله تعالى ما هو أفضل من مائة ألف ركعة بين يدي الكعبة».[١]

وعنه عليه السلام: «من علّم باب هدى فله مثل أجر من عمل به ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً، ومن علّم باب ضلالة كان عليه مثل أوزار من عمل به ولا ينقص من أوزارهم شيئاً».[٢]

وعنه عليه السلام: «إنّ الذي يعلّم العلم منكم له مثل أجر المتعلم، وله الفضل عليه، فتعلّموا العلم من حملة العلم، وعلّموه إخوانكم كما علّمكموه العلماء».[٣]

وعنه عليه السلام: «لمجلس أجلسه إلى من أثق به أوثق في نفسي من عمل سنة».[٤]

وعنه عليه السلام: «كلّ الكمال التفقه في الدين، والصبر على النائبة، وتقدير المعيشة».[٥]

* * *

ما جاء عن الصادق عليه السلام في فضل العلم:

وقال جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام: «علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء

---

(١) الاحتجاج ١: ٨.

(٢) منية المريد: ١١١.

(٣) الفصول المهمة في أصول الأئمة: ٤٦٥.

(٤) مستدرك سفية البحار ٢: ٧٤.

(٥) نهج السعادة ٧: ٣٥١.

شيعتنا، وعن أن يتسلّط إبليس وشيعته النواصب، ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر ألف مرة؛ لأنّه يدفع عن أديان محبينا، وذلك يدفع عن أبدانهم».[١]

وعنه عليه السلام: «من علّم خيراً فله مثل أجر من عمل به»، قلت: فإن علّمه غيره يجري ذلك له؟ قال: «إن علم الناس كلهم جرى له»، قلت: فإن مات، قال: «وإن مات».[٢]

وعنه عليه السلام: «تفقّهوا في الدين، فإنّ من لم يتفقّه منكم في الدين فهو أعرابي، وإن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٣]».[٤]

وعنه عليه السلام: «عليكم بالتفقه في دين الله، ولا تكونوا أعراباً، فإنّ من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزكّ له عملاً».[٥]

وعنه عليه السلام: «لوددت أنّ أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتّى يتفقهوا».[٦]

وفي رواية: «ليت السياط على رؤوس أصحابي حتّى يتفقهوا في الحلال والحرام».[٧]

---

(١) الاحتجاج ١: ٨.
(٢) بحار الأنوار ٢: ١٧.
(٣) التوبة: ١٢٢.
(٤) منية المريد: ١١٢.
(٥) نهج السعادة ٧: ٣٥١.
(٦) منية المريد: ١١٢.
(٧) ميزان الحكمة ٣: ٢١.

وعنـه عليه السلام: «لـو أتيـت بشـاب مـن شـباب الشـيعة لا يتفقـه لأدّبتـه»، قال: وكان أبو جعفر يقول: «تفقهوا وإلاّ فأنتم أعراب».[(١)]

وعنه عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقّهه في الدين».[(٢)]

وعنـه عليه السلام: «حـديث فـي حـلال وحـرام تأخـذه مـن صـادق خيـر مـن الدنيا وما فيها من ذهب وفضة».[(٣)]

وقـال لـه معاويـة بـن عمّـار: رجـل راويـة لحـديثكم يبـثّ ذلـك فـي النـاس، ويشـدد بـه قلـوبهم وقلـوب شـيعتكم، ولعـلّ عابـداً مـن شـيعتكم ليسـت لـه هـذه الروايـة، أيّهمـا أفضـل؟ قـال: «الراويـة لحـديثنا يشـدّ بـه قلـوب شـيعتنا أفضل من ألف عابد».[(٤)]

وقـال لـه رجـل: إنّ لـي إبنـاً قـد أحـبّ أن يسـألك عـن حـلال وحـرام ولا يسـألك عمّـا لا يعنيـه، فقـال لـه: «وهـل يسـأل النـاس عـن شـيء أفضـل مـن الحلال والحرام».[(٥)]

وعنـه عليه السلام: «مـا مـن أحـد يمـوت مـن المـؤمنين كـان أحـبّ إلـى إبليس من موت فقيه».[(٦)]

وعنـه عليه السلام: «إذا مـات المـؤمن الفقيـه ثُلِـم فـي الإسـلام ثلمـة لا يسـدّها شيء».[(٧)]

* * *

---

(١) بحار الأنوار ١: ٢١٤.

(٢) أمالي المفيد: ١٥٨.

(٣) ميزان الحكمة ٣: ٢١٠٧.

(٤) منية المريد: ١١٣.

(٥) بحار الأنوار ١: ٢١٣.

(٦) ميزان الحكمة ٣: ٢٤٥٩.

(٧) نفس المصدر.

ما جاء عن الإمام الكاظم عليه السلام في فضل العلم:

قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام: «فقيه واحد ينقذ يتيماً من أيتامنا المنقطعين عن مشاهدتنا والتعلم من علومنا، أشدّ على إبليس من ألف عابد؛ لأنّ العابد همّه ذات نفسه فقط، وهذا همّه مع ذات نفسه عباد الله تعالى وإماؤه لينقذهم من يد إبليس ومردته، ولذلك هو أفضل عند الله من ألف عابد، وألف ألف عابد».[1]

وعنه عليه السلام: «إذا مات المؤمن بكت عليه الملائكة وبقاع الأرض التي كان يعبد الله عليها، وأبواب السماء التي كان يصعد منها أعماله، وثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء؛ لأنّ المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها».[2]

* * *

ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام في فضل العلم:

قال الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «يقال للعابد يوم القيامة: نعم الرجل كنت، همّتك ذات نفسك وكفيت الناس مؤنتك، فادخل الجنّة، على أن الفقيه من أفاض على الناس خيره وأنقذهم من أعدائهم ووفّر عليهم نعيم جنان الله، وفضّل لهم رضوان الله تعالى، ويقال للفقيه، أيها الكافل لأيتام آل محمّد الهادي لضعفاء محبيه ومواليه، قف حتّى تشفع لكل من أخذ عنك أو تعلّم منك، فيقف فيدخل الجنّة معه فئام

(١) الاحتجاج ٢: ١٧٠.

(٢) بحار الأنوار ٧٩: ١٧٧.

وفئام[1] حتّى قال عشراً، وهم الذين أخذوا عنه علومه وأخذوا عمّن أخذ عنه إلى يوم القيامة، فانظركم فرق بين المنزلتين».[2]

* * *

ما جاء عن الإمام الجواد عليه السلام في فضل العلم:

وقال الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام: «إنّ من تكفّل بأيتام آل محمّد المنقطعين عن إمامهم المتحيّرين في جهلهم، الأسراء في أيدي النواصب من أعدائنا، فاستنقذهم منهم، فأخرجهم من حيرتهم وقهر الشياطين بردّ وسواسهم، وقهر النواصب بحجج ربّهم ودليل أئمّتهم؛ ليفضل عند الله تعالى على العابد بأفضل المواقع بأكثر من فضل السماء على الأرض، والعرش على الكرسي، والحجب على السماء. وفضل هذا على العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السماء».[3]

* * *

ما جاء عن الإمام الهادي عليه السلام في فضل العلم:

وقال الإمام عليّ بن محمّد الهادي عليه السلام: «لولا من يبقى بعد غيبة قائمكم من العلماء الداعين إليه والدالين عليه، والذابين عن دينه بحجج الله تعالى، والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس لعنه الله ومردته ومن فخاخ النواصب الذين يمسكون أزمّة قلوب ضعفاء الشيعة كما

---

(١) الفئام: الجماعة الكثيرة.

(٢) بحار الأنوار ٧: ٢٢٥.

(٣) منية المريد: ١١٨.

يمسك السفينة سكانها، لما بقي أحد إلاّ ارتدّ عن دين الله تعالى، أولئك الأفضلون عند الله عزّ وجلّ»[١].

* * *

ما جاء عن الإمام العسكري عليه السلام في فضل العلم:

وقال الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: «تأتي علماء شيعتنا القوامون بضعفاء محبينا وأهل ولايتنا يوم القيامة والأنوار تسطع من تيجانهم...»[٢] الحديث.

وعن التفسير المنسوب لمولانا العسكري عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾[٣] قال الإمام عليه السلام: «وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: حثّ الله تعالى على برّ اليتامى لانقطاعهم عن آبائهم، فمن صانهم صانه الله، ومن أكرمهم أكرمه الله، ومن مسح يده برأس يتيم رفقاً به جعل الله تعالى له في الجنة بكل شعرة مرّت تحت يده قصراً أوسع من الدنيا بما فيها، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون. قال الإمام عليه السلام: أشدّ من يتم هذا اليتيم، يتيم انقطع عن إمامه لا يقدر على الوصول إليه، ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلي به من شرائع دينه. ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا، فهدى الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا كان كمن أخذ يتيماً في حجره. ألا فمن هداه وأرشده

---

(١) منية المريد: ٥٦.

(٢) بحار الأنوار ٢: ٦.

(٣) البقرة: ٨٣.

وعلّمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى، حدّثني بذلك أبي، عن أبيه، عن آبائه، عن رسول الله ﷺ».[١]

* * *

ما جاء عن الأنبياء السابقين عليهم السلام في فضل العلم:

قال عليّ بن الحسين عليه السلام: «أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: حببني إلى خلقي وحبّب خلقي إليّ، قال: كيف أفعل؟ قال الله تعالى: ذكرهم آلائي ونعمائي ليحبوني، فلأن ترد آبقاً عن بابي، و ضالاً عن فنائي أفضل لك من عبادة مائة سنة، صيام نهارها وقيام ليلها، قال موسى عليه السلام: فمن هذا العبد الآبق منك؟ قال: العاصي المتمرد، قال: فمن هذا الضال عن فنائك؟ قال: الجاهل بإمام زمانه تعرّفه، والغائب عنه بعد ما عرفه، والجاهل بشريعة دينه تعرّفه شريعته، وما يعبد به ربّه، ويتوصل به إلى مرضاته...»[٢] الحديث.

ومن كلام المسيح عليه السلام: «من علم وعمل فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماء».[٣] انتهى.

فلنقف عند هذا الحد، وإلاّ فالموضوع واسع النطاق يعسر على المتتبع حصره وجمعه، والآن فلنسر في قافلة الشعر، وما قيل فيه في فضل العلم، ونختار ما نتذوقه.

جاء في المجلد الأوّل من معادن الجواهر (ص ٢٤):

---

(١) تفسير الإمام العسكري: ٣٣٨.

(٢) منية المريد: ١١٦.

(٣) بحار الأنوار ٢: ٣٨.

ديوان الشعر:

ما قيل في فضل العلم من الشعر:

العلم أنفس ذخر أنت ذاخره ... من يدرس العلم لم تُدرس مفاخرهُ
أقبل على العلم واستقبل مقاصده ... فأول العلم إقبال وآخرةُ

* * *

وإنّما العلم لأربابه ... ولاية ليس لها عزلُ

* * *

إنّ الأمير هو الذي ... يضحي أميراً عند عزلهِ
إن زال سلطان الولاية ... لم يزل سلطان فضلهِ

* * *

حياة المرء علم فاغتنمه ... وموت القلب جهل فاجتنبه

* * *

أجامع العلم نعم الذخر تجمعه ... لا تعدلنّ به دراً ولا ذهبا
العلم زين وتشريف لصاحبه ... فاطلب هديت فنون العلم والأدبا

* * *

إذا ما اعتز ذو علم بعلم ... فعلم الشرع أولى باعتزازِ
فكم طيب يطيب ولا كمسك ... وكم طير يطير ولا كبازي

* * *

تعلّم فإنّ العلم زين لأهله ... وفضل وعنوان لكل المحامدِ
تفقّه فإنّ الفقه أفضل قائد ... إلى البرّ والتقوى وأعدل قاصدِ

فـــإن فقيهـــاً واحـــداً متورعـــاً أشـدّ علـى الشيطان من ألـف عابدِ

* * *

اسـمع حـديثاً قالـه المصطفى بوجـــه اعـــلام وتبيـــين

إذا أراد الله خيـــر امـــرئ فقّهـــه فـــي العلـــم والـــدين

* * *

النـاس مـن جهـة التمثـال أكفـاء أبـــوهم آدم والأم حـــواءُ

وإنمـا أمهـات النـاس أوعيـة مسـتودعات وللأحسـاب آبـاءُ

فإن يكـن لهـم مـن أصـلهم شـرف يفـاخرون بـه فـالطين والمـاءُ

وإن أتيـت بفخـر مـن ذوي نسـب فـإن نسـبتنا جـود وعليـاءُ

مـا الفضـل إلاّ لأهـل العلـم انهـم علـى الهـدى لمـن استهدى أدلاءُ

وقيمـة المـرء مـا قـد كـان يحسنه والجـاهلون لأهـل العلـم أعـداءُ

فقـم بعلـم ولا تبـغ بـه بـدلاً فالنـاس مـوتى وأهـل العلـم أحياءُ

* * *

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسـامهم قبـل القبـور قبـورُ

وكـل امرئ لـم يُحيَ بالعلم ميت ولـيس لـه حتـى النشـور نشـورُ

* * *

لا تـــدّخر غيـــر العلـــوم فإنهـــا نعـــم الـــذخائرْ

فـــالمرء لـــو ربـــح البقـــا ء مـــع الجهالـــة كـــان خاســـرْ

* * *

تعلّـم فلـيس المـرء يولـد عالمـاً ولـيس أخـو علـم كمـن هـو جاهـلُ

وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافلُ

* * *

أخو العلم حي خالدٌ بعد موته وأوصاله تحت التراب رميمُ
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يعد من الأحياء وهو عديمُ

* * *

عاب التعلّم قوم لا عقول لهم وما عليه إذا عابوه من ضررِ
ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

* * *

للإمام الشافعي:

علمي معي حيثما يمّمت ينفعني
قلبي وعاء له لا بطن صندوقِ
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي
أو كنت في السوق كان العلم في السوقِ

* * *

العلم يحيي قلوب الميتين كما تحيا البلاد إذا ما مسها المطرُ
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلي سوادَ الظلمة القمرُ

* * *

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذلِ
ومن لم يذل النفس في طلب العُلا يسيراً يعش دهراً طويلاً أخا ذلّ

* * *

القاضي الأرجاني:

ليس شيء عندي أعزّ من العلم ... فلا أبتغي سواه أنيسا

إنما السوء في مداخلة الناس ... فدعها وكن حكيماً رئيسا

* * *

يا لهف نفسي على شيئين لو وجدا ... عندي لكنت إذاً من أحسن البشر

كفاف عيش يقيني ذلّ مسألة ... وخدمة العلم حتّى ينقضي عمري

* * *

وممّا اخترته من العقد الفريد (ج ١):

تعلّم فليس المرء يخلق عالماً ... وما عالم أمراً كمن هو جاهلُ

* * *

ولآخر:

ولم أر فرعاً طال إلاّ بأصله ... ولم أرَ بدو العلم إلاّ تعلما

* * *

ومما اخترته من عيون الأخبار لابن قتيبة (مجلد ٢ ص ١٢٠):

يعدّ رفيع القوم من كان عالماً ... وإن لم يكن في قومه بحسيبِ

وإن حلّ أرضاً عاش فيها بعلمه ... وما عالم في بلدة بغريبِ

* * *

الحلم والعلم خلّتا كرم ... للمرء زين إذا هما اجتمعا

صنوان لا يستتم حسنهما ... إلاّ بجمع لذا وذاك معا

كم من وضيع سما به العلم والحلم ... فنال العلاء وارتفعا

ومن رفيع البنا أضاعهما ... أخمله ما أضاع فاتضعا

وأنشد ابن الأعرابي:

مـا أقـرب الأشـياءَ حـين يسـوقها ... قَــدَرٌ وأبعــدَها إذا لــم تُقَــدَّر

فســل الفقيــه تكــن فقيهــاً مثلــه ... مــن يسـعَ فـي عمـل بفقـه يمهـر

وتــدّبر الأمــر الــذي تُعنــى بــه ... لا خيــر فــي عمــل بغيــر تــدبر

فلقــد يجــدّ المــرء وهــو مقصــر ... ويخيــب جِــدّ المــرء غيــر مقصــر

ذهــب الرجـال المقتـدى بفعـالهم ... والمنكــرون لكــل أمــر منكــر

* * *

وقال الطائي لمحمّد بن عبد الملك:

أبــا جعفــر إنّ الجهالــة أمّهــا ... وَلُــودٌ وأم العلــم جــذاء حائــلُ

* * *

ومما اخترته من المستطرف في كل فنٍّ مستظرف (ج ١ ص ٥٢ ــ ٥٥):

تعلــم إذا مــا كنــت لســت بعــالم ... فمــا العلــم إلاّ عنــد أهــل الــتعلم

تعلّــم فــإنّ العلــم أزيــن للفتــى ... مــن الحلّــة الحســناء عنــد الــتكلم

* * *

ومما قاله الشافعي:

أخــي لــن تنــال العلــم إلا بســتة ... ســأنبيك عــن تفصــيلها ببيــان

ذكــاء وحــرص واجتهــاد وبلغــة ... وصــحبة اســتاذ وطــول زمــان

* * *

وقال آخر:

كـن عالمـاً وارضَ بصـف النعـال ... ولا تكــن صــدراً بغيــر الكمــالِ

فــإن تصــدّرت بــلا آلــة ... صيّرت ذاك الصـدر صـفّ النعـالِ

ولإبراهيم بن خلف المهراني:

النحو يصلح من لسان الألكن ... والمرء تكرمه إذا لم يلحن

وإذا طلبت من العلوم أجلّها ... فاجلّها منها مقيم الألسن

* * *

ومما قرأته في محاضرات الراغب الاصفهاني (ج ١):

لصالح بن القدوس:

قد يجمع المرء مالاً ثمّ يُسلبه ... عمّا قليل فيلقى الذلّ والحربا

وجامع العلم مغبوط به أبداً ... فلا يحاذر منه الفوت والهربا

* * *

[الآداب حلل مجددة]:

قوله عليه السلام: «والآدابُ حللٌ مجددة».

أقول: جاء في (تاج العروس):[1]

(الأدب محرّكة) الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمّي به؛ لأنّه يؤدّب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدب الدعاء.

وقال شيخنا ناقلاً عن تقريرات شيوخه: الأدب ملكة تعصم من قامت به عمّا يشينه.

وفي (المصباح): هو تعلّم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق.

وقال أبو زيد الأنصاري: الأدب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل... وفي التوشيح هو استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً، أو الأخذ، أو الوقوف مع المستحسنات، أو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك.

---

(١) ج ١: ١٤٤.

ونقل الخفاجي في العناية عن الجواليقي في شرح أدب الكاتب: الأدب في اللغة حسن الأخلاق وفعل المكارم، وإطلاقه على علوم العربية مولّد حدث في الإسلام. انتهى.

* * *

وفي (دائرة معارف البستاني):

الأدب في اللغة الظَرفَ وحسن التناول، وما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ، أو هو ملكة تعصم من قامت به عمّا يشينه.

وهو في اصطلاح العرب: علم يحترز به عن الخطأ في كلام العرب لفظاً وخطاً، وأصوله عندهم: اللغة والصرف والاشتقاق، والنحو والمعاني والبيان، والعروض، والقافية، وفروع الخط، وقرض الشعر والانشاء والمحاضرات والتاريخ، وأما البديع فهو ذيل للمعاني والبيان.

قال ابن خلدون: هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم.

* * *

والآن فلنستعرض آراء وأقوال الحكماء والعلماء ورجال الأدب، في محاسن الأدب وثمرته، تعليقاً على كلمة الإمام عليّ عليه السلام:

قرأت في (العقد الفريد) سنة (١٤٠٤هـ) في الجزء الأوّل منه ما نصّه:

قال أبو عبد الله أحمد بن محمّد: أوّل ما نبدأ به أدب النبي صلى الله عليه وآله، ثمّ أدبه صلى الله عليه وآله لأمّته، ثمّ الحكماء والعلماء، وقد أدّب الله نبيّة بأحسن الآداب كلها.

فقال له: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (الإسراء: ٢٩)، فنهاه عن التقتير كما نهاه عن التبذير، وأمره بتوسط الحالتين، كما قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾. (الفرقان: ٦٧).

وقد جمع الله تعالى لنبيّه جوامع الكلم في كتابه الحكيم، ونظم له مكارم الأخلاق كلها في ثلاث كلمات، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾. (الأعراف: ١١٩). ففي أخذ العفو صلة من قطعه، والصفح عمّن ظلمه، وفي الأمر بالمعروف، تقوى الله، وغض الطرف عن الحرام، وصون اللسان عن الكذب، وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن مماراة السفيه، ومنازعة اللجوج.

ثمّ أمر تبارك وتعالى فيما أدبه باللين في عريكته، والرفق بأمّته فقال: ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥)، وقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. (فصلت: ٣٤ و٣٥). فلما وعى عن الله ﷻ، وكملت فيه هذه الآداب قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. (التوبة: ١٢٨ و١٢٩).

* * *

باب آداب النبي صلى الله عليه وآله لأمّته:

قال النبي صلى الله عليه وآله فيما أدبّ به أمّته، وحضها عليه من مكارم الأخلاق، وجميل المعاشرة، وإصلاح ذات البين وصلة الأرحام، فقال صلى الله عليه وآله: «أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها: أوصاني بالاخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمّن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني: وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبراً»، وقال صلى الله عليه وآله: «نهيتكم عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

وقال صلى الله عليه وآله: «لا تقعدوا على ظهور الطرق، فإن أبيتم فغضوا الأبصار، وأفشوا السلام، واهدوا الضّلال، وأعينوا الضيف»، وقال صلى الله عليه وآله: «أوكئوا السقاء، واكفئوا الإناء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا المصباح، فإنّ الشيطان لا يفتح غلقاً ولا وكيئاً، ولا يكشف الإناء». وقال صلى الله عليه وآله: «من أكل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده»، ثمّ قال صلى الله عليه وآله: «ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلك؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «من يبغض الناس ويبغضونه».

وقال صلى الله عليه وآله: «حصّنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا البلاء بالدعاء».

وقال صلى الله عليه وآله: «ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى».

وقال صلى الله عليه وآله: «المسلمون إخوة تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

وقال صلى الله عليه وآله: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول».

وقال صلى الله عليه وآله: «لا تجن يمينك على شمالك».

وقال صلى الله عليه وآله: «ولا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين».

وقال ﷺ: «المرء كثير بأخيه».

وقال ﷺ: «افصلوا بين حديثكم بالاستغفار، واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

وقال ﷺ: «أفضل الأصحاب من إذا ذكرت أعانك، وإذا نسيت ذكّرك».

وقال ﷺ: «لا يؤم ذو سلطان في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته إلاّ بإذنه».

وقال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي مالي وإن مالهُ مِن مالِه ما أكل فأفنى، ولبس فأبلى، أو وهب فأمضى».

وقال ﷺ: «ستحرصون على الأمارة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة».

وقال ﷺ: «لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان».

وقال ﷺ: «لو تكاشفتم ما تدافنتم».

وقال ﷺ: «وما هلك امرؤ عرف قدره».

وقال ﷺ: «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة، والناس كلهم سواء كأسنان المشط».

وقال ﷺ: «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم».

وقال ﷺ: «خير المال سكّة مأبورة» و«خير المال عين ساهرة لعين نائمة».

وقال ﷺ: «ما أملق تاجر صدوق» و«ما افتقر بيت فيه خلّ».

وقال ﷺ: «قيدوا العلم بالكتابة».

وقال ﷺ: «زُر غِباً تزدد حباً».

وقال ﷺ: «علّق سوطك حيث يراه أهلك».

* * *

ومن كلام عليّ عليه السلام أنه قال: «من حلم ساد ومن ساد استفاد، ومن استحيا حرم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرياسة صبر على السياسة، ومن أبصر عيب نفسه عمي عن عيب غيره، ومن سلّ سيف البغي قُتل به، ومن احتفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن نسي زلته استعظم زلّة غيره، ومن هتك حجاب غيره انهتك عورات بيته، ومن كابر في الأمور عطب، ومن اقتحم اللجج غرق، ومن أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنى بعقله زلّ، ومن تجبّر على الناس ذلّ، ومن تعمّق في العمل ملّ، ومن صاحب الأنذال حقّر، ومن جالس العلماء وقّر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن حسن خلقه سهلت له طرقه، ومن حسن كلامه كانت الهيبة أمامه، ومن خشي الله فاز، ومن استقاد الجهل ترك طريق العدل، ومن عرف أجله قصر أمله».

ثمّ أنشأ عليه السلام يقول:

ألبس أخاك على عيوبه ... واستر وغطّ على ذنوبهْ
واصبر على بهت السفيه ... وللزمان على خطوبهْ
ودع الجواب تفاضلاً ... وكل الظلوم إلى حسيبهْ

* * *

باب في آداب الحكماء والعلماء:

(ومنه في فضيلة الأدب):

أوصى بعض الحكماء بنيه فقال: الأدب أكرم الجواهر طبيعة، وأنفسها قيمة، يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرغائب الجليلة، ويعزّ بلا عشيرة، ويكثر الأنصار لغير ذرية، فالبسوه حلّة، وتزينوه حلّة يؤنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوب المختلفة.

وقال شبيب بن شبة: اطلبوا الأدب فإنّه مادة العقل، ودليل على المروءة وصاحب في الغربة، ومؤنس في الوحشة، وصلة في المجلس.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالاً، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالاً.

وقال بعض الحكماء: اعلم أن جاهاً بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال، وجاهاً بالأدب غير زائل عنك.

وقال ابن المقفّع: إذا أكرمك الناس لمال أو لسلطان فلا يعجبك ذلك، فإنّ الكرامة تزول بزوالها، ليعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب.

وقال الأحنف بن قيس: رأس الأدب المنطق، ولا خير في قول إلاّ بفعل، ولا في مال إلاّ بجود، ولا في صديق إلاّ بوفاء، ولا في فقه إلاّ بورع، ولا في صدق إلاّ بنيّة.

وقال مطلقة الزبيدي: لا يستغني الأديب عن ثلاث وإثنين، فأما الثلاث: فالبلاغة، والفصاحة، وحسن العبادة، وأما الاثنان: فالعلم بالأثر، والحفظ للخبر.

وقالوا: الحسب محتاج إلى الأدب، والمعرفة محتاجة إلى التجربة.

وقال بزرجمهر: ما ورث الآباء الأبناء شيئاً خيراً من الأدب؛ لأنّ بالأدب يكسبون المال، وبالجهل يتلفونه.

وقال الفضيل بن عياض: رأس الأدب معرفة الرجل قدره.

وقالوا: حسن الخلق خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير قائد.

وقال أنوشروان للميد ــ وهو العالم بالفارسية ــ: ما كان أفضل الأشياء؟ قال: الطبيعة النقية تكتفي من الأدب بالراحة، ومن العلم بالإشارة، وكما يموت البذر في السباخ، كذلك تموت الحكمة بموت الطبيعة، قال له: صدقت، ونحن لهذا قلّدناك ما قلّدناك.

وقيل لأردشير: الأدب أغلب أم الطبيعة؟ فقال: الأدب زيادة في العقل، ومنبهة للرأي، ومكسبة للصواب، والطبيعة أملك؛ لأنّ بها الإعتقاد وبها الفراسة وتمام الغذاء.

وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أعون للعقل بعد الطبيعة المولدة؟ قال: أدب مكتسب.

وقالوا: الأدب أدبان: أدب الغريزة وهو الأصل، وأدب الرواية وهو الفرع، ولا يتفرع شيءٌ إلاّ عن أصله، ولا ينظر إلاّ لأصل المادة.

قال الشاعر:

ما السيف إلاّ زهرة لو تركته ... على الخلقة الأولى لما كان يقطعُ

وقال آخر:

ما وهب الله لامرئ هبة ... أفضل من عقله ومن أدبهْ

هما حياة الفتى فإن فُقدا ... فإنّ فقد الحياة أحسن بهْ

* * *

قال ابن عبّاس: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسعك جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثال.

وقالت الحكماء: إذا كان الرجل طاهر الأثواب، كثير الآداب، حسن المذهب، تأدّب بأدبه وصلح لصلاحه جميع أهله وولده.

قال الشاعر:

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ... ويفسدهم ربّ الفساد إذا فسدْ

يعظم في الدنيا لفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت في الأهل والولدْ

وقال شبيب بن شبة: اطلبوا الأدب فإنّه مادة العقل، ودليل على المروءة وصاحب في الغربة، ومؤنس في الوحشة، وصلة في المجلس.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالاً، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالاً.

وقال بعض الحكماء: اعلم أن جاهاً بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال، وجاهاً بالأدب غير زائل عنك.

وقال ابن المقفّع: إذا أكرمك الناس لمال أو لسلطان فلا يعجبك ذلك، فإنّ الكرامة تزول بزوالها، ليعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب.

وقال الأحنف بن قيس: رأس الأدب المنطق، ولا خير في قول إلاّ بفعل، ولا في مال إلاّ بجود، ولا في صديق إلاّ بوفاء، ولا في فقه إلاّ بورع، ولا في صدق إلاّ بنيّة.

وقال مطلقة الزبيدي: لا يستغني الأديب عن ثلاث وإثنين، فأما الثلاث: فالبلاغة، والفصاحة، وحسن العبادة، وأما الاثنان: فالعلم بالأثر، والحفظ للخبر.

وقالوا: الحسب محتاج إلى الأدب، والمعرفة محتاجة إلى التجربة.

وقال بزرجمهر: ما ورث الآباء الأبناء شيئاً خيراً من الأدب؛ لأنّ بالأدب يكسبون المال، وبالجهل يتلفونه.

وقال الفضيل بن عياض: رأس الأدب معرفة الرجل قدره.

وقالوا: حسن الخلق خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير قائد.

وقال أنوشروان للميد ــ وهو العالم بالفارسية ــ: ما كان أفضل الأشياء؟ قال: الطبيعة النقية تكتفي من الأدب بالراحة، ومن العلم بالإشارة، وكما يموت البذر في السباخ، كذلك تموت الحكمة بموت الطبيعة، قال له: صدقت، ونحن لهذا قلّدناك ما قلّدناك.

وقيل لأردشير: الأدب أغلب أم الطبيعة؟ فقال: الأدب زيادة في العقل، ومنبهة للرأي، ومكسبة للصواب، والطبيعة أملك؛ لأنّ بها الإعتقاد وبها الفراسة وتمام الغذاء.

وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أعون للعقل بعد الطبيعة المولدة؟ قال: أدب مكتسب.

وقالوا: الأدب أدبان: أدب الغريزة وهو الأصل، وأدب الرواية وهو الفرع، ولا يتفرع شيءٌ إلاّ عن أصله، ولا ينظر إلاّ لأصل المادة.

قال الشاعر:

ما السيف إلاّ زهرة لو تركته ... على الخلقة الأولى لما كان يقطعُ

وقال آخر:

ما وهب الله لامرئ هبة ... أفضل من عقله ومن أدبهْ

هما حياة الفتى فإن فُقدا ... فإنّ فقد الحياة أحسن بهْ

* * *

قال ابن عبّاس: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسعك جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثال.

وقالت الحكماء: إذا كان الرجل طاهر الأثواب، كثير الآداب، حسن المذهب، تأدّب بأدبه وصلح لصلاحه جميع أهله وولده.

قال الشاعر:

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ... ويفسدهم ربّ الفساد إذا فسدْ

يعظم في الدنيا لفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت في الأهل والولدْ

وسُئل ديحاس: أي الخصال أحمد عاقبة؟ قال: الإيمان بالله ﷻ، وبرّ الوالدين، ومحبة العلماء، وقبول الأدب.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من لا أدب له لا عقل له».

وقالوا: الأدب يزيد العاقل فضلاً ونباهة، ويفيده رقة وظرفاً.

وقيل لعمر بن ذر: كيف برّ ابنك بك؟ قال: ما مشيت نهاراً قط إلاّ مشى خلفي، ولا ليلاً إلاّ مشى أمامي، ولا رقى عليةً وأنا تحته» انتهى.

* * *

ومما اخترته من كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي (ج ٢ ص ٧٤):

قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: «كفى بالأدب شرفاً أنه يدعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل خمولاً أنه يتبرأ منه وينفيه عن نفسه من هو فيه، ويغضب إذا نُسب إليه».

فأخذ بعض المولدين معنى قوله فقال:

ويكفي خمولاً بالجهالة أنني ... أراعُ متى أنسب إليه وأغضبُ

وقال عليه السلام: «قيمة كل امرىء ما يحسن». فرواه بعض المحدّثين شعراً فقال:

قال عليّ بن أبي طالب ... وهو اللبيب الفطن المتقنُ

كلّ امرئ قيمته عندنا ... وعند أهل العلم ما يحسنُ

وأنشد أبو الحسن بن طباطبا العلوي لنفسه:

حسود مريض القلب يخفى أنينهُ ... ويُضحي كئيب البال عندي حزينَهُ

يلوم على أن رحتُ في العلم راغباً ... وأجمع من عند الرواة فنونَهُ

فأعرف أبكار الكلام وعونها ... وأحفظ مما أستفيد عُيونَهُ

ويزعم أنّ العلم لا يجلب الغنى ... ويحسن بالجهل الذَميم ظُنونَهُ
فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي ... فقيمة كلّ الناس ما يحسنونَهُ

* * *

وقيل: الأدب حياة القلب، ولا مصيبة أعظم من الجهل.

وأنشدنا الكسروي:

عيٌّ الشريف يشين منصبهُ ... وترى الوضيع يزينه أدبُه

قال: وسمع بعض الحكماء رجلاً يقول: إني غريب، فقال: الغريب من لا أدب له. وكان يقال: من قصر به حسبه نهض به أدبه.

وقال بعض الحكماء: إن كان الرزق لا بدّ مطلوباً بسببٍ، فأفضل أسبابه ما افتتح بالأدب، ونظرنا فلم نره اجتمع لشيء من أصناف صناعات كما اجتمع للكتبة؛ لأنها لا تكمل لأحد حتّى يبتدئها برياضة نفسه في الأدب، فينفذ في الخط والبلاغة في الكتب، والفصاحة في المنطق، والبصر بصواب الكلام من خطابه، والعلم بالشريعة وأحكامها، والمعرفة بالسياسة والتدبير.

* * *

[الأدب مع الله]:

وقرأت في إرشاد القلوب للديلمي (ج ١) قوله:

(الباب التاسع والأربعون في الأدب مع الله تعالى).

روي في تأويل قوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[1] قال ابن عبّاس: أراد بذلك فقّهوهم في الدين؛ وأدبوهم بالآداب الشرعية.

---

(١) التحريم: ٦.

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[1] أمره بالأدب بخلع نعليه عند مناجاته.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2] قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أدبني ربّي بمكارم الأخلاق».

وأعظم الخلق أدباً مع الله الأنبياء، ثمّ الأوصياء، ثمّ الأمثل فالأمثل، وأكثر الخلق تأدباً مع الله تعالى نبينا محمّد صلى الله عليه وآله لقول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[3]

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «يا بني احرز حظك من الأدب، وفرّغ له قلبك، فإنّه أعظم من أن يخالطه دنس، واعلم أنك إذا افتقرت غُنيت به، وتغربت كان لك كالصاحب الذي لا وحشة معه، يا بني الأدب لقاح العقل، وذكاء القلب، وعنوان الفضل، واعلم أنه لا مروءة لأحد بماله ولا حاله، بل الأدب عماد الرجل، وترجمان عقله، ودليله على مكارم الأخلاق، وما الإنسان لولا الأدب إلاّ بهيمة مهملة.

قال الإمام الجواد عليه السلام: «ما اجتمع رجلان إلاّ كان أفضلهما عند الله آدبهما»، فقيل: يا ابن رسول الله قد عرفنا فضله عند الناس، فما فضله عند الله؟ فقال: «بقراءة القرآن كما أنزل، ويروي حديثنا كما قلناه، ويدعو الله معزماً بدعائه به».

وحقيقة الأدب اجتماع خصال الخير وتجافي خصال الشر، وبالأدب يبلغ الرجل مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة ويصل به إلى

---

(١) طه: ١٢.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

(٣) القلم: ٤.

الجنّة، والأدب عند الناس النطق بالمستحسنات لا غير، وهذا لا يعتدّ به ما لم يوصل به إلى رضاء الله سبحانه والجنة، والأدب هو أدب الشريعة، فتأدبوا بها تكونوا أدباء حقاً، ومن صاحب الملوك بغير أدب أسلمه ذلك إلى الهلكة، فكيف بمن يصاحب ملك الملوك وسيد السادات.

وقد روي أنّ الله تعالى يقول في بعض كتبه: «عبدي أمن الجميل أن تناجيني وأنت تلتفت يميناً وشمالاً، ويكلمك عبد مثلك تلتفت إليه وتدعني، ونرى من أدبك إذا كنت تحدث أخاً لك لا تلتفت إلى غيره، فتعطيه من الأدب ما لا تعطيني، فبئس العبد عبد يكون كذلك.

وروي أنّ النبي صلى الله عليه وآله خرج إلى غنم له وراعيها عريان يفلّي ثيابه، فلما رآه لبسها، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «إمض فلا حاجة لنا في رعايتك»، فقال: ولِمَ ذلك؟ فقال: «إنّا أهل بيت لا نستخدم من لا يتأدّب مع الله ولا يستحي منه في خلوته»، وإنما فعل ذلك صلى الله عليه وآله؛ لأنّ الراعي أعطاه من الأدب فوق ما أعطى ربه.

وروي أنه صلى الله عليه وآله سلّم عليه غلام دون البلوغ، وبشّ له وتبسّم فرحاً بالنبي صلى الله عليه وآله، فقال له صلى الله عليه وآله: «أتحبني يا فتى؟» فقال: أي والله يا رسول الله، فقال له: «مثل عينيك؟» فقال: أكثر، فقال: «مثل أبيك؟» فقال: أكثر، فقال: «مثل أمّك؟» فقال: أكثر، فقال: «مثل نفسك؟» فقال: أكثر، والله يا رسول الله، فقال: «أمثل ربّك؟» فقال: الله الله يا رسول الله ليس هذا لك ولا لأحد، فإنما أحببتك لحبّ الله لك. فالتفت النبي صلى الله عليه وآله إلى من كان معه، وقال: هكذا كونوا أحبوا الله لإحسانه إليكم وإنعامه عليكم، وأحبوني لحب الله، فاختبره صلى الله عليه وآله على صحة أدبه في المحبة في الله تعالى.

فالأدب مع الله الإقتداء بآدابه، وآداب نبيه وأهل بيته عليهم السلام، وهو العمل بطاعته، والحمد له على السراء والضراء والصبر على البلاء، ولهذا

قال أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1] فقد تأدب هنا من وجهين: أحدهما إنه لم يقل: انك مسستني بالضر، والآخر لم يقل: ارحمني، بل عرض تعريضاً فقال: أنت أرحم الراحمين، وإنما فعل ذلك حفظاً لمرتبة الصبر، وكذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾،[2] ولم يقل إذا أمرضتني، حفظاً للأدب، وقال أيوب عليه السلام في موضع آخر: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[3] أشار بذلك إلى الشيطان، لأنه كان يغري الناس فيؤذونه، وكل ذلك تأدبٌ منهم مع الله تعالى في مخاطبتهم.

وقوم آخرون افتروا عليه سبحانه، فنسبوا إليه من القبيح ما نزهوا عنه آباءهم، وقالوا: كلما في الوجود من كفر وظلم وفساد وقتل وغصب، فمنه قضاءً وإرادةً، وهذا باطل، لأنه تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾[4] ويقولون: إنه سبحانه يأمر بما لا يريد، وينهى عمّا يريد، وإنه أمر قوماً بالإيمان وأراد منهم الكفر، وهو تعالى يقول: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾،[5] ولو قيل لأحدهم إنك تأمر بما لا تريد وتنهى عما لا تكره، وكذلك أبوك وأمّك، لغار من ذلك وغضب وقال لقائله: إنك قد نسبتني إلى السفه والجنون والجهل، فسبحانه ما أحلمه وأكرمه، ولولا حلمه ورحمته، لأحلّ بالأرض النقمة غضباً على القائل بذلك والراضي به، وإنّ الله سبحانه لم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً، وإنما أمرَ الله سبحانه تخييراً

---

(١) الأنبياء: ٨٣.

(٢) الشعراء: ٨٠.

(٣) ص: ٤١.

(٤) غافر: ٢٠.

(٥) الزمر: ٧.

ونهى تحذيراً، وأقدر على الحالين، وقد قال سبحانه ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1] يعني عرّفناه الطريقين الخير والشر، وأمر سبحانه بالخير ونهى عن الشر، كما قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾،[2] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾،[3] وما كان يأمر بالدخول في باب ثمّ يغلقه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

فاعتبروا وتفكروا ودَعوا اتّباع الهوى، وهو مُردٍ لصاحبه ومهلك له، فسبحانه وتعالى كيف يجبر عباده على الكفر ثمّ يعذبهم عليه، وعلى الزنا والسرقة والقذف للمحصنات، ويأمر بحدّهم، أفمن العدل والحكمة هذا أم لا، خبرونا؟

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أدلّكَ على الطريق وألزم عليك المضيق إنّ هذا بالحكمة لا يليق».

وقال عليه السلام: «أيأمر بالعدل ويخالفه، وينهى عن المنكر ويؤالفه، لقد افترى عليه من بهذا وَصَفَه».

وقال عليه السلام: «إذا كان الوزر في الأصل محتوماً، كان المأخوذ فيه بالقصاص مظلوماً».

وقال عليه السلام: «ما استغفرته عليه فهو منك، وما حمدته عليه فهو منه».

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾.[4]

---

(١) البلد: ١٠.

(٢) فصلت: ١٨.

(٣) البقرة: ٢٠٨.

(٤) النساء: ٧٩.

وهذه الأقوال أجوبة لمن سأله عن القضاء والقدر من العلماء.

وأما جواب الحسن بن عليّ عليه السلام لما كتب إليه الحسن البصري يسأله عن القضاء والقدر، فإنه قال عليه السلام: «من لم يؤمن بالقدر وخيره وشره فقد فجر، ومن حمّل المعاصي على الله فقد كفر، إنّ الله سبحانه لا يطاع بإكراه ولا يعصى بغلبة، ولا أهمل العباد من الملكة، بل هو المالك لما ملّكهم، القادر على ما أقدرهم، فإن عملوا بالطاعة لم يكن الله تعالى لهم عنها صاداً، ولا منها مانعاً. وإن عملوا بالمعصية فشاء أن يحول بينهم وبينها فعل. وإن لم يفعل فليس هو حملهم عليها إجباراً ولا ألزمهم بها إكراهاً، بل الحجة عليهم أن عرّفهم وجعل لهم السبيل إلى فعل ما دعاهم إليه، وترك ما نهاهم عنه، ولله الحجة البالغة على جميع خلقه والسلام».

* * *

وبالتالي قال المؤلف:

والأدب أيضاً التفقه في الدين، وعلوم اليقين. وثلاثة أشياء هي رأس الأدب: مجانبة الريب، والسلامة من العيب، والإيمان بالغيب، والأدب كلّ الأدب أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

وقال شخص: إنّ الجنيد قال: إذا صحّت المودة سقطت شروط الأدب قلت: هذا غلط لترك الأدب، بل إذا صحت المحبة وخلصت تأكدت عن المحب ملازمة الأدب، والدليل على ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أكثر الناس محبة لله تعالى وأعظمهم أدباً.

وروي أنّ الخليل بن أحمد قال لولده: يا بُني تعلم الأدب؛ فإنه يقوّمك ويسدّدك صغيراً، ويقدّمك ويعظمك كبيراً.

وروي أن صبياً كان له من العمر سبع سنين، وقف على الحجاج فقال: أيها الأمير، إعلم أن أبي مات وانّي حمل في بطن أمّي، وماتت أمي وأنا رضيع، وكفلني الغرباء، وخلف لي ضيعة أتموّن فيها وأستند إليها، وغصبها رجل من عمالك لا يخاف الله ولا يخشى من سطوة الأمير، وعليك بردع الظالم ورد المظالم لتجد ذلك ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾،[1] فأمر بردّ ضيعته، وصرف الأدباء من بابه، وقال: الأدب أدب الله يؤتيه من يشاء.

* * *

[ابن زياد والخارجية]:

وفي ربيع الأبرار للزمخشري (ج ٢ ص ٦٠١):

أتي عبيد الله بن زياد بجارية خماسية (الخماسية من الجواري ما كان طولها خمسة أشبار) من الخوارج، كان يطلب إياها بذحل (الثار والوتر والعداوة والحق)، فقال: أين أبوكِ؟ قالت: لو كان تحت أخمصي ما رفعته عنه، قال: حبّك له؛ لأنه يفعل بأمّك، قالت: إن فعل فبنكاح استحله بكتاب الله وسنّة رسوله، وليس كمن جاء من سفاح لا نكاح، فقال بعض جلسائه: لعلك تعنيني؟ قالت: لا الله ولكني أعني صاحب السرير، قال: ما تقولين في الشيخين؟ قالت: سبقا وفازا، واتبعا ما به أمرا، قال: ما تقولين في عثمان وعليّ؟ قالت: إن كانا أحسنا فالله وليّ إحسانهما، وإن كانا أساءا فالله غفور رحيم، قال: ما تقولين في معاوية

---

(١) آل عمران: ٣٠.

وعمرو؟ فلعنتهما، قال: ما تقولين في يزيد؟ قالت: ما أقول فيمن أنت سيئة من سيئاته، عليك وعليه لعنة الله، قال: فما تقولين فيّ؟ قالت: أقول: أوّلك لزينة وآخرك لدعوة، وأنت فيما بين ذلك جبار عنيد.

* * *

وفي زهر الآداب (مجلد ١ ص ٧): وفد على هشام بن الحكم وفد فيهم شاب ابن ست عشرة سنة، وله ذوابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: من أراد أن يدخل عليّ فليدخل، فدخل حتّى الصبيان، فوثب الشاب حتّى وقف بين يديه مطرقاً، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ للكلام طياً ونشراً، وانه لا يعرف ما في طيّه إلاّ بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته. فأعجبه كلامه وقال: انشره لله دَرُّكَ! فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أدقت العظم. وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم فلا تحبسوها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم. فإنّ الله يجزي المتصدقين. فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً. فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثمّ قال: ألك حاجة؟

قال: ما لي حاجة في حاجة نفسي دون حاجة المسلمين.

* * *

وفي ربيع الأبرار (مجلد ٣ ص ١٤٥):

أدخل الركاض وهو ابن أربع سنين إلى الرشيد ليتعجب من فطنته، فقال له: ما تحب أن أهب لك؟ قال: جميل رأيك، فإني أفوز به في الدنيا

والآخرة، فأمر له بدنانير ودراهم، فصبت بين يديه، فقال: اختر الأحب إليك، فقال: الأحب إليَّ أمير المؤمنين، وهذا من هذين. وضرب بيده إلى الدنانير، فضحك الرشيد وأمر بضمّه إلى ولده والإجراء عليه.

* * *

[الفكر مرآة صافية]:

قوله عَلَيْتُلا: «والفِكر مِرآةٌ صافيةٌ».

جاء في (محيط المحيط):

الفكر تردد القلب بالنظر والتدبر بطلب المعاني. وقيل هو ترتيب أمور معلومة للتأدية إلى مَجهول: أو إلى ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب، فيكون علماً أو ظناً.

وقال في (الكليات):

الفكر حركة النفس نحو المبادئ والرجوع عنها إلى المطالب، والنظر ملاحظة المعلومات الواقعة في ضمن تلك الحركة، وجمعه أفكار.

وقوة الفكر عند الأطباء: هي قوة تُدرَك بها المعاني الجزئية، كصداقة زيد وعداوة عمرو، ومركزها البطن الأوسط من بطون الدماغ، بدليل أن الإنسان إذا افتكر في أمر ينصب رأسه مستوياً، بخلاف ما إذا أراد أن يتخيل شيئاً من صور المحسوسات فإنه يطرق إلى الأرض، وإذا أراد أن يتذكر شيئاً مما سبق وجوده في الذهن يميل برأسه إلى الوراء، فاستدلوا على أن قوة التخيل في مقدم الدماغ، وقوة الذكر في مؤخره، وقوة الفكر في الوسط.

* * *

قال فخر الدين الطريحي في (مجمع البحرين):[١]

في الحديث: «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة». قال فخر الدين الرازي نقلاً عنه في توجيه ذلك: هو أنّ الفكر يوصلك إلى الله، والعبادة توصلك إلى ثواب الله، والذي يوصلك إلى الله خير مما يوصلك إلى غير الله، أو أنّ الفكر عمل القلب، والطاعة عمل الجوارح، فالقلب أشرف من الجوارح، يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[٢] جعلت الصلاة وسيلة إلى ذكر القلب، والمقصود أنّ العلم أشرف من غيره... انتهى.

والتفكر: التأمل، والفكر بالكسر اسم منه، وهو لمعنيين: أحدهما القوة المودعة في مقدمة الدماغ، وثانيهما أثرها، أعني ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب يكون علماً أو ظناً.

وأفكر وتفكر وفكّر، يقال: فكرت الأمر ـ من باب ضرب ـ وتفكرت فيه، وأفكرت بالألف.

وفي الحديث: «من تفكر في ذات الله تزندق»، أي من تأمّل في معرفة الذات تزندق؛ لأنه طلب ما لم يطلبه ولم يصل إليه نبي ولا وصي ولا ولي، ومن هنا قال ابن أبي الحديد:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلا

أنت حيّرت ذوي اللُّبّ وبلبلت العقولا

---

(١) ج ٣: ٤٢٢.

(٢) طه: ١٤.

كلما قدّم فكري فيك شبراً فرّ ميلا

ناكصاً يخبط في عمياء لا تهدي السبيلا

* * *

[التفكر في الآيات الآفاقية والأنفسية]:

وفي جامع السعادات (مجلد ١ ص ١٦٤ ط النجف):

التفكر هو سير الباطن من المبادي إلى المقاصد، والمبادي هي آيات الآفاق والأنفس، والمقصد هو الوصول إلى معرفة موجدها ومبدعها، والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة، ولا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان إلى أوج الكمال إلاّ بهذا السير. وهو مفتاح الأسرار ومشكاة الأنوار، ومنشأ الإعتبار، ومبدأ الإستبصار، وشبكة المعارف الحقيقية، ومصيدة الحقائق اليقينية، وهو أجنحة النفس للطيران إلى وكرها القدسي، ومطية الروح للمسافرة إلى وطنها الأصلي.

وبه تنكشف ظلمة الجهل وأستاره، وتنجلي أنوار العلم وأسراره. ولذا ورد عليه الحثّ والمدح في الآيات والأخبار، كقوله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. (الروم: ٨).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾. (الأعراف: ١٨٥).

وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾. (الحشر: ٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾. (العنكبوت: ٢٠).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾. (آل عمران: ١٩٠).

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾. (الذاريات: ٢٠ و٢١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. (آل عمران: ١٩١).

وقول رسول الله ﷺ: «التفكر حياة قلب البصير».

وقوله ﷺ: «فكرة ساعة خير من عبادة سنة».

وقوله ﷺ: «أفضل العبادات إدمان التفكر في الله وفي قدرته».

ومراده ﷺ من التفكر في الله، التفكر في قدرته وصنعه، وفي عجائب أفعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته، لا التفكر في ذاته، لكونه ممنوعاً عنه في الأخبار، ومعللاً بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل، وقد ورد: «إياكم والتفكّر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته، فانظروا إلى عظيم خلقه».

واشتهر عن النبي ﷺ أنه قال: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تقدّروا قدره».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «التفكر يدعو إلى البر والعمل به».

وقوله عليه السلام: «نبّه بالتفكر قلبك، وجافِ عن الليل جنبك، واتّق الله ربّك».

وقال الباقر عليه السلام: «بإجالة الفكر يستدرّ الرأي المعشب».

وقال الصادق عليه السلام: «الفكر مرآة الحسنات، وكفارة السيئات وضياء للقلوب، وفسحة للخلق، وإصابة في صلاح المعاد، واطّلاع على العواقب، واستزادة في العلم وهي خصلة لا يُعبد الله بمثلها».

وقال الرضا عليه السلام: «ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، وإنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل».

مجاري التفكر في المخلوقات:

الموجودات بأسرها مجاري التفكر، ومطارح النظر، إذ كل ما في الوجود سوى واجب الوجود فهو من رشحات وجوده، وآثار فيضه وجوده، وكلّ موجود ومخلوق من جوهر أو عرَض، مجرد أو مادي، فلكي أو عنصري، بسيط أو مركب فعل الله وصنعه، وما من ذرة من ذرات العالم إلاّ وفيها ضروب من عجائب حكمته، وغرائب عظمته، بحيث لو تشمّر عقلاء الأقطار وحكماء الأمصار مدى الأعصار، لأستنباطها انقضت أعمارهم دون الوقوف على عُشر عشيرها وقليل من كثيرها.

ثمّ إنّ الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يُعرف أصله. فلا يمكننا التفكر فيه، والى ما يُعرف أصله ومجمله من دون معرفة تفاصيله. فيمكننا التفكر في تفصيله، لتزداد لنا معرفة وبصيرة بخالقه، وهو إلى ما لا يدرك بحس البصر، ويسمّى بالملكوت، كالملائكة والجن والشياطين، وعوالم العقول والنفوس المجردة، ولها أجناس وطبقات لا يحيط بها إلاّ موجدها. وإلى ما يدرك به وله أجناس ثلاثة: عالم السماوات المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها في طلوعها وغروبها، وعالم الأرض المحسوسة ببحارها وجبالها ووهادها، وتلالها، ومعادنها، وأنهارها، ونباتها وأشجارها، وحيوانها وجمادها، وعالم الجو المدرك بسُحبه وغيومه، وأمطاره وثلوجه، وشُهبه وبروقه، ورياحه ورعوده، وكل من هذه الأجناس الثلاثة ينقسم إلى أنواع، ويتشعب كلّ نوع إلى أقسام

وأصناف غير متناهية، مختلفة في الصفات والهيئات، واللوازم والآثار، والخواص والمعاني الظاهرة والباطنة. وليس شيء منها إلاّ وموجده هو الله سبحانه، وفي وجوده وحركته وسكونه حِكَم ومصالح لا تُحصى.

وكل ذلك مجاري التفكر والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقها الحكيم وموجدها القيوم العليم، إذ كلها شواهد عدل وبينات صدق على وحدانيته وحكمته وكمال كبريائه وعظمته، فمن قدّم حقيقته، ودار عالم الوجود، وفتح عين بصيرته، وشاهد مملكة ربه الودود، لظهر له في كل ذرة من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة، بهر منها عقله ووهمه، وحسر دونها لبه وفهمه.

قد عُلم إجمالاً أن التفكر النافع محصور بين التفكر في صفات الله وعجائب أفعاله، والتفكر في ما يقرّب العبد إلى الله ليفعله، وفيما يبعده عنه فيتركه، وغير ذلك من الأفكار، ليس نافعاً ولا متعلقاً بالدين، مثال ذلك أن حال السائر إلى الله الطالب للقائه كحال العاشق المستهتر، فكما أنّ تفكره لا يتجاوز عن التفكر في معشوقه وجماله، وفي صفاته وأفعاله، وفي أفعال نفسه التي تقرّبه منه، وتحبّبه إليه ليتصف بها، أو التي تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزّه عنها، ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق. كذلك المحب الخالص لله ينبغي أن ينحصر فكره في الله وفي صفاته وأفعاله، وفيما يقرّبه منه ويحببه إليه أو يُبعده عنه، ولو تفكر في غير ذلك كان كاذباً فيما يدعيه من الشوق والحب.

ثمّ التفكر في ذات الله، بل في بعض صفاته مما لا يجوز. وقد منعته الشريعة الحقة الإلهية، والحكمة المتعالية الحقيقية؛ لأنّ ذاته أجلّ من أن تكون مرقى لأقدام الأفهام، أو مرمى لسهام الأوهام، فطرح النظر إليه يورث اختلاط الذهن والحيرة، وجَولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة.

وبعض الصدّيقين المتجردين عن جلباب البدن، لو أطاقوا إليه مد البصر، فإنما هو كالبرق الخاطف. ولو تجاوزوا عن ذلك لاحترقوا من سبُحات وجهه، وحال الصدّيقين في ذلك كحال الإنسان في النظر إلى الشمس. فإنه وإن قدر على مدّ البصر إليها، إلاّ أن إدامته يورث الضعف والعمَش، بل لا مشابهة بين الحالين، وإنما هو مجرّد تقريب وتفهيم، فإنّ المناسبة بين نور الشمس ونور البصر في الجملة ثابتة، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور الأنوار، القاهر على كل نور بالإحاطة والغلبة، وما من نور إلاّ وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره، فكل نور في مرتبة نوره زائل، وكل ظهور في جنب ظهوره وشروقه مضمحل باطل...

وقد اقتصرنا على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *



قوله عليه السلام:

صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالاحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ.

(نهج البلاغة ٤: ٤)



[صيانة السرّ من الاذاعة]

قال ابن أبي الحديد: هذه فصول ثلاثة:

الفصل الأوّل: قوله عليه السلام: «صدر العاقل صندوق سره»، قد ذكر طرفاً صالحاً في كتمان السّر، وكان يقال: لا تنكح خاطب سرّك، قال معاوية للنجار العذري: إبغ لي محدّثاً، قال: معي يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم أستريح منك إليه، ومنه إليك، وأجعله كتوماً فإنّ الرجل إذا اتخذ جليساً ألقى إليه عجزه وبجره.

وقال بعض الأعراب: لا تضع سرّك عند من لا سرّ له عندك. وقالوا: إذا كان سر الملك عند اثنين، دخلت على الملك الشبهة، واتسعت على الرجلين المعاذير، فإن عاقبهما عند شياعه عاقب اثنين بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بجناية مجرم، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخر ولا حجة عليه.

الفصل الثاني: «البشاشة حبالة المودة» كان يقال: قد قلنا في البِر والبشاشة في ما سبق قولاً مقنعاً وكان يقال: البِشر دال على السخاء من ممدوحك، وعلى الود من صديقك دلالة النور على الثمر، وكان يقال: ثلاث تبيّن لك الودّ في صدر أخيك: تلقّه ببشرك، وتبدؤه بالسلام، وتوسّع له في المجلس، وقال الشاعر:

لا تـدخلنك ضـجرة مـن سـائل	فلخيـر دهـرك أن تـرى مسـؤولا
لا تجبَهَنْ بـالردّ وجـه مؤمـل	قـد رام غيـرك أن يـرى مـأمولا
تلقـى الكـريم فتسـتدل ببشِـره	وتـرى العبـوس على اللئيم دلـيلا
واعلـم بأنـك عـن قليـل سـائر	حـراً فكـن حـراً تـروق جمـيلا

وقال البحتري:

لـو أنّ كفّـك لـم يجـد لمؤمـل	لفـاه عاجـل بشِـرك المتهلـل
لـو أن مجـدك لـم يكـن متقادمـاً	أغنـاك آخـر سـؤدد عـن أولِ
أدركت ما فات الكهول من الحجا	مـن عنفـوان شـبابك المسـتقبل
فـإذا أمـرت فمـا يقـال لـك ابتـدئ	وإذا حكمـت فـلا يقـال لـك اعـدل

الفصل الثالث: قوله عليه السلام: «الإحتمال قبر العيوب» أي إذا احتملت صاحبك وحلمت عنه، ستر هذا الخُلق الحسن منك عيوبك، كما ستر القبر الميت، وهذا مثل قولهم في الجود: كلُ عيبٍ الكرمُ يغطيه...

ومن كلامه عليه السلام: «وجدت الإحتمال أنصر لي من الرجال».

ومن كلامه عليه السلام: «من سالم الناس سلم منهم، ومن حارب الناس حاربوه، فإن العثرة للكاثر».

وكان يقال: العاقل حام الأحمق أبداً، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتقرب إليه بدّاً، وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكفاف شره بدّاً.

وأسمع رجل يزيد بن عمر بن هبيرة فأعرض عنه، فقال الرجل: إيّاك أعني، قال: وعنك أعرض.

قال الشاعر:

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخيرٌ من إجابته السكوتُ
سكتُّ عن السفيه فظنّ أني ... عييت عن الجواب وما عييتُ[(١)]

* * *

وقال ابن عبده:

لا يفتح الصندوق فيطلع الغير على ما فيه.

والحبالة ـ بكسر الحاء، بزنة كتابة ـ شبكة الصيد ومثله الأحبول، والأُحبولة ـ بضم الهمرة فيهما ـ وتقول: حبل الصيد، واحتبله إذا أخذه بها، والبشوش يصيد مودات القلوب، والإحتمال تحمّل الأذى، ومن تحمّل الأذى خفيت عيوبه كأنّها دفنت في قبر.[(٢)]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني وكذلك صاحب الدّرة النجفية:

قوله عليه السلام: «صدر العاقل صندوق سرّه» استعار للصدر لفظ صندوق السرّ، باعتبار حفظه، كما يحفظ الصندوق ما فيه، وهو في المعنى أمر للإنسان بكتمان سره ورغّبه في ذلك بذكر العاقل، فكأنه قال: العاقل من جعل صدره صندوق سرّه وحفظه.

وقوله عليه السلام: «البشاشة حبالَة المودة» واستعار لها لفظ الحبالة باعتبار اقتناص الإنسان بها الناس واستمالتهم إلى صداقته ومحبته، كحبالة الصائد التي يقتنص بها الطير.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٩٧ ـ ٩٩.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٤ (الشرح).

وقولـه عليه السلام: «الإحتمـال قبـر العيـوب» أراد احتمـال المكـروه والأذى مـن الإخـوان وسـائر النـاس. وهـو فضـيلة عظيمـة تحـت الشـجاعة. واسـتعار لـه لفـظ «قبـر العيـوب» باعتبـار سـتره لمعائـب صـاحبه عنـد النـاس، كمـا يسـتر القبر ما فيه من جيفة الميت...[1]

* * *

وفي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[2]

قوله عليه السلام: «وصدر العاقل صندوق سره».

كتمـان الأسـرار دأب العقـلاء الأخيـار، وقـد أمـر فـي واحـد مـن الأخبـار بكتمـان السـر، وصـدر الوصـاية بـه عـن غيـر واحـد مـن الحكمـاء وذوي البصيرة، سواء أكان سرّ نفسه أو السرّ المودع عنده من غيره.

وقـد كـان سرّ الشيعة فـي دولـة الخلفـاء الجـائرين، مـا أفـاده إلـيهم أئمّـة الحـقّ مـن الأحكـام والآداب الخاصـة، وأمـروهم بحفظـه وصـيانته مـن الأعداء. ووردت أخبار كثيرة في ذمّ من يذيع هذه الأسرار عند الأغيار.

وقوله عليه السلام: «البشاشة حبالة المودة».

البِشـر وحَسـنُ الخُلـق ممـا يجلـب بـه ويحفـظ مـودة النـاس، وكمـا يصـاد بالحبالـة الطيـور النـافرة، يصـاد بالبشاشـة وحسـن الخُلـق القلـوب الوحشـية، وقـد وصـىّ عليه السلام ابنـه الحسـن عليه السلام فـي حـديث المعاشـرة بقولـه: «وبشرك للعامة» يعني أنّ حسن الخُلق أدب مع كل الناس.

وقوله عليه السلام: «والإحتمال قبر العيوب».

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٥.

(٢) ج ٢١: ١٧.

الإحتمال نوع من الحلم تجاه ما يُكره من قول أو فعل يصدر عن المُعاشر من صديق أو عدو، فإذا تحمله الإنسان، ولم يُظهر الضجر يصير سبباً لدفن العيوب من وجهين:

١ ـ إنّ كثيراً من العيوب تتولد من عدم الإحتمال نفسه، فكم من شخص إغتاظ من قول مكروه، أو فعل غير ملائم، فارتكب الجرائم والمعاصي والذمائم والمآثم.

٢ ـ إنّه إذا لم يتحمل تلك المكاره وقام في وجه المرتكب بالإنتقام والسفَه، يُبدون معائبه المكنونة ويفضحونه بما يعلمون من سرائر حاله، فتحمّل المكاره موجب لستر العيوب.

وقال الشيخ ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):[1]

في قوله عليه السلام: «صدرُ العاقِل صندوق سِره».

بعض الحاجات لا يستقيم قضاؤها إلاّ بالكتمان، ومن الجهل والحمق إفشاؤها وإذاعتها... وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا أراد غزواً ورّى.

ومن ضاق بسرّه فلا يلومنّ من أفشاه، والحق خاصّ بصاحبه، وعلى كل إنسان أن يحترم هذا الحق ويقدّسه، ويحرّم التجسس عليه... ولكن الغرب قد انتهك هذا الحق، واخترع للتجسس على الشعوب والبيوت والأفراد آلات مذهلة شديدة الدقة، وقد هددت حرية الإنسان وأصبحت حياته وأسراره مشاعاً للذين يملكون هذه الالآت، ويبيعونها كالسلعة لمن يدفع الثمن، وفتحوا بنوكاً وحوانيت لبيعها علانية، وعلى علم من السلطة التي تصون الأمن والحريات.

وهكذا حوّلوا العلم من العمل لصالح الإنسان وخدمته إلى

---

(١) ج ٤: ٢١٩.

الأضرار به والاعتداء عليه والقضاء على حريته، وفرضوا عليه لوناً جديداً من الضغط لا نظير له حتّى عصور الجهل والتخلف.

وقوله عليه السلام: «والبشاشة حبالة المودة».

إذا خرجت الابتسامة من القلب دخلت في القلب تماماً، ككلمة الصدق والاخلاص، أما إبتسامة المكر فهي وكلمة النفاق سواء، تخرج من الحناجر ولا تتجاوز الآذان.

وقوله عليه السلام: «والإحتمال قبر العيوب».

المراد بالإحتمال هنا الصبر على كلمة تافهة، أو حركة نابية من زوجة أو ولد أو جارٍ أو أيّ سفيه، والمراد بقبر العيوب أن هذا الصبر فضيلة تشفع في بعض العيوب أو تسترها ـ على الأقل ـ وأية جدوى من إظهار الغيظ والغضب إلاّ البغضاء والشحناء.

* * *

أقول: وقوله عليه السلام: «وصدر العاقِل صندوق سِره».

ضبط الألفاظ اللغوية:

في (محيط المحيط): السِّر ما يُكتم وما يسرّه الإنسان في نفسه من الأمور التي عزم عليها. (جمعه) أسرار، ويقال: صدور الأحرار قبور الأسرار.

وفي (مجمع البحرين):[١] «السِّر ما أكمَنّته في نفسك».

وفي (جامع السعادات):[٢]

إفشاء السر وإذاعته، وهو أعمّ من كشف العيب. إذ السر قد يكون عيباً

(١) ج ٢: ٣٦٢.

(٢) ج ٢: ٢١٠.

وقد لا يكون بعيب، ولكن في إفشائه إيذاء وإهانة بحقّ الأصدقاء أو غيرهم من المسلمين. وهو من رذائل قوة الغضب إن كان منشؤه العداوة، ومن رذائل قوة الشهوة إن كان منشؤه تصوّر نفع مالي، أو مجرد إهتزاز النفس بذلك لخباثتها.

وهو مذموم منهي عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا حدّثت الرجل الحديث ثمّ التفت فهي أمانة».

وقال صلى الله عليه وآله: «الحديث بينكم أمانة». وورد «أن من الخيانة أن تحدّث بسرّ أخيك».

وقال عبد الله بن سنان للصادق عليه السلام: عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال: نعم، قلت: يعني سفلته؟ قال: «ليس حيث تذهب، إنما هو إذاعة سرّه».

[كتمان السر]:

ضد إفشاء السر كتمانه. وهو من الأفعال المحمودة. وقد أُمر به في الأخبار.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «طوبى لعبد نومةٌ، عرفه الله ولم يعرفه الناس، أولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم، تتجلى عنهم كل فتنة مظلمة، ليسوا بالمذاييع البذُر، ولا الجفاة المرائين».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لعبد نُومة لا يؤبَه له، يعرفَ الناس ولا يعرفه الناس، يعرفه الله منه برضوان، أولئك مصابيح الهدى، تتجلى عنهم كل فتنة، ويفتح لهم باب كل رحمة، ليسوا بالبذُر المذاييع، ولا الجفاة المرائين».

وقال عليه السلام: «قولوا الخير تُعرفوا به، واعملوا الخير تكونوا من أهله، ولا تكونوا عجلاً مذاييع، فإنّ خياركم الذين إذا نُظر إليه ذُكر الله، وشراركم المشّاؤن بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة المبتغون للبراء المعائب.

* * *

وفي الجزء الأوّل من (العقد الفريد) لابن عبد ربّه الأندلسي:

قالت الحكماء صدرك أوسع لسرك، وقالوا: سرّك من دمك ـ بعنوان أنه ربما كان في إفشائه سفك دمك ـ.

وقالت الحكماء: ما كنت كاتمه عدوك، فلا تطلع عليه صديقك، وقال عمرو بن العاص: ما استودعت رجلاً سراً فأفشاه فلمته، لأني كنت أضيق صدراً منه حين استودعته إياه حتّى أفشاه. قيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر قال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر. وقيل للآخر: كيف كتمانك للسر؟ قال: ما قلبي له إلاّ قبر.

وقال المأمون: الملوك تحتمل كل شيء إلاّ ثلاثة أشياء: القدح في الملوك، وافشاء السر، والتعرض للحرم. وقال الوليد بن عتبة لأبيه: إنّ أمير المؤمنين أسرّ إليّ حديثاً أفلا أحدّثك به؟ قال: (لا) يا بُني انه من كتم سرّه كان الخيار له، فلا تكن مملوكاً بعد أن كنت مالكاً.

وفي (التاج): إن بعض ملوك العجم استشار وزيريه، فقال أحدهما: لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحداً إلاّ خالياً به، فإنّه أموَت للسر، وأحزم للرأي، وأجدر بالسلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض، فإنّ إفشاء السرّ لرجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين، وافشاؤه إلى ثلاثة كافشائه إلى جماعة، لأنّ الواحد رهن بما أفشي إليه، والثاني مطلق عنه ذلك الرهن، والثالث علاوة فيه، فإذا كان السرّ عند واحد كان أحرى أن لا يظهر رغبة ورهبة، وإن كان عند إثنين دخلت على الملك الشبهة، واتّسعت على الرجلين المعاريض، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بجناية مجرم، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخر ولا حجة معه.

[أقوال الشعراء في حفظ السرّ]:

ومن أحسن ما قالته الشعراء في السرّ، قول عمر بن أبي ربيعة:

فقالت وأرخت جانب الستر إنما معي فتحدّث غير ذي رقبة أهلي

فقلت لها ما بي لهم من ترقب ولكن سري ليس يحمله مثلي

* * *

وقال أبو محجن الثقفي:

لا تسألي الناس عن مالي وكثرته وسائلي الناس عن بأسي وعن خُلُقي

قد أطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتم السر فيه ضربة العنق

* * *

وقال الحطيئة يهجو (أمه):

أغربالاً إذا استودعت سراً وكانوناً على المتحدثينا

* * *

قال ابن أبي الحديد:

(مقتل الرجل بين لحييه): دنا رجل من آخر فسارّه، فقال له: ليس ههنا أحد، فقال: إنّ من حق السرّ التداني.

كان مالك بن مسمع إذا سرّه إنسان قال له: أظهره، فلو كان فيه خير لما كان مكتوماً.

حكيم يوصي ابنه: يا بني كن جواداً بالمال في موضع الحق، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق، فإنّ أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر، والبخل بمكتوم السر. ومن كلامهم: سرّك من دمك فإذا تكلمت به فقد أرقته.

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية الأسرار، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل امرئ مفتاح سرّه. وقال بعض الحكماء: من أفشى سرّه كثر عليه المتآمرون. أسرّ رجل إلى صديق له سراً، ثمّ قال له: أفهمت؟

قال له: بل جهلت، قال: أحفظت؟ قال: بل نسيت.

أنشد الأصمعي قول الشاعر:

إذا جاوز الاثنين سرٌّ فإنه ... يبثّ وتكثير الوشاة عميقُ

فقال: والله ما أراد بالاثنين إلاّ الشفتين.[1]

* * *

وفي المحاسن والمساوئ للبيهقي (ج ٢ ص ٥٦):

كان المنصور يقول: سرك من دمك فانظر من تملّكه. وكان يقول: سرّك لا يطلع عليه غيرك، إنّ من أنفذ البصائر كتمان السرّ حتّى يبرم المبرمون.

وقيل لأبي مسلم صاحب الدولة: بأي شيء أدركت هذا الأمر؟ فقال: ارتديت بالكتمان، واتّزرت بالحزم، وحلفت الصبر، وساعدت المقادير، فأدركت ظنيّ، وحزت حدّ بغيتي وأنشد:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حَشَدوا

ما زلت أسعى عليهم في ديارهم ... والقوم في غفلة بالشام قدْ رَقَدوا

حتّى ضربتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحدُ

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ... ونام عنها تولّى رعيها الأسدُ

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٨٤.

وقال عبد الملك بن مروان للشعبي لما دخل عليه: جنّبني خصالاً أربعاً: لا تطريني في وجهي، ولا تجربنّ عليّ كذبة، ولا تغتابنّ عندي أحداً، ولا تفشين لي سراً.

وقال النبي ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإنّ كلّ ذي نعمة محسود».

وأنشد المنقري في ذلك:

النجم أقرب من سر إذا اشتملت ... منيّ على السّر أضلاعٌ وأحشاء

* * *

وقال غيره:

ونفسك فاحفظها ولا تفش للورى ... من السّر ما يطوي عليه ضميرُها

فما يُحفظ المكتوم من سِر أهله ... إذا عقدُ الأسرار ضاع كثيرها

من القوم إلاّ ذو عَفاف يعينُهُ ... على ذاك منه صدق نفس وخيرُها

وكان يقال: لكاتم سرّه من كتمانه إحدى خصلتين وفضيلتين: الظفر بحاجته، والسلامة من شرّه، من أحسن فليحمد الله وله المنة عليه، ومن أساء فليستغفر الله جلّ وعزّ وله الحجة عليه، وقال بعضهم: كتمانك سرّك يعقبك السلامة، وإفشاؤك سرّك يعقبك التبعة، والصبر على كتمان السرّ أيسر من الندم على إفشائه.

وقال بعضهم: ما أقبح بالإنسان أن يخاف على ما في يده اللصوص فيخفيه، ثمّ يمكّن عدوّه من نفسه بإفشاء سرّه إليه، وإظهار ما في قلبه له، أو أن يظهره على سرّ أخيه. ومن عجز عن تقويم أمره فلا يلومنّ من لا يستقيم له.

قال النبي ﷺ: «من كتم سرهُ كانت الخيرة في يده، ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن، وضعْ أمر أخيك على أحسنه، ولا تظننَ بكلمة خرجت منه سوءاً إذا كنت واجداً لها في الخير مذهباً، وما كافأت من عصى الله فيك بأكثر من أن تطيع الله جلّ ذكره فيه، وعليك بإخوان الصدق فإنّهم زينة عند الرخاء، وعصمة عند البلاء».

قال المهلّب بن أبي صفرة: ما ضاقت صدور الرجال عن شيء كما ضاقت عن السرّ، وقال زياد: لكل مستشير ثقة، ولكلّ سرّ مستودع، وإنّ الناس قد أبدعت بهم خصلتان: إذاعة السرّ وترك النصيحة، وليس موضع السرّ إلاّ أحد رجلين: رجل آخريّ يرجو ثواب الله، ورجل دنيويّ له شرف في نفسه، وعقل يصون به حسبه، وهما معدومان في هذا الدهر.

* * *

وقرأت في المستطرف من كل فن مستظرف (ج ١ ص ٤٤ ط بولاق):

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ...﴾[1] الآية، فلما أفشى يوسف عليه السلام رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت إخوته فحلّ به ما حلّ.

ومن شواهد الكتاب العزيز في السرّ، قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[2] وقوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[3] أي بمتّهم.

قال عليّ عليه السلام: «سرّك أسيرك، فإذا تكلّمت به صرت أسيره.

---

(١) يوسف: ٥.

(٢) النجم: ١٠.

(٣) التكوير: ٢٤.

واعلم أنّ أمناء الأسرار أقل وجوداً من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأنّ أحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وأحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال. فإنّ الرجل يستقلّ بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر، وإنّ الرجل يكون سرّه في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال. فإذا أذاعه استراح قلبه وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً».

ومن عجائب الأمور أنّ الأموال كلما كثرت خزّانها كان أوثق لها، وأمّا الأسرار فإنّها كلما كثرت خزانها كان أضيع لها. وكم من إظهار سرّ أراق دم صاحبه، ومنعه من بلوغ مآربه، ولو كتمه أمِنَ من سطواته. وقيل: كلما كثرت خزّان الأسرار زادت ضياعاً. وقيل: انفرد بسرّك لا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون.

قال كعب بن سعد الغنوي:

ولست بمبدٍ للرجال سريرتي ... ولا أنا عن أسرارهم بسؤولِ

* * *

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سرّه. قال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل بسرّه، فإذا حدّث به أحداً قال: اكتمه علي.

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودع سرّك إلى طالبه، فالطالب للسرّ مذيع، ولا تودع مالك عند من يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن.

وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرّقه تحت شغاف قلبي ثمّ أجمعه وأنساه كأني لم أسمعه. وكان يقال: أحزم الناس من لا يفشي سرّه إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شرّ فيفشيه عليه.

* * *

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة (ج ١ ص ٤٠):

وفي كتب العجم: أنّ بعض ملوك فارس قال: صونوا أسراركم، فإنّه لا سرّ لكم إلاّ في ثلاثة مواضع: مكيدة تُحاول، أو منزلة تُزاول: أو سريرة مدخولة تكتم، ولا حاجة بأحد منكم في ظهور شيء منها عنه.

ديوان الشعر في السرّ:

ومما قالته الشعراء في السرّ:

في عيون الأخبار لابن قتيبة (ج ١ ص ٣٨):

حدّثني عبد الرحمن بن قُريب عن عمّه الأصمعي، قال: أخبرني بعض أصحابنا، قال: دخل ابن أبي محجن الثقفي على معاوية، فقال له معاوية: أبوك الذي يقول:

إذا متّ فادفني إلى أصل كرَمة ... تروّي عظامي بعد موتي عروقُها

ولا تدفنني في الفلاة فإنني ... أخاف وراء الموت أن لا أذوقُها

فقال ابن أبي محجن: لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره، فقال معاوية: وما ذاك؟ قال قوله:

لا تسألي القومَ ما مالي وما حسبي ... وسائلي القومَ ما حزْمي وما خُلُقي

القومُ أعلم أني من سراتهم ... إذا تطش يد الرعديدةِ الفرق

أعطي السنان غداة الروع حصّته   وعامل الرمح أرويه من العَلَق

قد أركب الهولَ مَسدولاً عساكِره   واكتم السّر فيه ضربة العنق

وأنشدني للصّلتان العبدي:

وسرّك ما كان عند امرئٍ   وسرّ الثلاثة غيرُ الخفي

وكان عليّ بن أبي طالب عليه السلام، يتمثل بهذين البيتين:

ولا تفش سرّك إلاّ إليك   فإنّ لكل نصيح نصيحا

فإنّي رأيت غواة الرجال   لا يتركون أديماً صحيحا

وقال الشاعر:

ومراقبين تكاتما بهواهما   جعلا القلوب لما تُجنّ قبورا

يتلاحظان تلاحظاً فكأنما   يتناسخان من الجفون سطورا

وقال مسكين الدرامي:

أواخي رجالاً لست أُطلع بعضهم   على سرّ بعض غير أني جماعُها

يظلون شتى في البلاء وسرّهم   الى صخرة أعيا الرجال انصداعها

وقال:

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت   مني الضلوع من الأسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرائره   إذ كنت من نشرها يوماً على خطر

وقال الشاعر:

إذا ما ضاق صدرك من حديث   فأفشته الرجال فمن تلومُ

إذا عاتبت من أفشى حديثي   وسري عنده فأنا الملومُ

وإني حين أسأم حمل سري   وقد ضمنته صدري سؤومُ

وقال آخر:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرّها ... فسرّك عند الناس أفشى وأضيعُ

وقال جميل بن معمر:

أموت وألقى الله يا بُثن لم أبح ... بسرّك والمستخبرون كثيرُ

وقال آخر:

سأكتمه سري وأحفظ سرّه ... ولا غرّني أنيّ عليه كريمُ

حليم فينسى أو جهولٌ يشيعه ... وما الناسُ إلاّ جاهل وحليمُ

* * *

وجاء في كتاب (المستطرف):[١]

ومن أحسن ما قيل في كتمان السرّ قول الشاعر:

ولها سرائر في الضمير طويتها ... نسي الضمير بأنّها في طيّهِ

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوي فقال:

إنّي كتمت حديث ليلى لم أبح ... يوماً بظاهره ولا بخفيّهِ

وحفظت عهد ودادها متمسكاً ... في حبّها برشاده أو غيّهِ

ولها سرائر في الضمير طويتها ... نسيَ الضمير بأنّها في طيِّهِ

وقال آخر:

ومستودعي سراً كتمت مكانه ... عن الحس خوفاً أن ينمّ به الحسُّ

وخفت عليه من هوى النفس شهوة ... فأودعته من حيث لا تبلغ النفسُ

---

(١) ج ١: ٤٤٤ – ٤٤٦.

وقال قيس بن الحطيم:

أجود بمكنون التلاد وإنّني ... سري عمّن رامَه لضنينُ
وإن ضيّع الأقوام سري فإنني ... كتوم لأسرار العشير أمينُ

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودعني سرّه ... لا ترج أن تسمعه منّي
لم أجره قطّ على فكرتي ... كأنه لم يجر في إذني

وقال آخر:

إذا المرء أفشى سرّه بلسانه ... ولام عليه غيره فهو أحمقُ
إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه ... فصدر الذي يستودع السرّ أضيقُ

وقال آخر:

إذا ما غفرت الذنب يوماً لصاحب ... فلست معيداً ما حييت له ذكرا
ولست إذا ما صاحب خان عهده ... وعندي له سرّ مذيعاً له سرّا

* * *

وفي المحاسن والمساوي للبيهقي (ج ٢ ص ٥٨):

قال الشاعر:

صن السرّ بالكتمان يُرضِكَ غِبّهُ ... فقد يظهرُ السّر المضيعُ فيندمُ
ولا تفشينْ سراً إلى غير أهله ... فيظهر خرقُ السّر من حيث يكتمُ
وما زلت في الكتمان حتّى كأنني ... برجع جواب السائلي عنك أعجمُ
لأسلم من قول الوشاة وتسلَمي ... سَلمت وهل حيٌّ على الناس يَسلمُ

ولآخر:

أمنـيِّ تخـافُ انتشـارَ الحـديث وحظـي فـي سـرِّهِ أوفـرُ

ولـو لـم أصُـنه لِبقُيـاً عليـك نظـرتُ لنفسـي كمـا تنظـرُ

ولآخر:

لسـاني كتـومٌ لأسـراركم ودمعـي نمـومٌ لسـرّي مـذيعُ

فلـولا الـدموع كتمـت الهـوى ولـولا الهوى لـم تكـن لـي دمـوعُ

وقال أبو نؤاس:

لا تفـش أسـرارك للنـاس وداو أحزانـكَ بالكـاس

فـإن إبلـيس علـى مـا بـه أرأف بالنـاس مـن النـاس

وقال العتبي:

ولـي صـاحبٌ سري المكتمُ عندهُ مخـاريق نيـران بليـل تحَـرّقُ

عَطفـتُ علـى أسـراره فكسـوتُها ثيابـاً مـن الكتمـان مـا تتحـرقُ

فمـن تكـن الأسـرار تطفـو بصـدره فأسـرار نفسـي بالأحاديـث تغـرقُ

فـلا تُـودِعَنَّ الـدهر سـرّك جـاهلاً فإنّـك إن أودعتـهُ منـه أحمـقُ

وحسبك في ستر الأحاديث واعظاً من القـول مـا قـال الأديـب الموفـقُ

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه فصـدر الـذي يسـتودَعُ السـرّ أضـيقُ

إلـى هنـا فلنكتـفِ بهـذا القـدر، وإلاّ مـا قيـل مـن الشـعر فـي السـرّ الشـيء الكثير.

* * *

[البشاشة حبالة المودة]:

قوله عليه السلام: «البشاشَةُ حِبالة المَودةِ».

ضبط الألفاظ اللغوية:

في (مجمع البحرين):[1] البشّ والبشاشة، طلاقة الوجه وحسن اللقاء.

وفي (محيط المحيط): بَشَّ يَبُشُّ بشاً وبشاشة، كان طلق الوجه، وللشيء أقبل عليه وضحك إليه، ولفلان في المسألة لطف، وبأخيه أقبل عليه، والصديق بالصديق فرح به سُرَّ، فهو باشٌ وبَشيء وبشوش، وبشّاش.

وفي (المستطرف):[2] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا، والمصافحة إذا تلاقوا».

والحبالة: شبكة الصيد، والمودّة: المحبة.

ففي (مجمع البحرين):[3] الحُبُّ بالضمِّ المحبة (وتحابوا) أي أحبَّ كُل واحد منهم صاحبه.

وفي (جامع السعادات):[4] الحب هو الميل إلى الشيء الملذ الملائم للمدرك، والابتهاج بإدراك الملائم ونيله.

(أقول): ولا ريب أنّ الحبّ عنصرٌ أولي في تقويم الحياة، ومادة أولى في ناموس الخلق، ولعلهُ البند المهيمن على قانون الطبع الإنساني.

والعلم الحديث يثبت أن الكائن حياً كان أو جماداً، إنما يقوم في بقائه وصموده، وأداء وظيفته على التجاذب، وهذا هو الحبّ.

---

(١) ج ١: ٢٠٣.

(٢) ج ١: ٢٦٨.

(٣) ج ١: ٤٤٢.

(٤) ج ٣: ١٢٥.

إنّ الفطرة الأولى تدعو الإنسان لأن يحكم على أنّ الألفة والمحبة بين كلّ إثنين من كل كائن ناشئة عن تجانس طبيعي فيهما، حتّى أن التاريخ يروي لنا: أن رجلاً رأى غراباً وحمامة واقفين معاً، فتعجب لذلك مع عدم تجانسهما، وأحبّ أن يتأكد من السرّ في هذا التجاوز، فأثارهما، وإذا هما أعرجان، فقال: من هاهنا اجتمعا.

[حقيقة الحب]:

الحب نفحة قدسية وهبها الله الصالحين من عباده، فلم نسبغ لقباً كريماً على شخص إلاّ من وراء الحب.

ويكاد يكون الحبّ عنصراً أوّل في كل مهنة إنسانية خالدة، فالفنون بأسرها أسرة حب والآداب من ولائده.

الحب هو شعور راقٍ في المرء يدفعه إلى توخي المثل الأعلى من الجمال، ويرتفع بالعاطفة إلى أسمى درجات الخيال، وفيه يتمثل جلّ الأخلاق الكريمة، ومن مظاهر هذا الشعور أنه العامل الكبير في تصرفات الإنسان، وأنّ جلّ مساعي الإنسان وأعماله صادرة عن حبّه.

* * *

ذكر ابن أبي الحديد في (شرح النهج)(١) قائلاً: المحبة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة. قال أبو يزيد البسطامي: المحبة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك. وقال أبو عبد الله القرشي: المحبة أن تهب كلّك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء. وأكثرهم على نفي

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٧٧ – ٨٠.

صفة العشق، لأن العشق مجاوزة الحد في المحبة، والباري سبحانه أجلّ من أن يوصف بأنه قد تجاوز أحدٌ الحدَّ في محبته.

وسُئل الشبلي عن المحبة، فقال: هي أن تغار على المحبوب أن يحبه أحد غيرك.

وقال سمنون: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة؛ لأن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب». فهم مع الله تعالى.

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبرّ، وقال: ليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده.

وقال أبو يعقوب السوسي: حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله، وينسى حوائجه إليه.

قيل للنصرآبادي: يقولون إنه ليس لك من المحبة شيء، قال: صدقوا، ولكن لي حسراتهم، فهو ذو احتراق فيه.

وقال النصرآبادي أيضاً: المحبة مجانبة السلو على كلّ حال، ثمّ أنشد:

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوة ... فإني من ليلي لها غير ذائق

وأكثر شيء نلته في وصالها ... أماني لم تصدق كلمحة بارق

وكان يقال: الحب أوّله جهل وآخره قتل.

وقال أبو عليّ الدقاق في معنى قول النبي ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم» قال: يعمي ويصم عن الغير إعراضاً، وعن المحبوب هيبة، ثمّ أنشد:

إذا ما بدا لي تعاظمته ... فأصدر في حال من لم يره

وقال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي يقول: المحبة اقبالك على المحبوب بكليتك، ثمّ إيثارك له على نفسك ومالك

وولدك، ثمّ موافقتك له في جميع الأمور سراً وجهراً، ثمّ اعتقادك بعد ذلك أنك مقصر في محبته.

حُبس الشبلي في المارستان بين المجانين، فدخل عليه جماعة، فقال: من أنتم؟ قالوا: محبوك أيها الشيخ، فأقبل يرميهم بالحجار، ففروا، فقال: إذا ادعيتم محبتي فاصبروا على بلائي.

كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي: قد سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته، فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرب بحور السماوات والأرض وما روي بعد، ولسانه خارج ويقول: هل من مزيد، ومن شعرهم في هذا المعنى:

عجبت لمن يقول ذكرت ربي ... وهل أنسى فأذكر ما نسيتُ
شربت الحب كأساً بعد كأس ... فما نفد الشراب ولا رويتُ

ويقال: إنّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: إذا اطلعت على قلب عبد، فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة، ملأته من حبي.

وقال أبو علي الدقاق: إنّ في بعض الكتب المنزلة: عبدي أنا وحقك لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً.

وقال عبد الله بن المبارك: من أعطي قسطاً من المحبة ولم يعطَ مثله من الخشية، فهو مخدوع.

وقيل: المحبة سُكر لا يصحو صاحبه إلاّ بمشاهدة محبوبه، ثمّ إنّ السُكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد:

فأسكر القوم دور كأس ... وكان سكري من المدير

وكان أبو عليّ الدقاق ينشد:

لي سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وكان يحيى بن معاذ يقول: مثقال خردلة من الحب أحبّ إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ.

وقال بعضهم: من أراد أن يكون محباً فليكن كما حُكي عن بعض الهند، أنه أحب جارية، فرحلت عن ذلك البلد، فخرج الفتى في وداعها، فدمعت إحدى عينيه دون الأخرى، فغمض التي لم تدمع أربعاً وثمانين سنة، ولم يفتحها عقوبة؛ لأنها لم تبكِ على فراق حبيبته، وأنشدوا في هذا المعنى:

بكت عيني غداة البين دمعاً ... وأخرى بالبكا بخلت علينا

فعاقبت التي بخلت علينا ... بأن غمضتها يوم التقينا

وقيل: المحبة إيثار المحبوب على النفس، كامرأة العزيز لما أفرط بها الحبّ، قالت: ﴿أَنا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾،[1] وفي الإبتداء قالت: ﴿ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاّ أَنْ يُسْجَنَ﴾،[2] فوركت الذنب في الإبتداء عليه، ونادت في الإنتهاء على نفسها بالخيانة.

* * *

وورد في الخلق الكامل (مجلد ٤ ص ١٠):

وقد رأى بعض المصلحين من الخلقيين، أنّ المحبة أساس جميع الفضائل. فالمحبّ لا يكذب على محبوبه، ولا يسرقه، ولا يخونه، ولا يؤذيه الخ، ولكن لا تعدّ المحبة فضيلة إلاّ إذا كانت موجهة من الفرد إلى المجتمع، وأما الحبّ الموجه من فرد إلى فرد آخر معيّن، فلا يعد

---

(١) يوسف: ٥١.

(٢) يوسف: ٢٥.

فضيلة؛ لأنه إذا عصم المحبَّ من أذى محبوبه، فقد لا يعصمه من أذى غير محبوبه أو أذى المجتمع، فالمحبة بوصفها فضيلة هي اعتبار الإنسانية حبيباً للمحب كيفما تمثلت له وتجلّت.

ولذلك كانت المحبة تشمل الصدق والأمانة، وهما ركنا العدل، فإذا كانت محبة الإنسانية صفة للمرء كانت من الجهة الواحدة حكمة ترشد الضمير إلى الحق، ومن الجهة الأخرى عدلاً يوجّه الحق إلى صاحبه...

* * *

جاء في جامع السعادات (مجلد ٣ ص ١٣٤ ط النجف)، تحت عنوان:

أقسام الحب بحسبَ مبادئه:

«إن أسباب الحب ومباديها لما كانت متعددة مختلفة، فينقسم الحبّ لأجلها على أقسام:

الأوّل: حبّ الإنسان وجود نفسه وبقاءه وكماله، وهو أشدّ أقسام الحب وأقواها؛ لأنّ المحبة إنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة. ولا شيء أشد ملاءمة لأحد من نفسه، ولا هو بشيء أقوى معرفة منه بنفسه، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحاً لمعرفة ربه. «من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

الثاني: حبه لغيره، لأجل أنه يلتذ منه لذة حيوانية، كحبّ كلّ من الرجل والمرأة للآخر لأجل الجماع، وحبّ الإنسان المأكولات والملبوسات. والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة، وهو سريع الحصول، وسريع الزوال وأضعف المراتب لخساسة سببه، وسرعة زواله.

الثالث: حبّه لغيره لأجل نفعه وإحسانه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وقد جُبلت النفوس على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها،

ولذا قال رسول الله ﷺ: «اللّهم لا تجعل لفاجر عليَّ يداً فيحبه قلبي»، فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والإحسان.

الرابع: أن يحبّ الشيء لذاته لا لحظّ يناله منه وراء ذاته؛ بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحبّ الحقيقي البالغ الذي يوثق به، وذلك كحبّ الجمال والحسن، فانّ كلّ جمال محبوب عند مدركه.

الخامس: محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية، أو مجانسة معنوية، فربّ شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال، ولا طمع في جاه ومال، بل بمجرد تناسب الأرواح، كما قال النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

السادس: محبته لمن حصل بينه وبينه الأُلف والاجتماع في بعض المواضع، لاسيّما إذا كان من المواضع الغريبة كالأسفار البعيدة. والسبب فيه كون أفراد الإنسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الإنسان سمي إنساناً، فهو مشتَقّ من الأنس دون النسيان كما ظن، والمؤآنسة لا تنفك عن المحبة.

السابع: محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر، كَميل الصبي إلى الصبي لصباه، والشيخ إلى الشيخ لشيخوخته، والتاجر إلى التاجر لتجارته، وهكذا فإنّ كل شخص مائل إلى من يشاركه في وصفه وصنعته وشغله وحرفته، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة.

الثامن: حبّ كل سبب وعلة لمسبّبه ومعلوله وبالعكس. فإنّ المعلول لما كان مثالاً من العلة، ومتوشحاً عنها ومنبجساً منها، ومناسباً لها لكونه من سنخها، فالعلة تحبّه؛ لأنه فرعها وبمنزلة بعض أجزائها التي

كانت منطوية فيها، والمعلول يحبها؛ لأنها أصله وبمنزلة كله الذي كان محتوياً عليه فكأنّ كلاً منهما في حبه للآخر يحب نفسه.

ثمّ السبب إن كان علة حقيقية موجدة تكون سببيته أقوى في حصول المحبة والإتحاد مما إذا كان علة معدة، فأقوى أقسام المحبة ما يكون للواجب سبحانه بالنسبة إلى عباده. وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة إليه سبحانه. فإن محبتهم له من حيث كونه موجداً مخرجاً لهم من العدم الصرف إلى الوجود، ومعطياً لهم ما احتاجوا إليه في النشأتين، ومن حيث إنه تعالى تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية، والنفس بذاتها مشتاقة إلى الكامل المطلق، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل بدونها، ولذا قال سيد الرسل ﷺ: «ما اتخذ الله ولياً جاهلاً قط».

[لا محبوب حقيقة إلاّ الله]:

إعلم أنه لا مستحق للحبّ غير الله سبحانه، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلاّ هو، ولو كان غيره تعالى قابلاً للحبّ، وموضعاً له فإنما هو من حيث نسبته إليه تعالى، فمن أحب غيره تعالى لا من حيث نسبته إليه فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله، وكيف يكون غيره سبحانه من حيث هو لا من حيث هو، من جهة انتسابه إليه مستحقاً للحب، وهو في نفسه مع قطع النظر عنه تعالى وعن انتسابه إليه ليس إلاّ العدم، والعدم كيف يصلح للحبّ، فينبغي أن يكون حبّه لعموم الخلق بعموم النسبة، أي من حيث إنها منه تعالى وآثاره ومعلولاته وأضواؤه وأظلاله، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة إليه تعالى كالحبّ والأنس والمعرفة والإطاعة لخصوص النسبة أيضاً.

وممـا يوضـح المطلـوب أنّ جميـع الأسـباب مجتمعـة فـي حـق الله سبحانه وتعالى، ولا توجد في غيره حقيقة، ووجودها في حقِّ غيره وهمٌ وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له.

أمـا السـبب الأوّل: أعنـي محبـة الـنفس، فمعلـوم أنّ وجـود كـل أحـد فـرع لوجـود ربّـه، وظـلٌ لـه، ولا وجـود لـه مـن ذاتـه؛ بـل هـو مـن حيـث ذاتـه لـيس إلاّ محـض، وعـدم صِـرف، فوجـوده ودوام وجـوده، وكمـال وجـوده مـن الله وبـالله وإلـى الله، فهـو الموجـد المختـرع لـه، وهـو المبقـي لـه، وهـو المكمّـل لوجـوده بايجـاد صـفات الكمـال فيـه، فهـو صـرف العـدم لـولا فضـل الله عليـه بالإيجـاد، وهالـك بعـد وجـوده لـولا فضـله عليـه بالإبقـاء، ونـاقص بعـد بقائـه لـولا فضـله عليـه بالتكميـل، فلـيس فـي الوجـود شـيء لـه قـوام بنفسـه إلاّ القيـوم المطلـق الـذي هـو قـائم بذاتـه ومقـوّم لغيـره. وحينئـذٍ فمحبّـة كـل شـيء لنفسـه ترجـع إلـى محبّـة ربّـه وإن لـم يشـعر المحـبّ بـه، وكيـف يُتصـور أن يحـب الإنسـان نفسـه ولا يحـب ربّـه الـذي بـه قـوام نفسـه؟ مـع أن مـن أحـبّ الظـل أحـبّ بالضـرورة الأشـجار التـي بهـا قـوام الظـل، ومـن أحـبّ النـور أحـبّ لا محالـة الشـمس التـي بهـا قـوام النـور. وكـل مـا فـي الوجـود بالإضـافة إلـى قـدرة الله تعـالى كالظـل بالإضـافة إلـى الشـجر، والنـور بالإضـافة إلـى الشـمس. إذ الكـل مـن آثـار قدرتـه، ووجـوده تـابع لوجـوده، كمـا أنّ وجـود الظـل تـابع لوجـود الشـخص، ووجـود النـور تـابع لوجـود الشـمس، بـل هـذا المثـال إنمـا هـو للتفهـيم، وبالإضـافة إلـى أوهـام العـوام حيـث يتوهمـون أنّ الظـل والنـور تابعـان للشـاخص والشـمس، وفاضـيان عنهمـا، وعنـد التحقيـق لـيس الظـل والنـور أثـرين للشـخص والشـمس، وموجـدين لهمـا؛ بـل همـا فايضـان مـن

الله تعالى: موجودان به بعد حصول الشرائط، كما أن أصل الشخص والشمس وشكلهما وصورتهما وسائر صفاتهما منه تعالى.

وأما السبب الثاني والثالث: أعني الإلتذاذ والإحسان، سواء كان متعدياً إلى المحبّ أم لا، فمعلوم أنه لا لذة ولا إحسان إلاّ من الله تعالى، ولا محسن سوى الله تعالى؛ فإنه خالق الإحسان وذويه، وفاعل أسبابه ودواعيه، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته، وحسن فعاله، وقطرة من بحار كماله وإفضاله.

وأما الرابع: أعني الحسن والجمال والكمال، فلا ريب في أنه تعالى هو الجميل بذاته، والكامل بذاته، وهو الجمال الخالص، والكمال المطلق، وحقيقتهما منحصرة به تعالى، وما يوجد في غيره تعالى من الجمال والكمال لا يخلو عن شوائب الخلل والنقصان، إذ النقص شامل لجميع الممكنات، وإنما تتفاوت في درجات النقص، وقد عرفت أنّ الجمال المعنوي أقوى من الجمال الصوري. ومن كان من أهل البصيرة والكمال يكون حبّه للجمال الباطن المعنوي أكثر وأقوى من حبه للجمال الصوري، وحقيقة الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود وكمال العلم والقدرة، والاستيلاء على الكل، واستناد الجميع إليه منحصر بالله تعالى. فإذا كان الجمال المشوب بالنقص محبوباً، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوباً، بل المحبوب حقيقة ليس إلاّ هو.

على أنّ كلّ جمال جميل بالجمال الظاهر الصوري، أو بالجمال الباطن المعنوي رشحة من رشحات جماله، وكل كامل فكماله فرع

كماله، فكل من أحبّ جميلاً أحبّ خالقه، وما أحبّ أحد غير الله تعالى، لكنه احتجب عنه تحت وجوه الأحباب وأستار الأسباب.

هذا مع أنّ عمدة جمال المخلوقين إنما هو علمهم بالله وبصفاته وأفعاله، وقدرتهم على إصلاح نفوسهم بإزالة الرذائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب إلى الله تعالى، وباتصافهم بمعالي الصفات وشرائفها المقربة إلى الله، وعلى إصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة، ومعلوم أنّ هذه الأمور إضافات إلى الله سبحانه، فحبّها يرجع إلى حبّه تعالى.

وأما الخامس: أعني المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية، فلا ريب في أنّ للنفس الناطقة الإنسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدها، إذ هي شعلة من شعلات جلاله، وبارقة من بوارق جماله، ولذا قال الله سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[١] وقال: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾،[٢] إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلاّ بتلك المناسبة، وبهذه المناسبة ينقطع العبد إلى ربه ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبلية.

وهذه المناسبة لا تظهر ظهوراً تاماً إلاّ بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض، كما قال الله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به».

وهذا موضع تزل فيه الأقدام حتّى وقع قوم في التشبيه الظاهر، وآخرون في الحلول والاتحاد، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والإتحاد، وفساد طرفي التفريط والإفراط، واتضحت لهم حقيقة السر، وعرفوا تلك المناسبة، واستقاموا عليها هم الأقلون.

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) البقرة: ٣٠.

ثمّ من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربّه، هو قرب العبد من الله في الصفات الربوبية والأخلاق، كالعلم والبرّ والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق وإرشادهم إلى الحق. إلى غير ذلك من الصفات الإلهية. ولذا قيل: تخلقوا بأخلاق الله. ولا ريب في أنّ كل ذلك يقرب العبد إلى الله، ويصيره مناسباً له، وأما العلة والمعلولية فالأمر فيه ظاهر، وباقي الأسباب أسباب ضعيفة نادرة، اعتبارها في حق الله نقص.

وقد ظهر مما ذكر أنّ أسباب الحبّ بجملتها متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً، وفي أعلى الدرجات لا أدناها.

ثمّ كل من يحب أحداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصوّر أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب، والشركة نقصان في الحبّ لا يتصف أحد بوصف محبوب إلاّ ويوجد شريك له فيه، والله سبحانه هو الذي لا يشاركه غيره في أوصاف الكمال والجمال لا وجوداً ولا إمكاناً. فلا جرم لا يكون في حبّه شركة، فلا يتطرق إليه نقصان، كما لا تتطرق الشركة والنقصان إلى أوصاف كماله، فهو المستحق لأصل المحبة وكمالها، ولا متعلق للمحبّة إلاّ هو. إلاّ أنه لا يعرف ذلك إلاّ العارفون من أوليائه وأحبائه، كما قال سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة بقوله: «وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتّى لم يحبّوا سواك ولم يلجؤا إلى غيرك...».

[ردّ المنكرين لحبّ الله]:

قد ظهر مما ذكر ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والأنس لله تعالى، وأنه المستحق للحب دون غيره. وبذلك ظهر فساد زعم من

أنكر إمكان حصول محبة العبد لله تعالى وقال: لا معنى لها إلاّ المواظبة على طاعة الله، وأما حقيقة المحبة فمحال إلاّ مع الجنس والمثل.

ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجات، وسائر لوازم الحب وتوابعه، ويدل على فساد هذا القول مضافاً إلى ذكر إجماع الأمّة على كون الحبّ لله ولرسوله فرضاً، ما ورد في الآيات والأخبار والآثار عن الأمر به والمدح عليه، واتصاف الأنبياء والأولياء به، وحكايات المحبين، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حداً لا يقبل الكذب والتأويل.

فمن شواهد القرآن قوله تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[١] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾[٣] إلى آخر الآية.

وأما الأخبار الواردة والآثار، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما».

وقال صلى الله عليه وآله: «الحبّ من شروط الإيمان».

وقال صلى الله عليه وآله: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني لحبّ الله».

وقد نظر صلى الله عليه وآله إلى بعض أصحابه مقبلاً، وعليه أهاب كبش، فقال صلى الله عليه وآله: «أنظروا إلى هذا الرجل الذي نوّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حبّ الله وحبّ رسوله إلى ما ترون».

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) البقرة: ١٦٥.

(٣) التوبة: ٢٤.

وقال ﷺ في دعائه: «اللّهم ارزقني حبّك وحبّ من يحبّك، وحبّ من يقربني إلى حبّك، واجعل حبّك أحبّ إليّ من الماء البارد».

وفي الخبر المشهور أنّ إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: «هل رأيت خليلاً يميت خليله؟» فأوحى الله تعالى إليه: «هل رأيت محبّاً يكره لقاء حبيبه» فقال: «يا ملك الموت الآن فاقبض».

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا ابن عمران كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنّه الليل قام عني، أليس كلّ محبّ يحبّ خلوة حبيبه، فها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على أحبائي، إذا جنّهم الليل حوّلتْ أبصارهم إليّ من قلوبهم ومثلتْ عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا ابن عمران هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم الليل فإنك تجدني قريباً».

وروي أنّ عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم، وتغيرت ألوانهم، فقال لهم: «ما الذي بلغ بكم ما أرى؟» فقالوا: الخوف من النار، فقال: «وحقّ على الله أن يؤمن الخائف»، ثمّ جاوزهم إلى ثلاثة أخرى فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً، فقال لهم: «ما الذي بلغ بكم ما أرى؟» فقالوا: الشوق إلى الجنّة، فقال: «حقّ على الله أن يعطيكم ما ترجون»، ثمّ جاوزهم إلى ثلاثة أخرى؛ فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيراً، كأنّ على وجوههم المرايا من النور، فقال: «ما الذي بلغ بكم ما أرى؟» قالوا: حبّ الله عز وجل، فقال: «أنتم المقربون».

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام قال للطائفتين الأوليين: «مخلوقاً خفتم، ومخلوقاً رجوتم»، وقال للطائفة الثالثة: «أنتم أولياء الله حقاً، معكم أمرت أن أقيم».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ شعيباً عليه السلام بكى من حبِّ الله عزّ وجلّ حتّى عمي، فردّ الله عليه بصره، ثمّ بكى حتّى عمي، فردّ الله عليه بصره، فلما كانت المرة الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك، إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتك؟ فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنّتك، ولكن عقد حبك على قلبي، فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله إليه، أما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران».

وروي أنه جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال صلى الله عليه وآله: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلاّ أني أحبّ الله ورسوله، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «المرء مع من أحبّ».

وفي أخبار داود: «قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي: ما ضركم إذا احتجبتم عن خلقي إذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتّى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذ بسطت ديني لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضاي»، وفيها أيضاً: «يا داود إنّك تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرج حبّ الدنيا عن قلبك، فإنّ حبّي وحبّها لا يجتمعان في قلب».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ لله تعالى شراباً لأوليائه إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم».

وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة: «يا من أذاق أحبّاءه حلاوة المؤانسة، فقاموا بين يده متملّقين».

وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة إلى سيد الساجدين عليه السلام: «وعزّتك لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها، وأنست نفسي ببشارتها. ومحال في عَدْلِ أقضيتك أن تسدّ أسبابَ رحمتك عن معتقدي محبتك».

وفي مناجاته الأخرى: «إلهي فاجعلنا من الذين ترسّخَت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم»، ثمّ قال: «وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وببابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون، الذين صفّيت لهم المشارب وبلّغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من وصلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبّك، وروّيتهم صافي شربك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك على أقصى مقاصدهم حصّلوا» ثمّ قال: «فقد انقطعت إليك همّتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا سواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك وَلهي، والى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وعندك دواء علّتي، وشفاء غلّتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي» ثمَ قال: «ولا تقطعني عنك، ولا تباعدني منك، يا نعيمي وجنّتي، ويا دنياي وآخرتي».

وقال عليه السلام أيضاً: «إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أَنِس بقربك فابتغى عنك حولاً، إلهي فاجعلني ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودّك ومحبتك، وشوقته إلى لقائك، ورضّيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك».

ثمّ قال عليه السلام: «اللهم اجعلنا ممن دأبهم الإرتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، وجباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم معلّقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك، يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال العارفين، أسألك حبّك وحبّ من يحبك، وحبّ كلّ عمل يوصل إلى قربك، وأن تجعلك أحبّ إليّ ممن سواك».

وقال عليه السلام: «إلهي ما ألذّ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب، وما أحلى المسير إليك في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبّك، وما أعذب شرب قربك».

وقال الصادق عليه السلام: «حبّ الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كل شاغل، وكل ذكر سوى الله، والمحبّ أخلص الناس سراً لله، وأصدقهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله بلاده، وبكرامته يكرم الله عباده، ويعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محلّه عند الله ومنزلته لديه ما تقربوا إلى الله إلاّ بتراب قدميه».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «حبّ الله نار لا يمرّ على شيء إلاّ احترق، ونور الله لا يطلع على شيء إلاّ أضاء، وسماء الله ما ظهر من تحته شيء إلاّ غطّاه، وريح الله ما تهبّ في شيء إلاّ حرّكته، وماء الله يحيى به كل شيء، وأرض الله ينبت منها كل شيء، فمن أحبّ الله أعطاه كلّ شيء من المُلك والمِلك».

قال النبي ﷺ: «إذا أحبّ الله عبداً من أمتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته، وسكان عرشه محبته ليحبّوه، فذلك الحبّ حقاً، طوبى له، ثمّ طوبى له، وله عند الله شفاعة يوم القيامة».

وما ورد في الحب من الأخبار والأدعية المعصومية أكثر من أن يحصى، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر حداً يمكن إنكاره.

وقد روي أنّ داود عليه السلام سأل ربه أن يريه بعض أهل محبته، فقال له: «ايت جبل لبنان فإنّ فيه أربعة عشر نفساً، فيهم شبان وكهول ومشايخ، وإذا أتيتهم فاقرأهم مني السلام، وقل لهم: يقول ربكم ألا تسألوني حاجة فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم» فأتاهم داود فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله وملكوته، فلما نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال لهم داود عليه السلام: «أنا رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم»، فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: «ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم ألا تسألوني حاجة، ألا تنادوني فأسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم، وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة».

ولما قال داود ذلك، جرت الدموع على خدودهم، وسبح الله كلّ واحد منهم ومجّده، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق.

إلى هنا انتهى ما نقلناه عن جامع السعادات مختصراً، وإلاّ فالبحث واسع الأطراف.

* * *

قال فخر الدين الطريحي في (مجمع البحرين)[١] في مادة (حب):

... قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[٢] قيل: محبة الله للعباد إنعامه عليهم، وأن يوفقهم لطاعته، ويهديهم لدينه الذي ارتضاه، وحبّ العباد لله أن يطيعوه ولا يعصوه.

وقيل: محبة الله صفة من صفات فعله، فهي إحسان مخصوص يليق بالعبد، وأما محبّة العبد لله تعالى فحالة يجدها في قلبه، يحصل منها التعظيم له، وإيثار رضاه، والإستئناس بذكره.

وعن بعض المحققين: محبة الله للعبد كشف الحجاب عن قلبه، وتمكينه عن أن يطأ على بساط قربه، فإن ما يوصف به سبحانه إنما يؤخذ باعتبار الغايات لا المبادىء، وعلامة حبّه للعبد توفيقه للتجافي عن دار الغرور، والترقي إلى عالم النور، والأنس بالله، والوحشة ممن سواه، وصيرورة جميع الهموم هماً واحداً.

قال في (الكشاف): وعن الحسن، زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، أنهم يحبون الله، فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل، فمن ادعى محبته وخالف سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله فهو كذّاب، وكتاب الله يكذّبه، وإذا رأيت من يذكر محبّة الله ويصفق بيديه مع ذكرها، ويطرب وينعر ويصعق فلا تشك أنه لا يعرف ما الله، ولا يدري ما محبة الله، وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلاّ أنه تصوّر في نفسه الخبيثة بصورة مستملحة معشقة، فسمّاها (الله) بجهله وزعارته، ثمّ صفق وطرب وصعق على تصورها، وربما رأيت المنى قد ملأ أزار ذلك المحب عند صعقته، وحمقى العامة حوله قد ملؤوا أرداءهم بالدموع لما وفقهم من حاله...

---

(١) ج ١: ٤٤٠ – ٤٤٣.

(٢) المائدة: ٥٤.

وفي الحديث: «إذا أحببت عبدي كنت سمعه الذي يسمع به...» إلى آخره.

قيل: أي اجعل سلطان حبي غالباً عليه حتّى يسلب عنه الإهتمام بشيء غير ما يؤوب به إليّ فيصير منخلعاً عن الشهوات، ذاهلاً عن الحظوظ واللذات، فلا يرى إلاّ ما يحبه، ولا يسمع إلاّ ما يحبه، ولا يعقل إلاّ ما يحبه، ويكون الله سبحانه في ذلك له يداً مؤيداً، وعوناً ووكيلاً، يحمي سمعه وبصره، ويده ورجله عمّا لا يرضاه.

وذكر بعض الشارحين أنّ هذا مبالغة في القرب، وبيان لاستيلاء سلطان المحبّة على ظاهر العبد وباطنه وسره وعلانيته، فالمراد أني إذا أحببت عبدي، جذبته إلى محلّ الأنس، وصرفته إلى عالم القدس، فصيّرت فكره مستغرقاً في أسرار الملكوت، وحواسه مقصورة على اجتذاب أنوار الجبروت، فثبت حينئذٍ في مقام القرب قدمه، وتميّز بالمحبّة لحمه ودمه، إلى أن يغيب عن نفسه، ويذهل عن حسّه، حتّى أكون بمنزلة سمعه وبصره. انتهى.

وفيه: «حبّ الرسول من الإيمان» والمراد اتّباعه، فلا يراد أنّ الحبّ أمر طبيعي لا يدخل فيه الإختيار، وممكن أن يراد الحبّ العقلي لا الطبيعي النفسي، كالمريض يكره الدواء، ويميل إليه لما فيه من النفع، فكذا النبي ﷺ لما فيه من صلاح الدارين، ومن أعلى درجات الإيمان وتمامه أن يكون طبعه تابعاً لعقله في حبّه.

وفي (معاني الأخبار) عن أحمد بن المبارك قال: قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: حديث يروى أن رجلاً قال لأمير المؤمنين عليه السلام: إني أحبّك، فقال له: «أعد للفقر جلباباً»، فقال: «ليس هكذا قال، إنما قال له: أعدد لفاقتك جلباباً، يعني يوم القيامة».

وفي الحديث المشهور بين الفريقين: «حبُّ عليّ حسنة لا تضر معها سيئة، وبغضه سيئة لا تنفع معها حسنة».

الظاهر أن المراد بالحبّ، الحبّ الكامل المضاف إليه سائر الأعمال؛ لأنه الإيمان الكامل حقيقة وأما ما عداه فمجاز، وإذا كان حبّه إيماناً وبغضه كفراً، فلا يضر مع الإيمان الكامل سيئة؛ بل تغفر إكراماً لعليّ عليه السلام ولا تنفع مع عدمه حسنة، إذ لا حسنة مع عدم الإيمان. انتهى.

* * *

وجاء في (مصباح الشريعة):[١]

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أطيب شيء في الجنّة واللذّة حبّ الله والحب في الله، والحمد لله، قال الله عز وجل ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢] وذلك أنهم إذا عاينوا ما في الجنّة من النعيم هاجت المحبة في قلوبهم، فينادون عند ذلك: والحمد لله رب العالمين».

* * *

[شبهة وجواب]:

ذكر عفيف عبد الفتاح طبارة في كتابه (روح الدين الإسلامي):

من المطاعن التي وجهت إلى الإسلام، أنه دين جاف يخلو من الحبّ بين الله والعباد، جاء في كتاب (فلسفة الدين) الذي ألّفه بالإنجليزية أدوار روس: إن كلمة الإسلام معناها الإذعان لإرادة الله، وأخلق بذلك أن يفضي إلى اعتبار الله قضاء متحكماً غير مفهوم، من العبث التمرد عليه، وليس من صفاته القداسة ولا

---

(١) ص ١٩٥.

(٢) يونس: ١٠.

الحبّ، ومع ذلك فقد ظهر مسلمون لا يرتاحون إلى هذا الدين الجاف، وإن في ظهور الفرق الصوفية التي انتشرت في الإسلام لشهادة بوجود الشوق إلى اتصال يكون أوثق بإله حيّ يفيض بالحبّ.

والغريب أنّ سوء النية والجهل هما شعار هذا الكاتب، وليس أسهل من الردّ عليه في جهة هو أجهل الناس فيها؛ لأن لفظ الحبّ بين العباد والربّ كثير التكرار في القرآن، فقد جاء على أساليب شتى إثباتاً ونفياً، وهو يقسم إلى قسمين: حبّ العبد لله، وحبّ الله للعبد.

حبّ العبد لله:

المؤمن الحق هو الذي أدرك جمال الله وجلاله، واستشعر لطفه وإحسانه، وعلمَ علم اليقين أنه هو المنعم عليه، ثمّ تأثر بهذا الإدراك فأحبه، فأصبح قلبه مشغولاً به، وعمله موجهاً إليه، ولذته وارتياحه في طاعته وعدم المخالفة لأمره، يتحمل في ذلك ما يتحمل راضياً مغتبطاً، قرير العين مطمئن القلب.

فحبّ العبد لله هو الإيمان الحق، وليس الإيمان الحق هو مجرد المعرفة وإذعان النفس، بل الإيمان الحق هو إيمان المحبّ لله الذي يؤثره على النفس، وتبدو آثار حبّه إياه في جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته، أما الإيمان الجاف الذي لا يعدو الإذعان النفسي والإقرار بالقلب، ولا تظهر آثاره في مظهر من المظاهر العملية الايجابية، فليس هو الذي يريده الله من عباده، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

---

(١) التوبة: ٢٤.

جمع الله في هذه الآية جميع اللذائذ والرغائب ونواحي الضعف في الإنسان ووضعها في كفة، ووضع في الكفة الأخرى حبّ الله ورسوله، وحبّ الجهاد في سبيله، فالنفس التي تتحرر من تلك اللذائذ جميعها وتؤثر الله ورسوله هي النفس التي يتطلبها الإسلام.

ويصف الله صفات المؤمنين الصادقين الذين أحبّهم كما أحبّوه، فيقول مخاطباً المؤمنين: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وحبّ الله هو علامة المؤمنين الحقيقية الذين تذوّقوا حلاوتها فما رغبوا عنها بديلاً. ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وآله: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

فحب الله من أهم القواعد في بناء الأخلاق، وهو يحوّلنا إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شرّ ولا عدوان، وقد يصل بنا إلى حبّ كل شيء في الوجود حين نتمثل العالم كلّه من صنع المحبوب.

وهذا بالطبع لا يتيسر إلاّ حين يغلب علينا الصفاء، فننسى البغض والحقد والإنتقام والحسد وسائر الدسائس الصغيرة التي تفسد جمال الحياة، وتصيّر الأحياء أشقياءً.

---

(١) المائدة: ٥٤.

حب الله للعبد:

وأما حبّ الله للعبد فلم يثبته القرآن إلاّ لذوي الأعمال العظيمة التي تشمل الخير للإنسان وللمجتمع الإنساني، ولم ينفِه الله إلاّ عن ذوي الصفات السيئة الموغلة في السوء، التي من شأنها أن تشيع الضرر والفساد.

والآيات القرآنية التي أثبتت حبّ الله للعباد تصف هؤلاء العباد المحبوبين بأوصاف هي أمهات الأخلاق ومنابع الفضائل النفسية.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. (المائدة: ٤٢).

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾. (آل عمران: ٧٦).

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾. (آل عمران: ١٥٩).

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. (المائدة: ١٣).

﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. (آل عمران: ١٤٦).

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. (البقرة: ٢٢٢).

ونفى الله حبه عن الذين يتصفون بصفات هي مصدر شقاء للجنس البشري، كقوله تعالى في الآيات التالية: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. (القصص: ٧٧).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. (آل عمران: ٥٧).

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. (الأعراف: ٣١).

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾. (الروم: ١٤٥).

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾. (النحل: ٢٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾. (النساء: ٣٦).

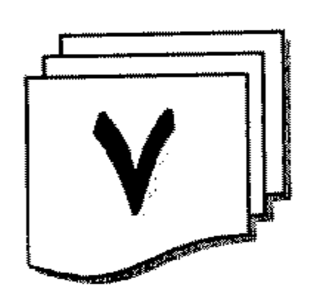
﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾. (الأنفال: ٥٨).

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. (البقرة: ١٩٠).

فمحبّة الله للإنسان هي مصدر سعادته؛ لأنها تتبعها ولاية الله له ونصرته ودفاعه عنه، وبالعكس فإن بغض الله للإنسان سبب في شقائه.

هذا ما بيّنه الرسول ﷺ بقوله: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل فيقول: إنّي أحبّ فلاناً فأحبّه، فيحبّه جبرئيل، فينادي جبريل في أهل السماء: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فابغضه، فيبغضه جبريل، ثمّ ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فابغضوه، ثمّ توضع له البغضاء في الأرض».

* * *



قوله عليه السلام:

وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ، وَالصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجَالِهِمْ.

(نهج البلاغة ٤: ٤)

[الرضا عن النفس والسقوط الاجتماعي]

قال ابن أبي الحديد: هذه فصول ثلاثة:

الفصل الأوّل: قوله عليه السلام: «من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه».

قال بعض الفضلاء لرجل كان يرضى عن نفسه، ويدّعي التميز عن الناس بالعلم: عليك بقوم يروقهم بزبرجك، وتروعهم بزخرفك، فإنّك لا تعدم عزاً ولا تفقد غمراً، لا يبلغ مسبارهما غورك، ولا تستغرق أقدارهما طورك، وقال الشاعر:

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ... ويعمى عن العيب الذي هو فيه
وما خير من تخفى عليه عيوبه ... ويبدو له العيب الذي بأخيهِ

وقال بعضهم: دخلت على ابن منارة، وبين يديه كتاب قد صنّفه، فقلت: ما هذا؟ قال: كتاب عملته مدخلاً إلى التورية، فقلت: إن الناس ينكرون هذا، فلو قطعت الوقت بغيره، قال: الناس جهال، قلت: وأنت ضدهم؟ قال: نعم، قلت: فينبغي أن يكون ضدّهم جاهلاً عندهم، قال: كذلك هو، قلت: فقد بقيت أنت جاهلاً بإجماع الناس، والناس جهال بقولك وحدك.

ومثل هذا المعنى قول الشاعر:

إذا كنت تقضي أن عقلك كامل ... وأن بني حواء غيرك جاهلُ
وأن مفيض العلم صدرك كله ... فمن ذا الذي يدري بأنك عاقلُ

الفصل الثاني: قوله عليه السلام: «الصدقة دواء منجح».

قد جاء في الصدقة فضل كثير... وفي الحديث المرفوع: «تاجروا الله بالصدقة تربحوا». وقيل: الصدقة صداق الجنّة. وقيل للشبلي: ما يجب في مائتي درهم؟ فقال: أما من جهة الشرع فخمسة دراهم، وأما من جهة الإخلاص فالكل.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه سئل، فقيل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: «أن تعطي وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء وتخشى الفقر، ولا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لِفلان كذا، ولِفلان كذا».

ومثل قوله عليه السلام: «الصدقة دواء منجح» قول النبي ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة».

الفصل الثالث: قوله عليه السلام: «أعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم».

هذا من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[2].

ومن كلام بعضهم: إنما تقدم على ما قدّمت ولست تقدم على ما تركت، فآثر ما تلقاه غداً على ما لا تراه أبداً.

ومن حكمة أفلاطون: اكتم حسن صنيعك عن أعين البشر، فإنّ له ممن بيده ملكوت السماء أعيناً ترمقه فتجازي عليه.[3]

* * *

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) الزلزلة: ٧ و٨.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٠٠ – ١٠٢.

وقال ابن ميثم:

قوله عليه السلام: «من رَضِيَ عن نَفسِهِ كَثُرَ الساخِطُ عليه».

وذلك لوجهين: أحدهما: أن الراضي عن نفسه معتقد كمالها عن غيرها، وناظر لغيره بعين النقصان، غير مؤتٍ للناس حقوقهم، فيكثر بذلك الساخط عليه.

الثاني: أنه لاعتقاد كمال نفسه يرفعها فوق قدرها، والناس يرونه بقدره، فيكثر المتنقص له والساخط عليه.

وقوله عليه السلام: «والصدقة دواء منجح» استعار لفظ الدواء النافع للصدقة لمشابهتها للدواء، أما في الدنيا فلقوله صلى الله عليه وآله: «داووا مرضاكم بالصدقة» وسر ذلك أنها تستجلب الهمم، وتطابق القلوب على محبة المتصدق، والرغبة إلى الله سبحانه في دفع المكاره عنه لبقائه، فهي في ذلك سبب للشفاء كالدواء.

وأما في الآخرة: فلأنها سبب لدفع المكاره الأخروية.

وقوله عليه السلام: «وأعمال العباد نصبُ أعينهم في آجالهم».

أي: ظاهرة قائمة في أعينهم، وسر ذلك ما علمته من كون النفوس ما دامت في الدنيا فهي منتقشة بملكات الخير والشر، ولكنها في أغشية من الهيئات البدنية، وحجب عن ادراك الأمور كما هي، فإذا زالت تلك الأغشية بالمفارقة انكشفت لها الأمور، فأدركت ما عملت من خير، وما استعدت له من شر، كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾[2].

* * *

---

(١) ق: ٢٢.

(٢) آل عمران: ٣٠.

وفي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[١]

قال: في قوله عليه السلام: «من رَضِيَ عن نَفسِهِ كَثُرَ الساخِطُ عليه».

الرضا عن النفس من شعب العجب الذي عدّ في غير واحد من الأخبار من المهلكات، ففي الحديث: «ثلاث من المهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، واعجاب المرء بنفسه».

وأثر هذه الخصلة توقّع الإحترام من الناس، وتحميل الوظائف المربوطة به عليهم، فعند اللقاء يتوقع منهم الإبتداء بالسلام والتحية. وفي الورود على المحافل والمجالس يتوقع منهم التعظيم والقيام. وعند البحث وإبداء الرأي يتوقع منهم قبول قوله وهكذا. وهذه التوقعات ثقيلة على الناس، فيحصل الناقم عليه والساخط والمنتقد.

والصدقة دواء منجح:

الصدقة تمليك مال للمستحق مجاناً قربة إلى الله تعالى: وهي واجبة كالزكاة المقررة في الشرع، ومندوبة وهي على مقدرة المتصدق وسخائه، وكل منهما دواء منجح للآلام الإجتماعية والفردية.

فإنّ من مصارف الزكاة الواجبة أداء الديون وتحرير الرقاب، والإعانة للفقراء والمساكين، والصرف في الأمور العامة من تسبيل السبل وتأمين الصحة وإيجاد المستشفيات، والمساجد، والإعانة على الجهاد، وكلّ هذه الأمور مُعَالجَةٌ باتّةٌ لآلام محسوسة وموجعة، للجمع والفرد، ويؤثر ذلك في رفع آلام المتصدق وينتفع به كغيره.

كما أن الصدقة المندوبة دواء منجح في معالجة ألم الجوع

---

(١) ج ٢١: ١٩.

والحاجة للمستحق، فتوجّه بقلبه على المتصدق والمنفق، فيدفع آلامه ويقضي حوائجه بإذن الله، وقال صلى الله عليه وآله: «داووا مرضاكم بالصدقة».

وفي (زكاة الجواهر): ويكفيك فيما ورد في فضل الصدقة الشاملة لها، من أنّ الله يربيها لصاحبها، كما يربي الرجل فصيله، فيأتي بها يوم القيامة مثل أحُد، وأنها تدفع ميتة السوء، وتفك من سبعمائة شيطان، ولا شيء أثقل على الشيطان منها، وصدقة الليل تطفئ غضب الربّ، وتمحق الذنب العظيم، وتهون الحساب، وصدقة المال تنمي المال وتزيد في العمر.

«وأعمال العباد في عاجلهم نَصبَ أعينهم في آجلهم».

هذه الجملة تدل على تجسّم الأعمال. ويستفاد منها أنّ كل عمل يتجسم بصورة يناسبها من خير أو شر، وحسن أو قبح، ويراها العامل بعينه في آجله، وهو حين حلول الموت الذي يرفع الحجاب ويكشف الغطاء إلى القبر والبرزخ والقيامة ويؤيدها ظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١] فإنّ ظاهر الرؤية بمفعول واحد هي الرؤية بالبصر.

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

في قوله عليه السلام: «من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه».

كثرة الإدعاء تدلّ على كثرة العيوب، ومن استطال على الناس بما فيه أو بروز يدعيه فقد فتح عليه أبواب الذم والطعن والسخرية والاستهزاء والمقت والكراهية... والعالم حقاً يتواضع ويتوقع الخطأ من نفسه. والدعي اللصيق بأهل

---

(١) الزلزلة: ٧ و٨.

العلم يرى نفسه مصدر الحق والصواب... ولاحظت من تتبعي لأقوال العلماء وآرائهم: أن العالم بحق يعرض رأيه بحذر، أما الضعيف في معرفته فيؤكد أقواله جازماً بأنها الحق الذي لا ريب فيه، وأن غيرها هراء وهباء، والسر أن القوي بعلمه يعتمد على العقل، والضعيف يثق بعاطفته ويقول بوحي منهاو ويظن أنه يقول: بإملاء العقل والوجدان. وهذا هو الجهل المركب.

وقوله عليه السلام: «الصدقة دواء منجح».

المراد بالصدقة هنا كل معونة تسد حاجة من حاجات الحياة خاصة كانت كإغاثة الملهوف، أم عامة كبناء ميتم يُؤوي المشردين، أم مصنعاً ينتج الغذاء والكساء والدواء للمحتاجين، وأي دواء أكثر نفعاً من خدمة الإنسان وسد حاجاته؟

وليست هذه الصدقة أو المعونة تجيب دعوة المضطر وكفى، بل هي أيضاً دواء وخلاص من عذاب الحريق لمن ضحى وأعان يوم الحساب والجزاء.

ويقول الإمام عليه السلام: «من كفارة الذنوب العظام إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب»، هذا إذا كان الملهوف والمكروب واحداً، فكيف بإغاثة الأجيال والألوف؟

قوله عليه السلام: «وأعمال العباد في عاجلهم...» إلخ.

من عمل في دنياه لمنفعة الآخرين، يجد ثواب عمله مجسماً نُصبَ عينيه في آخرته.[1]

* * *

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٢٠.

[نتيجة الرضا عن النفس]:

قوله عليه السلام: «ومن رضي عن نفسه كثر الساخط عليه».

أقول: قرأت في المجلد الرابع من الخلق الكامل (ص ٣٧٥):

المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق فترى اليهودي والنصراني يرى أنه على الصواب، ولا يبحث ولا ينظر في دليل نبوة نبينا صلى الله عليه وآله وإذا سمع ما يلين قلبه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع، وكذلك كل ذي هوى يثبت عليه، إمّا لأنه مذهب أبيه وأهله، أو لأنه نظر نظراً بادئ ذي بدء فرآه صواباً ولم ينظر فيما يناقضه، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه، ومن هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فإنهم استحسنوا ما وقع لهم ولم يرجعوا إلى من يعلم، ولما لقيهم عبد الله بن عباس فبين لهم خطأهم، رجع عن مذهبه منهم ألفان، وممن لم يرجع عن هواه ابن ملجم، فرأى مذهبه هو الحق، فاستحل قتل أمير المؤمنين عليه السلام ورآه ديناً حتّى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع، فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال: كيف أبقى ساعة من الدنيا لا أذكر الله؟

ومثل هذا ما له دواء.

وكذلك كان الحجاج يقول: والله ما أرجو الخير إلاّ بعد الموت، هذا قوله وكم قد قتل من لا يحل قتله، منهم سعيد بن جبير.

وقد أخبرنا عبد الوهاب وابن ناصر الحافظ قالا: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا الحسين بن محمّد النصيبي قال: أخبرنا إسماعيل بن سعيد، قال: حدّثنا أبو بكر بن الأنباري، قال: حدّثنا أبو عيسى الختلي، قال: حدّثنا أبو يعلى، قال: حدّثنا الأصمعي، قال: حدّثنا أبو عاصم عن عباد بن كثير عن قحدم قال:

وجد في سجن الحجاج ثلاثة وثلاثون ألفاً ما يجب على واحد منهم قطع ولا قتل ولا صلب.

قلت: وبعض السلاطين يقتلون ويقطعون ظناً منهم جواز ذلك، ولو سألوا العلماء بينوا لهم، وعموم العوام يبارزون بالذنوب اعتماداً على العفو وينسون العقاب، وكل هذا لقوة الجهل.

فينبغي للإنسان أن يبالغ في معرفة الدليل ولا يساكن شبهته، ولا يثق بعلم نفسه. انتهى.

* * *

[منشأ الرضا الإعجاب بالنفس]:

لا ريب في أن رضى الإنسان عن نفسه منشؤه إعجابه بنفسه، والإعجاب بالنفس أحد المهلكات الثلاث التي وردت في قول الرسول الأعظم محمّد ﷺ حيث يقول: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متّبع وإعجاب المرء بنفسه».[١]

وقال ابن مسعود: الهالك في اثنتين القنوط والعجب.[٢]

وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب».[٣]

وهو كما عبر عنه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «العجب نبات حبّه الكفر، وأرضه النفاق، وماؤه البغي، وأغصانه الجهل، وورقه الضلالة،

---

(١) وسائل الشيعة ١: ١٠٣.

(٢) إحياء علوم الدين ٣: ٣٦٩.

(٣) كنز العمال ٣: ٥١٤.

وثمرته اللعنة والخلود في النار، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق، فلا بد من أن يثمر بأن يصير إلى النار».[1]

والآن فلنسر في قافلة العجب وأقسامه وأدوائه، وما يترتب على المتصف به من المذلة والحقارة وعدم الإعتبار في الأوساط.

* * *

جاء في (مجمع البحرين)[2] في مادة (عجب):

«... وقد أُعجب بنفسه» بالبناء للمجهول: إذا تكبر وترفع فهو معجب، والاسم العُجب بالضم.

وفيه عن الحق تعالى: «ولو خليت بينه وبين ما يريد، لدخله العجب بعمله، ثمّ كان هلاكه في عجبه ورضاه عن نفسه، فيظن أنه قد فاق العابدين وجاز باجتهاده المقصرين، فيتباعد بذلك مني، وهو يظن أنه يتقرب بذلك إليّ».

قال بعض الشارحين: لا ريب أنّ من عمل أعمالاً صالحة من صيام الأيام وقيام الليالي ونحو ذلك، يحصل له ابتهاج. فإن كان من حيث كونها عطية من الله تعالى ونعمة منه عليه، وكان مع ذلك خائفاً من نقصها، مشفقاً من زوالها، طالباً من الله الإزدياد منها لم يكن ذلك الإبتهاج عجباً، وإن كان من حيث كونها صفة ومضافة إليه فاستعظمها وركن إليها، ورأى نفسه خارجاً عن حد التقصير بها، وصار وكأنه يمن على الله تعالى بسببها، فذلك هو العجب المهلك، وهو من أعظم الذنوب،

(١) مصباح الشريعة: ٨١.

(٢) ج ٣: ١٢٣.

حتَى روي عن النبي ﷺ: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «سيئة تسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك».

وعلاج العجب ـ على ما قيل ـ احتقار ما في جنب الصانع واستضعافه، فإنه بالنسبة إليه لم يوازن نعمة من نعمه، وبأنه لولا إعانة الله ما فعله، ولا تم ولا استقام؛ بل لم يمكن صدوره من العبد أصلاً، وبذلك يندفع العجب عنه.

وفي (لسان العرب):[1] العجب الزهو، ورجل معجبٌ مزهو بما يكون منه حسناً أو قبيحاً، وقيل: المعجب الإنسان المعجب بنفسه أو بالشيء، وقد أعجب فلان بنفسه فهو معجبٌ برأيه وبنفسه، والاسم العُجب بالضم، وقيل: العجب فضلةٌ من الحمق صرفتها إلى العجب.

* * *

العجب:

ففي الخلق الكامل (مجلد ٤ ص ٤٧٥):

العجب دليل الجهل وأصل الغي، يورث التكبر وينشر الطغيان والتجبر، فلا يرى صاحبه أبداً إلاّ غليظاً فظاً لا يرى لأحد سواه في الفضل حظاً، وكفى به شيمة مشؤومة خليقة مذمومة، أهلكت القرون قديماً وحديثاً، وقد نهى الله ﷻ عنه، وحذّر منه، فقال عزّ من قائل: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى﴾[2] وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.[3]

---

(١) ج ١: ٥٨٢.

(٢) الحديد: ٣٢.

(٣) غافر: ٧٦.

وقال صلى الله عليه وآله لأبي ثعلبة: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك».

وقال بعض الحكماء: النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها التواضع. والبلاء الذي لا يُرحم منه صاحبه العجب.

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

وصاحب العجب قد عمي عن مساويه، واستعذب الملق والكذب من ماديحه؛ لأنّ المدح أقوى أسباب الإعجاب، وأشدّ دواعي الكبرياء، فإذا ضعف عقلٌ عن معرفة عيوبه عمي عن نقصه، فرأى قبيحه حسناً وخطأه صواباً.

* * *

وفي جامع السعادات (مجلد ١ ص ٣٢٥):

العجب من المهلكات العظيمة، وأرذل الملكات الذميمة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث مهلكات شحٌ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

وقال صلى الله عليه وآله: «إذا رأيت شحاً مطاعاً...» الحديث.

وقال صلى الله عليه وآله: «بينما موسى بن عمران عليه السلام جالس إذ أقبل عليه إبليس، وعليه برنس ذو ألوان، فلما دنى منه خلع البرنس وقام إلى موسى عليه السلام فسلم عليه، فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس، قال: أنت! فلا قرّب الله دارك، قال: إني إنما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله، فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس؟ قال: اختطف به قلوب بني آدم، فقال موسى: فاخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه».

وقال ﷺ: «قال الله ﷻ: يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصديقين، قال: كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟ قال: بشّر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين ألاّ يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلاّ هلك».

وقال الباقر عليه السلام: «دخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق والعابد فاسق، وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته يدّل بها، فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب».

وقال الصادق عليه السلام: «إنّ الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداً».

وقال عليه السلام: «من دخله العجب هلك».

وقال عليه السلام: «إن الرجل ليذنب الذنب، فيندم عليه، ويعمل العمل فيسره ذلك، فيتراخى عن حاله تلك، فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه».

وقال عليه السلام: «أتى عالم عابداً، فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته، وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا، قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتّى تجري دموعي، فقال له العالم: فإنّ ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدلّ، إنّ المدل لا يصعد من عمله شيء».

وقال عليه السلام: «العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بما يختم له، فمن أعجب بنفسه وفعله فقد ضلّ عن نهج الرشاد، وادعى ما ليس له. والمدعي من غير حق كاذب، وإن خفي دعواه وطال دهره، وإنّ أول ما يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به؛ ليعلم أنه عاجز حقير، ويشهد على نفسه لتكون الحجة عليه أوكد، كما فعل بإبليس، والعجب نبات حبّها الكفر، وأرضها النفاق،

وماؤها البغي، وأغصانها الجهل، وورقها الضلالة، وثمرها اللعنة، والخلود في النار، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق، ولا بدّ أن يثمر».

وقيل له: الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق، ثمّ يعمل شيئاً من البرّ فيدخله شبه العجب به؟ فقال: «هو في الحال الأولى وهو خائف أحسن حالاً منه في حال عجبه».

وقال عليه السلام: «إنّ عيسى بن مريم عليه السلام كان من شرائعه السيح في البلاد، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من أصحابه قصير، وكان كثير اللزوم لعيسى عليه السلام فلما انتهى عيسى عليه السلام إلى البحر قال: بسم الله، بصحة ويقين منه، فمشى على ظهر الماء، فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى جازه: بسم الله، بصحة ويقين منه، فمشى على الماء ولحق بعيسى، فدخله العجب بنفسه، فقال: هذا عيسى روح الله يمشي على الماء، وأنا أمشي على الماء، فما فضله عليّ؟ قال: فرمس في الماء، فاستغاث بعيسى عليه السلام فتناوله من الماء فأخرجه، ثمّ قال له: ما قلت يا قصير؟ قال: قلت هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي، فدخلني من ذلك عجب فقال له عيسى: لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله، فمقتك الله على ما قلت، فتُب إلى الله عز وجل مما قلت، قال: فتاب الرجل، وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها».

أقسام العجب:

في مناهل الأشواق (ص ٩٣) ما نصه:

وقد نص القانون الإسلامي على ذم العجب وتوبيخ أهله.

العجب بالشيء والإعجاب به بمعنى واحد، وهو باعتبار ما يتعلق به على أقسام:

منها: عجب الشخص بقوته وصحته، ومنها: عجبه بجماله وهيبته، ومنها: عجبه بذكائه وفهمه، ومنها عجبه برأيه وفكره، ومنها: عجبه بعقله، فالعجب بهذه الخمسة يرجع إلى العجب بالنفس بلا واسطة بعيدة.

ومنها: عجب الشخص بعلمه، ومنها: عجبه بتعبده لله وشكره، ومنها: عجبه بولده وأسرته، ومنها: عجبه بماله ونعمته، ومنها: عجبه بنفوذه وسلطته، ومنها: عجبه بحسبه ونسبه، والعجب بهذه الستة يرجع إلى العجب بالنفس إلاّ أنه بواسطة بعيدة، ومفاسد العجب بجميع أقسامه كثيرة وضرره عظيم.

عجب الشخص بقوته وصحته:

العجب بالقوة يسبب ضرراً على المعجب بها، لا يختص بالقوة والصحة، بل يعم غيرهما؛ لأنّ الشخص بعد إعجابه بهما تراوده نفسه على مقابلة ذوي القوة والنشاط على الفتك بمن ناواه، تراوده نفسه على السير منفرداً في المفازة والفلوات، تراوده نفسه على حمل ما يثقل كاهله، فإن حمل ما يعجزه أثرّ ضرراً في قوته وصحته، وإن انفرد بسيره في معارض الخطر قادته جرأته إلى الهلكة بعد ذلك إن قدّرت سلامته، وإلاّ أهلك نفسه من أول مرة، وإن قابل أهل القوة والنشاط وفتك بهم، عرض نفسه لأمور عداوة من قابله إذا صادفته السلامة، وإلاّ فإما ضرر في المال أو الجسم أو إتلاف نفسه.

عجب الشخص بجماله وهيبته:

العجب بالجمال يسبب ضرراً لا يلحق بالجمال إلاّ بتوسط الاضرار بالجسم؛ لأنّ الجمال من كيفيات خلقة الإنسان لا من حقيقة جسمه، فهو أشبه بالأعراض اللاحقة للأجسام. فالضرر المسبب عن إعجاب الشخص بجماله يرجع إلى جسمه أو ماله، أو إتلاف نفسه؛ لأنه يجره إلى التكبر

والتيه والخيلاء، وضرر هذا معلوم، أو يجره إلى التطاول على فتاة لا يخطر بباله النظر إليها، فضلاً عن الإقتران بها لولا إعجابه بجماله. وبهذا يتضرر في ماله أو جسمه أو اعتباره، وبما أدىَ إلى هلاك نفسه.

عجب الشخص بفهمه وذكائه:

العجب بالفهم يختص ضرره بالمعارف غالباً؛ لأنّ المعجب بفهمه يتكل عليه ويعرض عن إشغال نفسه باكتساب المعارف من أهلها ورشف العذبِ من مناهلها. فالإعجاب بالفهم سدّ حائل بين ذلك المعجب بفهمه وبين ما يمكنه التوصل إليه من العلوم والمعارف بحسب استعداده، فلا تثبت له قدم في دائرة المعارف والكمال، وهذا ضرر عظيم، وربما أنتج إعجابه بفهمه ضرراً مالياً إذا كانت مهنته التجارة ولم يقف على مراد مراسله، أو مالياً واعتبارياً إذا كان من أهل الوظائف والنفوذ، ولم يتدبر الحقيقة فيما يلزمه فهمه، ولولا إعجابه بفهمه انكشفت له الحقيقة بنفسه أو غيره.

عجب الشخص برأيه وفكره:

العجب بالرأي مفسد له، وليس لمعجب برأيه رأي يتولد من العجب بالرأي والفكر ضرر كثير يعمّ موارد الضرر، فإذا تصور مخاصمة من هو فوقه لا يستشير قريباً أو بعيداً مع إعجابه برأيه، فيتضرر في ماله وجسمه واعتباره وأسرته، وكذلك حاله لو حلّت بساحته أزمة مالية أو نكبة سماوية.

فالمتدبر وإن كان سديد الرأي يستشير من يعتقد نصحهم وحسن رأيهم فيما تحسن فيه الإستشارة، ولا يعوّل على رأيه وإن جرّبه في الشدائد.

والمعجب برأيه يرتب الآثار على ما يراه، ولا يتصور عيوب ما ارتضاه، ويحول العجب بينه وبين الحقيقة، ويقع في الضرر العظيم، وربما أهلك نفسه بإعجابه برأيه.

عجب الشخص بعقله:

العُجب بالعقل مرض منتشر في غالب النوع الإنساني، وقلّ من يرى امتياز غيره عليه بالعقل، وبذلك اختلفت المسالك والمذاهب مع اتحاد الحقيقة المطلوبة عند العقلاء بحكم العقل عليهم، فالضرر الحاصل من قبل الإعجاب بالعقل في الدين والدنيا تكثرت شعابه وارتضاه أربابه بعد الغفلة عن السبب وقناعة كل فرد بعقله.

سبحان الواهب فلو انعكست هذه الآية ورضي كلّ فرد بنعمته وزاحم غيره في توسعة العقل المكسوب؛ لكان الإنسان في راحة تامة ونعمة عامة في دنياه وآخرته.

عجب الشخص بعلمه:

العجب بالعلم داء العلم وقاتله، وطالما ابتلي أهل العلم بالعجب بعلمهم في كل قرن وزمن، والمعجب بعلمه جاهل في حقيقة الأمر وواقعه، محروم من الإفادة والاستفادة العلمية، وربما جره إعجابه بعلمه إلى تكبّره على من هم بمنزلة أساتذته فضلاً عمّن يماثله، وذلك هو الخسران المبين.

ولا يخفى حال المعجب بعلمه على الألمعي الفطن لدى الإحتكاك، وإن تعددت العلوم واختلفت موضوعاتها، وكم معجب بعلمه قاده إعجابه إلى الجهالة وحيرة الضلالة، وهذا هو الضرر الذي لا ينازع فيه إثنان.

عجب الشخص بتعبده لله وشكره:

العجب بالعبادة مُحبط لها، وضرره خاص بها، فالعجب بالعبادة يدعها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف؛ لأنّ العبد مهما اجتهد في خدمة مولاه كان عليه ـ عند العقلاء ـ أن يظهر تقصيره في خدمته وعدم قيامه بوظيفته، وبذلك يكون محموداً عند العقلاء، مقرباً عند مولاه، وإذا تظاهر بعكس ذلك

ذمه العقلاء وكان ممقوتاً عند مولاه، على أن غاية نعمة ذلك المولى على عبده قيامه بنفقته واسترقاقه بثمن رقبته.

وأين هذه النعمة من نعمة إيجاده وإخراجه من كتم العدم، من ظلمات ثلاث بشكله الجميل وتركيبه الجليل من شرايين وأعصاب تداخلت أسلاكها، وتنوع جنس إفرازها في ذلك الهيكل، لانتاج مظاهر المحسوسات من السمع والبصر، والشم والذوق، والمد والقبض في إلماس الملموسات فضلاً عن خصائص مدارك النطق والقوة الروحية والعقلية من المجردات، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أنعم سبحانه بما لا تدركه العقول من نعمة وبما أدركته، وأتم إنعامه بامتداد الفيوضات أرضية وسماوية إتماماً لانتظام الإنسان في كونه الأوّل.

فالطاعة والشكر والعبادة لله سبحانه إنما هي من نعمه وتوفيقه لعبده. والعقل حاكم بلزوم شكر العبد لمولاه على شكره له؛ لأنّ توفيقه للشكر نعمة تستوجب الشكر عليها.

فيا صاحب العبادة والشكر كيف تعجب بعبادتك وشكرك وترى نفسك أنك أحسنت مع الله سبحانه صنعاً، كأنك تمنّ على الله بطاعتك له، أغفلتَ عن قوله سبحانه مخاطباً لرسوله:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عليَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾[١].

وهل غاب عن سمعك قول عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام في حال طاعته وعبادته لله وهو ساجد في صلاة الليل، يتململ تململ السليم خوفاً ورجاء في سجوده بين ركعات الليل، وهذا قوله:

---

(١) الحجرات: ١٧.

«إلهي وعزتك وجلالك لو أني منذ بدعت فطرتي من أوّل الدهر، عبدتك دوام خلود ربوبيتك بكل شعرة في كل طرفة عين سرمد الأبد، بحمد الخلائق أجمعين، لكنت مقصراً في أداء حق شكر خفيِّ نعمة من نعمك عليَّ، ولو أني كربتُ معادن حديد الدنيا بأنيابي، وحرثت أراضيها بأشفار عيني، وبكيت من خشيتك مثل بحور السماوات دماً وصديداً، لكان ذلك قليلاً في كثير ما يجب من حقك عليّ، ولو أنك إلهي بعد ذلك عذّبتني بعذاب الخلائق أجمعين، وعظّمت للنار خلقي وجسمي، وملأت طبقات جهنم منّي حتّى لا يكون في النار معذبٌ غيري، ولا لجهنم حَطبٌ سوايَ، لكان ذلك بعدلك عليَّ قليلاً في كثير ما أستحقّه من عقوبتك، فعفوك يا كريم».

هذا كلام عليّ بن الحسين المعروف بزين العابدين، ابن الحسين الشهيد بكربلاء، وجدّه رسول الله شفيع الأمّة، وخاتم النبيين، وجدّه الثاني عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين.

وقد عبد الله سبحانه حتّى نهكته العبادة، وهو يصرّح بأنه ما أدّى حقّ المنعم سبحانه، مع تباعده عن حُطام الدنيا ونزاهته عن التلوث بأقذارها، بشهادة من والاه وعاداه.

وهو المتولد من ملوك العرب والعجم حتّى قيل فيه:

وإنّ وليداً بين كسرى وهاشم ... لأكرم من نيطت عليه التمائم

فأبوه وأجداده من قبل الأب من عرفت، ومن قبل الأم الملوك الأكاسرة، ويكفيهم فخراً قول رسول الله ﷺ: «ولدت في زمن الملك العادل» يعني كسرى أنوشروان.

فهل يا صاحب العبادة والشكر تعظّم نفسك وتعجب بعبادتك بعد وقوفك على قول هذا الإمام العابد في طاعته لله سبحانه، وهو ساجد، أعاذنا الله وإياك من داء العجب بأقسامه، ووفقنا للقيام بشكره وإنعامه.

عبج الشخص بماله ونعمته:

العجب بالمال لا يختص ضرره به؛ بل يعم غير المال؛ لأنّ من دخله الإعجاب بماله أسرع إلى التكبر، وفيه ما عرفت من أنواع الضرر مالاً واعتباراً وديناً ودنياً، وآخر أمر المعجب بماله خسرانه العظيم.

عجب الشخص بولده وأسرته:

العجب بالولد والأسرة يسبب الضرر غالباً على المعجب بهما إذا انقادوا إليه، وحمله إعجابه بهم على التفوق والاستطالة والتكبر والتنمّر، حتّى خاض بهم موارد العطب ومصادر الهلكة، ولا تسأل عما يلاقيه من المفاسد والضرر والندامة، حيث لا ينفع الندم.

عجب الشخص بنفوذه وسلطته:

العجب بالنفوذ والسلطة تتولد منه العجائب، فبالبطر والخيلاء والتكبر والبغي، والفساد، والتجبّر، كل ذلك على من وسعهم تسلطه ونفوذه، فباستعباد الموالي للعبيدهم يستخدمهم، وبيد الغزاة الأباعد يبتزهم ما لديهم من نعم الله سبحانه عليهم، حتّى يجعلهم كالأنعام ينتفع بنتائجها، فإن أعوز الأمر فبيعٌ أو جزر.

وهو في خلال ذلك ينصب الأشراك لتوسيع النفوذ والسلطة في جواره، فإرهاب وترغيب بعارض كلمع السراب.

فإن علقت مخالبه بضعيف انتهت أيامه ومزّقه كل ممزق، بغياً وظلماً، ولم يدرك بأنّ الله قد أهلك من قبله من هو أشدّ منه قوةً وأكثر

جمعاً، فكان بغيه سبباً لهلاكه في مستقبل أمره؛ لأن مراتع البغي وخيمة. وإن تعرض لمن كان على يده هلاكه، كان كالباحث عن حتفه بظلفه، وطالما كان حال أهل العجب والبغي كما قيل فيهم:

وصاحب البغي ليس يسلم منه   وعلى نفسه بغى كل باغ

عُجب الشخص بحسبه ونسبه:

العجب بالحسب والنسب ينتج التكبر، وفيه ما قد عرفت من الضرر المهلك، ينتج التجرّد عمّا فيه السعادة؛ لأنّ المعجبين بأحسابهم يتّكلون عليها، فلا يعرفون من الفضائل والكمالات سوى أسمائها، وأجهل الناس بالحقيقة من افتخر بالعظام البالية، وتبجح بالقرون الماضية، واتكل على الأيام الخالية، ومنتهى الضرر على الحي إتكاله على ميت، وليس من الكرام من افتخر بالعظام.

فعلى أهل الحسب والنسب أن تأبى نفوسهم عن الإتكال عليها، وأن يقولوا: كما قال عبد الله بن جعفر:

لسنا وإن أحسابنا كرمت   يوماً على الأحساب نتّكلُ

نبني كما كانت أوائلنا   تبني ونفعل مثل ما فعلوا

نعم هذا قول ذوي الهمم العالية والنفوس الكبيرة، وأما من تصاغرت نفوسهم، وتدانت شيمهم، وتسافلت هممهم، وكانوا في معزل عن كسب الفضائل والكمال، وبُعد عن الوصول إلى مستوى العلم والعمل فإنهم يسلّون أنفسهم بما كان لسلفهم من الآثار الخالدة والمزايا الحميدة، ويزاحمون أهل الفضل والكمال بكمال سلفهم، يرون لهم الحياة بمن مات، فهو حيّ وهم الأموات، كما قيل فيهم:

إذا ما الحي عاش بعظم ميت   فذاك العظم حيٌّ وهو ميتُ

هذه أقسام العجب، وهذه حال أهله، وكيف كان فهو سمٌّ سارٍ أينما حلّ قتل.

[ذم العجب في النص الإسلامي]:

جاء النص في القانون الإسلامي على ذم أهل العجب وتوبيخهم بما لا مزيد عليه، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

في هذه الآية الشريفة ألطف بيان وأعظم برهان على ذم أهل العجب وتوبيخهم وبيان عاقبة عجبهم بأنفسهم في ذلك اليوم الذي أعجبتهم فيه كثرتهم، فسرى داء العجب فيمن كان مع رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان، وخلصت لله سبحانه أعماله، فانهزم المعجبون بعدّتهم وعديدهم كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾.

وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الثابتين مع رسول الله ﷺ بعد أن فرّ أهل العجب ولحقوا بالتلال، ورؤوس الجبال، وهم القائلون في ذلك اليوم (لا نُغلب من قلة) حيث رأوا عظمة ذلك الجيش ولواؤه بيد عليّ بن أبي طالب بطل المسلمين وقائد يوم الفتح، بطل العرب والحرب، ورأوه وأعلام النصر خافقة عليه بفتحه مكّة على حصانتها ومنعتها بشجاعة قريش وزعامتها، رأوه بعد الفتح المبين بأيام قليلة وقد انضم إليه ألفان من أهل مكّة، وكان عشرة آلاف قبل فتحها، وليس في قبالته إلاّ هوازن وثقيف، ومن هي حتّى تقف في وجه ذلك الجيش؟ وفي ذلك كله تمت لهم مقدمات الإعجاب بأنفسهم.

---

(١) التوبة: ٢٥ – ٢٦.

ولما دارت رحى الحرب في ذلك الوادي، وخرج الكمين من شعابه، حين دخله المسلمون في غلس الصبح، وما شعروا إلاّ والعدو خلفهم وأمامهم، فرّ من جاء من أهل مكّة لحداثة عهدهم بالإسلام وضعف إيمانهم، فتبعهم بقية المسلمين لا يلوون على شيء.

الحيلة في إيجاد الكمين في معركة حنين:

وحيلة إيجاد الكمين في شعاب الوادي لقائد هوازن وثقيف في ذلك اليوم، وهو مالك بن عوف النصري، لأنّ (دريد بن الصمة) سيد بني جشم ومديرها (وهي بطن من هوازن) كان مخالفاً لمالك في إخراجه النساء والأطفال إلى ساحة الحرب، فلم يكن له تدبير بعد تركهم لرأيه، فالقائد والمدبر لهوازن وثقيف في ذلك اليوم هو مالك، فكان احتياله سبباً لفرار المسلمين بعد أن أعجبتهم كثرتهم.

نعم فرّوا وما ثبت مع رسول الله ﷺ إلاّ عشرة: عليّ بن أبي طالب عليه السلام يضرب بالسيف بين يديه ويدافع عنه هجوم أبطال هوازن وثقيف، والعبّاس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، وأيمن بن أم أيمن، كانوا وراء رسول الله وحوله يدافعون ويناضلون.

فالعبّاس عمّ رسول الله، والبقية أبناء أعمامه سوى أيمن بن أم أيمن، وقد استشهد في ذلك الموقف، قال عبادة الغافقي:

لم يواس النبي غير بني ها	شم عند السيوف يوم حنين
هرب الناس غير تسعة رهط	فهم يهتفون بالناس أين
ثم قاموا مع النبي على الموت	فآبوا زيناً لنا غير شين

وثـوى أيمـن الأمـين مـع القـو م شـهيداً فاعتـاض قـرّة عـين

ولما اشتدت الحرب وزحف أبو جرول برايته السوداء أمام هوازن وثقيف يريد بذلك قتل رسول الله صلى الله عليه وآله والكتائب خلف راية أبي جرول تتلو الكتائب، عاجله بطل المسلمين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بضربة كان بها هلاكه، وحمل عليه السلام على تلك الكتائب بما منحه الله سبحانه من القوة الباهرة والشجاعة المعجزة، فبدّد جمعها وأخمد نارها. فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وصاح العبّاس بعظيم صوته: يا معشر الأنصار، فتراجعوا بعد النصرة لرسول الله بمن ثبت معه، تراجعوا بعد قتل أبي جرول بسيف عليّ بن أبي طالب، وانهزام تلك الكتائب التابعة لحامل رايتها وشجاعها أبي جرول، ولولا قتله لثبتت تلك الكتائب.

فأعجب لشجاعة عليّ عليه السلام وبصيرته كيف علم أنّ انهزام هوازن وثقيف بقتل عميدها وحامل رايتها، فللّه أبوه، ما كان أولاه برسول الله صلى الله عليه وآله وأشدّ حميةً وغيرة على الدين وأهله.

وعلم من دخله الإعجاب في ذلك اليوم اتكالاً على الكثرة والقوة، ضرر عدم التوكل على الله سبحانه. ومن يتكل على الله فهو حسبه، وقال سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾.[1]

---

(١) الحشر: ٢ و٣.

أوّل الحشر هو أوّل اجتماع جيش المسلمين في تلك الوقعة، ولم يكن للمسلمين ظن بخروج أعدائهم من دارهم فضلاً عن تملكهم إياها، فقوله سبحانه: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ﴾ صريح بعجب بني النضير بأنفسهم لمناعة حصونهم وقوة شوكتهم بعديدهم وعدّتهم، فعلى ذلك كان اتكالهم لا على الله سبحانه، وكيف يتكلون على الله وهم يحاربون رسول الله ويتظاهرون على عداوته ومناوأته، والفتك به بعد ظهور علامات الرسالة لهم، وينقضون ميثاق الله وعهده بعد اليقين.

[اليهود ورسول الله ﷺ]:

وإليك بيان حالهم مع رسول الله ﷺ:

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد إسلام الأوس والخزرج، دخل المدينة فجاء بنو النضير وهم عشيرة من اليهود، فصالحوه على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم، ولما كانت غزوة بدر وفتح الله على رسوله وأظهره على المشركين، قال بنو النضير: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له راية، فداموا على عهدهم معه.

وبعد غزوة (أحد) حيث لم يكن النصر فيها لرسول الله ﷺ تاماً نقضوا العهد وبدّلوا الميثاق، وخرج عميدهم كعب بن الأشرف إلى مكّة في أربعين راكباً منهم، وعقد لهم عهداً مع أبي سفيان بن حرب، وأربعين من قريش تحت ستار الكعبة على أن تكون كلمتهم واحدة على حرب رسول الله ﷺ، ثمّ رجعوا إلى المدينة، وعلم رسول الله ﷺ بأمرهم ونقضهم عهده، فخرج إليهم بنفسه وندبهم لإعانته على أمر يهمّه فأجابوه إلى طلبه وهو جالس عندهم إلى جانب جدار لهم، وأرسلوا رجلاً منهم ليلقي عليه صخرة من فوق الجدار ليقتله

بها، بغياً منهم وعدواناً وغدراً ولوماً، فأطلعه الله على أمرهم، فتركهم وخرج إلى أصحابه وأمرهم بقتالهم؛ لأنهم نقضوا عهد الله مع رسوله وخفروا ذمّته، وهمّوا بما لم ينالوا من قتل رسول الله وهو بينهم في منازلهم، وحينما عزم رسول الله صلى الله عليه وآله على حربهم أو قيامهم بما عاهدوا الله عليه، طغوا في غيهم وأعجبتهم أنفسهم بمناعتهم حصونهم من الله ورسوله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، فطارت أفئدتهم خوفاً، وشاهدوا أليم العذاب من نار سيوف المؤمنين بالله ورسوله، وقتل عميدهم كعب بن الأشرف بيد أخيه من الرضاعة محمّد بن مسلمة، وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت، وكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فصالحوا رسول الله صلى الله عليه وآله على حقن دمائهم بخروجهم من أرضهم وديارهم، فخرجوا إلى الشامات وخيبر.

ولولا أن كتب الله سبحانه عليهم في سابق علمه وقدره الجلاء من بلادهم إذا كفروا بالله سبحانه، وأبوا شكر نعمه عليهم، لعذّبهم بسيوف المؤمنين في الدنيا، ولكنه أعدّ لهم في الآخرة عذاب النار.

فهذه آثار العجب بالنفس والاغترار بالقوة والعدد والعُدة، ولولا ذلك لكانت ديارهم عامرة بهم وهم آمنون في جوار رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقال سبحانه فيما نزل في الأسفار الربانية على الأنبياء السابقين عليهم السلام مخاطباً لنبيه داود عليه السلام:

«يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين»، قال: كيف أبشر المذنبين وأنذر الصدّيقين؟ قال سبحانه: «يا داود بشّر المذنبين إني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصدّيقين أن لا يعجبوا بأعمالهم».

ولا يخفى ما في هذا الحديث القدسي من البيان، فإن المذنب إذا تاب وأطاع عفا الله عنه، وكان في رحمة الله وبركاته، وإن المصدق بما

جاء عن الله، العامل بما أمره الله به إذا دخله العجب بعمله كان عاصياً بعد الطاعة، كافراً بالنعمة بعد شكره لها، وهذا هو الخسران العظيم.

العجب من أفعال القلب ولا ربط له بالجوارح، والقلب في الإنسان هو أعظم ما وجد فيه، وعليه وبه مدار حركة الإنسان.

فالذنوب الصادرة من الجوارح في الإنسان يمكنه التخلص منها بواسطة القلب. فانّ التوبة المزيلة لتبعات الذنوب من الأفعال القلبية، وباب التخلص من تبعات الذنوب مفتوح بواسطة القلب.

فإذا صدر الذنب من القلب وهو العضو الرئيسي في جامعة حركة الهيكل الإنساني، أشكل زواله وصعب التخلص منه.

فعلى العاقل أن يعلم أن ما يعجبه من قوته وجماله وفهمه وفكره وعقله وعلمه، وتعبده وماله وأسرته وسلطته وحسبه، وغير ذلك مما يعجبه، نعم عليه أن يعلم أن كل ما يعجبه عرضة للزوال والفناء. فكم أباد الدهر أهل الحسب وجعل الملوك عبيداً، وصاحب الولد والأسرة فرداً، والغني فقيراً، وصاحب العبادة والزهد فاسقاً مارقاً، وصاحب العلم بعد العمل جاهلاً ضالاً، والعاقل مجنوناً، والمفكر حائراً، وصاحب الجمال دميماً، والقوي ضعيفاً.

أليس كل ذلك محسوساً ملموساً، فهل بعد هذا يا صاحب العقل تكون معجباً بشيء بقاؤه وزواله ليس بيدك بل بيد الله سبحانه؟

[أقسام الصدقة]:

قوله عليه السلام: «والصدقة دواءٌ منجح».

أقول: الصدقة قسمان: واجبة ومندوبة، فالواجبة تكون في الأنعام الثلاثة: الغنم، والبقر، والإبل، وفي الغلات الأربعة الحنطة، والشعير،

والتمر، والزبيب، وفي النقدين الذهب والفضة، وإنما تجب على مالكها البالغ العاقل الحر المتمكن من التصرف.

والمندوبة ما تعطى إلى الغير تبرعاً بقصد القربة، وهي غير الهدية، وعرّفها بعض الفقهاء بالعطية المتبرع بها، من غير نصاب للقربة.

ولنبدأ الآن بالصدقة الواجبة المفروضة من الله تعالى على المسلمين وهي الزكاة.

* * *

جاء في المجلد الثاني من كتاب الأخلاق في حديث واحد (ص ١٩٢):

أمر الله المسلمين بإخراج الزكاة من أموالهم، وجعلها فرضاً واجباً، ومعونة للفقراء والضعفاء إشفاقاً عليهم، وهي من أهمّ الواجبات بعد الصلاة، ويكفي لعظمتها أن الله تعالى قرنها بالصلاة في عدة مواضع، فما من آية في القرآن تدعو المسلمين إلى إقامة الصلاة إلاّ وهي مقارنة بدعوتهم إلى إيتاء الزكاة.

وهما دعامتان متينتان بُني عليهما الإسلام، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.(١)

وقوله ﷻ: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.(٢)

فأوجب الله على الأمّة إخراج الزكاة من أموالهم، وذلك صريح الآيتين.

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) المجادلة: ١٣.

وأما كلمات صاحب الدعوة الإسلاميّة وأهل بيته كأفعالهم ملأت الصحف في القيام بتأدية الزكاة رحمة للفقراء والضعفاء، والقيام بهذا الواجب يحقق ما قاله بعض العلماء:

لو أنفق الناس زكاة المال   لم يبقَ في الأرض فقير الحالِ

في (الوسائل): عن محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه ﵀، بإسناده عن الحسن بن محبوب، عن عبد الله بن سنان، قال: قال أبو عبد الله ﵇: لما نزلت آية الزكاة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها﴾[1] في شهر رمضان، فأمر رسول الله ﷺ مناديه، فنادى في الناس: إنّ الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة، ... إلى أن قال: قال: ثمّ لم يتعرض لشيء من أموالهم حتّى حال عليهم الحول من قابل فصاموا وأفطروا، فأمر ﷺ مناديه فنادى في المسلمين، أيها المسلمون زكّوا أموالكم تقبل صلاتكم، ثمّ وجّه عمّال الصدقة وعمّال الطقوس.

وفيه بإسناده عن أبي الحسن محمّد بن جعفر الأسدي، عن محمّد بن إسماعيل البرمكي، عن عبد الله بن أحمد، عن الفضل بن إسماعيل، عن معتب مولى الصادق ﵇: «إنما وضعت الزكاة إختباراً للأغنياء، ومعونة للفقراء، ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولاستغنى بما فرض الله له.

وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلاّ بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله تبارك وتعالى أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله، وأقسم

---

(١) التوبة: ١٠٣.

بالذي خلق الخلق وبسط الرزق إنه ما ضاع مال في برّ ولا بحر إلاّ بترك الزكاة، وما صيد صيد في برّ ولا بحر إلاّ بتركه التسبيح في ذلك اليوم، وإنّ أحبّ الناس إلى الله تعالى أسخاهم كفاً، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله، ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله».

[آية وجوب الزكاة]:

ومن الآيات الدالة على وجوب الزكاة قوله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.[1]

تضمنت هذه الآية من الأوامر ستة أقسام:

الأوّل: الإيمان بالله وبكل ما جاءت به كتبه، وصحة نبوة أنبيائه، وتصديقهم في كل ما أخبروا به.

الثاني: إخراج المال على حبّه ـ أي حب الله ـ لتضمن القربة، وتدخل في ذلك النفقات الواجبة والمندوبة.

الثالث: إقامة الصلاة بحدودها ومواقيتها.

الرابع: إيتاء الزكاة ـ أي الزكاة الواجبة المفروضة ـ.

الخامس: الوفاء بالعهد، وتدخل فيه النذور وغير ذلك مما التزمه المكلّف على نفسه.

---

(١) البقرة: ١٧٧.

السادس: الصبر وهو حبس النفس على المكروه إمتثالاً لأمر الله تعالى، وهو مِن أفضل الأعمال ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في دعوى الإيمان ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الجامعون لوظائف التقوى.

في (الكافي): عن عليّ بن محمّد، عن ابن جمهور، عن أبيه، عن عليّ بن حديد، عن عثمان عن رشيد، عن معروف بن خرّبوذ، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله عزّ وجلّ قرن الزكاة بالصلاة، فقال عزّ وجلّ: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فمن أقام الصلاة ولم يؤتِ الزكاة لم يقمِ الصلاة».[١]

وفيه: عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن محمّد بن مسلم، وأبي بصير، وبريد وفضيل، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «فرض الله الزكاة مع الصلاة».[٢]

وقال أبو الحسن عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ وضع الزكاة قوتاً للفقراء وتوفيراً لأموالهم».[٣]

وفيه: قال أبو عبد الله عليه السلام لعمار الساباطي: «يا عمّار أنت ربّ مال كثير؟» قال: نعم جعلت فداك، قال: «فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة؟» فقال: نعم، قال: «فتخرج الحق المعلوم من مالك؟» قال: نعم، قال: «فتصل قرابتك؟» قال: نعم، قال: «وتصل إخوانك؟» قال: نعم، فقال: «يا عمّار إن المال يفنى والبدن يبلى والعمل يبقى، والديان حي لا يموت، يا عمّار إنه ما قدّمت فلن يسبقك ـ أي: لا يفوتك ولا يتجاوز عنك بل يصل إليك جزاؤه ـ وما أخّرت فلن يلحقك».[٤]

---

(١) الكافي ٣: ٥٠٦.
(٢) الكافي ٣: ٤٩٨.
(٣) الكافي ٣: ١٩٨.
(٤) الكافي ٣: ٥٠١.

ومن الآيات الدالة على وجوب الزكاة قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.(١)

هذه الآية الشريفة دالة على وجوب الزكاة على الكافر للتوعد على عدم إتيانها، لكن لا يصحّ منه أداؤها حال كفره لعدم إخلاصه، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾.(٢) فإذا أسلم سقطت عنه لقوله صلى الله عليه وآله: «الإسلام يجبّ ما قبله».(٣)

ومن الآيات الدالة على الوجوب والآمرة بالأخذ، قوله عزّ وجلّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.(٤)

الأخذ من الأموال الزكاة المقررة شرعا، (ومن للتبعيض) أي بعض أموالهم.

وفي (الكافي): عن رفاعة بن موسى أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ما فرض الله على هذه الأمة شيئاً أشد عليهم من الزكاة، وفيها تهلك عامتهم».(٥)

ومن الآيات الدالة على وجوب أخذ الطيب من الزكاة قوله تعالى ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.(٦)

---

(١) فصلت: ٦ و٧.

(٢) التوبة: ٥٤.

(٣) مستدرك الوسائل ٧: ٤٤٨.

(٤) التوبة: ١٠٤.

(٥) الكافي ٣: ٤٩٧.

(٦) البقرة: ٢٦٧.

يحتمل أن يراد بالطيّب هنا في مقابل الرديء، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(١) ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي تتعمدوا أخذ الرديء «ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه» أي تتساهلوا، فيكون في هذا أشار إلى المنهي عنه هو تعمد الإخراج، وأما إذا كان بلا عمد فلا حرج حيث المجموع رديء فلا يجب عليه شراء الجيد.

وإن الأخوّة الدينية لا تكون إلاّ بإقامة الصلاة وأداء الزكاة لقوله ﷻ: ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾(٢).

وقد وعد الله المؤمنين بالثواب العظيم، وقال في حقهم: ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾(٣).

أي لا تشغلهم تجارتهم وبيعهم عن ذكر الله ﴿وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً﴾ أي يخافون عذاب يومٍ وأهوال يوم ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ﴾ من شدة ما يعاينوه ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا﴾ ذلك طلباً لمجازاة الله إياهم بأحسن ما عملوا من ثواب الجنّة ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وكرمه، ثمّ أخبر سبحانه أنه يرزق على العمل بطاعته تفضلاً منه ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾.

وقوله ﷻ: ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ٩٢.

(٢) التوبة: ١١.

(٣) النور: ٣٧ و٣٨.

(٤) الروم: ٣٩.

ولما أخبر سبحانه بقوله: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾.[1]

وفي موضع آخر: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾.[2]

أخبر هنا إن الذين يؤتون الزكاة مخلصة لوجه الله، هم الذين يضعفون حسناتهم، أي يجعلونها مضاعفة في زيادة الأجر والثواب، وذلك من قسم التفضل.

وأما الوعيد والتهديد لتاركها قوله عزّ وجلّ:

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.[3]

أكثر المفسرين قالوا: إنها نزلت في مانعي الزكاة.

وفي (الكافي) عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عبد الله بن مسكان، عن محمّد بن مسلم، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ فقال: «يا محمّد ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلاّ جعل الله عزّ وجلّ ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتّى يفرغ من الحساب»، ثمّ قال عليه السلام: «هو قول الله عزّ وجلّ ﴿سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾[4] يعني ما بخلوا به من الزكاة».[5]

---

(١) الأنعام: ١٦٠.

(٢) البقرة: ٢٦١.

(٣) آل عمران: ١٨٠.

(٤) نفس المصدر.

(٥) الكافي ٣: ٥٠٢.

وفيه: عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن محمّد بن خالد، عن خلف بن حماد، عن حريز، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من ذي مال ذهب أو فضة يمنع زكاة ماله إلاّ حبسه الله عزّ وجلّ يوم القيامة بقاع قَرقر، وسلّط عليه شجاعاً أقرع يريده وهو يحيد عنه، فإذا رأى أنه لا مخلص له منه أمكنه من يده فقضمها كما يقضم الفحل، ثمّ يصير طوقاً في عنقه، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ وما من ذي مال إبل أو غنم أو بقر يمنع زكاة ماله إلاّ حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر يطؤه كل ذات ظلف بظلفها، وينهشه كل ذات ناب بنابها، وما من ذي مال نخل أو كرم أو زرع يمنع زكاته إلاّ طوّقه الله ريعة أرضه إلى سبعة أرضين إلى يوم القيامة».[1]

وفيه: عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، عن أيّوب بن نوح، عن ابن سنان، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى يبعث يوم القيامة ناساً من قبورهم مشدودة أيديهم إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يتناولوا بها قيد أنملة، معهم ملائكة يعيّرونهم تعييراً شديداً، يقولون: هؤلاء الذين منعوا خيراً قليلاً من خير كثير، هؤلاء الذين أعطاهم الله فمنعوا حق الله في أموالهم».[2]

ومن آيات الوعيد والتهديد لتاركها قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.[3]

---

(١) نفس المصدر.

(٢) الكافي ٣: ٥٠٦.

(٣) التوبة: ٣٤ و٣٥.

في (كنز العرفان) قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «تباً للذهب والفضة» قالها ثلاثاً، فقالوا: أيّ مال يتخذ؟ فقال صلى الله عليه وآله: «لساناً ذاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجة تعين أحدكم على دينه».

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يخبّون أموالهم من غير أن يخرجوا زكاتها أخبرهم بعذاب أليم، لأنهم لو أخرجوا زكاتها وكنزوا ما بقي لم يكونوا ملومين، لأنّ الله سبحانه قيّد الكنوز بعدم الإنفاق.

وفي (مجمع البيان): روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «كل مال لم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً، وكل مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً».

وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1].

أي يوقد على الكنوز أو على الذهب والفضة، فتكون ناراً فتكوى بها الجباه والجنوب والظهور، فيكون ذلك أشد لعذابهم وأعظم لخزيهم، فيقال لهم هذا جزاء ما ادخرتموه لأنفسكم من منع الزكوات والحقوق الواجبة في أموالكم ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

وقيل إنما خصت هذه الأعضاء بالعذاب لأنها معظم البدن، أو لعروضها عن الفقير.

وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من عبد له مال ولم يؤدّ زكاته إلاّ جمع يوم القيامة صفائح يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جبهته

---

(١) التوبة: ٣٥.

وجنباه وظهره حتّى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثمّ يرى سبيله إما إلى الجنّة وإما إلى النار».

وإن الآيات عامة في وجوب الزكاة في المال، وخصّت بقول الرسول ﷺ وتقريره، إنها تجب في تسعة لا غير، هي الإبل والبقر والغنم، والذهب والفضة، والحنطة والشعير والتمر والزبيب، لروايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام.

منها رواية زرارة ومحمّد بن مسلم وغيرهما عن الباقر والصادق عليهما السلام إنهما قالا: أنزل الله الزكاة في كتابه فوضعها رسول الله ﷺ في تسعة وعفا عما عدا ذلك.

وأيضاً أصالة البراءة وعموم قوله: ولا يسألكم أموالكم، فهما عامان خرج من ذلك ما وقع الإجماع عليه، فيبقى الباقي على أصله.

وقد حصر الله المستحقين لها، وجعل لهم سبعاً في مال الأغنياء، وعدّهم ممن يستحق الواجب من الزكاة الواجبة في الأموال، وقدّمهم على غيرهم في الذكر اهتماماً عليهم بقوله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

ولما عاب المنافقون على رسول الله ﷺ في قسمة الصدقات، بأنه يعطي من أحب، نزل فيهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[٢] أي

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) التوبة: ٥٨.

يعيبُكَ فأنزل الله هذه الآية قاطعة لأطماعهم، وأتى بإنما التي للحصر للدلالة على أنه لا يستحقها سوى هؤلاء المذكورين.

الأوّل: الفقراء.

الثاني: المساكين، قيل: إنهما قسم واحد، وقيل: الفقير المتعفف لا يسأل، والمسكين بخلافه، وقيل: غير ذلك.

الثالث: العاملون وهم السعاة لجبايتها.

الرابع: المؤلفة قلوبهم، وهم كفار أشراف في قومهم، كان رسول الله ﷺ يعطيهم سهماً من الزكاة، يتألفهم به على الإسلام ويستعين بهم على قتال العدو.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون، والعبد المؤمن يكون في شدّة عند سيده يُشترى ويُعتق.

السادس: الغارمون، وهم الذين ركبتهم الديون في غير معصية، سواء في نفقة واجبة أو مندوبة.

السابع: في سبيل الله، سواء كان في جهاد أو بناء قناطر، وأمثال ذلك.

الثامن: ابن السبيل، وهو المنقطع به في الغربة، وإن كان غنياً في بلده هذا.

وأما مقدار النصب في الأقسام التسعة وما يجب فيها وأحكامها فبيانه في كتب الفقه.

السر في وجوب الزكاة وفضيلة سائر الانفاقات:

وهو أن المؤمن إذا أقر بالتوحيد لله سبحانه لزمته المعرفة، فمن عرف الله وحّده، ومن وحّده أحبّه، فمعنى التوحيد هو إفراد المعبود بالمحبوبية، وتخليص القلب عمن سواه، فإذا أدرك المؤمن جمال الله

وجلاله، واستشعر لطفه وإحسانه، وأنه المنعم عليه، فبهذا الإدراك وحّده وأحبّه، فأصبح وعمله موجهاً إليه، ولزم طاعته وعدم مخالفته، فدليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه بمفارقة سائر المحاب، والأموال محبوبة لأنها آلة متاع الدنيا، وقد جُبلت النفوس على حبها، فكان السرّ بذل المال إمتحاناً واختباراً لهم في دعوى محبته. ولفهم هذا السر في بذل الأموال انقسم الناس بحسب درجاتهم في التوحيد والمحبة إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: ناس بذلوا أموالهم غير ملتفتين إلى وجوب زكاة أو غيرها، ولم يدّخروا لأنفسهم ديناراً ولا درهماً، ولم يتركوا من بعدهم صفراء ولا بيضاء قاصدين تفريغ قلوبهم لحبّ الله عن كل شاغل.

في الكافي: عن عليّ بن محمّد، عمن ذكره، عن محمّد بن خالد، عن محمّد بن سنان، عن المفضل قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، فسأله رجل في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال له عليه السلام: «الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد؟» قال: أريدهما جميعاً، فقال عليه السلام: «أما الظاهرة ففي كل ألف خمسة وعشرون، وأما الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك».[١]

الثاني: درجتهم دون هذا، وهم الذين أمسكوا أموالهم، ولكنهم راقبوا مواقيت الحاجات ومراسم الخيرات، ويكون قصدهم من الإمساك الإنفاق على قدر الحاجة على أنفسهم وعوائلهم وصرف الفاضل في وجوه البر، وعند ظهورها، واغتنام فرصة وجودها، غير مقتصرين على مقدار الزكاة، بل يؤدّون جميع أنواع البر والمعروف أو أكثرها.

---

(١) الكافي ٣: ٥٠٠.

الثالث: اقتصروا على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون، وهي أدنى المراتب.

ومن أسرارها تطهير النفوس من رذيلة البخل، وما تزول هذه الرذيلة إلاّ ببذل المال مرة بعد أخرى حتّى يتعوّد، إذ أن حبّ الشيء لا ينقطع إلاّ بقهر النفس على مفارقته حتّى يصير ذلك اعتيادياً له.

ومن أسرارها شكر النعمة فإنّ لله على عبده نعمة في ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، وبذل المال شكر لنعمة المال، وما أقبح بالمسلم الغني أن ينظر إلى الفقير المسلم الذي مسّه الجوع، ولا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله فيما أغناه بإعطاء الزكاة إلى الفقير.

في (مصباح الشريعة): قال الصادق عليه السلام: «على كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله تعالى؛ بل على كل منبت شعر من شعرك. بل على كل لحظة من لحاظك زكاة. فزكاة العين النظرة بالعبرة والغض عن الشهوات وما يضاهيها، وزكاة الأذن استماع العلم والحكمة والقرآن وفوائد الدين من الموعظة والنصيحة، وما فيه نجاتك، وبالإعراض عمّا هو ضده من الكذب والغيبة وأشباهها، وزكاة اللسان النصح للمسلمين والتقيظ للغافلين، وكثرة التسبيح والذكر وغيرها.

وزكاة اليد البذل والعطاء والسخاء بما أنعم الله عليك به، وتحركها بكتابة العلم ومنافع ينتفع بها المسلمون في طاعة الله تعالى، والقبض عن الشرور. وزكاة الرجل السعي في حقوق الله تعالى من زيارة الصالحين ومجالس الذكر، وإصلاح الناس وصلة الأرحام، والجهاد وما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك». انتهى.

* * *

هذا وقد ذكرنا في المجلد الأوّل من كتابنا (نزهة الخاطر)[١] بحثاً مفصلاً عن الزكاة، وهو جواب لحجة الإسلام السيد محمّد جواد الطباطبائي التبريزي ﷺ حول السؤال الموجّه إليه من الحكومة الباكستانية عن مشروعية الزكاة وتفاصيلها ليدوّنوه في الدستور الحكومي.

[الصدقة المندوبة]:

والآن نلتقي مع القراء حول البحث عن الصدقة المندوبة فنقول: نقلاً عن كتاب الأخلاق في حديث واحد (مجلد ٢ ص ٢٢٠):

صدقة التطوع دواء للمرضى، وبها الشفاء، ومنفى للفقر، ورافعة للبلاء، ودافعة لشر ما ينزل من السماء، وظل المؤمن في عرصة يوم القيامة، وحجاب عن النار.

في (الكافي): عن عليّ بن محمّد، عن محمّد بن خالد، عن عبد الله بن القاسم، عن عبد الله بن سنان، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالدعاء، واستنزلوا الرزق بالصدقة، فإنها تفك من بين لحى سبعمائة شيطان، وليس شيء أثقل على الشيطان من الصدقة على المؤمن، وهي تقع في يد الربّ تبارك وتعالى قبل أن تقع في يد العبد».[٢]

وفيه: عن محمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، وأحمد بن إدريس، عن محمّد بن عبد الجبار جميعاً، عن صفوان بن يحيى، عن إسحاق بن غالب، عمّن حدّثه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «البر والصدقة ينفيان الفقر، ويزيدان في العمر، ويدفعان عن سبعين ميتة سوء».[٣]

---

(١) مخطوط.

(٢) الكافي ٤: ٣.

(٣) الكافي ٤: ٢.

وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الصدقة تقضي الدين وتخلف بالبركة».[١]

وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «تصدقوا فإنّ الصدقة تزيد في المال كثرة، وتصدّقوا رحمكم الله».[٢]

وفيه: قال أبو عبد الله عليه السلام لابنه محمّد: «يا بُني كم فضل معك من تلك النفقة؟ قال: أربعون ديناراً، قال: أخرج فتصدق بها، قال: إنه لم يبقَ معي غيرها، قال: تصدق بها فإن الله عزّ وجلّ يخلفها، أما علمت أن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الرزق الصدقة، فتصدق بها، ففعل، فما لبث أبو عبد الله عليه السلام عشرة أيام حتّى جاءه من موضع أربعة آلاف دينار، فقال: يا بُني أعطينا الله أربعين ديناراً فأعطانا الله أربعة آلاف دينار».[٣]

عن أحمد بن عبد الله، عن جده، عن محمّد بن عليّ، عن محمّد بن الفضيل، عن عبد الرحمن بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أرض القيامة نار ما خلا ظل المؤمن، فإنّ صدقته تظله».[٤]

وفيه: عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن الحسن بن محبوب، عن أبي ولاد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «بكروا بالصدقة وارغبوا فيها، فما من مؤمن يتصدق بصدقة يريد بها ما عند الله، ليدفع بها عنه شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم، إلاّ وقاه الله شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم».[٥]

---

(١) الكافي ٤: ٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الكافي ٤: ٣.

(٥) الكافي ٤: ٥.

وفيه: عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله لا إله إلاّ هو ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة، والحرق والغرق، والهدم والجنون»[١] وعدّ سبعين باباً من السوء.

وفيه: عن عليّ بن محمّد، عن أحمد بن محمّد، عن محمّد بن عليّ، عن عبد الرحمن بن محمّد الأسدي، عن سالم بن مكرم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مرّ يهودي بالنبي صلى الله عليه وآله فقال: السام عليك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: عليك، فقال أصحابه: إنما سلّم عليك بالموت، قال: الموت عليك، قال النبي صلى الله عليه وآله: كذلك رددت، ثمّ قال النبي صلى الله عليه وآله: إنّ هذا اليهودي يعضه أسود في قفاه فيقتله، قال: فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله، ثمّ لم يلبث ان انصرف فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ضعه فوضع الحطب، فإذا أسود في جوف الحطب عاض على عود، فقال: يا يهودي ما عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملاً إلاّ حطبي هذا احتملته وجئت به، وكان معي كعكتان، فأكلت واحدة وتصدقت بواحدة على مسكين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بها دفع الله عنه، وقال: إنّ الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان».[٢]

وفيه: عن الحسين بن محمّد، عن معلى بن محمّد، عن الحسن بن علي الوشاء عن أبي الحسن عليه السلام قال: سمعته يقول: «كان رجل من بني إسرائيل ولم يكن له ولد، فولد له غلام، وقيل له: إنه يموت ليلة عرسه، فمكث الغلام، فلما كانت ليلة عرسه نظر إلى شيخ كبير ضعيف فرحمه الغلام فدعاه فأطعمه، فقال له

---

(١) نفس المصدر.

(٢) الكافي ٤: ٧.

السائل: أحييتني أحياك الله، قال: فأتاه آتٍ في النوم فقال له: سل ابنك ما صنع، فسأله فخبره بصنيعه، قال: فأتاه الآتي مرة أخرى في النوم فقال له: إن الله أحيا لك ابنك بما صنع بالشيخ».[1] انتهى.

* * *

[أحاديث في فضل الصدقة]:

وجاء في سفينة البحار (مج ٢) في مادة (صدق):

كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: «الصدقة تطفي غضب الرب، وكان يقبّل الصدقة قبل أن يعطيها السائل».

الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سرّه أن يدفع الله عنه نحس يومه، فليفتح يومه بصدقة».

شكى سفيان بن عمرو إلى الصادق عليه السلام وقال: إني كنت أنظر في النجوم فأعرفها وأعرف الطالع، فيدخلني من ذلك، فقال عليه السلام: «إذا وقع في نفسك شيء فتصدّق على أوّل مسكين، ثمّ امض فإن الله عزّ وجلّ يدفع عنك».

وعن وهب بن منبّه قال: بينما امرأة من بني إسرائيل على ساحل البحر تغسل ثيابها وصبيّ لها يدبّ بين يديها، إذ جاء سائل فأعطته لقمة من رغيف كان معها، فما أسرع من أن جاء ذئب فالتقم الصبي فجعلت تعدو خلفه وهي تقول: يا ذئب ابني، يا ذئب ابني، فبعث الله ملكاً انتزع الصبي من فم الذئب ورمى به إليها وقال: لقمة بلقمة.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «على كل مسلم في كل يوم صدقة»، قيل: من يطيق ذلك، قال: «إماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل

---

(١) نفس المصدر.

إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وردك السلام صدقة».

وعن الصادق عليه السلام: «تصدق بشيء عند البكور، فإنّ البلاء لا يتخطى الصدقة».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «استنزلوا الرزق بالصدقة، من أيقن بالخلف جاد بالعطية» وقال عليه السلام: «من يعطِ باليد القصيرة يُعطَ باليد الطويلة»، وقال عليه السلام: «إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة»، وقال عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «واعلم أن أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة، ومشقة شديدة، وإنه لا غنىً بك فيه من حسن الإرتياد، وقدّر بلاغك من الزاد، مع خفّة الظهر، فلا تحملنَ على ظهرك فوق طاقتك، فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك، وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمّله إياه، وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه، فلعلك تطلبه فلا تجده، واغتنم من استقرضك في حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك».

* * *

قوله عليه السلام: «وأعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم».

جاء في جامع السعادات (مجلد ١ ص ١٧) تحت عنوان:

إن العمل نفس الجزاء:

قال: كل نفس في بدء الخلقة خالية عن الملكات بأسرها، وإنما تتحقق كل ملكة بتكرر الأفاعيل والآثار الخاصة بها.

بيان ذلك: إن كل قول أو فعل مادام وجوده في الأكوان الحسية لاحظّ له من الثبات، لأن الدنيا دار التجدد والزوال، ولكنه يحصل منه أثر في النفس، فإذا تكرر استحكم الأثر فصار ملكة راسخة، مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فإنها ضعيفة أوّلاً، وإذا اشتدت تجمّرت، ثمّ استضاءت، ثمّ صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضيئة لما قابلها، وكذلك الأحوال النفسانية إذا تضاعفت قوتها صارت ملكات راسخة وصوراً باطنية، تكون مبادئ للآثار المختصة بها، فالنفوس الإنسانية في أوائل الفطرة كصحائف خالية عن النقوش والصور، تقبل كل خلق بسهولة، وإذا استحكمت فيها الأخلاق تعسّر قبولها لأضدادها. ولذلك سهل تعليم الأطفال وتأديبهم، وتنقيش نفوسهم بكل صورة وصفة، ويتعسر أو يتعذر تعليم الرجال البالغين وردهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها ورسوخها.

ثمّ لا خلاف في أنّ هذه الملكات وأفعالها اللازمة لها إنْ كانت فاضلة كانت موجبة للالتذاذ والبهجة ومرافقة الملائكة والأخيار، وإن كانت رديّة كانت مقتضية للألم والعذاب ومصاحبة الشياطين والأشرار.

وإنما الخلاف في كيفية إيجابها للثواب أو العذاب، فمن قال: إنّ الجزاء مغاير للعمل قال: إن كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه على التفصيل الوارد في الشريعة، ومن قال إنّ العمل نفس الجزاء، قال: إنّ الهيئات النفسانية اشتدت وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة في عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها، إذ كل شيء يظهر في كلّ عالم بصورة خاصة. فإن العلم في عالم اليقظة أمر عرضي يدرك بالعقل أو الوهم، وفي عالم النوم يظهر بصورة اللبن،

فالظاهر في العالمين شيء واحد هو العلم، لكنه تجلّى في كل عالم بصورة، والسرور يظهر في عالم النوم بصورة البكاء، ومنه يظهر أنه قد يسرك في عالم ما يسوؤك في عالم آخر، فاللذات الجسمانية التي تسرّك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء بصورة تسوؤك وتؤذيك، وتركها وتحمّل مشاق العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليات يسرك في عالم الآخرة، مع كونها مؤذية في هذا العالم.

ثمّ القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك إن كانت من فضائل الأخلاق أو فواضل الأعمال، واسم الشيطان إن كانت من أضدادها، وقد يطلق على الأولى اسم الغلمان والحور وأمثالهما، وعلى الثانية اسم الحيّات والعقارب وأشباهما، ولا فرق بين الإطلاقين في المعنى، وإنما الاختلاف في الاسم.

وهذا المذهب يرجع إلى القول بتجسد الأعمال بصورة مأنوسة مفرحة، أو صورة موحشة معذبة.

[تجسّم الأعمال]:

وقد ورد بذلك أخبار كثيرة، منها: ما روى أصحابنا عن قيس بن عاصم، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا قيس إنّ مع العزّ ذلاً، ومع الحياة موتاً، ومع الدنيا آخرة، وإنّ لكل شيء رقيباً وعلى كل شيء حسيباً، وإنّ لكل أجل كتاباً، وإنه لا بدّ لك من قرين يدفن معك وهو حيٌّ، وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك، ثمّ لا يحشر إلاّ معك ولا تحشر إلاّ معه، ولا تُسأل إلاّ عنه، فلا تجعله إلاّ صالحاً، فإنه إنْ صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلاّ منه، وهو فعلك».

ومنها: ما استفاض من قولهم عليهم السلام: «إنّ من فعل كذا خلق الله تعالى ملكاً يستغفر له إلى يوم القيامة».

ومنها ما ورد: «أن الجنّة قيعان وغرساها سبحان الله».

ومنها قولهم: «المؤمن مرهون بعمله».

ومنها قوله صلى الله عليه وآله: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يجري في بطنه نار جهنّم».

ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾،[1] وربما كان في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] إشارة إليه حيث قال عزّ وجلّ: ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ ولم يقل بما كنتم.

وقال فيثاغورس الحكيم: ستعارض لك في أفعال وأقوالك وأفكارك، وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية، فإن كانت الحركة غضبية أو شهوية، صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك، وإن كانت الحركة عقلية صارت ملكاً تلتذ بمنادمته في دنياك، وتهتدي به في أُخراك إلى جوار الله وكرامته.

وهذه الكلمات صريحة في أنّ مواد الأشخاص الأخروية هي التصورات الباطنية والنيات القلبية والملكات النفسية المتصورة بصور روحانية، وجودها وجود إدراكي، والإنسان إذا انقطع تعلقه عن هذه الدار وحان وقت مسافرته إلى

---

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) يس: ٥٤.

(٣) الطور: ١٦.

دار القرار، وخلص عن شواغل الدنيا الدنية، وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة، فوقع بصره على وجه ذاته والتفت إلى صفحة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه، وهو المراد بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٢] صار إدراكه فعلاً وعلمه عيناً وسرّه عياناً، فيشاهد ثمرات أفكاره وأعماله، ويرى نتائج أنظاره وأفعاله، ويطلع على جزاء حسناته وسيئاته، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته، ويدرك حقيقة قوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾.[٣]

فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه ومضيعاً لساعات يومه وأمسه يقول:

﴿ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾.[٤]

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾.[٥]

وقد أيد هذا المذهب أعني صيرورة الملكات صوراً روحانية باقية أبد الدهر، وموجبة للبهجة والإلتذاذ، والتوحش والتألم، بأنه لو لم تكن تلك الملكات والنيّات باقية أبداً لم يكن للخلود في الجنّة أو النار وجه صحيح، إذ لو كان المقتضي للثواب أو العذاب نفس العمل والقول وهما

---

(١) التكوير: ١٠.

(٢) ق: ٢٢.

(٣) الإسراء: ١٣ و١٤.

(٤) الكهف: ٤٩.

(٥) آل عمران: ٢٠.

زائلان، لزم بقاء المسبب مع زوال السبب وهو باطل، وكيف يجوز للحكيم أن يعذب عباده أبد الدهر لأجل المعصية في زمان قصير؟ فإذن منشأ الخلود هو الثبات في النيات والرسوخ في الملكات.

ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير أو الشر يرى أثره في صحيفة نفسه، أو في صحيفة أعلى وأرفع من ذاته أبداً.

كما قال سبحانه: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾.[1]

والسر فيه أن الأمر الذي يبقى مع النفس إلى حين مفارقتها من الدنيا، ولم يرتفع عنها في دار التكليف، يبقى معها أبداً ولا يرتفع عنها أصلاً لعدم تجدد ما يوجب إزالته بعد مفارقته عن عالم التكليف... انتهى نقلاً عن جامع السعادات.

وبالتالي فإنّ كلمة الإمام عليه السلام: «**وأعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم**». تشعرنا بتجسم الأعمال وتجسدّها بصور يناسبها من خير أو شرٍ، وحسن أو قبح، كل أعمالك بارزة أمامك مجسمة بأجسامها المناسبة لها من خير أو شر، وهذا معنى تجسم الأعمال، وهي نفس أعمالك ترد إليك «إنما هي أعمالكم رُدَّت إليكم» إنّما تجزون ما كنتم تعملون، جزاؤكم نفس أعمالكم، لكن بصورتها الحقيقية وحقيقتها الجوهرية، وجوهرتها الروحية لا المادية، أعمالك الصالحة وإحسانك للناس يعود وجهاً حسناً جميلاً تأنس به وإساءتك وشرك يعود وجهاً قبيحاً تستوحش منه، نعم وقد تعود حيات وعقارب تلسعك...

* * *

(١) عبس: ١٣ - ١٥.



قوله عليه السلام:

اعْجَبُوا لِهَذَا الإنْسَانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ، وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ.

(نهج البلاغة ٤: ٤)



[خلق الإنسان]

قال ابن أبي الحديد:

هذا كلام محمول بعضه على ظاهره لما تدعو إليه الضرورة من مخاطبة العامة بما يفهمونه، والعدول عما لا تقبله عقولهم ولا تفيء به، أما الإبصار فقد اختلف فيه، فقيل: إنه خروج شعاع من العين يتصل بالمرئي، وقيل: إنّ القوة المبصرة التي في العين تلاقي بذاتها المرئيات فتبصرها، وقال قوم: بل يتكيف الهواء بالشعاع البصري من غير خروج، فيصير الهواء باعتبار تكيفه بالشعاع به آلة للعين في الإدراك، وقال المحققون من الحكماء: إنّ الإدراك البصري هو بانطباع أشباح المرئيات في الرطوبة الجليدية من العين عند توسط الهواء الشفاف المضيء كما تنطبع الصورة في المرآة، قالوا: ولو كانت المرآة ذات قوة مبصرة لأدركت الصور المنطبعة فيها، وعلى جميع الأقوال؛ فلا بدّ من إثبات القوة المبصرة في الرطوبة الجليدية، والى الرطوبة الجليدية وقعت إشارته عليه السلام بقوله: «ينظر بشحم».

وأما الكلام فمحله اللسان عند قوم، وقال قوم: ليس اللسان آلة ضرورية في الكلام؛ لأنّ من يقطع لسانه من أصله يتكلم، وأما إذا قطع رأسه لم يتكلم، قالوا: وإنّما الكلام باللهوات، وعلى كلا القولين فلا بدّ أن تكون آلة الكلام لحماً. وإليه وقعت إشارة أمير المؤمنين عليه السلام،

وليس هذه البنية المخصوصة شرطاً في الكلام على الإطلاق، لجواز وجوده في الشجر والجماد عند أصحابنا، وإنما هي شرط في كلام الإنسان، ولذا قال أمير المؤمنين: «اعجبوا لهذا الإنسان».

فأما السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق: وإنما هو بالقوة المودعة في العصب المفروش في الصماخ كالغشاء، فإذا حمل الهواء الصوت ودخل في ثقب الأذن المنتهي إلى الصماخ بعد تعويجات فيه، جعلت لتجري مجرى اليراعة المصوتة، وأفضى ذلك الصوت إلى ذلك العصب الحامل للقوة السامعة حصل الإدراك، وبالجملة فلا بدّ من عظم لأنّ الحامل للّحم والعصب إنما هو العظم.

وأما النَفَس فلا ريب أنه من خرم؛ لأنه من الأنف، وإن كان قد يمكن لو سدَ الأنف أن يتنفس الإنسان من الفم وهو خرم أيضاً، والحاجة إلى التنفس إخراج الهواء الحار عن القلب وإدخال النسيم البارد إليه، فجعلت الرئة كالمروحة تنبسط وتنقبض، فيدخل الهواء بها ويخرج من قصبتها النافذة إلى المنخرين.[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

نبّه عليه السلام على لطف خلق الإنسان ببعض أسرار حكمة الله فيه، وغايته من ذلك الاستدلال على حكمة صانعه ومبدعه، وذكر أربعة من محال النظر والإعتبار: وهي آلة البصر، والكلام، والسمع، والتنفس، وخصّها بالذكر لكونها مع ضعفها ضرورية في وجود الإنسان تنبيهاً على

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٠٣.

شـرفه وعلـو رتبتـه فـي المخلوقـات، ولا يقـوم إلاّ بهـا، ليكـون ذلـك محـل التعجب واعتبار لطف الصانع الحكيم.

وأراد عليه السلام بالشـحم الـذي ينظـر بـه الرطوبـة المسـماة فـي عـرف الأطبـاء بالبيضـة أو الرطوبـة الجليديـة، فـإنّ العين مركبـة مـن سـبع طبقـات، وثلاث رطوبات كل منها يختص في عرفهم باسم.

وعنى باللحم اللسان فإنّه لحم أبيض رخو تلتف به عروق صغار كثيرة فيها دم، ولذلك يتبين أحمر، وتحته عروق وشريانات وأعصاب كثيرة، وتحته فوهات يسيل منهما اللعاب ينتهيان إلى لحم غددي رخو موضوع في أصله يسمى مولّد اللعاب، وبهاتين الفوهتين يبقى لِلّسان وما حوله النداوة الطبيعية.

وأراد عليه السلام بالعظم الذي يسمع به، العظم المسمى الحجري، وهو عظم صلب فيه مجرى الأذن، كثير التعاريج والعطفات، يمر كذلك إلى أن يلقى العصبة النابتة من الدماغ التي هي مجرى الروح الحامل لقوة السامعة.

وأراد عليه السلام بالخرم ثقب الأنف، وفي هذه وأمثالها من بدن الإنسان وسائر الحيوان عبرة لمن اعتبر، وكمال شهادة بوجود الصانع الحكيم لها، ومن نظر في تشريح بدن الإنسان حضرته شواهد من الحكمة الإلهية يحار فيها لبّه ويدهش فيها عقله. وقرأ الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإنسـان ضَعِيفًا﴾[1] ثمّ قال: وكيف لا يكون ضعيفاً وهو ينظر بشحم ويسمع بعظم، وينطق بلحم، وقد راعى في القرائن الأربع السجع المتوازي.[2]

* * *

---

(١) النساء: ٢٨.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن مثيم ٢: ٤٩٦.

ومما جاء في (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[١]

(عجيب) عجباً من الأمر أخذه العجب منه... إلى أن قال: العَجب: جمع إعجاب، انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه، أو استظرافه، أو إنكاره ما يرد عليه. المنجد.

(الشحم) القطعة منه شحمة، جمع شحوم، ما ابيضّ وخفّ من لحم الحيوان، كالذي يغشي الكرش والأمعاء ونحوهما. المنجد.

(الخرم) جمع خروم، أنف الجبل. المنجد والصحاح.

المعنى:

من العلوم المهمة للبشر وخصوصاً في هذه القرون المعاصرة، علم فوائد الأعضاء والبحث عن حقائق الحواس وما لها من خواص، ولم تكن تلك العلوم معروفة في عصره ﷺ وسيّما للعرب العوام، وقد استلفت عليه السلام نظر أبناء الإسلام إلى هذين العلمين باستفزاز العجب الذي منشؤه كما ذكره (المنجد) انفعال النفس عند استعظام الأمر أو استظرافه.

وهذه الحواس والخصائص الإنسانية عظيمة وظريفة جداً إلى غير النهاية، ولكن لا تتوجه إلى دقائقها أفكار أولئك الأعراب في هذا العصر، ولا يستعدّون لدرك ما أودع في هذه الحواس من دقائق الصنع ولطائف الخلقة التي ما زالت العلماء والباحثون يتدارسونها ويبحثون عنها طيلة القرون الماضية والحاضرة، ويعترفون بعدم الوصول إلى غورها.

فمسألة الأبصار من مسائل الحكمة الطبيعية من عهد فلاسفة اليونان، وتوجه العلماء إليها إلى الآن، واكتشفوا الطبقات السبعة للعين،

---

(١) ج ٢١: ٢١.

وما فيها من المواد والنسوج والأوردة والجلود، ولكن يتحيرون في كيفية إدراك النفس الصورة المنطبقة في عدسة العين.

كما أنّ تأثر عضلات اللسان من إرادة المتكلم بسهولة ومران لا يتوجه إليه المتكلم، سرّ لم ينكشف للعلماء الباحثين.

وهكذا نقل أثر الإرتجاجات القارعة على الصماخ في النفس الإنسانية أمر مجهول للعلماء الباحثين.

وهذا الثقب الخيشومي الذي يعتبر وسيلة لدخول الهواء دائماً إلى الرّية من عجائب صنع الله.

وقد استلفت علي عليه السلام نظر مستمعيه إلى ظاهرة هذه الحواس والخواص، واختلاف مناحيها وآلاتها المودعة فيها، فالنظر بظاهره ينبعث من الشحم المودع في العين، والتكلم يخرج من اللسان والشفتين، والسمع يقع من عظمي الصماخين، كما أنّ التنفس يتحقق من ثقب الأنف الذي هو داخل الخرم.

ومن ناحية أخرى ينبّه الإنسان على ضعفه في أصول حياته لينزله من مركب غروره وهناته، ويشير إلى أنّ أعظم أركان وجوده قائم على أمور خفيفة ومبانٍ ضعيفة.

فمبدأ نظره الذي هو نور وجوده وضياء ديجوره الذي لو سلب عنه اظلمّت عليه الدنيا، وما فيها قطعة صغيرة من الشحم الذي لو عرض على أحد لا يشتريه بفلس، وكلامه الذي هو قوام إنسانيته، ومبدأ فخره على سائر أبناء جلدته الحيوانية قائم على قطعة صغيرة من اللحم الذي لو بقي يوماً لتعفن وفسد، ويتنفر عنه كل أحد.

وسمعه الذي يربطه بكل العالم وينشد له بما شاء ويترنّم قائم على قطعة من العظم الفاقد للقيمة والبائد عند شروق الشمس ونفوذ البرد يوماً بعد أمس.

ولنَفَسِهِ الذي به يحيى كلّ آن، يخرج من خرم بلا بنيان.

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):[1]

المراد بالشحم هنا غير اللحم، كالجلد الشفاف الذي يغطي شبكة العين ونحوه، أما العظم فالمراد به الغضروف، وهو عظم طري.

أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة أعضاء: البصر، واللسان، والسمع، والأنف.

وللعين مهمتان: الأولى: إنها نافذة إلى القلب، تتسرب إليه منها ما تراه في الخارج. المهمة الثانية: أنها مرآة تعكس في كثير من الأحيان ما هو مودع في القلب من حبّ وبغض، وفطنة وبلادة، وخير وشر، ومعنى هذا أن العين تعطي القلب وتأخذ منه، تؤثر فيه، ويؤثر فيها، وأيضاً معنى هذا أنّ كل ما في العين لا بدّ أنّ يكون رقيقاً شفافاً يحكي عما وراءه، ونقياً صافياً ينعكس فيه ما تقع عليه العين، ومن البداهة أن في اللحم غلظة وكثافة وإن كان اللحم أقل كثافة من العظم، والشحم أخف وأرق من اللحم، وهو أشبه بـ(النيلون).

أما اللسان فهو أكثر الأعضاء حركة، وقبضاً وبسطاً، تجري حركته بسرعة بلا تعب وكلال عند الكلام والشراب والطعام، وعند ابتلاع الريق أو قذفه؛ بل يتحرك عند السكوت وترك الطعام والشراب، فاستدعى ذلك أن يكون لحماً رطباً بلا عظم وعصب، وأن يكون في الفم بمنزلة الصدر للقلب صوناً له من العوارض الخارجية.

---

(١) ج ٤: ٢٢١.

وأما الأُذن فهي الأداة اللاقطة للصوت، والصوت يحمله الهواء، ولا يدخل إلى الأذن إلاّ بعد انكسار حدته، فجعلها سبحانه عضواً ليناً لا لحماً مسترخياً، ولا عظماً صلباً؛ بل غضروفاً طرياً متماسكاً.

أما التنفس في الإنسان فيقول أهل الإختصاص: إنّ له عضلات كثيرة، وأهمّها الأنف، وبه يستغنى عن الفم لاستنشاق الهواء، وقد جعل سبحانه تجويفه بقدر الحاجة، ولو كان أوسع مما عليه لدخل إلى الجوف من الهواء أكثر من المطلوب، أو أضيق لدخل دون القدر اللازم، وأيضاً جعل التجويف مستطيلاً لينحصر فيه الهواء وتنكسر حدّته قبل أن يصل إلى الدماغ، وإلاّ صدمه بقوته، وأوقفه عن الحركة.

فسبحان الذي خلق فسوّى، وقدّر فهدى.

* * *

أقول: قوله ﷺ: «اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم».

ومما انتخبته من كتاب (الإنسان) تأليف علي فكري القسم الثالث (ص ٤٧ ط الأولى) تحت عنوان:

العين:

العين هي عضو الإبصار، وهي أكرم أعضاء الإنسان وأعلاها وأنفعها، وهي تتكون من أجزاء حافظة وأجزاء صلبة.

وهي: الحاجبان: وظيفتهما تلطيف الأشعة الضوئية الآتية إلى العينين.

والأجفان: وهي أغطية متحركة، وظيفتها حفظ العينين من دخول الأجسام الغريبة، ومن وصول الضوء الكثير إليها.

والأهداب: ومنفعتها ردّ الأشعة الضوئية، وحفظ العينين من دخول الأجسام الغريبة فيهما.

وأمّا أجزاء العين نفسها، أعني الأجزاء الأصلية، فمكونة من الأمام إلى الخلف، وهي عدة أجزاء:

أوّلها: (القرنية الشفافة)، وهي كزجاجة الساعة مستديرة الشكل ومحدودبة من أمام ومغطاة بالملتحمة.

وثانيها: (الصلبة) أو بياض العين، وهي غشاء صلب قوي، حافظ لجميع أجزاء العين، وفي باطنه خلف القرنية توجد (القزحية): وهي غشاء متحرك، ومختلف اللون، فقد يكون أسود، أو أسمر، أو أزرق، أو أخضر، وفي وسطه الثقب المسمى (بالحدقة) وهو قابل للإنقباض والإنبساط، ومنفعته زيادة الأشعة الضوئية.

(والمشيمية): وهي غشاء أسود، موضوع في باطن الصلبة، ومنفعته إمتصاص الأشعة الضوئية.

(والشبكية): وهي الغشاء الباطن للعين، وأصلها انتشار من العصب البصري تنطبع فيه المبصرات، ويوجد في باطن العين ثلاث رطوبات:

إحداها: مادة كثيرة السيولة تسمىّ (الرطوبة المائية).

والثانية: عدسية الشكل متبلورة تسمىّ (الرطوبة البلورية).

والثالثة: شبيهة بالزلال المتجمد تسمىّ (الرطوبة الزجاجية).

حكمة الخالق:

وفيه (ص ٥٠):

لما كانت الحاجة إلى العين ماسة، اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون في غاية الرقة واللين، ووقاها بضروب كثيرة من الوقاية، فوضعها

في حفرة من العظم، وجعل حولها عظاماً صلبة. وغطاها بالأجفان، وصانها بالأهداب، وجعلها عينين اثنتين حتّى لو أصاب إحداهما آفة بقيت الأخرى سليمة وجعلهما في الرأس؛ لأن حاسة البصر بمنزلة الدبان، وأنه كلما كان أعلى مكاناً كانت مسافة مبصراته أكثر، ولأنّ العصبة التي فيها (الروح الباصرة) رقيقة جداً، نازلةً من الدماغ لا تحمل مسافة بعيدة، وقد وضعت أمام البدن لتكون حارسة للأعضاء التي غطاؤها ضعيف كالبطن وغيره، ولأنّ عمل الأعضاء الخارجة كاليد والرجل من أمام لتكون مشاهدة لأعمالها.

وأمّا منفعة الأجفان: فهي لمنع ما يلاقي الحدقة من إخراجه، ويخرج عند انطباقها كالغبار والدخان والشعاع، وتصقل الحدقة دائماً وتبعد عنها ما أصابها من الهباء والقذى.

وأمّا الأهداب فإنّها بمنزلة السياج حول العين، يمنع عن الحدقة بعض الأشياء التي لا يمنعها الجفن مع انفتاح العين، كما ترى عند هبوب الريح الذي يأتي بالقذى فتفتح أدنى فتح، وتتصل الأهداب العلوية بالسفلية، فيحصل منها شبه شبكة لينظر من ورائها فتحصل الرؤية مع إندفاع القذى.

* * *

[أجزاء العين]:

وفي (دائرة المعارف) لفريد وجدي (مج ٦) في مادة (العين) قال:

(العين) هي أكرم أعضاء الإنسان وأنفعها، وهي مركبة من أجزاء ظاهرة: وهي الحاجب والجفنان، والأهداب.

ومن أجزاء باطنة وهي نوعان:

١ _ أغشية (الملتحمة) وهي غشاء دقيق شفاف، وهو سبب لمعان العين، طبيعته مخاطية، وهو يغشي الجهة الأمامية من كرة العين، والجهة الخلفية للجفنين.

٢ _ والصلبة أي بياض العين: وهي غشاء ليفي متين مثقوب من الخلف ثقباً ضيقاً يمرّ فيه العصب البصري، وفيه من الإمام ثقب أكبر منه تدخل فيه القرنية، وهي غشاء شفاف موضوع في الجبهة المقدمة من الصلبة، وهي كزجاجة الساعة.

والمشيمة: وهي غشاء وعائي أسمر اللون أو أسوده، موضوع في داخل الصلبة. والقزحية: وهي غشاء ليفي وعائي موضوع خلف القرنية، وفيه فتحة، وهي المسماة بالحدقة، تختلف ألوانها وهي موضوعة خلف القرنية، فقد تكون سوداء أو زرقاء، وهي المغطية لون العين، وهي لطيفة تنقبض من الضوء الشديد وتنبسط في الضوء الخفيف.

والشبكية: وهي امتداد من العصب البصري هو الجزء الحسّاس من العين، وبها يتم الإبصار إذ عليها ينطبع الشيء المرئي أوّلاً، ثمّ ينتقل إلى المخ بواسطتها.

وأما الرطوبات:

فأوّلها: الرطوبة المائية وهي توجد في خزانتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى بالقزحية.

ثانيتها: البلورية وهي رطوبة متجمدة شكلها عدسي موضوعة في الجسم الزجاجي.

ثالثتها: الجسم الزجاجي، وهو مادة تشبه الهلام الشفاف، موضوع داخل الشبكية.

أمراض العين:

الرمد:

قال فريد وجدي في دائرة المعارف (مجلد ٤ ص ٢٨٤):

الرمد في اللسان الطبي هو التهاب الملتحمة.

أسبابه كثيرة منها: كثرة الضوء، ودخول الأجسام الغريبة إلى العين، وقد ينشأ من احتباس حيض وارتداد نزيف، أو عرق، أو عن داء جلدي، وقد يصاحب أمراضاً كثيرة كالحصبة والحمرة والجدري والحميات، وأمراض المخ، ومن أسبابه النوم تحت السماء وغسل الوجه بالماء البارد وهو في حالة عرق، وأكثر الناس عرضة للرمد الأطفال...

وللرمد حالتان، حادة أي حديثة، وحالة مزمنة، فالحادة ثلاثة أنواع وهي:

الرمد الخفيف: وهو احتقان بسيط يحصل في الملتحمة فتحمر العين، ويحس فيها برمل أو غيره فتدمع العين وتتألم، ذلك الإحساس ناشيء من احتقان الأوعية.

الرمد الشديد: وهو يبتدئ مثل الأوّل، ثمّ يشتد في كل أعراضه، وربما صحبه صداع يذهب بالنوم.

الرمد الخبيث: هذا النوع أشد من سابقه، يمتد فيه الإلتهاب إلى بقية أجزاء الملتحمة ويفسدها ويشتد ألم العين والرأس وقد ينشأ عنه التهاب المخ أو ينتهي بالتقيح، ويتكون عنه خراج في باطن العين، وقد يؤثر الإلتهاب في القرنية ويلينها أو يمزقها ويحدث فيها فتقاً تخرج منه القزحية، أو سيل منه رطوبة العين فيفقد الإبصار.

الرمد المزمن: هذا الرمد يعقب الرمد الحاد، وأعراضه أخفّ من

أعراض الرمد الحاد، ويعرف صاحبه بدوام احمرار عينيه ودمعهما وغلظ أجفانهما، وتنشأ عنه الشعرة وتختلف معالجته.

يعالج الرمد الخفيف بالتوقي من الضوء الشديد وغسل العين بحمض البوريك، أو بالماء المخلوط بقليل من الخل النقي، أو ببعض قمحات من الشب مراراً في اليوم، وأن لا يتناول الأرمد إلاّ الأغذية الخفيفة، وأما معالجة الرمد الشديد والمزمن فتحتاج لعناية الطبيب الرمدي.

دخول جسم غريب في العين:

إذا دخل جسم غريب في العين التهبت، وتتابعت الدموع، واستحال على الإنسان فتح عينيه فإذا أريد إخراج ذلك الجسم الغريب من عينه، وجب أن يجلس على كرسي أمام ضوء نافذة ثمّ يقف الإنسان خلفه ويثني رأسه إلى الوراء على قدر الإمكان، ثمّ يحاول فتح جفنه بلطف، فيظهر له هذا الجسم الغريب في جهة من جهات كرة العين أو الجفن، فيعمد إلى طرف منديل ويزيله به بلطف، فيزول وتزول معه الأعراض التي كانت في العين.

ولكن قد يحدث أن الأعراض تبقى بعد زوال ذلك الجسم، ففي تلك الحالة يجب وضع رفادات على العين فلا يمضي زمن طويل حتّى تسكن تلك الأمراض وتزول.

ويمكن في كثير من الأحوال إزالة الأجسام الغريبة من العين بطريقة سهلة، وذلك أن المصاب يبلّ بريقه سبابته أو وسطاه، ثمّ يدلك جفنه بلطف مبتدئاً من جهة اللحظ، أي من الطرف المضاد للطرف الذي

بجواره الأنف، ويستمر على ذلك عدة مرات مبتدئاً كلّ مرة من جهة اللحظ، ومنتهياً بالجهة المجاورة للأنف، أي الموق.

فإذا لم يخرج ذلك الجسم الغريب بهذه الوسيلة فيعمد إلى فتح الجفن. وطريقة فتحه أن يمسك بعض الرمش ثم يضغط بقضيب دقيق على الجفن من الخلف فيظهر باطنه، ويظهر ذلك الجسم الغريب عليه، فيؤخذ إذ ذاك قطعة من القطن مبتلة أو فرشة عين، ويُزال ذلك الجسم بلطف.

فإذا كان الجسم في الجفن الأسفل أمسك الرمش وضغط على الجفن بقضيب كالسابق، فيظهر الجسم الغريب، فيزال.

سمادير العين:

السمادير في لغة العرب هي الخيالات التي تشبه الذباب تطير حول العين هنا وهناك، ويسمّيها الفرنج الذباب الطائر، هذه السمادير ليست خطرة، ولكنها تضجر صاحبها، وتنشأ من أتعاب العين وتكليفها فوق طاقتها، ومن شرب أشربة حريقة.

(علاجها) ينحصر علاج هذه السمادير في اجتناب الأشربة الحريقة والملح والخل والإعتناء بالتبرز، فيجب أن يتبرز الإنسان كل يوم، ويجب أن يمشي في الهواء الطلق، وأن يبعد الدم عن الرأس بالمشي في الماء، والجري على الاعشاب المبتلّة حافياً، ودلك الرجل ثمّ إراحة العين حتّى تزول تلك السمادير.

عشا العين:

العشا في اللغة: هو عدم الرؤية نهاراً، وقد شوهد أنّ من الناس من لا يرى نهاراً كما يجب أن يرى، ولاسيما إذا كانت الشمس مضيئة،

ولكن إذا جنّ الليل قوي بصره ورأى الأشياء واضحة على نور المصباح، لا في الظلمة المطلقة كما يظنّ بعضهم.

أسباب هذا المرض يمكن أن يكون مرض الهستريا، أو مرضاً في ذات العين، ويجوز أن يكون طبيعياً في الشخص.

فإذا كان المرض طبيعياً لم ينفع فيه علاج، وإذا كان تابعاً لمرض آخر فلا يزول إلاّ بإزالة سببه.

الإلتهاب المعدي للعين:

يسمّى هذا المرض برمد مصر، قد يعتري الأطفال المولودين حديثاً وغيرهم.

(أعراضه) ورم الجفون، وظهور حبيبات في الغشاء المخاطي للجفون، وحرارة وإفرازات عينية، ومدة كثيرة، وحمى واضطرابات في القرنية ويلي هذا كله تكوّن دمامل مدمّرة للعين.

أسبابه في الأطفال تسرّب مواد قذرة عند الميلاد إلى العين من عضو تناسل المرأة، وعدم عناية القابلة بغسلها جيداً، وتحدث للكبار من العدوى والهواء المفسود والأتربة والجرح والوساخة.

(العلاج): قماط عام للجسم مبتلّ بالماء الفاتر مدة ساعة ونصف، هذا إذا لم يكن هناك مانع مثل مرض في القلب أو في الرئتين، ثمّ يأخذ حمّاماً فاتراً أيضاً.

ثمّ غرغرة كل ساعة بالماء الفاتر، وغسل الأنف من الداخل كل ساعتين بماء فاتر.

ويجب عمل رفادة عامة للجسم كل يوم مدة أربع ساعات بالماء الفاتر، ورفادة أخرى على العنق.

ثمّ يجب غسل العين بقطعة مبتلة بالماء الساخن كل ساعتين مرة، ثمّ وضع رفادات بالماء الساخن على العين وتغييرها مراراً كثيرة.

الشرارة العينية:

يرى بعض الناس كأن شراراً يتطاير حول أعينهم يشبه البرق، وهو يدّل على تهيج المخ، سواء بالأشربة الكحولية أو بالوسوسة والإهتمام بالذات، كما يحدث للمصابين بالهيبوخو نداريا.

العلاجَ: رفادة عامة على الجسم بالليل، وأخذ حمامات بخارية، والحمام البخاري يعمل بأن يحيط الإنسان نفسه بست زجاجات مملوءة ماء ساخناً وملفوفة بخرقة مبتلة.

ثمّ تقوية الجسم بالرياضة والأغذية الجيدة الصحية، وإزالة سبب هذا التهيج المخّي.

صحة العين:

قال فريد وجدي:

العين من الأعضاء السريعة التأثر، وهي مع ذلك معرضة للجو تعرضاً مستمراً، فيجب العناية بأمرها عناية تلائم سمو وظيفتها.

فمما يضرّ بالعين الهواء الحار، فإنه يجفف الرطوبة المندية لها، واختلاف الأهوية؛ لأنه يحبس العرق عن الوجه، فيحتقن الغشاء المخاطي المغشي للعين فيزيد إحساسها، ويحصل من ذلك رمد. والأبخرة المتصاعدة في المراحيض ومن معامل الرصاص والزئبق، يجب أن لا يعرض الإنسان عينيه لهذه المؤثرات، فإن اضطر لذلك وجب عليه تعريضهما بحذر شديد، ثمّ إراحتهما بعد الفراغ من العمل إراحة طويلة.

ثمّ إن العوارض الضارة بالعين لا تقتصر على ما يأتيها عرضاً من الجو، بل تتناول بعض ما يتناوله الإنسان من المشروبات التي تضر بالعين: السوائل الكحولية؛ لأنها توجه الدم إلى الرأس فتسبب احتقاناً في العينين، ومن المآكل الضارة بهما التوابل وما شابهها.

وأما زيادة الإحساس بأن يكون الشخص لا يستطيع احتمال النور، فعلاجه استعمال النظارات الزرقاء، ثمّ التدرج في لونها من الزرقة الشديدة إلى ما بعدها حتّى تنتهي إلى زجاجة بيضاء، فتكون العين قد تعودت الضوء فلا ترجع للتألم منه.

وأما ضعف الإحساس، وهو عدم إمكان رؤية الأشياء إلاّ بضوء شديد، فعلاجه الراحة والتعود على النظر للأشياء في ضوء ضعيف.

تغيرات الإبصار:

قد يحدث لبعض الناس تغيرات في الإبصار، كطول النظر أو قصره أو زيادة في الإحساس البصري أو ضعفه.

فأما قصر النظر فناشئ من تحدّب العينين وبروزهما، وكلاهما ناشئ عن زيادة رطوبتهما.

وأما طول النظر فهو ناشئ من قلة الرطوبة المائية التي تسبب فلطحة العين، وهي تنشأ في الخامسة والأربعين من عمر الإنسان، ثمّ تزيد كلما تقدم العمر. كلتا هاتين العلتين تعالجان بالنظارات» انتهى عن فريد وجدي.

* * *

وممـا ورد عـن علـي فكـري فـي كتابـه (الإنسـان) فـي القسـم الثالـث (ص ٥٤) تحت عنوان:

العناية بالعين وصحتها:

العين زينـة الوجـه، وهـي أهـم عضـو ظـاهر فـي الجسـم، فيجـب العنايـة بهـا حتّـى لا تكـون عرضـة للأمـراض، وفقـد الإبصـار، ولحفـظ العـين سـليمة يجب اتباع النصائح الصحية الآتية:

١ ــ غسـل الوجـه واليـدين كـل يـوم، مـرتين علـى الأقـل بالمـاء والصـابون، مـع العنايـة التامـة بتنظيـف الأهـداب، وعـدم دخـول الصـابون فـي العين.

٢ ــ لا تغسـل عينيـك بمـا سـبق اسـتعماله، دفعـاً لعاديـة المـرض عنهـا، واغسل يدك كلما أمسكت شيئاً قذراً.

٣ ــ وقـوع الـذباب علـى الوجـه دليـل علـى عـدم نظافتـه، أو أن هنـاك إفـرازاً (عاصـاً) يسـيل مـن العـين، فاغسـل وجهـك إذن، واجتهـد فـي ذبِّ الذباب عن العين حتّى لا يصيبها الرمد.

٤ ــ بعـد غسـل العـين يجـب تجفيفهـا بمنـديل خـاص أو منشـفة (فوطـة) ولا تسـتعمل منـديل غيـرك دفعـاً للإصـابة بالرمـد الحبيبـي المنتشـر كثيراً في مصر.

٥ ــ يجـب اجتنـاب لمـس العـين بالأصـابع، مـع اسـتعمال المنـديل أو منشفة عندما يراد تنظيفها.

٦ ــ يجـب غسـل العين كـل ليلـة بمـاء فـاتر قبـل النوم، ففـي ذلـك مزايا صحية لها.

٧ ـ يجب غسلها عقب القيام من النوم بالماء والصابون، (والوضوء كفيل بذلك).

٨ ـ يجب اجتناب ما يولد الرمص (أي العماص) حتّى لا يصاب بأمراض العين التي تنتقل جراثيمها بواسطة الذباب.

٩ ـ لا تضع الكحل غير الصحي في عينيك أبداً اجتناباً لإصابتهما بالإلهتاب.

١٠ ـ لا تنم على فراش مصاب بالرمد كيلا تصاب مثله بالرمد السريع العدوى والمتلف للعين (الرمد الصديدي).

١١ ـ لا تطل النظر في شيء يسبب نظرك إليه ألماً في العين أو الرأس كالمطالعة في الكتب الدقيقة الحروف، أو في النور الضئيل، ولا تقرأ في الترام ولا أنت ماشٍ أو نائم.

١٢ ـ يجب في أثناء المطالعة أن تكون المسافة بين العينين والكتاب شبراً أو أزيد، وأن يأتي النور من الجهة اليسرى لا من الأمام.

١٣ ـ يجب اجتناب المطالعة في الكتب الرديئة الطبع، أو التي حروفها دقيقة جداً؛ لأن المطالعة فيها تؤدي إلى قصر النظر، والإضرار البالغ بالعين.

١٤ ـ وكذا إطالة النظر في الأشياء الدقيقة، أي الرفيعة جداً، أو مواجهة الأنوار الساطعة، كنور القمر، وعين الشمس، والأنوار الكهربائية الشديدة، لما فيه من أتعاب العين والإضرار ببصرها.

١٥ ـ وكذا إطالة التأمل في الألوان الزاهية، وأوفق الألوان للنظر الأزرق والأخضر، بخلاف الأحمر والأبيض فهما يتعبان البصر.

١٦ ـ حذار أن تترك عينيك مجردتين، أي بلا منظار صحي، إذا كان الضوء شديداً أو كان الغبار ثائراً.

كيفية الإبصار:

وكيفية الإبصار: هي أن تدخل أشعة النور من الحدقة إلى العدسة، معكوسة من أعلا الشبكية عند انبثاقها من العصب البصري، بحيث يكون أعلا الشيء أسفله، ثمّ يحملها العصب البصري إلى المخ على حقيقتها الأصلية، فيتصورها الرائي. وذلك كله بدون عناء، إذا كان البصر طبيعياً سليماً، وأما إذا اعتراه طول أو قصر فلا بد من التعديل باستعمال النظارات، وفي حالة قصر البصر، يزداد تحدب العدسة، وتمدد كرة العين، من الخلف إلى الأمام، وتقع أشعة المرئي قبل مركز البصر وهو (الشبكية). وفي حالة طول البصر تنكمش كرة العين من الخلف إلى الأمام، وتتفلطح العدسة، وتقع أشعة المرئي بعد مركز البصر.

وقصر البصر يسمى (ميوبيا)، وطوله يسمى (هيرمتروبيا)، وهناك نوع آخر يسمى (استجماتيزم) فيه يكون سطح القرنية الشفافة غير منتظم فيتعذر على العين تكييف رؤية الأشياء.

وفي هذه الأحوال كلها يمكن إصلاح حالة البصر بواسطة النظارات، فقصير البصر يحتاج إلى منظار مقعر، وطويل البصر يحتاج إلى منظار محدّب؛ وذلك بقياس خاص بمعرفة الطبيب.

* * *

وقال فريد وجدي في دائرة معارفه (مجلد ٢) مادة (الإبصار):

كيف نبصر الأشياء؟

كان الأقدمون يظنون أن إبصارنا للأشياء يتم بواسطة نور ينبعث من أعيننا فيدرك المرئيات. وقد ثبت الآن غير هذا الرأي. فقال علماء

الطبيعة: إن أبصارنا للأشياء يتم بواسطة أشعة تنبعث من الجسم المرئي من كل نقطة فيه، فترتسم له صورة مصغرة في أعيننا، فيحمل عصب العين تأثير هذه الصورة إلى المخ فيدركها.

ولكن إن قلت: كيف ينقل عصب العين تأثيرها إلى المخ، وما معنى أنه يدركها وهو مادة جامدة لا ميزة لها على أي مادة عضوية على قول الماديين. عجز أكبر علماء المادة عن الجواب.

أما الحقيقة أن العين آلة للإبصار، ولكن المدرك للأشياء في حقائقها هو الروح، أوّلاً، فها هو الميت له عين ترسم المرئيات على شبكيتها، ومخ لا يفترق في مادته عن مادة مخ الرجل الحي، فلماذا لا يدرك الأشياء ولا يتعقلها؟ أليس لأنّ الروح قد زايلته فصار لا يعي ولا يبصر؟

على أنه قد ثبت أن المنوَّم نوماً مغناطيسياً يبصر الأشياء وهو مقفل العين؛ بل ويبصرها من خلال الحجب؛ بل ومن بلاد بعيدة، فما الذي أدركها فيه وعينه معطلة؟

أليس هذا دليل محسوس على أن المدرك للمرئيات هو الروح دون الجسد؟ انتهى.

* * *

والآن فلنستعرض كلمة الفاضل الطبيب الشيخ ميرزا محمّد الخليل رحمه الله الذي ذكرها في المجلد الأوّل من كتابه (شرح توحيد المفضل: ١٣١)، وهي شرحه للدرس الذي أملاه الإمام الصادق عليه السلام على المفضل بن عمر الجعفي، وقد ذكرنا بعض فقراته في المجلد الأولى من كتابنا (شرح رسالة الحقوق)[1] في البحث عن العين.

(١) أنظر: ج ١: ١٤٦. (مطبوع).

[كلام الإمام السجاد عليه السلام للمفضل حول العين]:

قال رحمه الله بعدما ذكر كلمة الإمام عليه السلام للمفضل عن العين وهي قوله عليه السلام:

«أنظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس التي خصّ بها الإنسان في خلقه وشرف بها على غيره. كيف جعلت العينان في الرأس كالمصابيح فوق المنارة، ليتمكن من مطالعة الأشياء، ولم تُجعل في الأعضاء التي تحتهنّ كاليدين والرجلين، فتعترضها الآفات، ويصيبها من مباشرة العمل والحركة ما يعللها ويؤثر فيها وينقص منها، ولا في الأعضاء التي وسط البدن كالبطن والظهر، فيعسر تقلبها وإطلاعها نحو الأشياء، فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع، كان الرأس أسنى المواضع للحواس، وهو بمنزلة الصومعة لها».

الشرح:

قال رحمه الله: لقد ذكر الإمام عليه السلام في هذا الفصل أبرز ما أودع الله تعالى في الإنسان من المبدعات في الخلقة، وهي الحواس، وخص بالذكر منها أعظمها نفعاً وأكثرها خطراً، وألزمها في الحياة، وهي العينان، ليستدل بها على بداعة الصنع، وحكمة الخلقة، وليوقظ الغافل ويفهم الجاهل ليفكّرا في قدرة الخالق والإعتراف بتوحيده تعالى.

وها أنذا أذكر لك الآن مجمل الحواس، ثمّ نرجع إلى تفصيل تركيب العين، وكيفية إبصارها، وأنها لماذا جُعلت في الرأس دون سائر الأعضاء:

الحواس جمع حاسة، وهي العضو الذي يدرك به نوع من المحسوسات.

أما الإحساس والشعور، فهو تلك القوة الغريبة التي يدرك بواسطتها الإنسان عن طريق المجموع العصبي كلما يحيط به من

الأجسام أو الألوان أو الأشكال أو الطعوم أو الأصوات أو الروائح أو الخشونة أو الملاسة أو غيرها من سائر المدرَكات، وهو أي الإحساس نوعان: عام وخاص، فالعام ما لم يكن له عضو خاص، أو موضع معين في الجسم، مثل حسّ الجوع والعطش، أو الشبع والرواء، أو التعب والألم، أو الخوف والفرح إلى أمثالها من الإحساسات العامة، والخاص: هو ما يحصل للإنسان بواسطة أعضاء معينة تدعى بالحواس وهي خمسة:

الأولى: حاسة البصر: وموضعها العينان، وبها تميّز الأشكال وأحجام الأجسام وألوانها وقربها وبعدها. وهي من أعظم الحواس خطراً وأهمّها نفعاً، ولأجل هذا خصها الإمام عليه السلام بالذكر هنا قبل سائر الحواس الأخر.

الثانية: حاسة السمع: وموضعها الأذنان، وبها تدرك الأصوات بأنواعها.

الثالثة: حاسة الذوق: وموضعها اللسان، وبها تميز الطعوم على اختلاف أقسامها.

الرابعة: حاسة الشم: وموضعها الأنف، وبها تدرك الروائح طيبة أو نتنة.

الخامسة: حاسة اللمس: وموضعها الجلد عامة، وبها تدرك صلابة الأجسام ومرونتها وخشونتها ونعومتها كما تميز الحرارة والبرودة، والضغط والألم وأمثالها من المحسوسات، وسنذكر كل حاسة في محلها إن شاء الله، والآن نبدأ بذكر العين وتركيبها وتشريحها:

إنّ العين مركبة مؤلفة من أعضاء أصلية داخلية، وأعضاء ملحقة خارجية:

أما الأصلية فهي المقلة (كرة العين)، وأما الخارجية الملحقة، فهي الحاجبان، والجفنان، والعضلات المحركة، والجهاز الدمعي، ولنذكر أوّلاً الملحقة لاختصار بيانها فنقول:

الحاجبان: هما قوسان من الشعر فوق الحجاجين،[١] يحميان العين من الأشعة الضيائية الشديدة القائمية، ويمنعان انحدار العرق من الجبهة إلى العين، ويقيانهما من الأجسام الساقطة من الأعلى.

والجفنان: جلدتان مكونتان من أغشية جلدية وعضلية، تضمّان المقلة وتحفظانها بانطباقهما عليها بشكل نصف دائرة، وقد خلق الله على حافتيهما السائبتين صفّين منظمين من الشعر الرقيق الناعم، يسمى كل واحد منهما (هدباً) يحميان العين من الأنوار الشديدة والغبار، ويحكمان سدّ الأجفان عند انطباقهما على العين.

والجهاز الدمعي: جهاز مركب من الغدد الدمعية التي تمتد منها قنوات صغيرة رقيقة تحمل الافرازات الدمعية المرطبة للعين والفاصلة لها من الغبار والجراثيم الخارجية الطارئة عليها، وهذا الإفراز الدمعي بعد أداء هذه الوظيفة للعين، يذهب قسم منه إلى الخارج عن طريق الأنف وهو الزائد على الحاجة، ويخزن قسم آخر منه على القناتين الدمعيتين عند المآق من كل عين، ليخرج منه عند البكاء، أو عند بعض الحالات النفسية التي تستدعي خروج الدموع.

والعضلات المحركة: هي عضلات صغيرة رقيقة، وعددها ست تقع داخل الجوف الحجاجي بين كرة العين وإحدى نقاط الوجه الداخلي من جوف الحجاج، وهي التي تحرك العين وتدير المقلة من الأعلى إلى الأسفل ومن اليمين إلى الشمال؛ بل وجميع الأطراف حسب إرادة الإنسان وحاجته، هذه هي الأعضاء الملحقة.

---

(١) الحجاجان: هما العظمان المشرفان على غاري العينين، ويقال رجل غائر الحجاجين ورجل مشرف الحجاجين. (الكنز اللغوي لابن السكيت: ١٨).

أما المقلة: فهي عضو مركب من خمسة أغشية (طبقات) وثلاث رطوبات، أما الطبقات فهي:

أولاً: الطبقة القرنية الشفافة المعروفة (بسواد العين) ومحلها في وسط الطبقة الصلبة (بياض العين) وهي مستديرة الشكل محدودبة الوضع.

ثانياً: الطبقة الصلبة (الملتحمة) المعروفة ببياض العين، وهي غشاء صلب أبيض قوي مفروش على العين كلها، حافظ لجميع أجزائها.

ثالثاً: الطبقة (القزحية) وهي الغشاء المتحرك تحت القرنية، والمثقوب في وسطه ثقباً صغيراً يسمى (البؤبؤ) أو (الحدقة)، وهذا الغشاء يتلون بألوان مختلفة من أسود وأزرق وأشهب وأخضر، وهو ينقبض وينبسط حسب شدة الأشعة الواردة عليه أو ضآلتها.

رابعاً: المشيمية وهي غشاء أسود خلف الطبقة الصلبة، يمتص الأشعة الضوئية ويكسر حدتها عن أن تصدع نور العين.

خامساً: الطبقة الشبكية وهي آخر الطبقات إلى الداخل وأهمّها، لأنها تحتوي على الأعصاب الكثيرة المنبعثة عن العصب البصري من نفس الدماغ، وفي هذه الطبقة المهمة تنطبع جميع الصور المرئيات، فتوصلها إلى الدماغ لتأخذ منه الحكم بتمييزها ومعرفتها.

أما الرطوبات الثلاث فهي:

أولاً: الرطوبة البلورية المسماة العدسةَ لمشابهتها بحبّة العدس في تحديب وجهيها، وموضعها خلف الطبقة القزحية محاطة بمحفظة من غشاء قوي، وفائدتها كسر الأشعة الضوئية الداخلة إلى العين من الخارج، ثمّ جمعها فوق الشبكية.

ثانياً: الرطوبة الزجاجية: وهي مايع صافٍ أبيض كالزجاج، يشبه في قوامه الهلام أو المخاط وهي تملأ الفراغ من الكرة العينية ولولاها لكانت العين مثل الكيس ملتصقة جدرانها بعضها ببعض، وموضعها خلف الرطوبة البلّورية.

ثالثاً: الرطوبة المائية: وهي سائل مائي القوام، يملأ الخزانتين القدّامية والخلفية، المفصول بينهما بالطبقة القزحية. هذا مجمل تركيب العين.

وقد ذكر صاحب الرسالة: العلم يدعو إلى الإيمان (ص ١٢٢) عِظَم إبداع الخلقة في هذا العضو المهم العجيب، فقال:

إنّ عدسات عينك تلقي صورة على الشبكية فتنظم العضلات بصورة آلية إلى بؤرة محكمة، وهذه الشبكية تتكون في تسع طبقات منفصلة، هي في مجموعها ليست أسمك من ورقة رقيقة دقيقة، والطبقة التي هي في أقصى الداخل منها تتكون من أعواد ومخروطات، ويقال إنّ عدد الأعواد فيها تبلغ الثلاثين مليوناً، وعدد المخروطات فيها تبلغ الثلاثة ملايين، وقد نظمت هذه كلها في تناسب محكم بالنسبة لبعضها، وبالنسبة للعدسات، ولكن العجيب أنها تدير ظهورها للعدسات، وتنظر نحو الداخل لا نحو الخارج، وإذا استطعت أن تنظر في خلال العدسات، فإنك ترى عدوك مثلاً مقلوب الوضع، والجانب الأيمن منه هو الأيسر، وهذا أمر يربكك إذا حاولت أن تدافع عن نفسك، ولذا فإن الطبيعة قد عرفت بطريقة ما ماذا سيحدث، ولذا أجرت ذلك التصميم قبل أن تقدر العين على الإبصار، ورتبته بنظم كاملة عن طريق ملايين خويطات الأعصاب المؤدية إلى المخ، ثم رفعت مدى إدراكنا الحي من الحرارة إلى الضوء، وبذا جعلت العين حساسة بالنسبة إلى الضوء وعدسة عينك

تختلف في الكثافة، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة. ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أي مادة من جنس واحد كالزجاج مثلاً، وكل هذه التنظمات العجيبة للعدسات والعيدان والمخروطات والأعصاب، وغيرها لا بدَّ وأنها حدثت في وقت واحد؛ لأنه قبل أن يكمل كل واحد منها كان الإبصار مستحيلاً، فكيف استطاع كل عامل أن يعرف احتياجات العوامل الأخرى، ويوائم بين نفسه وبينها. انتهى.

أقول: ولا يخفى أن لهذه الآلة البديعة الخلقة، العظيمة الفائدة (عدا الإبصار) وظائف أخرى تجعل العقل المحدود في إدراكه في حيرة واندهاش.

فإنها هي المرآة التي تنعكس فيها جميع المشاعر الحياتية وحروفها، وهي تلك النقطة الصغيرة التي تنجمع فيها، ثمّ تشعّ منها مختلف العواطف التي تجول في خاطر الإنسان، فإذا كان مسرور الخاطر بانَ في عينيه قبل أن يرتسم على وجهه، وإذا كان غضباناً تطاير الشرر منهما، وإذا كان خائفاً زاغ بصره وإذا كان خجولاً قرأ الخجل في عينه؛ بل وحتّى المحب الذي ينطوي على كبد حرّى فيكتم هواه، لا يخفى أمره بل تتكلم عيناه، كما قال الشاعر:

وللعيون أحاديث بلا كلم   وكم لها في الهوى شرح وتبيانُ

وكم تناجى المحبون، وتفاهم الشعراء بلغة النظر وحديث العيون إذا ما تعذرت عليهم لغة الكلام كما قال أحدهم:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت   عيني في لغة الهوى عيناكِ

إذاً فالعين هي المرآة الصافية التي تنعكس فيها كل الخوالج الحيوية، والمؤثرات النفسية، أما إذا انطفأت جذوة الحياة، تعتمت قرنية العين، وانطفأ مصباح نورها، كما ينطفيء المصباح الكهربائي حينما ينقطع عنه التيار.

وإلى هذا أشار الإمام عليه السلام بقوله: «جعلت العينان في الرأس كالمصابيح فوق المنارة».[١]

ثمّ إنها مضافاً إلى ما ذكرنا، تنم عن شخصية الإنسان من عزيمة أو ضعف أو تردد أو همّة، أو أيّ صفة جُبل عليها أو اعتادها، كما تضفي على الوجه نوعاً من الرقة والجمال لا يجهله الكثير من الناس.

وهي عنوان الصحة والمرض، ودليل انحراف المزاج واستقامته؛ بل المقياس الدقيق لدى الأطباء للتشخيص ومعرفة الصحة والداء، وهي وإن تشابهت أجزاؤها عند جميع أفراد الإنسان، فإنّ لكل عين طابعها وسحرها وجمالها وحورها وكحلها وجذابيتها، وأخيراً فإنها دون سائر الأعضاء جزء من المخ تكونت منه ثمّ تطورت إلى وضعها المرئي.

وإن العصب البصري خاصة ممتد من خلايا المخ نفسه، فلا غرابة إذا ما أصبحت تُعرب عن كلما يجري فيه من انطباعات وإحساسات. فهي مترجمة له، حاكية عما فيه. إذاً فالمخ مبعث العواطف والإحساسات، والعين لسانه الناطق وترجمانه الصادق.

ومن هنا تعرف السبب في تخصيص الإمام عليه السلام بحثه في العينين أوّلاً وقبل جميع الحواس.

فإذا عرفت عظمة هذا العضو المهم، تحقق لديك وجوب العناية به في الخلقة، ثمّ وقايته وصيانته من الطوارئ، ثمّ أدركْتَ الحكمة في جعل العينين في الرأس أعلى الأعضاء وأسماها، لا في اليدين أو الرجلين، لأنها أعضاء جوارح وعوامل تتصادم مع الأجسام الخارجية مما يجعلها معرضاً للآفات التي قد تصيبها

---

(١) بحار الأنوار ٣: ٦٩.

من مباشرة العمل والحركة، فتؤثر فيهما وتمرضهما، كما لا يحسن أن يجعلا في الأعضاء التي في وسط الجسم، كالبطن والظهر؛ لأن من أبرز وظائف العينين الاستطلاع والتطلع على الأشياء، فيكون جعلها في وسط الجسم مما يعوقهما من الإطلاع على شيء البتة، فينتج من ذلك لزوم وضعهما في الرأس لا غير، بل هو الذي ينبغي أن يكون ولا يكون غيره.

وإنما كان الرأس كالصومعة تشبيهاً له بصومعة العابد على رأس الجبل، بعيداً عن الناس مشرفاً عليهم، والرأس كذلك بعيد عن الأعضاء مشرف عليها.

وفي هذا من الابداع والحكمة والإتقان ما لا يدركه إلاّ ذو عقل سليم، وذوق معتدل، فسبحان الخالق عمّا يتشدق به الجاهلون. انتهى.

* * *

نصائح أدبية:

آداب العين ذكرها علي فكري في كتابه (الإنسان):

العين مرآة الإنفعالات النفسية، وهي أكرم أعضاء الإنسان، وأغلاها وأنفعها.

وقال بعض الحكماء: العين باب القلب، فما كان في القلب ظهر في العين.

وقال الشاعر:

وإن تكُ في حبيب أو عدو ... تخبرك العيون عن الضمير

وقال آخر:

والعين تعرف من عَيْنَي مُحدثِها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

وقال آخر:

عين الفتى لعقله دليل ... وعقله لذاته تكميلُ

١ ـ فاحذر أن يكون في نفسك حقد كمين تترجم عيناك عنه، أو رياء تحاول أن تخدع به غيرك، أو حسد ترمق به مال سواك.

٢ ـ من فضول النظر التحديق في الناس والأشياء بغير ما سبب، والنظر إلى المحرمات المنهي عنها شرعاً، والنظر إلى المرأة الأجنبية.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.(١)

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.(٢)

وقال صلى الله عليه وآله: «يا عليّ لا تتبع النظرة النظرة، فلك الأولى، وعليك الثانية».(٣)

وقال صلى الله عليه وآله: «ثلاثة أعين لا تمسها النار: عين غضّت عن محارم الله، وعين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله».(٤)

٣ ـ متى خاطبت أحداً فلا تحوّل نظرك من جهة إلى أخرى، وكن طلق الوجه مع إخوانك لكيلا تحبس حريتهم في المحادثة والمعاملة، وتجنب تقطيب الوجه والعبوس، وكل ما يدل على الطيش ويوجب الإستهزاء.

٤ ـ أنظر بعين القناعة لكل ما تراه، وإن رأيت عند أحد من نعم الله ما ليس عندك فلا تحسده على هذه النعمة، أي لا تتمنَّ زوالها، بل أدعُ له بالبركة فيها والكثرة منها، عملاً بالحديث الشريف:

---

(١) النور: ٣٠.

(٢) طه: ١٣١.

(٣) بحار الأنوار ١: ٣٦.

(٤) مكارم الأخلاق: ٣١٥.

«إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدعُ له بالبركة، فإنّ العين حق».[1]

والتمس مثلها لك، فانّ الحسود لا يسود، وقلبه دائماً مملوء بالهم والغم، كما قال الشاعر:

إني لأرحم حاسدي لفرط ما ... ضمّت صدورهم من الأوغارِ
نظروا صنيع الله بي فعيونهم ... في جنّة وقلوبهم في نارِ

٥ _ أنظر إلى الناس بالعين التي ترجو أن ينظروك بها، فإن نظرت إليهم بعين الاحترام نظروا إليك بتلك العين، وإن نظرت إليهم بعين الإزدراء والاحتقار فلا شك أنهم ينظرون إليك بتلك العين، كما قال الشاعر:

من رآني بعين نقص ... رأيته بالذي رآني
ومن رآني بعين تمّ ... رأيته كامل المعاني

٦ _ لا تنظر إلى هيأة الناس، ولا تغتر بمناظرهم الكاذبة الخادعة، ولا تحكم عليهم إلاّ بآدابهم وأفعالهم، كما قال الشاعر:

لا تنظرنّ لأثواب على أحد ... إن رمت تعرفه فانظر إلى الأدبِ
فالعود لو لم تفح منه روائحه ... ما فرّق الناس بين العود والحطبِ

٧ _ من الناس من إذا نزل به مكروه، أو ألمّ به نازل من الضيق، أطرق برأسه نحو الأرض، ونظر إلى نقطة منها لا تتحول عينه عنها، أولئك هم ضعاف القلوب الذين يفقدون الثقة في المستقبل، والرجاء في جانب الله، ويضيعون بفعلهم هذا شطراً كبيراً من أعمارهم فيما لا فائدة فيه.

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة ٥: ٤٤٧.

والواجب أن ينظروا إلى الأمور بعين الحقيقة، ويعلموا أن الشدة والضيق يعقبهما الفرج والتوفيق، وليصبروا على ما أصابهم، فكل شيء لضدّه يتحول، وليلزموا الصبر إذ عليه في كلّ الأمور المعوّل.

وإذا أصابتهم (لا قدر الله) مصيبة يقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[١] فبذلك ينالون من الله الأجر، ويغنمون من الناس الثناء والشكر.

٨ ــ أنظر يا بني إلى من دونك في الدنيا، لا إلى من فوقك، تعش سعيداً مستريح البال والخاطر، فالفقير الذي يظن أن السعادة في الغنى يعيش بائساً، ما دام ينظر إلى من هو أعلى منه من سعداء الحظ، لكنه إذا ألقى بنظره إلى من حوله بدلاً من هؤلاء لوجد من الناس من هم أشدّ منه بؤساً؛ لأنه ما من بائس إلاّ ويجد حوله من هو أشدّ منه بؤساً، وما من مريض إلاّ وبجانبه جار أو صديق يشكو مرضاً أشدّ من مرضه ألماً.

٩ ــ لا يليق أن تدقق النظر في ملك غيرك من مأكول ومشروب ولباس وأموال، وأولاد بقصد الضرر وتمنّي زوال النعمة، فهذه صفة الحسد المحرّم شرعاً، وقد أمر الله نبيّه بالاستعاذة منها فقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

١٠ ــ صفاء الجبين وجلاؤه يشفّ عن صفاء الباطن، ويسفر عن كرم الخُلق؛ وأما تجعّده فإنه يدل على الكآبة، فنقاء الجبين ترجمان الفضيلة، وتجعّده لسان الهموم، فاحذر من تقطيب حاجبيك، لأنّ تقطيب الحاجبين دليل على الكبرياء والإستهزاء بالغير.

* * *

---

(١) البقرة: ١٥٦.

الأحاديث والآثار في العين:

١ ـ «أدّوا حقّ المجالس، اذكروا الله كثيراً، وأرشدوا السبيل، وغضوا الأبصار».[١]

٢ ـ «إذا اكتحل أحدكم فليتكحل وتراً».[٢]

٣ ـ «إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه؛ فليدعُ له بالبركة فإن العين حق».[٣]

٤ ـ «إذا رأيتم الحريق فكبروا؛ فإنه يطفئ النار».[٤]

٥ ـ «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب».[٥]

٦ ـ «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه».[٦]

٧ ـ اصرف بصرك.

أي اقلبه إلى جهة أخرى، إذا وقع على أجنبية بلا قصد، فإن صرفته لم تأثم، وان استدمت أثمت.

٨ ـ «اكتحلوا بالأثمد المروح، فإنه يجلو البصر وينبت الشعر».[٧]

أي داوموا على استعمال الحجر المعدني المعروف (بالأثمد)

---

(١) الجامع الصغير ١: ٥٣.

(٢) كنز العمال ٦: ٦٤٥.

(٣) الجامع الصغير ٢: ٦٤٥.

(٤) الجامع الصغير ١: ٩٩.

(٥) بحار الأنوار ٩٢: ١٣٩.

(٦) الجامع الصغير ١: ١٣٤.

(٧) كنز الصغير ١: ١٣٤.

المطيب، فإنه يجلو البصر ويزيد نور العين بدفعه المواد الرديئة المنحدرة إليه من الرأس، وينبت الشعر، أي شعر أهداب العين؛ لأنه يقوي طبقاتها.

٩ ـ «اللهم اجعلني شكوراً واجعلني صبوراً، واجعلني في عيني صغيراً، وفي أعين الناس كبيراً».(١)

١٠ ـ «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».(٢)

١١ ـ «إن الله تعالى لا ينظر إلى من يجرّ إزاره بطراً».(٣)

١٢ ـ «إن الله تعالى لا ينظر على مسبل إزاره».(٤)

١٣ ـ «الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».(٥)

١٤ ـ «البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان».(٦)

أي البكاء من غير صراخ من رقة القلب، أما الصراخ فهو من الشيطان فيحرم.

١٥ ـ «ثلاثة لا ترى أعينهم النار يوم القيامة: عين بكت من خشية الله، وعين حرست في سبيل الله، وعين غضّت عن محارم الله».(٧)

١٦ ـ العين حق. أي الإصابة بالعين حق لا ينكره إلاّ معاند.

---

(١) الجامع الصغير ١: ٢٢٠.

(٢) مكارم الأخلاق: ٤٦٩.

(٣) نفس المصدر.

(٤) السنن الكبرى ٥: ٤٨٧.

(٥) بحار الأنوار ٥٦: ٢٦.

(٦) كنز العمال ١٥: ٦٠٨.

(٧) كنز العمال ١٥: ٨١٨.

١٧ ـ «العين تدخل الرجل القبر، أي تقتله فيدفن في القبر، وتدخل الجمل القِدِر، أي إذا صابته مات أو اشرف على الموت، فيذبح ويطبخ في القدر».[١]

١٨ ـ «العينان دليلان، والآذان قمعان، واللسان ترجمان، واليدان جناحان، والكبد رحمة، والطحال ضحك، والرئة نفس، والكليتان مكر، والقلب ملك، فإذا صلح الملك صلحت رعيته، وإذا فسد الملك فسدت رعيته».[٢]

العينان دليلان يرشدان الناس إلى السبل. والأذنان قمعان، أي يتبعان الأخبار ويحدّثان القلب، واللسان ترجمان أي يعبّر عما في القلب، وباقي الأعضاء كلها هي رعية للقلب.

١٩ ـ قال ﷺ: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ـ يريد عينيه ـ ثمّ صبر عوّضته منهما الجنَة».[٣]

٢٠ ـ «ما كرهت أن يراه الناس منك، فلا تفعله بنفسك إذا خلوت».[٤]

أي إذا كنت في خلوة بحيث لا يراك إلاّ الله والحفظة فلا تفعل ما يكرهه الناس.

٢١ ـ «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حلّ لهم أن يفقؤا عينه».[٥]

أي من نظر في بيت إلى ما يقصد أهل البيت ستره بغير إذنهم، فقد حلّ لهم أن يرموه بشيء فيفقؤا عينه به، إن لم يندفع إلاّ بذلك، وتهدر عين الناظر.

٢٢ ـ «من اطلع في كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع في النار».[٦]

---

(١) كنز العمال ٦: ٧١٤.

(٢) الجامع الصغير ٢: ١٩٧.

(٣) كنز العمال ٣: ٢٧٦.

(٤) الجامع الصغير ٢: ٥٠٤.

(٥) السنن الكبرى ٤: ٢٤٧.

(٦) الجامع الصغير ٢: ٥٧٤.

أي فكأنما ينظر إلى ما يوجب عليه دخول النار، والكلام في كتاب فيه سر وأمانة يكره صاحبه أن يطلع عليه.

٢٣ ـ «من ذهب بصره في الدنيا جعل الله له نوراً يوم القيامة إن كان صالحاً».[1]

٢٤ ـ «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألاّ تزدروا نعمة الله عليكم».[2]

الشرح:

أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن ننظر إلى من هو أسفل منّا في أمور هذه الحياة الدنيوية وشؤونها. ونهانا أن ننظر إلى من هو فوقنا فيها.

أرشدنا إلى أن ننظر إلى المبتلى بالأسقام، ثمّ ننتقل منه إلى ما تفضّل الله تعالى به علينا من العافية التي هي أصل كل إنعام.

كذلك ننظر إلى من في خلقته نقص، كعمى أو صمم أو بكم، ثمّ ننتقل إلى ما نحن فيه من السلامة من تلك العاهات التي تجلب الغمّ والهم، فنحمد الله على ما نحن فيه.

وكذلك ننظر إلى من ابتلى بالفقر المدقع، أو بالدّين المذل لأعنان الرجال، ثمّ نلتفت إلى نجاتنا منهما، فنسجد لله شكراً.

على أنه ما من عبد يبتلى بشيء ما في هذه الحياة إلاّ وهناك من هو أعظم منه بلاءاً عناءاً فإذا نظر إليه كان له فيه سلوة وعظة، ووجب عليه أن يسارع إلى شكر الله تعالى على ما أنعم به عليه وتفضل.

---

(١) كنز العمال ٣: ٢٧٦.

(٢) كنز العمال ٣: ٢٥٦.

أما من كان فوقه في الدين والعلم الصحيح والفضل وعمل الصالحات، فإنّ النظر إليه مطلوب ومحبوب، لأنه يعلم به أنه من المفرّطين، إذ لولا تفريطه لكان مثله أو أعظم منه.

وصفوة هذه الحكمة النبوية البالغة: إن النظر إلى من هو دونه في الأحوال الدنيوية يجلب له السرور والإغتباط بما هو فيه، ويوقظه لشكر الله على نعمه التي أسبغها عليه، وإن النظر إلى من هو أعلى منه في الخير والطاعات يحمله على الحياء من الله ﷻ وينهض به على المسارعة والمبادرة في عمل الصالحات، وفنون البر على اختلافها وتنوعها.

٢٥ ـ «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».[١]

من شاهد أمراً مخالفاً للدين وجب عليه أن يمنعه بيده، كأن يمنع القاتل من القتل، والسارق من السرقة، فإن لم يتمكن من ذلك منعه بلسانه، كأن ينهى الشارب عن الشرب، والسارق عن السرقة، فإن لم يتمكن من ذلك أيضاً كره هذا العمل بقلبه وهو أقل ما يجب، وفي هذا سرّ عظيم، وهو أنّ الإنسان إذا مقت شيئاً لا يفعله ولا تميل نفسه إليه، ولا يمكّن غيره من فعله عند سنوح الفرصة.

والغرض مراقبة الناس بعضهم بعضاً ليتبعوا أوامر الدين الحنيف، فيكثر خيرهم ويزول ضرهم.

---

(١) مسند أحمد ٣: ٢٠.

ديوان الشعر:

ما قيل في العين من الشعر:

مـا كـان أحـوج ذا الكمـال إلـى عيـب يوقيـه مـن العـين

* * *

مـن شـاء رضـياً يسـتفيد بـه فـي دينـه ثـم فـي دنيـاه إقبـالا
فلينظـرنّ إلـى مـن فوقـه أدبـاً ولينظـرنّ إلـى مـن دونـه مـالا

* * *

إرض مـن الـدهر مـا أتـاك بـه مـن قـرّ عينـاً بعيشـه نفعـه

* * *

لـو كـان عـن عينـي صـديقي غائبـاً فمـا هـو عـن عـين الضـمير بغائـبِ
له صورة في القلب لم يقصها النوى ولـم تتخطفهـا أكـفّ النوائـبِ

* * *

كـم والـد يحـرم أولاده وخيـره يحظـى بـه الأبعـدُ
كـالعين لا تنظـر مـا حولهـا ولحظهـا يـدرك مـا يبعـدُ

* * *

لا تعجـبن لحسـود راح ينكرهـا تجـاهلا وهـو عـين الحـاذق الفهـمِ
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكـر الفـم طعـم المـاء مـن سـقمِ
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت مـن المحـارم والـزم حميـة النـدمِ
وما حوى الغار من خير ومن كرم وكـل طـرف مـن الكفـار عنـه عمـي
قـرت بهـا عـين قاريهـا فقلـت لـه لقـد ظفـرت بحبـل الله فاعتصـمِ

وقال حافظ إبراهيم في وصف قطار حديدي:

مرّ كاللمح لم تكد تقف العين ... على ظل جرمه المترامي

يقطع البيد والفيافي وحيداً ... لم تضعضعه وحشة الإظلام

* * *

ربّ يوم بكيت منه فلمّا ... صرت في غيره بكيت عليه

* * *

ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حالِ

* * *

إن كاتمونا القلى نمّت عيونهم ... والعين تظهر ما في القلب أو تصفُ

* * *

وعين البغض تبرز كلَّ عيب ... وعين الحبّ لا تجد العيوبا

* * *

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشررِ

والمرء مادام ذا عين يقلّبها ... في أعين الغيد موقوف على الخطر

* * *

إعمل بقولي ولا تنظر إلى عملي ... ينفعك قولي ولا يضرُرْك تقصيري

* * *

لا تأمنّنَّ على النساء ولو أخاً ... ما في الرجال على النساء أمينُ

كل الرجال وان تعفّف جهده ... لا بدّ أنّ بنظرة سيخونُ

* * *

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمانْ

* * *

إن يأخذ الله من عيني نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نورُ

قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل ... وفي فمي صارم كالسيف مشهورُ

* * *

[معجزة الكلام]:

قوله عليه السلام: «ويتكلم بِلحم».

أقول: سبق لنا أن تحدّثنا عن اللسان وخواصه في المجلد الأوّل من كتابنا (شرح رسالة الحقوق)،[1] والآن نعود نذكر طرفاً آخر منه لما له مزيد فائدة:

قال علي فكري في القسم الثالث من كتابه (الإنسان):

اللسان هو العنصر الخاص بحاسة الذوق، وهو عضلي ويمتد في داخل فراغ الفم، ويكسوه غشاء مخاطي، ويتصل بالفكّ الأسفل بواسطة عضلات تربطه به، وطرف اللسان الأمامي رفيع نوعاً، ومتحرك، وقاعدته عريضة، ويتصل بها طرف العظمة المسماة (بالعظمة اللامية).

وقال الفاضل الميرزا محمّد الخليلي في المجلد الأوّل من كتابه (شرح توحيد المفضل/ ط الأولى في النجف):

اللسان: هو عضو الكلام والذوق، وهو عبارة عن كتلة عضلية مغشاة بغشاء مخاطي خشن ذي نتوآت كثيرة تعرف (بالحلمات)، مزود بعدد عظيم من الفريعات النهائية للأعصاب الخاصة بالذوق، وفيه كثير

(١) أنظر: ج ١: ١١١. (مطبوع).

من الأوعية الدموية الدقيقة، وأعصاب أخرى تسمى (العصب تحت اللسان) وهي المحركة له نحو الجهات الأربع.

منفعة اللسان في صحة الإنسان:

قال علي فكري:

اللسان للإنسان كمرشد أمين، منبه له، فمتى حكم بأنّ الطعم لا يوافقه تنبهت النفس، واشمأزت منه، وكرهت المعدة قبوله، مخافة أن يهيّجها أو يضرّ بها.

أما إذا حكم بأنّ الطعم لذيذ، وأنّ المذوق نافع للبدن فالنفس تشتهيه، وتزيد رغبتها فيه، كما تزيد المعدة اشتياقاً لقبوله، وسائر أعضاء الهضم تزداد قوة ونشاطاً لهضمه فتتهيأ لقبوله، ولذا يجب أن نتحقق أنه ليس لنا غنى عن اللسان، إذ لولاه لانعدمت حاسة الذوق التي مركزها سطح اللسان، ولأكثر الإنسان من تعاطي ما يضره فيتلف صحته، ولكانت البلعة الغذائية في الفم كما تكون في اليد على حدّ سواء، ولكان الإنسان لا يميز عند الأكل بين الخبز الجيد، والخبز العفن الرديء الذي يترتب على كثرة الأكل منه ضرر عظيم، لأنّه سمّ قاتل.

وبالجملة فمنفعة اللسان لصحة الإنسان بديهية، وحينئذٍ لا ينبغي احتقار شأنه، وعدم اعتبار أمره، وإن خفي عليه أحياناً معرفة ما يضر الجسم بما يدخله في المواد المأكولة، إذ لا يتأتى له تمييز ما في السكر من السموم، كما يقع ذلك في الملبس الأزرق والأخضر اللذين دخولهما في جسم الإنسان بدون شعور من اللسان بما فيهما من الإضرار كدخول السم في الدسم، لاسيّما وأن الإنسان كثيراً لا يرى حلواً، ولا مالحاً إلاّ

تناولـه، ويتبـع الحـار بالبـارد، ويمـزج الغـث بالجيـد استرسـالاً مـع الـنفس لشـهوتها، ولـذا لا يكـاد ينجـو مـن العقـاب علـى هـذا الـذنب الـذي جـرّه إليـه جشعه.

اللسان وآفاته:

اللسـان مـن نعـم الله العظيمـة، ولطـائف صـنعه الغريبـة، فإنّـه صـغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه.

إذ لا يستبين الكفـر والإيمـان إلاّ بشـهادة اللسـان، وهمـا غايـة الطاعـة والعصيان.

واللسـان رحـب الميـدان فـي الخيـر والشـر، فمـن أطلـق عذبـة لسـانه، وأهملـه مرخـى العنـان، سـلك بـه الشـيطان فـي كـل ميـدان، وسـاقه إلـى شـفا جـرف هـارٍ، إلـى أن يضـطره إلـى البـوار، ولا يكـبّ النـاس فـي النـار علـى منـاخرهم إلاّ حصـائد ألسـنتهم، ولا ينجـو مـن شـرّ اللسـان إلاّ مـن قيّـده بلجـام الشـرع الشـريف، فـلا يسـتعمله إلاّ فيمـا ينفعـه فـي الـدنيا والآخـرة، ويكفّـه عـن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله.

خطر اللسان وفضيلة الصمت:

إن خطـر اللسـان عظـيم، ولا نجـاة مـن خطـره إلاّ بالصـمت فلـذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقال صلى الله عليه وآله: «من صمت نجا».[١]

وقال أيضاً: «الصمت حكم وقليل فاعله»[٢] (أي حكمة وحزم).

---

(١) بحار الأنوار ٧٤: ٨٨.

(٢) نهج السعادة ٧: ٣٤٢.

وقال معاذ بن جبل: قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ بن جبل، وهل يكبّ الناس على وجوههم أو مناخيرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم».[١]

وقال أنس بن مالك: قال ﷺ: «لا يستقيم إيمان العبد حتّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه».[٢]

وعن سعيد بن جبير: قال رسول الله ﷺ: «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان، أي تقول: اتّق الله فينا فإنّك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا».[٣]

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيراً أو ليسكت».[٤]

وقال الحسن: ذكر لنا أنّ النبي ﷺ قال: «رحم الله عبداً تكلمّ فغنم، أو سكت فسلم، لأنّ من كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه».[٥]

وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله، وأحبّ الأعمال إلى الله حفظ اللسان».[٦]

---

(١) ميزان الحكمة ٤: ٢٧٨.

(٢) مسند أحمد ٣: ١٩٨؛ والحديث مروي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ. أنظر: نهج البلاغة ٢: ٩٤/ خ ١٧٦.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٠: ١٣٧.

(٤) مكارم الأخلاق: ١٣٥.

(٥) كنز العمال ٣: ٥٥٠.

(٦) بحار الأنوار ٨٩: ٢٠.

أمّا آفات اللسان فكثيرة وهي: الكذب، والغيبة، والنميمة، والرياء، والنفاق، والفحش، والمراء، والخوض في الباطل، والخصومة، والفضول، والزيادة والنقصان، وايذاء الخلق، وهتك العورات... إلخ.

مدح اللسان:

اللسان له الفضل العظيم في ضبط مخارج الألفاظ وحروفها، وهو لا يزال في انطلاقه معبراً عن مكنونات النفس، ومترجماً عن رغبات القلوب، بألفاظ عذبة وجمل متنوعة، وهذه معجزة كبيرة، وآية عظيمة، تشهد لله بالعظمة والقدرة والوحدانية والكبرياء.

وما الإنسان لولا اللسان إلاّ صورة ممثلة، أو ضآلة مهملة، أو بهيمة مرسلة.

قال بعض الحكماء: (المرء بأصغريه، قلبه ولسانه)، إن نطق نطق ببيان، وإن قاتل قاتل بجنان.

وقال الجاحظ: اللسان أداة يظهر به البيان، وشاهد يعبّر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يردّ به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشعار، وواعظ ينهى عن القبيح، ومبشر تردّ به الأحزان، ومعتذر تذهب به الأضغان، وزارع يحرث المودة، وحاصد يستأصل العداوة، وشاكر يستوجب المزيد، ومؤنس يسلّي الوحشة.

وقال بعض العلماء البلغاء: للسان فضائل معدودة في الجوارح، ودرجته عالية على درجاتها، لما خصّه الله به من المنطق والبيان، وأنطقه بالذكر والقرآن، وأنشد:

وكائن ترى من صامت لك معجب — زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده — فلم يبق إلاّ صورة اللحم والدم

وقال آخر:

وما المرء إلاّ الأصغران لسانه ... ومقولهُ والجسم خلق مصورُ

واعلم أنّ كمال العالم الإنساني، وكمال الإنسان هو اللسان، وجماله هو البيان.

نظر رسول الله ﷺ إلى عمّه العبّاس فتبسّم، فقال له مِمّ ضحكت يا رسول الله؟ فقال: «أعجبني جمالك يا عم». فقال: أين موضع الجمال مني؟ فأشار إلى لسانه، وقال أيضاً: «الجمال في الرجل اللسان».[1]

ذم اللسان:

يقال: مقتل الرجل بين فكّيه. وقال بعض البلغاء: اللسان أجرح جوارح الإنسان. وقال آخر: اللسان سبع صغير الجرم كبير الجرم.

وكان ابن مسعود يقول: والذي لا إله إلاّ هو ما على الأرض شيء أحق بطول السجن من اللسان.

وقال بعض العرب لرجل وهو يعظه في حفظ اللسان: إياك أن يضرب لسانك عنقك.

وقد قيل:

رأيت اللسان على أهله ... إذا ساسه الجهل ليثاً مغيراً

وقال آخر:

احذر لسانك أيّها الإنسان ... لا يلدغنّك انّه ثعبانُ

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الفرسانُ

---

(١) كنز العمال ٣: ٨.

وقال آخر:

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسانْ

وقال آخر:

احفظ لسانك إنّ اللسان ... سريع إلى المرء في قتلهِ

وهذا اللسان بريد الفؤاد ... يدلّ الرجال على عقلهِ

وقال آخر:

وزنِ الكلامَ إذا نطقت ولا تكن ... ثرثارة في كل ناد تخطبُ

واحفظ لسانك واحترز من لفظه ... فالمرء يسلم باللسان ويعطبُ

وقال آخر:

لسانك احفظه وحسّنْ نطقه ... واحذر على نفسك من عثرته

فالصمت زين ووقار وقد ... يؤتى على الإنسان من لفظته

انتهى.

* * *

قال محمّد أحمد جاد المولى بك، في الجزء الرابع من كتابه الخلق الكامل (ص ٣١٨ ط الأولى):

فضيلة صون اللسان:

جدير بمن يقصد الكمال أن يبلغ مجهوده في حفظ اللسان حتّى يستقيم له؛ إذ اللسان هو المورد للمرء موارد العطب، والصمت يكسب المحبة والوقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والصمت منام العقل والمنطق يقظته.

والواجب على اللبيب ألاّ يغالب الناس على كلامهم، ولا يعترض عليهم فيه؛ لأنّ الكلام حينئذٍ قد يؤدي إلى فوز مؤقت غير أنه لو أرجئ إلى حينه لكان الفوز أدوم وأبقى.

قال الأحنف بن قيس: الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه.

وقال بعض المربين: الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقلّ من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء، وأعظمهم بلاء من ابتلي بلسان جامح.

واللسان فيه عشر خصال يجب على الأقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها:

فهو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وناطق يردُ به الجواب، وحاكم يفصل به الخطاب، وشافع تدرك به الحاجات، وواصف تعرف به الأشياء، وحاصد يذهب الضغينة، ونازع يجذب المودة، ومُسلٍ يذكي القلوب، ومُعز تَردّ به الأحزان، ولقد أحسن الذي يقول:

أخفض الصوت إن نطقت بليل ... والتفت بالنهار قبل المقالِ

وأنشد الأبرش:

ما ذل ذو صمت وما من مكثر ... إلاّ يذل وما يعاب صموتُ

إن كان منطق ناطق من فضة ... فالصمت درٌّ زانه الياقوتُ

قال عليّ بن بكار: جعل الله لكلِّ شيء بابين، وجعل للسان أربعة: الشفتين مصراعين، والأسنان مصراعين.

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن ينصف أذنيه من فيه، ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مما يقول: لأنه إذا

قال ربما ندم، وان لم يقل لم يندم، وهو على ردّ ما لم يقل أقدر منه على ردّ ما قال، والكلمة إذا تكلم بها ملكته، وإن لم يتكلم بها ملكها، وربَّ كلمة سلبت نعمة.

قال الأصمعي: بينا أنا أطوف بالبادية، إذا أنا بأعرابية تمشي وحدها على بعير لها، فقلت: يا أمةَ الجبار، منِ تطلبين؟

فقالت: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾[1] قال: فعلمت أنها قد أضلت أصحابها، فقلت لها: كأنك قد أضللت أصحابك؟ قالت: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾،[2] فقلت لها: يا هذه من أين أنت؟ قالت: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[3] فعلمت أنها مقدسية، فقلت لها: كيف لا تتكلمين؟ فقالت: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[4] فقال بعض أصحابي: ينبغي أن تكون هذه من الخوارج، فقالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[5] فبينما نحن نماشيها إذ رُفعت لنا قباب وخيم، فقالت: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[6] فلم أفطن لقولها، فقلت: ما تقولين؟ فقالت: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾[7] قلت: بمن أصوّت

(١) الكهف: ١٧.

(٢) الأنبياء: ٧٩.

(٣) الإسراء: ١.

(٤) ق: ١٨.

(٥) الإسراء: ٣٦.

(٦) النحل: ١٦.

(٧) يوسف: ١٩.

وبمن أدعو؟ فقالت: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾[١] ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام﴾[٢] ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾[٣] قال: فإذا نحن بثلاثة إخوة كاللآلي، فقالوا: أمنا ورب الكعبة أضللناها منذ ثلاث، فقالت: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾[٤] فأومأت إلى أحدهم فقالت: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه﴾[٥] فقلت: إنها أمرتهم أن يزودونا، فجاؤها بخبز وكعك، فقلت: لا حاجة لنا في ذلك، وقلت للفتية: من هذه منكم؟ قالوا: هذه أمنا ما تكلمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله مخافة الكذب، فدنوت منها وقلت: يا أمة الله أوصني، فقالت: ﴿لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾[٦].

واللسان أنفع الجوارح إذا صلح، وأضرها إذا فسد، ولذا جُعل نصف الإنسان قال عليه السلام: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه».[٧]

وعثرته لا تداوى.

يصاب الفتى من عثرة بلسانه	وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته بالقول تذهب رأسه	وعثرته بالرجل تبرا على مهل

---

(١) مريم: ١٢.

(٢) مريم: ٧.

(٣) ص: ٢٦.

(٤) فاطر: ٣٤.

(٥) الكهف: ١٩.

(٦) الشورى: ٢٣.

(٧) عيون الحكم والمواعظ: ٦٤.

وصيانته وصلاحه بقصر كلامه على جلب نفع أو دفع ضرّ، وفساده بالسب والشتم والكذب، والغيبة والنميمة، وكثرة المزاح والسخرية، وما إلى تلك من الرذائل التي تحط من قدر صاحبها، وتفرّق بينه وبين أهله وعشيرته.

وجدير بمن يتصف برقة اللفظ وجمال القول، أن يدرك ما يبتغيه وينجو من الشرّ وذويه، وقد قيل: لا يستقيم إيمان المرء حتّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه.

من أجل ذلك قدّم لقمان الحكيم لسيده قلب الشاة ولسانها، على أنهما أخبثا ما فيها، وعرضها مرة أخرى على أنهما أطيبا ما فيها، ولما سئل عن ذلك قال: ياسيدي، لا أخبث منهما إذا خبثا، ولا أطيب منهما إذا طابا. انتهى.

اللسان أضرّ الجوارح:

ومما انتخبته من جامع السعادات (مجلد ٢ ص ٣٣٤):

اعلم أنّ أكثر ما تقدم من الرذائل المذكورة في هذا المقام: من الكذب، والغيبة، والبهتان، والشماتة، والسخرية، والمزاح وغيرها. وفي المقام الثالث ـ أعني: التكلم بما لا يعني والفضول والخوض في الباطل ـ من آفات (اللسان)، وهو أضرّ الجوارح بالإنسان وأعظمها إهلاكاً له، وآفاته أكثر من آفات الأعضاء.

وهي وإن كانت من المعاصي الظاهرة، إلاّ أنها تؤدي إلى مساوئ الأخلاق والملكات، إذ الأخلاق إنما ترسخ في النفس بتكرير الأعمال، والأعمال إنما تصدر من القلب بتوسط الجوارح. وكل جارحة تصلح

لأن تصدر منها الأعمال الحسنة الجالبة للأخلاق الجميلة، وأن تصدر منها الأعمال القبيحة المورثة للأخلاق السيئة، فلا بد من مراعاة القلب والجوارح معاً بصرفهما إلى الخيرات، ومنعهما عن الشرور. وعمدة ما تصدر منه الذمائم الظاهرة المؤدية إلى الرذائل الباطنة هو اللسان، وهو أعظم آفة للشيطان في استغواء نوع الإنسان، فمراقبته أهم، ومحافظته أوجب وألزم، والسر فيه _ كما قيل _ أنه من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه وإن كان صغيراً جرمه، ولكن عظيم طاعته وجرمه، إذ لا يتبين الإيمان والكفر إلاّ بشهادته، ولا يهتدى إلى شيء من أمور النشأتين إلاّ بدلالته، وما من موجود أو معدوم إلاّ وهو يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، إذ كل ما يتناوله العلم يعبّر عنه اللسان إما بحق أو باطل، ولا شيء إلاّ والعلم يتناوله.

وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، إذ العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللسان رحب الميدان وسيع الجولان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى ولا حدّ، فله في الخير مجال رحب، وفي الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة لسانه وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وأوقعه في أودية الضلالة والخذلان، وساقه إلى شفا جرف هارٍ، إلى أن يضطره إلى الهلاك والبوار، ولذلك قال سيد الرسل ﷺ: «وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم» فلا يُنجى من شرّ اللسان إلاّ أن يقيد بلجام الشرع، ولا يُطلق إلاّ فيما ينفع في الدنيا والآخرة، ويكفّ عن كل ما يُخشى غائلته في العاجلة والآجلة.

وعلمٌ ما يحمد إطلاق اللسان فيه أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وهو أعصى الأعضاء على الإنسان، إذ لا تعب في تحريكه ولا مؤونة في إطلاقه، فلا يجوز التساهل في الاحتراز عن آفاته وغوائله، وفي الحذر عن مصائده وحبائله.

الآيات والأخبار الواردة في ذم اللسان:

والآيات والأخبار الواردة في ذمّه وفي كثرة آفاته، وفي الأمر بمحافظته والتحذير عنه كثيرة، وهي بعمومها تدل على ذمّ جميع آفاته ممّا مرّ ومما يأتي:

قال الله سبحانه: ﴿ما يَلفظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.(١)

وقال: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النّاسِ﴾.(٢)

وقال رسول الله ﷺ: «من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنّة».

وقال ﷺ: «من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقي»، والقبقب: البطن، والذبذب الفرج، واللقلق: اللسان.

وقيل له ﷺ: ما النجاة؟ قال: «إملك عليك لسانك».

- وقال ﷺ: «أكبر ما يدخل الناس النار الأجوفان الفم والفرج» والمراد بالفم اللسان.

وقال ﷺ: «وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم».

---

(١) ق: ١٨.

(٢) النساء: ١١٤.

وقال له رجل: ما أخوف ما يخاف عليّ؟ فأخذ بلسانه وقال: هذا، وقال ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه».

وقال: «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفرّ اللسان، فتقول: إتّقِ الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا».

وقال له رجل: أوصني، فقال ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، وعدّ نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله، وأشار بيده إلى لسانه».

وقال ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل، فليتّق الله امرؤ على ما يقول».

وقال ﷺ: «من لم يحسب كلامه من عمله كثرت خطاياه وحضر عذابه».

وقال ﷺ: «يعذب الله اللسان بعذاب لا يعذبه به شيئاً من الجوارح، فيقول: أي ربّ عذبتني بعذاب لم تعذب به شيئاً من الجوارح، فيقال له: خرجت منك كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها، فسُفك بها الدم الحرام، وانتُهب بها المال الحرام، وانتُهك بها الفرج الحرام، وعزّتي وجلالي لأعذبنّك بعذاب لا أعذّب به شيئاً من جوارحك».

وقال ﷺ: «إن كان في شيء شؤم ففي اللسان».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل يتكلم بفضول الكلام: «المرء مخبوء تحت لسانه، فزن كلامك وأعرضه على العقل والمعرفة، فإن كان لله فتكلم، وإن كان غير ذلك فالسكوت خير منه، وليس على الجوارح عبادة أخفّ مؤونة وأفضل منزلة وأعظم قدراً عند الله، كلام فيه رضى لله ﷻ ولوجهه ونشر آلائه ونعمائه في عباده، ألا انّ الله لم يجعل فيما بينه وبين رسله معنى يكشف ما أسرّ إليهم من مكنونات علمه ومخزونات

وحيه غير الكلام، وكذلك بين الرسل والأمم، فثبت بهذا أنه أفضل الوسائل، وألطف العبادة.

وكذلك لا معصية أثقل على العبد وأسرع عقوبة عند الله وأشدّها ملامة وأعجلها سآمة عند الخلق منه. واللسان ترجمان الضمير وصاحب خبر القلب، وبه ينكشف ما في سرّ الباطن، وعليه يُحاسب الخلق يوم القيامة، والكلام خمر يسكر العقول ما كان منه لغير الله، وليس شيء أحق بطول السجن من اللسان».

وقال السجاد عليه السلام: «إنّ لسان ابن آدم يشرف في كل يوم على جوارحه كل صباح فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير إن تركتنا، ويقولون: الله الله فينا، ويناشدونه ويقولون: إنما نثاب ونعاقب بك».

وقال الصادق عليه السلام: «ما من يوم إلاّ وكل عضو من أعضاء الجسد يكفّر اللسان، يقول: نشدتك الله أن نعذّب فيك». انتهى.

* * *

وجاء في (جامع الأخبار):[1]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «راحة الإنسان من حبس اللسان».

وقال صلى الله عليه وآله: «سكوت اللسان سلامة الإنسان».

وقال صلى الله عليه وآله: «البلاء موكل بالمنطق».

وقال صلى الله عليه وآله: «بلاء الإنسان من اللسان».

وقال صلى الله عليه وآله: «فتنة اللسان أشدّ ضرباً من فتنة السيف».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ضرب اللسان أشدّ من ضرب السنان».

---

(١) ص ١١٠؛ عنه: مستدرك الوسائل ٩: ٣٠.

وقال الصادق عليه السلام: «نجاة المرء حفظ لسانه».

قال النبي صلى الله عليه وآله في الوصية: «يا عليّ من خاف الناس لسانه فهو من أهل النار».

وروي أن نوحاً عليه السلام مرّ على كلب كريه المنظر، فقال نوح: «ما أقبح هذا الكلب!» فجثى الكلب وقال بلسان طلق ذلق: إن كنت لا ترضى بخلق الله فحوّلني يا نبي الله، فتحيّر نوح عليه السلام وأقبل يلوم نفسه بذلك، وناح على نفسه أربعين سنة حتّى ناداه الله تعالى: «إلى متى تنوح يا نوح فقد تبت عليك». فالنبي بكى على الزلة المغفورة على نفسه المعصومة، وأنت يا غافل لا تبكي على الكبيرة، وعلى نفسك العاصية.

وقال صلى الله عليه وآله: «طوبى لمن أمسك فضلات لسانه، وأنفق فضلات ماله».

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ من شرار الناس من اتّقي لسانه».

وقال صلى الله عليه وآله: «من كان ذا لسانين في الدنيا جعل له يوم القيامة لسانين من نار».

وقال صلى الله عليه وآله: «من أخلص لله أربعين صباحاً، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

وذكر عليّ فكري في القسم الثالث من كتابه (الإنسان):

أحبّ الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، لا يضرّك بأيهن بدأت.[1]

إضمنوا إليّ ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنّة: أي إضمنوا إليّ ستاً من الخصال من أنفسكم، بأن تداوموا عليها أضمن لكم الجنّة...:

(١) مسند أحمد ٥: ١٠.

أصدقوا إذا حدّثتم: أي لا تكذبوا في شيء من حديثكم، إلاّ أن تترتب على الكذب مصلحة، وهذا يسمى بالكذب المباح. وأوفوا إذا وعدتم: فإن الوفاء بالوعود والعهود محبوب ومطلوب.

وأدّوا إذا أئتُمنتم، لأنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها.

وغضوا أبصاركم: أي كفّوها عن النظر إلى كل محرم.

وكفّوا أيديكم: أي امنعوها عن تعاطي ما لا يجوز تعاطيه شرعاً.[١]

«جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم».[٢]

«جدّوا ايمانكم، وأكثروا من قول (لا إله إلا الله) فإنّ المداومة عليها تملأ القلب نوراً وتزيده يقيناً».[٣]

عن عليّ بن الحسين عليه السلام: «الجمال في الرجل اللسان».[٤] أي: فصاحة اللسان طبعاً لا تطبعاً، ولا تطلفاً، هي جمال للرجل.

«خير المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده».[٥]

«عليكم بالصدق فإنّ الصدق يهدي إلى البرّ، وأن البرّ يهدي إلى الجنّة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتّى يُكتب عند الله صدّيقاً، وإياكم والكذب فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتّى يكتب عند الله كذّاباً».[٦]

---

(١) أنظر: بحار الأنوار ٧٤: ١٧٠.

(٢) مسند أحمد ٣: ١٢٤.

(٣) كنز العمال ١: ٤١٦.

(٤) كنز العمال ٣: ٨.

(٥) كنز العمال ٣: ٥٥٠.

(٦) كنز العمال ٣: ٣٤٦.

«كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلاّ أمراً بمعروف، ونهياً عن منكر، أو ذكرا الله عزّ وجلّ».[١]

لأنّ اللسان ترجمان القلب، يؤدي إليه القلب علم ما فيه، فيعبّر عنه اللسان فيومي به إلى الأسماع، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

«لن تزول قدما شاهد الزور حتّى يوجب الله له النار».[٢]

«من كان له وجهان في الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من النار».[٣]

«من كتم شهادة إذا دعي إليها كان كمن شهد بالزور».[٤]

فكتمان الشهادة من الكبائر.

«من لم يدَعْ قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».[٥]

أي: من لم يترك قول الزور، والعمل بمقتضاه، فطعامه وشرابه غير مقبول عند الله.

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم».[٦]

«لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتّى يخزن من لسانه».[٧]

---

(١) بحار الأنوار ٩٠: ١٦٥.

(٢) كنز العمال ٧: ١٣.

(٣) بحار الأنوار ٧٢: ٢٠٤.

(٤) كنز العمال ٧: ١٤.

(٥) مسند أحمد ٢: ٤٥٣.

(٦) مسند أحمد ٢: ٣٧٩.

(٧) الجامع الصغير ٢: ٧٥٤.

أي: يجعل فمه خزانة للسان، فلا يفتحه إلاّ بمفتاح إذن الله.[١]

«أفضل المؤمنين إسلاماً، من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وأفضل المهاجرين من هجر ما نهى الله تعالى عنه، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عزّ وجلّ».[٢]

«أكثر خطايا ابن آدم في لسانه».[٣]

لأنه أكثر أعضاء الإنسان عملاً، وأصغرها جرماً، وأعظمها زللاً.[٤]

«أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً فيما لا يعنيه».[٥]

لأنّ من كثر كلامه كثر سقطه، فتكثر ذنوبه من حيث لا يشعر.[٦]

مدح الصمت:

قال النراقي في جامع السعادات (مجلد ٢ ص ٣٣٩):

لما علمت كون اللسان شرّ الأعضاء، وكثرة آفاته وذمه، فاعلم أنه لا نجاة من خطره إلاّ بالصمت، وقد أشير فيما سبق أن الصمت ضدٌ لجميع آفات اللسان، وبالمواظبة عليه تزول كلها.

وهو من فضائل قوة الغضب أو الشهوة، وفضيلته عظيمة وفوائده جسيمة، فإنّ فيه جمع الهم، ودوام الوقار والفراغ للعبادة، والفكر

---

(١) فيض القديرفي شرح الجامع الصغير ٦: ٥٧٤.

(٢) كنز العمال ٥: ٨٦١.

(٣) الجامع الصغير ١: ٢٠٥.

(٤) فيض القديرفي شرح الجامع الصغير ٢: ١٠١.

(٥) الجامع الصغير ١: ٢٠٦.

(٦) فيض القديرفي شرح الجامع الصغير ٢: ١٠٣.

والذكر، والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسناته في الآخرة؛ ولذا مدحه الشرع وحثّ عليه.

قال رسول الله ﷺ: «من صمت نجا».

وقال ﷺ: «الصمت حكم وقليل فاعله».

وقال ﷺ: «من كف لسانه ستر الله عورته».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق».

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو يسكت».

وقال ﷺ: «رحم الله عبداً تكلم خيراً فغنم، أو سكت عن سوء فسلم».

وجاء إليه أعرابي وقال: دلّني على عمل يدخلني الجنّة، قال ﷺ: «أطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر. فإن لم تطق، فكفّ لسانك إلاّ من خير».

وقال ﷺ: «أخزن لسانك إلاّ من خير، فانّك بذلك تغلب الشيطان».

وقال ﷺ: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً، فادنوا منه فإنه يلقّن الحكمة».

وقال ﷺ: «الناس ثلاثة: غانم، وسالم، وشاحب. فالغانم الذي يذكر الله. والسالم الساكت. والشاحب الذي يخوض في الباطل».

وقال ﷺ: «إنّ لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبّره بقلبه، ثمّ أمضاه بلسانه، وإنّ لسان المنافق أمام قلبه، فإذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه».

وقال ﷺ: «أمسك لسانك فإنها صدقة تصدق بها على نفسك» ثمّ قال: «ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتّى يخزن من لسانه».

وقال لرجل أتاه: «ألا أدلك على أمر يدخلك الله به الجنّة؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «أنل مما أنالَكَ الله»، قال: فإن كنتُ أحوج ممن أنيله، قال: «فانصر المظلوم»، قال: فإن كنتُ أضعف ممن أنصره، قال: «فاصنع للأخرق» ـ يعني أشر عليه ـ قال: فإن كنت أخرق ممن أصنع له، قال: «فاصمت لسانك إلاّ من خير، ما يسرّك أن تكون فيك خصلة من هذه الخصال تجرّك إلى الجنّة».

وجاء إليه رجل فقال: يا رسول الله أوصني، قال: «احفظ لسانك»، قال: يا رسول الله أوصني، قال: «احفظ لسانك»، قال: يا رسول الله أوصني، قال: «احفظ لسانك، ويحك وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم؟».

وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام: دلّنا على عمل ندخل به الجنّة، قال: «لا تنطقوا أبداً»، قالوا: لا نستطيع ذلك. قال: «فلا تنطقوا إلاّ بخير».

وقال عليه السلام أيضاً: «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت، وجزء في الفرار عن الناس».

وقال: «لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فإنّ الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون».

وقال لقمان لابنه: يا بني إن كنت زعمت أن الكلام من فضة، فإنّ السكوت من ذهب.

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «كان أبو ذر يقول: يا مبتغي العلم إنّ هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك».

وقال عليه السلام: «إنّما شيعتنا الخرس».

وقال الصادق عليه السلام لمولى له يقال له سالم بعد أن وضع يده على شفتيه: «يا سالم إحفظ لسانك تسلم، ولا تحمل الناس على رقابنا».

وقال عليه السلام: «في حكمة آل داود، على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه».

وقال عليه السلام: «لا يزال العبد المؤمن يكتب محسناً ما دام ساكتاً، فإذا تكلم كتب محسناً أو مسيئاً».

وقال عليه السلام: «النوم راحة للجسد، والنطق راحة للروح، والسكوت راحة للعقل».

وقال عليه السلام: «الصمت كنز وافر، وزين الحليم، وستر الجاهل».

وقال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «احفظ لسانك تعز، ولا تمكّن الناس من قيادك فتذلّ رقبتك».

وقال عليه السلام: «من علامات الفقه الحلم والعلم والصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنّ الصمت يكسب المحبة، إنّه دليل على كل خير».

وقال عليه السلام: «كان الرجل من بني إسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك بعشر سنين».

وفي (مصباح الشريعة)[١] عن مولانا الصادق عليه السلام قال: «الصمت شعار المحققين بحقائق ما سبق، وجفّ القلم به، وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة، وفيه رضى الربّ وتخفيف الحساب، والصون من الخطايا والزلل. وقد جعله الله ستراً على الجاهل وزيناً للعالم، ومعه عزل

---

(١) ص ١٠١.

الهوى، ورياضة النفس، وحلاوة العبادة، وزوال قوة القلب، والعفاف والمروّة والظرف، فأغلق باب لسانك عما لك منه بدلاً، لاسيّما إذا لم تجد أهلاً للكلام والمساعد في المذاكرة لله وفي الله».

وكان ربعي بن خيثم يضع قرطاساً بين يديه، فيكتب كل ما يتكلم به، ثمّ يحاسب نفسه عشيةً ما له وما عليه، ويقول: آه آه نجا الصامتون وبقينا.

وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يضع الحصاة في فيه فإذا أراد أن يتكلم بما علم أنه لله وفي الله ولوجه الله أخرجها.

وإنّ كثيراً من الصحابة ﷺ كانوا يتنفسون تنفس الفرقاء، ويتكلمون شبه المرضى. وإنما سبب هلاك الخلق ونجاتهم الكلام والصمت، فطوبى لمن رزق معرفة عيب الكلام وهوائه، وعلم الصمت وفوائده، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء وشعار الأصفياء، ومن علم قدر الكلام أحسن صحبة الصمت، ومن أشرف على ما في لطائف الصمت وأتمن على خزائنه، كان كلامه وصمته كله عبادة، ولا يطّلع على عبادته هذه إلاّ الملك الجبار.

وقد ظهر من هذه الأخبار أن الصمت مع سهولته أنفع للإنسان من كلّ عمل، وكيف لا يكون كذلك، وخطر اللسان الذي هو أعظم الأخطار، وآفاته التي هي أشد المهلكات، لا يفسد إلاّ به، والكلام وإن كان في بعضه فوائد وعوائد، إلاّ أن الإمتياز بين الممدوح والمذموم منه مشكل، ومع الإمتياز فالاقتصار على مجرد الممدوح عند إطلاق اللسان أشكل، وحينئذٍ فالصمت عمّا لا جزم بتضمنه للخير والثواب من الكلام أولى وأنفع.

[قصة الملوك الأربعة]:

وقد نقل أنّ أربعة من أذكياء الملوك: ملك الهند، وملك الصين، وكسرى، وقيصر، تلاقوا في وقت فاجتمعوا على ذم الكلام ومدح الصمت، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل.

وقال الآخر: إني إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني.

وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرّته وإن لم ترجع لم تنفعه.

وقال الرابع: أنا على ردّ ما لم أقل أقدر مني على ردّ ما قلت. انتهى.

* * *

وذكر الديلمي في (المجلد الأوّل) من (إرشاد القلوب) في (باب الصمت):

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في وصيته لابنه محمّد بن الحنفية: «واعلم يا بنيّ أن اللسان كلب عقور، إن أرسلته عقرك، وربّ كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك، ومن سيّب عذار لسانه ساقه إلى كل كريهة».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كفّ لسانه ستر الله عوراته، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل عذره».

* * *

وقال البيهقي في (الجزء الثاني) من (المحاسن والمساوئ) في:

محاسن حفظ اللسان:

قال أكثم بن صيفي: مقتل الرجل بين فكيه _ يعني لسانه _ وقال الشاعر:

رأيت اللسان على أهله | إذا ساسه الجهل ليثاً مغيرا

ومنه قول أكثم: ربّ قول أشد من صول، وقوله: لكل ساقطة لاقطة، الساقطة من الكلام له لاقطة من الناس.

وقال المهلب لبنيه: اتقوا زلّة اللسان فإني وجدت الرجل يعثر قدمه فيقوم من عثرته، ويزل لسانه فيكون فيه هلاكه.

وقال يونس بن عبيد: ليست خلّة من خلال الخير تكون في الرجل هي أحرى أن تكون جامعةً لأنواع الخير كلها من حفظ اللسان.

وقال قسامة بن زهير: يا معشر الناس إنّ كلامكم أعثر من صمتكم، فاستعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الصواب بالفكر.

سلمة بن القاسم عن الزبير، قال: حُملت إلى المتوكل، فدخلت عليه، فقال: يا عبد الله، ألزم أبا عبد الله _ يعني المعتز _ حتّى تعلمه من فقه المدنيين، فأدخلت إلى حجرة فإذا أنا بالمعتز قد أتي وفي رجله نعلٌ من ذهب، فعثر حتّى دميت رجله، فأتي بابريق من ذهب وطست من ذهب وجعل يغسل ذلك الدم وهو يقول:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه | وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

وعثرته من فيه ترمي برأسه | وعثرته في الرجل تبرا على مهل

فقلت في نفسي: ضممت إلى من أريد أن أتعلم منه.

وقيل: من لم يحفظ لسانه فقد سلّطه على هلاكه.

قال الشاعر:

عليك حفظ اللسان مجتهداً ... فإنّ جلّ الهلاك في زَلِله

ولآخر:

وجرح السيف تُدمله فيبرا ... وجُرح الدهر ما جرح اللسانْ

جراحات الطعان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسانْ

ولآخر:

وجرح السيف يأسوه المداوي ... وجرح القول طولَ الدهر دامي

* * *

ومما جاء في (المجلد الأوّل) من المستطرف (ص ١٨٦) في الباب الثالث عشر في الصمت وصون اللسان قال:

وأما الآثار عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر، لكن ننبه على شيء منها:

فمما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال: أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصر، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها، قال: وما هي؟ قال: حفظ اللسان.

وقال الإمام الشافعي لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت الكلمة ملكتك ولم تملكها.

وقال بعضهم: مَثل اللسان مَثل السبع إن لم توثقه عدا عليك ولحقك شره.

قال عليّ بن هشام:

لعمرك إنّ الحلم زين لأهله ... وما الحلم إلاّ عادة وتحلّمُ

إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة ... وعيّ فإنّ الصمت أولى وأسلمُ

وقال ابن عيينة: من حرم الخير فليصمت فإن حرمهما فالموت خير له.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه: «عليك بالصمت إلاّ من خير، فإنه مطردة للشيطان وعون على أمر دينك».

ومن كلام الحكماء: من نطق في غير خير فقد لغا، ومن نظر في غير اعتبار فقد سها، ومن سكت في غير فكر فقد لها.

وقيل: لو قرأت صحيفتك لأغمدت صحيفتك، ولو رأيت ما في ميزانك لختمت على لسانك.

ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته، فقيل له: ألا تتكلم، فقال: الكلام صيرني في بطن الحوت.

وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

وقيل لرجل: بم سادكم الأحنف فو الله ما كان بأكبركم سناً ولا بأكثركم مالاً؟ فقال: بقوة سلطانه على لسانه.

وكان بهرام جالساً ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه، فقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان، لو حفظ هذا لسانه ما هلك.

وقال لقمان لولده: يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك. انتهى.

* * *

[حكمة لقمان]:

وجاء في الجزء الثاني من (العقد الفريد)[(١)] في باب الصمت:

كان لقمان الحكيم يجلس إلى داود عليه السلام، وكان عبداً أسوداً، فوجده وهو يعمل درعاً من حديد، فعجب منه ولم يرَ درعاً قبل ذلك، فلم يسأله لقمان عمّا يعمل، ولم يخبره داود حتّى تمّت الدرع بعد سنة، فقاسها داود على نفسه، وقال: زَردُ طايا ليوم فرايا، تفسيره: درع حصينة ليوم قتال، فقال لقمان: الصمت حلم وقليل فاعله.

وقال أبو عبيد الله كاتب المهدي: كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام، إنّ البلاء موكّل بالمنطق.

وقال أبو الدرداء: أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعل لك أذنان إثنان، وفم واحد، لتسمع أكثر مما تقول.

وقال المهلب بن أبي صفرة: لئن أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه، أحبّ إليّ من أن أرى للسانه فضلاً على عقله.

وقالوا: من ضاق صدره اتسع لسانه، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن ساء خلقه قلّ صديقه.

وقال هرم ابن حيان: صاحب الكلام بين منزلتين، إن قصّر فيه خصم، وإن أعرق فيه أثم.

وقال جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل

فعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته بالرجل تبرا على مهل

---

(١) ص ١٥/ رقم ٩٢.

وقال الشاعر:

الحلم زين والسكوت سلامة ... فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما إن ندمت على سكوتي مرة ... إلاّ ندمت على الكلام مرارا

وقال الحسن بن هاني:

خلّ جنبيك لرام ... وامض عني بسلام

مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام

ربّ لفظ ساق آجا ... ل فئام وفئام

إنما السالم من ألجم ... فاهُ بلجام

قال بعض الحكماء: حظي من الصمت لي، ونفعه مقصور علي، وحظي من الكلام لغيري، ووباله راجع علي.

* * *

وفي المجلد الثاني من (عيون الأخبار) لابن قتيبة الدينوري (ص ١٧٥):

تذاكر قوم فضل الكلام على الصمت، وفضل الصمت على الكلام، فقال أبو مسهر: كلاّ إنّ النجم ليس كالقمر، إنك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام بالصمت.

وذمّ قوم في مجلس سليمان بن عبد الملك الكلام: فقال سليمان: اللهم غفراً، إنّ من تكلّم فأحسن قدر أن يصمت فيحسن، وليس من صمت فأحسن قادراً على أن يتكلم فيحسن.

قال ابن اسحاق: النسناس خلقٌ باليمن، لأحدهم عين ويد ورجل يقفز بها، وأهل اليمن يصطادونهم، فخرج قوم في صيدهم فرأوا ثلاثة

نفر منهم، فأدركوا واحداً فعقروه وذبحوه وتوارى إثنان في الشجر، فقال الذي ذبحه: إنه لسمينٌ، فقال أحد الاثنين: إنه أكل ضيرواً، فأخذوه فذبحوه، فقال الذي ذبحه، ما انفع الصمت! قال الثالث: فها أنا الصميّت فأخذوه وذبحوه.

* * *

كان يقال: إذا فاتك الأدب فالزم الصمت.

وقال بعضهم: لا يجترئ على الكلام إلاّ فائقٌ أو مائِقٌ.

وقال الشاعر يمدح رجلاً:

صموت إذا ما الصمت زيّن أهله   وفتّاق أبكار الكلام المُختّم

* * *

حضر قشيري مجلساً من مجالس العرب فأطال الصمت، فقال له بعضهم: بحقٍ سُميتم خرس العرب، فقال القشيري: يا أخي إن حظ الرجل في أذنه لنفسه، وحظه في لسانه لغيره.

وقال بعض الحكماء: أكثر الصمت ما لم تكن مسؤولاً، فإنّ فوت الصواب أيسر من خطل القول، وإذا نازعتك نفسك إلى مراتب القائلين المصيبين، فاذكر ما دون الصواب من وَجَل الخطأ وفضائح المقصرين.

قال عبد الله بن الحسن لابنه: استعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى القول، فإنّ للقول ساعات يضرّ فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب.

وفي كتاب كليلة ودمنة: ثلاثة يؤمرون بالسكوت، الراقي في جبل طويل، وآكل السمك، والمُرويّ في الأمر الجسيم.

قال بعض الشعراء:

قد أفلح السالم الصموت ... كلام واعي الكلام قوتُ

ما كل نطق له جوابٌ ... جوابُ ما يُكرَهُ السكوتُ

يا عجباً لامرئ ظَلُوم ... مستيقن أنه يموتُ

* * *

بلغني عن أبي سحاق الفزاري، قال: كان إبراهيم يطيل السكوت، فإذا تكلم انبسط، فقلت له ذات يوم: لو تكلّمت. فقال: الكلام على أربعة وجوه: فمنه كلام ترجو منفعته وتخشى عاقبته، فالفضل منه السلامة، ومنه كلام لا ترجو منفعته ولا تخشى عاقبته، فأقلُّ مالَك في تركه خفَّةُ المؤونة على بدنك ولسانك، ومنه كلام لا ترجو منفعته وتخشى عاقبته، وهذا هو الداء العضال، ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته، فهذا الذي عليك نشرهُ، قال: فإذا هو قد اسقط ثلاثة أرباع الكلام.

* * *

ديوان الشعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبقَ إلاّ صورة اللحم والدمِ

* * *

ومما كانت الحكماء قالت ... لسان المرء من تبع الفؤاد

* * *

لسان الشكر تنطقه العطايا ... ويخرس عند منقطع النوالِ

* * *

احفظ لسانك أيها الإنسان | لا يلدغنّك إنّه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه | كانت تهاب لقاءه الشجعانُ

* * *

يموت الفتى من عثرة بلسانه | وليس يموت المرء من عثرة الرجل

* * *

وإذا أراد الله نشر فضيلة | طويت أتاح لها لسان حسودِ

* * *

حسن قول نعم من بعد لا | وقبيح قول لا بعد نعم

* * *

وجرح السيف تدمله فيبرى | ويبقي الدهر ما جرح اللسانُ
جراحات السنان لها التئام | ولا يلتام ما جرح اللسانُ
كفى بالمرء عيباً أن تراه | له وجه وليس له لسانُ
وما حسن الرجال لهم بحسن | إذا لم يسعد الحسن البيانُ

* * *

وَزِنِ الكلاَمَ إذا نطقت وإنما | يبدي عيوبَ ذوي العيوب المنطقُ

* * *

تكلم وسدّد ما استطعت فإنما | كلامك حي والسكوت جمادُ
فإن لم تجد قولا سديداً تقوله | فصمتك من غير السداد سدادُ

* * *

وقال الإمام الشافعي:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الردى ... وذنبك مغفور وعرضك صينُ

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس ألسنُ

وعينك إن أبدت إليك مساوئاً ... فدعها وقل يا عين للناس أعينُ

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتي هي أحسنُ

* * *

يا جواد اللسان من غير فعل ... ليت جود اللسان في أرضيكما

* * *

وقال الشاعر:

وما المرء إلاّ الأصغران لسانه ... ومعقوله والجسم خلق مصوَّرُ

* * *

وقال جرير:

لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ما السيف أقوى وقعة من لسانيا

* * *

وقال آخر:

رأيت اللسان على أهله ... إذا ساسه الجهل ليثاً مغيرا

* * *

[معجزة السمع]:

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ويسمَعُ بعظم».

أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعظم الذي يسمع به، العظم المسمّى الحجري، وهو عظم صلب فيه مجرى الأذن، كثير التعاريج والعطفات، يمر كذلك إلى

أن يلقى العصبة الثابتة من الدماغ التي هي مجرى الروح الحامل للقوة السامعة.

* * *

قال فريد وجدي في دائرة المعارف (مجلد ١ ص ١٣٥):

الأذن: آلة السمع عند الإنسان والحيوان، وهي عند الإنسان كثيرة الأجزاء جداً بحيث يصعب تصوّرها إلاّ برؤيتها مشرحة. وهي كما يفصلها علماء التشريح مركبة من ثلاثة أجزاء:

١ _ الأذن الظاهرة، ٢ _ الأذن المتوسطة، ٣ _ الأذن الباطنة.

أما الأذن الظاهرة: فهي مرئية بالنظر، وهي المكونة من تلك الصفيحة الغضروفية، وتسمى الصيوان، وهي بارزة تمسك باليد، ومن القناة السمعية: وهي قناة تحسّ بالاصبع الصغير، وهي تمتد داخل العظم الصدغي، وعلى جانبيها عدة ثقوب تنفتح فيها قنوات متصلة بغدد تفرز دهناً ثخيناً أصفر يسمّى الصملاخ ضروري لصحة الأذن، متى أدّى وظيفته خرج وتكوّن خارج الأذن، فيرفعه الإنسان بأصبعه، وكثير من الناس يدخل إلى تلك القناة أصابع من العاج أو الخشب يستأصلون بها ذلك الدهن الضروري للأذن قبل أن يخرج بنفسه، فيضرّون أنفسهم ضرراً بليغاً، ويوجدون لأنفسهم أمراضاً خطيرة.

أما الأذن المتوسطة فهي منفصلة عن الأذن الظاهرة بغشاء الطبلة، وهو غشاء شفاف تحته صندوق، وهو تجويف ضيق يتصل بالفم الخلفي بواسطة قناة معدّة لتوصيل الهواء من خارج إلى باطن صندوق الطبلة، ويجد في أقصى صندوق الطبلة هذا فتحتان متصلتان بالأذن الباطنة،

إحـدى هـاتين الفتحتـين متصـل بهـا أربـع عظيمـات تتحـرك بعضـلات صغيرة، وتحدث توتراً أو استرخاءً في الغشاء المرتكزة عليه.

أمـا الأذن الباطنـة: فهـي الجـزء الإنتهـائي، وهـو مكـوّن مـن دهليـز موضـوع فـي الوسـط، تنفـتح فيـه قنـوات شـكلها كنصـف الهـلال مملـوءة بسـائل مـن نـوع السـائل الـذي يمـلأ ذلـك الـدهليز، وبجانـب تلـك القنـوات عضـو يشـبه القوقعـة مملـوء بالسـائل ومتصـل بصـندوق الطبلـة. فـي هـذه الأذن الباطنة تتوزع أفرع العصب السمعي.

كيفية السمع:

لا يخفى أن المتكلم يحدث بكلامه ارتجاجاً في الهواء على توقيع خاص، فتصـل تلـك الإرتجاجـات الهوائيـة إلـى صـيوان الأذن، ومنـه تـدخل إلـى القنـاة السمعية الظاهرة، ومنها إلى غشاء الطبلة الذي هو أسفل تلك القناة فترجّه فيرتج، فتتبعه العظيمات السمعية التي ذكرنا، فتحدث في ذلك الغشاء توتراً أو رخاوة بواسطة عضلاتها على حسب شدة الصوت وضعفه، فإنه مؤثر حدث عليها من الخارج، وفي الوقت نفسه تحدث الإرتجاجات عينها في الهواء الموجود في صندوق الطبلة، فينتقل منها إلى الأذن الباطنة بواسطة الفتحتين اللتين ذكرناهما، وهنالـك تتـأثر الأعصـاب السـمعية، وينقـل الصـوت إلـى المـخ فتدركـه الـروح وتفهمه.

هذه الحاسة توجد عند سائر الحيوانات بأشكال متعددة، وقد شوهد أنّ الحشرات تسمع ولكن لا يعلم كيف تسمع للآن، وشوهد عن الحيوانات الرخوة عضو السمع على شكل محفظة ليفية مملوؤة بسائل سابح، فيه جسيمات صلبة، ويوجد على سطحها عصب آتٍ من العقد المجاورة.

أمراض الأذن:

الأذن عضو سريع التأثر تجب العناية به جداً.. وتنظيف ثنيات الصيوان مما يكون فيها من الأتربة. الشعور بطنين الأذن سببه أوساخ تراكمت داخلها، في هذه الحالة لا يحسن إدخال أصابع خشبية أو عظمية لتنظيفها، بل يقطر فيها قليل من زيت اللوز الحلو فاتراً ويترك إلى ثلاثة أيام، ثمّ تحقن بالماء الفاتر فتخرج الأفرازات المتجمدة التي كانت لاصقة بغشاء الطبلة، وبسببها حدث ذلك الدوي المزعج، ولو عالجها الإنسان بالأجسام الصلبة أحدث في ذلك الغشاء تمزيقاً يوجب الصمم؛ لأنه سريع التأثر.

قد يحدث في الأذن التهاب فيشعر الإنسان بألم شديد ودوي وصداع، وقد يصحبه حمّى، فإن كان الإلهتاب قاصراً على قناة الأذن فإنه غالباً ينتهي بتقيح، فيسيل من الأذن صديد أو مصل ويثقل السمع أو يفقد رأساً، وسببه تأثير البرد على الجسم بعد العرق، أو وجود جسم غريب في الأذن، أوالتهاب في المخ أو انقطاع نزيف أو سائل اعتيادي، أو سماع الأصوات الشديدة كأصوات المدافع، أو أن يضرب صاحبها عليها، وكل هذه الأسباب يعرفها الطبيب ويعالجها ولا يدريها غيره من مدعي الطب، فليحرس المصاب من تسليم نفسه لمن لا يعرف منه طب، فإنّ أمراض الأذن تستحق شديد العناية لخطورتها.

ثقل الأذن:

من الناس من يشكون ثقلاً في آذانهم، فإن كان هذا الثقل حاصلاً من عيب في القناة السمعية فذلك مما لا يمكن علاجه، وهو أمر نادر،

ولكن الأغلب أن ثقل السمع يأتي من أسباب أخرى كثيرة منها: إلتهاب الأذن، وتقيّح الأذن المتوسطة، وخصوصاً بعد الحصبة والدفتريا... إلخ. ومنها طنين الآذان وامتلاء القناة السمعية بالإفرازات المتجمدة، أو من دخول حيوانات فيها، أو من تكلس أو اختراق الصماخ، أو من مرض عصبي، أو من شلل يحدث في العصب السمعي... إلخ.

المعالجة:

معالجة الأذن من الأمراض ـ الأخيرة خصوصاً ـ صعبة بطبيعتها، ولكن يمكن بترك الأعمال والإعتناء الشديد بالجلد ودلكه بالماء الذي على درجة من (١٨) إلى (٢٠) بترمومتر ريومور يومياً، وبأخذ حمامات مائية درجتها (٢٥) ديومور أيضاً يمكن أن يخف السمع كما كان بزوال أسبابه العصبية.

ويجب مع ذلك العلاجات المقوية، ويحسن أيضاً وضع رفادات على العنق والقنا كل صباح والدلك حول الأذن والعنق، ومضغ قشر الخبز الجاف، واستعمال الغرغرة بالماء الذي درجته من (١٩) إلى (٢٤) من ترمومتر ريومور، وأخذ حمامات فم واستعمال دوش للأنف، وانفاذ أبخرة الماء إلى الأذن.

والوسيلة في رفع الإفرازات من قناة الأذن واستخراج الحيوانات منها تعرف مما يلي من الفصول.

فإن لم تفد هذه الإحتياطات وجب على المريض استعمال القرن السمعي، وهو شبه قمع صغير يوضع داخل الأذن يساعد على السمع لدرجة مرضية.

طنين الأذن:

قد يشكو بعضهم من طنين مستمر في الأذن، وهو إما حادث أو مزمن، أي إما جديد زائل أو قديم، ففي الحالة الأولى يزول من نفسه بزوال السبب الذي أحدثه.

والسبب في هذا الدوي احتقان الصماخ أو الإفراز الأذني إذا انتقل من مكان إلى مكان، وقد يكون الدوي مسبباً من توتر الغشاء السمعي، أو من احتقان في الدماغ.

المعالجة:

قال الأستاذ بلز في كتابه (الطب الطبيعي): أنه رأى أطباء كثيرين وأساتذة اختصاصيين في أمراض الأذن عالجوا كثيراً هذا العضو في أحوال، فلم يتأدوا لنتيجة مرضية، قال: والأفضل مراعاة هذه القواعد وهي:

أوّلاً: يمتنع المريض عن الإنفعالات، وعن الافراط في العمل خصوصاً في حالة ما يكون عنده ثقل في السمع.

ثانياً: يجب عليه أن يعتني بتنظيم أوقات النوم والتبرز.

ثالثاً: أن يكثر من الجري والمشي حافي القدمين إن أمكن، وأن يخوض في الوحل أو في الرمل مدة من الزمن، وبهذه الوسيلة يشفى الإنسان من احتقان الرأس الذي سبّب له الدوي في الأذن.

وغير ذلك يستطيع المصاب أن يسلط على رجليه كل يوم تياراً من البخار مدة (٣٠) إلى (٤٥) دقيقة، ويتبع ذلك بدلك جسمه بالماء الذي درجته (١٨) ريومور، أو دلك رجله بالماء العادي، وأن لا يكون الغذاء مهيجاً، وأن يداوم على ذلك زمناً طويلاً.

وإذا كان السبب في ثقل الأذن تراكم الأوساخ فيها فيعالج بوضع قليل من زيت اللوز الحلو في الأذن، ويفضل أن يكون دافئاً، ويدفأ بغمر زجاجته في الماء الغالي، ثمّ تسدّ الأذن بقطعة من القطن مشبعة بذلك الزيت، ثمّ استخراج الأوساخ بأصبع أو شبهه. وقد شوهد أن كثيراً من أحوال ثقل السمع والصمم قد شفيت بهذه الوسيلة البسيطة.

ولكن لما كان الصماخ بعد تعريه من هذه الأوساخ يتعرض للهواء، فيخشى أن يصيبه برد، ولذلك يحسن أن يوضع على فتحة الأذن قطعة من القطن أياماً قليلة.

إخراج الحشرات من الأذن:

إذا اتفق أنّ الأذن تسرب إليها حيوان صغير، فأسرع بصب قليل من الماء فيها، وأمِل رأسَكَ إلى الجهة المضادة للأذن يخرج الحيوان في الحال هرباً من الغرق أو يختنق.

احتقان الأذن:

يظهر هذا المرض بورم واحمرار وآلام في الأذن الخارجية، ثمّ جفاف في القناة السمعية واضطراب في السمع.

وقد يحدث من هذا هذيان وحمّى، فيعالج هذا المرض بوضع رفادات من الصوف درجتها من (١٦) إلى (١٨) بمقياس ريومور، ويستبدل بسواها متى صارت حارة، ويستمر على ذلك حتّى يزول الالتهاب، ثمّ يغسل كثيراً جهة الأذن أو يؤخذ حماماً أذنياً.

وإذا كان الصماخ تأثر بهذا الاحتقان، فيحسن ملء الأذن ثلاث مرات في اليوم بماء درجة حرارته من (٢٤) إلى (٢٦) بمقياس ريومور،

ولأجل ذلك يوضع الرأس على مخدة وضعاً أفقياً، ويصب الماء فيها ويمكث فيها حتّى يسخن، ثمّ يكرر العمل ولأجل إفراغ الماء من الأذن يدير الرأس إلى الجهة المضادة.

ويحسن أيضاً استنشاق الماء الذي درجته من (١٨) إلى (٢٤) وغسل الفم من الداخل كلّ ساعتين أو ثلاث بماء درجته (١٨) بمقياس ريومور، وكذلك العنق، ويتعاطى الأكل المهيج.

الاحتقان الداخلي:

يكون مصحوباً بألم شديد في الأذن ينزل إلى العنق ويحدث اضطراباً في السمع ودوياً في الأذن، وورماً وألماً عند البلع وهذياناً وحمى، ويعالج كما يعالج الإحتقان الظاهري انتهى. عن دائرة المعارف.

* * *

وقال الشيخ محمّد الخليلي في كتابه شرح توحيد المفضل (مجلد ١ ص ١٤١ ط الأولى في النجف):

وأما آلة السمع وعضوه الأذنان، فإنّ كلاً منهما مؤلف من ثلاثة أقسام:

١ ـ الأذن الظاهرة.

٢ ـ الأذن المتوسطة.

٣ ـ الأذن الداخلية.

أما الظاهرة (الخارجية): فهي عبارة عن الصيوان، أي القسم البارز المفلطح الملصق على جانبي الرأس الأيمن والأيسر، ووظيفته جمع التموجات الهوائية المتكونة من الأصوات الخارجية، ثمّ القناة السمعية المسماة (بالصماخ) وينتهي بالطبلة، ووظيفته نقل تلك التموجات إلى

الطبلة وتوجد في هذه القناة مادة شمعية مرّة الطعم جداً تسمى (الصملاخ) وفائدتها منع دخول الحشرات والحيوانات الصغيرة إلى داخل الأذن، وقتلها إذا دخلت بمرارتها الشديدة.

والأذن المتوسطة: هي غشاء الطبلة الموضوعة فوق تجويف واقع بين القناة السمعية والأذن الداخلية، مع نفس التجويف المحتوي على ثلاث عظيمات صغيرة دقيقة جداً، أوّلها هو المتصل بالطبلة (العظم المطرقي) وبعده (العظم السنداني) المتوسط، ثمّ (العظم الركابي) وهو الأخير، وهذه العظيمات متصل بعضها ببعض اتصالاً مفصلياً على شكل سلسلة متحركة، أحد طرفيها متصل بالطبلة وهو المطرقي، والأخير متصل بفتحة الدهليز الداخلي من الأذن الداخلية وهو الركابي، ثمّ هذا التجويف الطبلي أيضاً متصل بالقسم العلوي من البلعوم بقناة دقيقة تسمى (بوق استاكيوس)، وفائدة هذا البوق هي ايصال الهواء الجوي إلى التجويف المذكور من البلعوم ليتوازن الضغط الخارجي والداخلي للهوائين الواردين على الطبلة، حتّى يستقيم السمع بذلك ولا تتصدع الطبلة.

أما الأذن الداخلية: فهي الجزء المهم من حاسة السمع، وقد ألفت من ثلاثة أجزاء: الدهليز، القنوات الهلالية، والقوقعة.

أما الدهليز: فهو تجويف صغير يوصل القنوات الهلالية بالقوقعة، والقنوات الهلالية عبارة عن ثلاث قنوات منحنية هلالياً، ومملوءة بسائل لمفاوي قليل، والقوقعة قناة أخرى حلزونية الشكل تدور حول عمود مركزي، وتنقسم بواسطة صفيحة لولبية إلى قسمين، وتنتشر عليها فروع العصب السمعي الموصلة لتموجات الأصوات إلى المخ (الحاكم المطلق) هذا هو تركيب الأذن التشريحي على وجه الإجمال.

أما كيفية السماع: وهي أن الأمواج الهوائية التي تحدثها الأصوات في الخارج، تدخل أوّلاً إلى الصوان، فتولد فيه اهتزازات تطرق غشاء الطبلة، فيحدث اهتزاز آخر في العظام السمعية من المطرقي إلى السنداني إلى الركابي، وهذا الأخير ينقلها إلى غشاء داخلي آخر يسمى (غشاء الكوة البيضية) الذي ينقله بدوره إلى السائل الموجود داخل الدهليز، فيهتز بما فيه من القنوات الهلالية والقوقعة، وبذلك تتنبه الخيوط العصبية السمعية السابحة في ذلك السائل، ومن هنا تصل انطباعات تلك التموجات إلى المخ، فيدركها ويحصل السماع. فسبحان المبدع العظيم.

قال صاحب كتاب (العلم يدعو للإيمان) عند بيان عظمة خلقة الأذن وإتقان صنعتها، مستدلاً على استحالة وجود الصدفة في مثلها، ووجوب صدورها من حكيم:

إنّ خزائن أذن الإنسان سلسلة في نحو أربعة آلاف حنيّة (قوس) رقيقة معقدة متدرجة بنظام بالغ في الحجم والشكل، ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة الموسيقي، ويبدو أنها معدّة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكل مّا كلّ صوت أو ضجة من قصف الرعد إلى حفيف الشجر، فضلاً عن المزيج الرائع من كل أداة موسيقية، ولو كان المراد عند تكوين الأذن أن تحسن خلاياها الأداء كي يعيش، فلماذا لم يمتد مداها حتّى تصل إلى إرهاف السمع، فهل القوة التي وراء نشاط هذه الخلايا قد ترقبت حاجة الإنسان في المستقبل، لا الإسماع الذهني فقط؟ أم الصدفة شاءت تكوين الأذن خيراً من المقصود؟ كلا ثمّ كلا. انتهى.

نصائح دينية:

بعض الآيات التي ورد فيها ذكر السمع والأذن:

قال علي فكري في كتاب (الإنسان):

١ _ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾.(١)

المعنى: هو الله الذي أحدث لكم أيها المكذبون بالبعث بعد الممات: السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها، والأفئدة (القلوب) التي تفقهون بها، فكيف يتعذر على من أنشأ ذلك ابتداء إعادته بعد عدمه وفقده، وهو الذي يوجد ذلك كله إذا شاء ويفنيه إذا أراد، وقليلاً ما تشكرون أيها المكذبون خير الله من اعطائكم السمع والأبصار والأفئدة.

٢ _ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.(٢)

٣ _ قال الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾.(٣)

معناه: أي فأنمناهم في الكهف سنين عديدة لا ينتبهون.

٤ _ قال الله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.(٤)

المعنى: أن مثل المنافقين في حيرتهم وترددهم كمثل قوم

---

(١) المؤمنون: ٧٨.

(٢) البقرة: ٢٠.

(٣) الكهف: ١١.

(٤) البقرة: ١٩.

أصابهم مطر شديد اظلمت له السماء، وأرعدت السحب، وأبرقت، فصاروا يجعلون أصابعهم في آذانهم دهشاً من الصواعق، وهرباً من الموت على تلك الصورة، والله محيط بهم لا يفلتهم.

٥ ـ قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾[1].

المعنى: يقول نوح لربّه: يا ربّ إني دعوت قومي إلى الإيمان جهد استطاعتي، فواصلت الليل بالنهار فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً مني، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم وضعوا أصابعهم في آذانهم، وتغطّوا بثيابهم حتّى لا يسمعوا شيئاً، وأصروا على كفرهم واستكبروا عن سماع نصيحتي لهم.

٦ ـ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[2].

المعنى: يا أيها المؤمنون انقادوا لله ولرسوله، ولا تعرضوا عنه وأنتم تسمعون القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق، ولا تكونوا كالكفرة الذين قالوا سمعنا وهم في الواقع لا يسمعون سماعاً ينتفعون به، لما ختّم على قلوبهم من أغشية الغفلة وحجب الشهوات، إن شرّ ما يدبّ على الأرض عند الله الطرش الخرس الذين لا يعقلون.

---

(١) نوح: ٥ ـ ٧.

(٢) الأنفال: ٢٠ ـ ٢٣.

ولو كان الله يعلم أنه كتبت لهم السعادة لأسمعهم؛ ولكن لو أسمعهم وهم محكوم عليهم بالهلاك لأدبروا وهم معرضون.

٧ ـ قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1].

يقول الله تعالى ذكره: فبشّر يا محمّد عبادي الذين يستمعون القول من القائلين فيتبعون أرشده، وأهداه إلى الحق، وأدله على توحيد الله، والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدلّ عى رشاد، ولا يهدي إلى سداد، ويعملون به، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ يعني ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ هم الذين هداهم، وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يعني أولو العقول الراجحة.

٨ ـ قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾[2].

المعنى: يا ربنا إننا سمعنا منادياً هو رسولك محمّد ﷺ ينادي للإيمان قائلاً: أيها الناس آمنوا بربكم فأطعناه وآمنا، فيا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وآمحُ عنّا ما ارتكبناه من سيئاتنا، واقبضنا إليك مع الأخيار الأبرار.

٩ ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3].

يقول الله تعالى ذكره للمؤمنين به، المصدّقين بكتابه، الذين لهم القرآن هدىً ورحمة: إذا قرئ عليكم أيها المؤمنون القرآن فاستمعوا له،

---

(١) الزمر: ١٧ و١٨.

(٢) آل عمران: ١٩٣.

(٣) الإعراف: ٢٠٤.

أي أصغوا له سمعكم، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه لتعقلوه وتعتبروا به، ولا تلغوا فيه، فلا تعقلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي ليرحمكم ربكم باتّعاظم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بيّنه لكم ربكم من فرائضه في آياته البينات.

١٠ _ قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.(١)

ومثلُ داعي الذين كفروا كمثل إنسان يدعو بهائم لا تسمع إلاّ أصواتاً، ولكنها لا تفهم معناها، طرش خرسٍ عمي فهم لا يعقلون.

١١ _ قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.(٢)

يؤخذ من هذه الآية الكريمة إثبات صفة السمع لله تعالى، وأنه لا تخفى عليه خافية، ومعناها: أيظن هؤلاء الناس لجهلهم أنا لا نسمع ما يتحادثون به سراً في مكان خالٍ، بل نسمع ذلك ونعلم به، ونطّلع عليه ورسلنا وملائكتنا الموكلون بحفظ أعمالهم، الملازمون لهم، يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعلٍ فيجازيهم.

١٢ _ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.(٣)

يقول الله تعالى ذكره: وقال الفوج الذي أُلقي في النار للخزنة: لو كنا في الدنيا نسمع أو نعقل من النذر ما جاءنا به من النصيحة، أونعقل

---

(١) البقرة: ١٧١.

(٢) الزخرف: ٨٠.

(٣) الملك: ١٠.

عنهم ما كانوا يدعوننا إليه، ما كنا اليوم في أصحاب السعير يعني أهل النار وقوله ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ أي فأقرّوا بذنبهم ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي فبعداً لأهل النار.

١٣ _ قال الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.(١)

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمّد ﷺ: أفأنت تسمع من قد سلبه الله استماع حججه التي احتج بها في هذا الكتاب فأصمّه عنه، أو تهدي إلى طريق الهدى من أعمى الله قلبه عن إبصاره، واستحوذ عليه الشيطان فزيّن له الردى، ومن كان في ضلال مبين، أي من كان في جور عن قصد السبيل، سالك غير سبيل الحق.

١٤ _ قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.(٢)

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمّد ﷺ: قل يا محمّد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأصنام، المكذبين بك، أرأيتم أيها المشركون بالله غيره؟ إن أصمّكم الله فذهب بأسماعكم، وأعمالكم، فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم، فطبع عليها حتّى لا تفقهوا قولاً، ولا تبصروا حجةً، ولا تفهموا مفهوماً، أيّ إله غير الله الذي له عبادة كل عابد يأتيكم به؟ يقول: يرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فتعبدونه أو تشركون في عبادة ربكم، الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، وعلى ردّه عليكم إذا شاء.

---

(١) الزخرف: ٨٠.

(٢) الأنعام: ٤٦.

ثمّ قال تعالى لنبيه محمّد ﷺ: «أنظر كيف صرف الآيات» أي أنظر كيف نتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا ويذكروا فيتبينوا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون.

الأحاديث والآثار في السمع والأذن:

١ _ «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤمن».(١)

٢ _ «إذا سمعت النداء فأجب داعي الله».(٢)

٣ _ «إذا سمعتم أصوات الديكة، فسلوا الله من فضله، فإنها رأت ملكاً. وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً».(٣)

٤ _ «إذا سمعتم نباح الكلاب، ونهيق الحمير بالليل، فتعوذوا بالله من الشيطان فانهنّ يرين ما لا ترون».(٤)

٥ _ «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين أشعاركم، وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترونه بعيداً منكم، فأنا أبعدكم منه».(٥)

٦ _ «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثمّ صلّوا عليّ فإنّه من صلى عليّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشراً، ثمّ سلوا الله لي الوسيلة،

(١) مسند أحمد ٣: ٦.

(٢) كنز العمال ٧: ٧٠١.

(٣) مكارم الأخلاق: ١٣٠.

(٤) بحار الأنوار ٦١: ١٩٦.

(٥) ميزان الحكمة ١: ٥٤٩.

فإنها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة».[١]

٧ ـ «إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصلّ عليّ، وليقل ذكر الله من ذكرني بخير».[٢]

٨ ـ «إسماع الأصم صدقة».[٣]

أي إبلاغ الكلام للأصمّ بنحو صياح في أذنه، أو كتابة، أو إشارة صدقة عن المسمع، أي يثاب عليه كما يثاب على الصدقة.

٩ ـ «اللّهم بارك لنا في أسماعنا، وأبصارنا، وقلوبنا، وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم».[٤]

١٠ ـ «اللهم أمتعني بسمعي وبصري، حتى تجعلهما الوارث مني، وعافني في ديني وفي جسدي، وانصرني ممن ظلمني، حتّى تريني فيه ثأري».[٥]

١١ ـ «اللّهم إني أعوذ بك من شرّ سمعي، ومن شر بصري، ومن شرّ لساني، ومن شر قلبي».[٦]

١٢ ـ «اللّهم اني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يُسمع، ومن نفس لا تشفع ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع».[٧]

---

(١) نفس المصدر.

(٢) السنن الكبرى ١: ٥١٠.

(٣) كنز العمال ١٥: ٤١٧.

(٤) بحار الأنوار ٦٣: ٩٩.

(٥) كنز العمال ٢: ٢١٥.

(٦) نفس المصدر.

(٧) منية المريد: ٢١.

١٣ ـ «إيّاكم والهوى فإنّه يصم ويعمي».

المعنى: إياكم والهوى، أي نزوع النفس إلى شهوتها، فإنه يصم الآذان عن سماع آيات الهدى، والإنزجار بقوارع الآيات القرآنية، ويعمي الأبصار عن سلوك طرق الهدى والرشاد.

١٤ ـ «السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحبّ أو كره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع عليه ولا طاعة».[١]

١٥ ـ «كفى بالمرء كذباً أن يتحدّث بكل ما سمع».[٢]

أي: لو لم يكن للرجل كذبة إلاّ تحدّثه بكل ما سمعه لكفاه في الكذب؛ لأن جميع ما يسمعه ليس بصدق، بل بعضه كذب، فلا يتحدّث إلاّ بما ظن صدقه.

١٦ ـ «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صبّ في أذنه الآنك» (الرصاص).

أي: صغى إلى حديث قوم حالة كونهم يكرهونه.[٣]

١٧ ـ «أتاني جبريل فقال لي: إن الله يأمرك أن تأمر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية، فإنّها من شعائر الحج».[٤]

* * *

---

(١) كنز العمال ٦: ٦٨.

(٢) مكارم الأخلاق: ٤٦٧.

(٣) بحار الأنوار ٧: ٢١٨.

(٤) الجامع الصغير ١: ١٧.

ديوان الشعر:

قال سالم الأسدي:

أحبّ الفتى ينفي الفواحش سمعه كأنّ به عن كلّ فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً حجرا

وقال آخر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وقال آخر:

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحاً مني وما أذنوا من صالح دفنوا

صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذُكِرتُ بشرّ عندهم أذِنوا

* * *

[التنفس عند الإنسان]:

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ويتنفس من خَرم».

الخرم ثقب الأنف، ومنه يكون التنفس واستنشاق الهواء.

قال البستاني في (دائرة المعارف):

الأنف عضو خاص بحاسة الشم، وهو يقي الرئتين من استنشاق الغازات المضرة، ويعين عضو الذوق في تمييز خصائص الأطعمة.

وشكله مثلّث متجه إلى الأسفل اتجاهاً عمودياً، بارز من مركز الوجه أعلى الشفة العليا، وقمّته أو جذره مصلة بالجبهة رأساً، وفي قاعدته، أي طرفه السفلي، فتحتان إهليلجيتان هما المنخران، يفصلهما فاصل من الأمام إلى الخلف يعرف بالفاصل الأنفي، أو الوترة، وينتهي ظهره من الأسفل ببروز مستدير يقال له فصّ الأنف، والظهر يتكوّن من

اتحاد الوجهين الجانبيين، ويختلف اتجاهه بحسب اختلاف الأشخاص، ويغشاه من الظاهر جلد، ومن الباطن غشاء مخاطي يسمّى أيضاً بالغشاء النخامي من المرتشح النخامي الذي يرتشح منه. وهو ملتصق إلتصاقاً شديداً بالمحاق، وفي المنخرين من الأنف شعر منتصب، الغرض منه وقاية المسالك الهوائية مما في الهواء من المواد الغريبة المؤذية.

وللأنف تجويفان غير منتظمين ممتدان من الأمام إلى الخلف، يعرفان بالحفرتين الأنفيتين أو الخياشيم، ولهما فتحتان من المقدم هما المنخران، وفتحتان من المؤخر تنتهيان في البلعوم، وتستطرق كل من الحفرتين إلى أربعة تجاوف وهي:

١ ـ الحجاج بواسطة القناة الدمعية.

٢ ـ الفم بواسطة القناة الحنكية المقدّمة.

٣ ـ الخوذة بواسطة الثقوب الشمية.

٤ ـ الحفرة الوتدية بواسطة الثقب الوتدي الحنكي.

والحفرتان الأنفيتان مكونتان من (١٥) عظماً وهي: الجبهي، والوتدي، والمصفوي من عظام الخوذة، وجميع عظام الوجه إلاّ الوجني والفك السفلي، ولكل حفرة منهما قبوة وأرض وجدران أحدهما إنسي ويقال له الحاجز أيضاً، والآخر وحشي، وله ثلاثة أصمخة علوي ومتوسط وسفلي.

والأنف مؤلف من هيكل بعضه عظمي وبعضه غضروفي، وله عضلات وأغشية وشرايين وأعصاب وأوردة للقيام بالوظائف المطلوبة، والأجزاء الجوهرية التي يتكون منها عضو الشم هي خيوط العصبين الشميين التي تتوزع في الغشاء المخاطي الذي يغشى الثلث العلوي

للفاصل الأنفي والقُريني العلوي، والقسم العلوي من القريني المتوسط، وسقف الحفرتين الأنفيتين أسفل الصفيحة الغربالية من العظم المصفوي.

وهذه الجهة الشمية يغشاها أبيثيليوم عمودي غير هدبي، تخالطه كريّات مغزلية الشكل، لها زوائد دقيقة يظن أنها متصلة بخيوط العصب الشمي الانتهائية.

وأما القسم السفلي من الحفرتين الأنفيتين ويقال له التنفسي فمبطن بأبيثيليوم عمودي إلاّ عند المنخرين فإنّه هناك قشري، وحاسة الشم منحصرة في أجزاء الحفرتين الأنفيتين التي توزع فيها العصبان الشميان، ويشترط لشعورها بالروائح أن يكون غشاء الحفرتين الأنفيتين المخاطي رطباً، فإذا كان جافاً تعطلت حاسة الشم، أو فُقدت بالكلية كما يشاهد في الدور الأوّل من الزكام عند ذلك بجفاف الغشاء المذكور.

ثمّ إنّ هيأة الأنف تختلف باختلاف الأشخاص وأجناس البشر، فيكون في البلدان الباردة مستطيلاً مرتفعاً منتظم الشكل، وأما في البلدان الحارة فيكون عريضاً مفرطحاً أفطس، ولهيئته دخل كبير في جمال الوجه وقبحه، وفي تمييز أجناس البشر وصفاتهم، والهيئات المختلفة التي تكسبها حركات الأنف وجه الإنسان متوقفه على عمل عضلاته المتصلة بالغضاريف والجلد والشفة العليا، وأكثر الإشارات الناشئة عن تلك الحركات مستقبح منكر؛ لأنه يدل على إزدراء أو غضب أو خوف أو ألم، وقد اتخذ علماء الفراسة أنف الإنسان دليلاً صادقاً على طبعه.

ثمّ إنّ حاسة الشم في الإنسان أضعف من حاسة البصر، وهي فيه ضعيفة جداً بالنسبة إلى حاسة الشم في الحيوانات، غير أنه يفوقها في كثرة أنواع الروائح التي يستطيع أن يدركها ويميز بينها.

ويختلف أفراد الناس في قوة هذه الحاسة كما يختلفون في قوة حاسة البصر، وقد يشم الواحد رائحة لا وجود لها ولا يشمها غيره، ويكثر ذلك في أصحاب المزاج العصبي، وكلما زاد الإنسان تمدناً زادت حاسة الشم فيه ضعفاً، فإنّ تجاويف الأنف في المغول والزنوج وهنود أمريكا أعظم من تجاويفه في البيض، وبين أنف الإنسان وأنوف الحيوانات والطيور والأسماك فرق بيّن في الهيأة والإستطراقات إلى غير ذلك.

وقد يتضخم نسيج الأنف الخلوي وجلده فتنتفخ الأجربة الشحمية وتفرز مفرزات غزيرة ويتلطخ الجلد ويتخطط بالأوردة الضخمة، ولكن نموّ ذلك يكون بطيئاً وغير مصحوب بألم أو خطر، على أنه يشوه الوجه كثيراً ويزعج المصاب به.

وهذا الورم قد يزيله الجرّاح بسكينه مراعياً في ذلك صحة المريض، وتدبير أمر طعامه وشرابه بالتدقيق. وقد يفقد الأنف برمته أو جزء منه أو أكثر لمرض أو آفة فيعوّض عنه بأن يستعار له ما يسدّ مسدّه من جلد موضع مجاور له من الوجه، أو بطرق أخرى مما هو جارٍ عند الجراحين، وقد تعتري الأنف أمراض كالزكام والرعاف وغيرهما... هذا ما ذكره البستاني في دائرة معارفه.

* * *

ويحدّثنا فريد وجدي في المجلد الأوّل من (دائرة المعارف) فيقول:

الأنف حاسة الشم، وهي عند الإنسان حفرة عظيمة موضوعة في ممرّ الهواء الذي يتجه إلى الرئتين بالتنفس، فهي دائماً في اتصال بالروائح المختلفة المحمولة بالهواء.

هذه الحفرة متصلة بفتحتين من جهتها الخارجية، موضوعتين أعلى الفم

تسمى الفتحات الأنفية وهما مغشاتان بغشاء مخاطي ناعم اسمه الغشاء النخامي، وفيه عدة ثنيات حكمتها زيادة سطح ذلك الغشاء لتقوية حاسة الشم، هذه الثنيات أسمها القرينات، وهي مكوّنة من صفائح عظم داخل الحفر الأنفية، ويوجد تجاويف محفورة في سمك عظام الجبهة وفي الفك العلوي وغيره، كل ذلك لتقوية إدراك هذه الحاسة الخطيرة.

تنفتح الحفر الأنفية من الخلف في البلعوم خلف اللهاة، وتتصل بالغشاء النخامي المارّ ذكره أعصاب آتية من الجمجمة متفرعة من العصب الشحمي، وهي فروع دقيقة تمر من ثقوب صغيرة وتتأثر بالروائح المختلفة، فتنقل ذلك الإحساس إلى المخ فتدركه الروح هنالك على الأسلوب الذي قدره الخالق جلّ وعزّ.

الغشاء النخامي محلى بجملة غدد مخاطية لحفظه رطباً دائماً، ولولا ذلك لصعب عليه إدراك الروائح، وهنالك ارتباط بين حاستي الذوق والشم، فإذا أصاب الإنسان زكام (وهو عبارة عن انتفاخ في الغشاء النخامي مع زيادة في الافراز) تأثرت حاسة الذوق وعدمت، حتّى يزول الزكام.

هذه الحاسة توجد عند جميع الحيوانات؛ بل منها ما هو من قوة تلك الحاسة في حال يقضي بالعجب، فإنّ الحشرات تأتي للحوم المتعفنة من أبعاد شاسعة، ولكن لا يعلم محلها من أكثرَها، ولا يستدل فيها على وجودها إلاّ بأثرها.

في الحيوانات التي تُعد قوية الشم كالكلب والثعلب والذئب... إلخ، تكون القرينات الأنفية عندها كبيرة جداً فيتبعها اتساع في سطح الغشاء النخامي الذي هو سبب إدراك المشمومات.

وعند بعض الحيوانات يطول الأنف حتّى ينقلب إلى هيأة خرطول، ويسمى كذلك مثل الفيل والتابير... إلخ.

أمراض الأنف:

منها الزكام والرعاف (أي النزيف) والقروح.

أما الزكام ويعرف بالنزلة الدماغية، من أكبر أسبابه تأثير البرد على الجسم لاسيّما برد الأطراف السفلى، أو ارتداد العرق لاسيّما عرق الرأس، أو صب الماء البارد على الرأس على خلاف العادة، فتثقل الجبهة وتسخن وتنسد الخياشيم، ويحدث عطاس وصداع. وترشّح الأنف دواؤه الاحتراس من التعرض للبرد والاستدفاء حتّى يجيء العرق، ووضع الأرجل في الماء الذي فيه قليل من الخردل.

وإن كان الزكام شديداً وجبت معالجته بمعرفة الطبيب لئلا ينقلب إلى حمى.

أما الرعاف: فدم يسيل من أنف الشبان الدمويين، أو الشيوخ، وسببه تراكم الدم في الخياشيم أو الرأس، وقد ينشأ من غيظ أو احتباس طمث أو نزيف باسوري، فإن كان خفيفاً أفاد البدن وأذهب ألم الرأس، وإن كان غزيراً وكان منشؤه قروح الأنف وجب رفعه ومعالجته بواسطة الطبيب، وإن كان آتياً من الغشاء النخامي، وكان غزيراً أيضاً وجب الاعتناء بوقفه بوضع خِرق باردة على رأس المصاب، أو على قفاه أو ظهره، ووضع قدميه في الماء الحار المخردل واستنشاق الماء والخل، أو مسحوق الشب، فإن لم يقف الدم وجب استحضار الطبيب ليسد الأنف والخياشيم بالوسائط المعروفة.

ومن الفوائد المجربة في قطع الدم من الأنف مسك الأنف بين الأصابع، ورفع الذراعين إلى فوق عدة دقائق لأنه برفع الذراعين ينزل الدم إلى القلب والرئتين ولا يستطيع الصعود ثانية.

قروح الأنف:

سببها الزكام أو عارض آخر، ومتى حدثت وجب تركها ودهنها بمرهم الخيار وزيت اللوز الحلو... إلخ. وأما لو عبث المصاب بأنفه، وقشرها كلما جفت هاجت وعادت كما كانت، وربما انقلبت إلى داء خبيث.

هذا ما تقرر في الطب العام، ولكن هنالك طب يقال له طبيعي لا يعتمد على العقاقير؛ بل القوى الطبيعية، ونحن هنا نعتمد على كتاب العلامة الألماني بلز فقد قال تحت عنوان رعاف الأنف:

لا يجوز وقف الرعاف إلاّ إذا كان شديداً مضعفاً، فتوضع لوقفه رفادات بماء حول الجبهة والقفا، ويلف جذع الجسم بقماط مبلول في درجة (١٨) من مقياس ريومور، ويعمل حمام حار قدمي، ويجلس المريض مستريحاً ويرفع رأسه عالياً، أو يصب الماء على قفاه صباً.

وقال تحت عنوان (الأنف الأحمر):

يصاب بعض الناس باحمرار في الأنف من الافراط في شرب المشروبات الكحولية، فلمعالجته يجتنب شرح الراح، ويبتعد المصاب عن كل ما يسبب صعود كمية عظيمة من الدم إلى أنفه لعدم التعرض للحرارة الشديدة والبرودة الشديدة، ويمتنع أيضاً من البيرة والقهوة والشاي والأغذية المتبّلة والمملّحة بافراط، وأن يتحاشى الحركات العنيفة، وأن يؤب الغذاء الملطف البعيد عن التهيج... إلخ.

ويعد هذا يستعمل القماط المبلول بماء في درجة (١٨) ريومور حول الجسم والعنق، ويمشي في الماء، وتوضع رفادات مبلولة بالماء حول العنق، ويصب الماء على الوجه، وللكهربائية فعل جيد في معالجة هذا المرض.

حمام الأنف:

هذا الحمام يستعمل كثيراً في حالة الزكام المخي القديم الذي ينتج منه رشح الأنف.

وهذا الحمام عبارة عن استنشاق الماء من راحة الكف، أو من فنجان لأجل عدم استنشاق الهواء مع الماء، والماء يكون فاتراً أو بارداً.

نزيف الأنف:

يستنشق الماء الملح، فإن لم يكف هذا فيصب على الرأس والعنق والكتفين ماءً بارداً، ويلزم بعد ذلك وضع الجسم في حالة سكون وضعاً أفقياً، ويُعاد هذا العمل بعد بضع ساعات فيقف النزيف. انتهى.

ويتحدّث إلينا عليّ فكري عن حاسة الشم في كتابه (الإنسان) فيقول:

الشم هو الحاسة التي تدرك بها الروائح الذكية، والروائح الكريهة، وتميزها بعضها عن بعض، مركزها الأنف.

الأنف: هو مركز حاسة الشم، وهو عضو بارز في وسط الوجه، وهو في تمام خلقته، وله فتحتان تعرفان بطاقتي الأنف، تؤدي كل منهما إلى فراغ منفصل عن الآخر بحاجز غضروفي وعظمي، يقال له الخيشوم.

وبكل من فراغي الأنف ثلاث عظام ملتوية موضوع بعضها فوق بعض.

ويتصل الفراغان الأنفيان بالجزء العلوي من البلعوم بثقبين: هما فتحتا الأنف الداخليتان، ويبطن الفراغان الأنفيان والعظام الأنفية بغشاء مخاطي ذي لون قرنفلي عند فتحتي الأنف وباهت في الداخل.

ومقر عضو الشم الغشاء المخاطي الذي يبطن جزءاً من عظام الأنف الداخلية، وهو باهت اللون، وتنتشر فيه أطراف الأعصاب الخاصة بالشم، وتنشر

بهذا الغشاء المخاطي خلايا طلائية خاصة بحاسة الشم، بكل منها زائدة شعرية بارزة، ولأجل أن تكون حاسة الشم قوية يلزم أن يكون الدماغ والعصب الشحمي سليمين، والغشاء المبطن للأنف رقيقاً رطباً.

حكمة الخالق في الأنف:

خلق الأنف بارزاً عن الوجه لما فيه من الجمال، ولتكون أرنبته آلة لاستنشاق الهواء، وخلق مجراه مفتوحاً؛ لأن الحاجة إلى استنشاق الهواء ضرورية دائماً، وإنما جُعل مجريان احتياطاً لمصلحة التنفس حتّى لو أصاب أحد المجريين آفة تحصل بالآخر مصلحة التنفس.

وخلقت قصبته صلبة لتكون وقاية للوجه من المصادمات، وأرنبته لينة ليحصل بانقباضها وانبساطها جذب الهواء كما ترى من (كير الحدادين) ومجراه إذا علا ينقسم قسمين: أحدهما يفضي إلى فضاء الفم، والآخر يمر صاعداً حتى يفضي إلى العظم الشبيه بالمصفاة الموضوع في وجه محل الإحساس، فيحصل بأحد القسمين الشم وبالآخر التنفس، وإنما جعل في منتهى شعبتي الأنف عظم مثقوب شبيه بالمصفاة لتصل الروائح بنفسها إلى موضع الإحساس، ويستفرغ منها الفضلات المخاطية، ولم تجعل هذه المنافذ مستقيمة بل معوجة، إذ لو كانت مستقيمة لكان الهواء المستنشق يصل إلى الدماغ بسرعة فيفسد، فجعلت معوجة ليبقى الهواء في تلك التعاريج مدة فتنكسر برودتها، فإذا وصل إلى الدماغ يكون معتدلاً.

وجعل منفذ المنخرين إلى الحنك، حيث يوازي الحلقوم، ليكون التنفس أسهل، ولو لم يكن كذلك لما أمكن انطباق الفم ساعة، ولو كان

التنفس بالفم لكان الفم جافاً بدخول الهواء وخروجه، فلم يحصل إدراك الطعم، ولا حركة اللسان، ولا مضغ الطعام ولا بلعه.

كيفية حصول الشم:

كيفية حصول الشم هي: أن الهواء الحامل للروائح يأتي عند التنفس ويمرّ من الفتحات الأنفية الخارجية إلى الرئتين فيحصل تنبيه يوصل تلك الروائح بواسطة أطراف الأعصاب الشميّة المنتشرة في الغشاء المخاطي إلى المخ الذي يميز نوعها إن كانت طيبة أو كريهة.

وتنتشر معظم فروع الأعصاب الشمية في الجزء العلوي من المنطقة الأنفية، ولذلك إذا أراد الإنسان أن يشم رائحة معينة تجده يستنشق الهواء بقوة لإدخاله إلى الجزء العلوي من هذه المنطقة، فيحل محل الهواء الذي يكون راكداً فيها فتتبع أطراف الألياف العصبية الشمية بهذه الرائحة.

تأثير الشم على أعضاء الجسم وعلاقته بالذوق:

لا يوجد بين الشم والذوق ارتباط عظيم؛ لأن رائحة الطعام تشم قبل أن يؤكل، ووجود الرائحة يزيد لذة الذوق، وحينئذٍ فالشم للذوق كالسمع للبصر.

وكما أن للشم والذوق إرتباطاً، فللشم وأعضاء الهضم إرتباطاً أيضاً، والدليل على ذلك ما يحصل من التهوع والقيء لبعض الأشخاص عند شم بعض الروائح الكريهة.

وكثيراً ما يؤثر الشم في أعضاء التناسل والأعصاب، ألا ترى الرائحة الطيبة ينشأ عنها الفرح والنشاط، وبعض الروائح ينشأ عنه الحزن، وبعضها ينشأ عنه النوم، وبعضها ينشأ عنه اليقظة أو الصداع وغير ذلك.

وكما أن للشم ارتباطاً بما ذكر فإنّ له صلة بأعضاء التنفس، حتّى كأنه جزء منها لا ينفصل عنها، فيه تعرف أوصاف الهواء الداخل في الرئة وجودته للتنفس فيدنو منه، أو رداءته فيجتنب.

وتختلف قوته في الأشخاص، فمن الناس من لاحظّ له منه، ومنهم من أصابه منه حظ وفير، بحيث إنه يدرك أدنى رائحة لا تدرك لمن شمهُ متوسط بين الضعف والقوة.

وقد يفقد الشم في حالة الإصابة بالزكام من انتفاخ الغشاء المخاطي في المنطقة العليا للأنف، وبهذا لا يمرّ الهواء منها بسهولة، وكذلك لتغطية أطراف الألياف العصبية الشمية لطبقة من المواد المخاطية المفرزة من الغشاء الملهب، وقد ينتج عن فقد الشم ضعف في إحساس الذوق لارتباطها كما تقدم، ولهذا السبب نجد أنه في حالة الفقد الموقت لحاسة الشم يقل الإحساس بطعم بعض الأغذية.

وقد يفقد الشم باستنشاق بعض المساحيق (كالنشوق) مثلاً، فإنه يضعف حاسة الشم أو يبطل فعلها.

الروائح وتأثيرها:

وبعض الروائح تؤثر فيه تأثيراً خاصاً، كرائحة الأفيون، والبنج، والداتورا، والبيلسان، والجوز المقيء فإنها تسبب النوم إن كانت ضعيفة قصيرة المدة، وتسبب الصداع إن كانت قوية طويلة المدة. ورائحة المسك تسبب لبعض الناس صداعاً شديداً، وقد تسبب الرعاف.

ورائحة (الترابنتينا) ويقال لها (عطر الترابنتينا) تؤثر في الشم أوّلاً، ثمّ تمتص وتتجه إلى البول، فيكتسب منها رائحة بنفسجية، ورائحة

الكافور تضعف قوة أعضاء التناسل، ورائحة الأزهار الجيدة الرائحة كالورد، والياسمين، والبنفسج والتمرحنا والريحان، والفل، تسبب أعراضاً خطرة إذا كانت في محل مقفل، لاسيما في الليل، ولا بأس من استنشاقها والتعطير بها، إنما لا ينبغي الإفراط فيها، وهناك رواح ضارة، وربما كانت قاتلة كرائحة (الزرنيخ) وما ماثله، وتوجد روائح قوية كرائحة الدخان، وروح النوشادر، وروح الجاوي، والأثير وغيرها، ومع قوتها فإنها تنفع في بعض الأحيان لزوال الإغماء والإختناق وغيرهما.

وينبغي أن يعلم أن الأنف لا يحس بنفسه؛ بل تجتمع فيه الروائح، وهو كقناة يوصل الهواء الحامل للرائحة إلى الخياشيم العليا، وهي التي عليها مدار حاسة الشم.

وكل رائحة لا تكون مقبولة تضرّ بالصحة كثيراً، وقد تحدث دواراً، وغشياناً وآلاماً في الرأس (وهستيريا) إلى غير ذلك من الأمراض. على أنّ الروائح الزكية إذا كانت شديدة جداً أو استعملت طويلاً تحدث مع الأعراض المذكورة خدراً وبطئاً في الدورة الدموية، وأحياناً موتاً، فيغلط كثيراً من يتدهن على الدوام بروائح زكية؛ لأنه يضرّ نفسه بدون أن يعلم، فيصاب بدوار، وآلام في الرأس، وغير ذلك من الأعراض التي تؤثر كثيراً في الصحة.

والورد أكثر ضرراً من سائر الروائح؛ لأنه مع رائحته الزكية يولد كمّية وافرة من (الحامض الكربونيك) ليلاً ونهاراً، وإذا استنشق أحدث دواراً، واغماء، وبطئاً في الدورة الدموية، وقد ذهب البعض إلى أن كل الروائح زكية كانت أو كريهة تضر بالصحة، وقال آخرون: إنّ الزكي منها يفيد إذا استنشق قليلاً وما بقي فيضر، على أن كل المواد العطرية

كالقرفة، والقرنفل، والأنيسون، وما شاكلها كثيرة الفائدة لمن يشمها ويشعر برائحتها، وأما من فقد حاسة الشم فلا تفيده هذه ولا تضره الروائح الكريهة، فلا يصاب بمرض بسبب الشم ولا يشعر بلذة.

ملحوظة: كل من لم يكن أنفه جيد التركيب لا تكون فيه حاسة الشم كاملة، ومن لا أنف له لا شمّ له.

العناية بنظافة الأنف:

يجب العناية بتنظيف الأنف جيداً بالماء الساخن في أوقات الغسل، وبالمنديل في غيرها لإزالة ما يتراكم فيها من الأوساخ، والأتربة التي يصعب إخراجها بالتمخط.

وينبغي عدم التمخط باليد بل بالمنديل.

ويجب عدم وضع الأصابع في الأنف لإستخراج الوسخ، فكل ذلك من العادات القبيحة الواجب تجنبها بتاتاً.

نصائح أدبية في آداب الأنف:

١ ـ تجنب لمس الأنف، أو وضع الأنامل فيه، إلاّ لضرورة.

٢ ـ وعند التمخط يلزمك مراعاة الأدب، فلا تستعمل يدك، ثمّ تمسح في الحيطان أو الثياب، أو تلقي المخاط على الأرض، والجدران، والمقاعد، كما يفعل الرعاع، بل استعمل المنديل.

٣ ـ وينبغي وقت وضع المنديل على الأنف إسباله أيضاً على الفم حتّى يحجبه عن الأنظار.

٤ ـ واحترز من طرح المنديل على الأرض أو الأثاث بعد ذلك، ومن إبراز طرفه من الجيب.

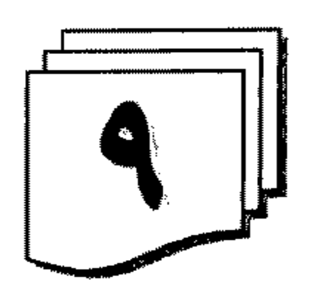
٥ ــ إذا دعت الضرورة للتمخط وقت الأكل فأبعد رأسك، وامسح أنفك بالمنديل بدون ضجة، وإذا لزم الحال للسلام وقت ذلك فيكون بحني الرأس فقط.

٦ ــ يحترز بقدر الطاقة من التمخط أو العطاس في المجالس، وقطع ما بين الناس من الحديث بالصوت الناشيء عنهما.

٧ ــ يحسن الدعاء للعاطس بأن يقال له: يرحمك الله، فيجاوبه بقوله: يغفر الله لنا ولكم، وهذه عادة إسلاميّة شرقية، وتسمّى (التشميت) وهي شائعة الآن لاسيّما بين رجال الدين حتّى يقال للعاطس (بارك الله فيك).

٨ ــ يجب وقت العطاس أن يلفت الوجه عن مقابل من يكون حاضراً، مع وضع المنديل على الوجه، فإن ذلك أليق وأظرف. انتهى.

* * *



قوله عليه السلام:

إِذَا أقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى قَوْم أعَارَتْهُمْ مَحَاسِنَ غَيْرِهِمْ، وَإِذَا أدْبَرَتْ عَنْهُمْ سَلَبَتْهُمْ مَحَاسِنَ أنْفُسَهُمْ.

(نهج البلاغة ٤: ٤)



[مغريات الدنيا]

قال ابن أبي الحديد:

كان الرشيد أيام كان حسن الرأي في جعفر بن يحيى، يحلف بالله أن جعفراً أفصح من قس بن ساعدة، وأشجع من عامر بن الطفيل، وأكتب من عبد الحميد بن يحيى، وأسوس من عمر بن الخطاب، وأحس من مصعب بن الزبير، وكان جعفر ليس بحسن الصورة، وكان طويل الوجه جداً، وأفصح له من الحجاج لعبد الملك، وأسمح من عبد الله بن جعفر، وأعف من يوسف بن يعقوب، فلما تغير رأيه فيه أنكر محاسنه الحقيقية التي لا يختلف اثنان أنها فيه، نحو كياسته وسماحته، ولم يكن أحد يجسر أن يردّ على جعفر قولاً ولا رأياً.

فيقال: أن أوّل ما ظهر من تغير الرشيد له، أنه كلّم الفضل بن الربيع بشيء فردّه عليه الفضل، ولم تجر عادته من قبل أن يفتح فاه في وجهه، فأنكر سليمان بن أبي جعفر ذلك على الفضل. فغضب الرشيد لإنكار سليمان وقال: ما دخولك بين أخي ومولاي، كالراضي بما كان من الفضل، ثمّ تكلم جعفر بشيء قاله للفضل، فقال الفضل: اشهد عليه يا أمير المؤمنين، فقال جعفر: فضّ الله فاك يا جاهل، إذا كان أمير المؤمنين الشاهد، فمن الحاكم المشهود عنده؟ فضحك الرشيد وقال: يا فضل لا تمارِ جعفراً فإنك لا تقع منه موقعاً.

واعلم أنا وجدنا تصديق ما قاله عليه السلام في العلوم والفضائل والخصائص النفسانية دع حديث الدنيا والسلطان والرئاسة، فإن المحفوظ من علم أو من فضيلة تضاف إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفن، مثاله حظ عليّ عليه السلام من الشجاعة، ومن الأمثال الحكمية، قلّ أن ترى مثلاً شارداً أو كلمة حكمية إلاّ وتضيفها الناس إليه، وكذلك ما يدعي العامة له من الشجاعة وقتل الأبطال، حتّى يقال: إنه حمل على سبعين ألفاً فهزمهم، وقتل الجن في البئر، وفتل الطوق الحديد في عنق خالد بن الوليد، وكذلك ما اشتهر به أبو نواس في وصف الخمر يضاف إليه منها الشعر في هذا الفن ما لم يكن قاله، وكذلك جود حاتم وعبد الله بن جعفر ونحو ذلك، وبالعكس من لاحظّ له ينفى عنه ما هو حقيقة له، قد رأينا كثيراً من الشعر الجيد ينفى عن قائله استحقاراً له لأنه خامل الذكر وينسب إلى غيره، بل رأينا كتباً مصنفة في فنون من العلوم خمل ذكر مصنفيها ونسبت إلى غيرهم من ذوي النباهة والصيت، وكل ذلك منسوب إلى الجد والإقبال.[1]

* * *

قال ابن ميثم البحراني:

يريد عليه السلام أنّ الدنيا إذا أقبلت بجاهها ومالها على قوم، بحسب توافق أسباب السعادة الدنيوية لهم، استلزم ذلك إقبال الناس عليهم وتقربهم إليهم بكل ممكن لميلهم إلى الدنيا، ومحبتهم لها وحسنوا في أعينهم، فاستعاروا لهم الأوصاف الجميلة التي كانت في غيرهم، وإن لم

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٠٥.

يكونوا في نفس الأمر كذلك، حتّى يصفوا بالعلم الجاهل، وبالكرم المبذر، وبالشجاعة المتهوّر، وبالظرف ولطف الأخلاق الماجن.

وربما كان إقبال الدنيا عليهم أيضاً سبباً لاستعدادهم لتحصيل الكمالات النفسانية والملكات الفاضلة التي كانت لغيرهم قبلهم، وإن كانوا قبل ذلك غير أهل لشيء منها.

ويحتمل أن يريد عليه السلام بالمحاسن محاسن الدنيا من مركوب وملبوس وأبهة وحسن إيالة وتصرّف، وذلك ظاهر، وكونه عارية باعتبار عدم دوامه، وكذلك إذا أدبرت عنهم بحسب توافق أسباب الشقاوة فيها، قبحوا في أعين الناس حتّى يكون أحدهم ذا فضيلة في نفسه فيجحدها الناس ويصفونه بضدّ لها. فإن زهد في الدنيا نسبوه إلى الرياء والسمعة، وإن حسنت أخلاقه نسبوه إلى الخلاعة والمجون، وإن شجع نسبوه إلى التهور والجنون، وهو معنى سلبها لمحاسن أنفسهم، وربما استعدّ ذو الفضيلة منهم بذلك لتركها وإهمالها والتخلق بضدها حتّى تسلب عنه الفضيلة بالكلية.[1]

* * *

[قصة في معارضة الحظ والعقل]:

ومما جاء في (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة)[2] ما نصه:

نظم نعمت خان عالي، أحد أبطال الحكمة والشعر، من أهالي ايران في الهند في مثنوية، قصة في معارضة الحظ والعقل أيهما أنفع للإنسان، فقال: الحظ

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٧.

(٢) ج ٢١: ٢٣.

للعقل: نجرب ذلك، نختار أسوء الناس حالاً، فأقارنه وأؤيده وتفارقه مرة، وتقارنه وتؤيّده وأفارقه مرة أخرى ليتبين الحق.

فوجد يتيماً عارياً بلا مال ولا مأوى، يعمل لأحد الزارعين، مشغول بحرث الأرض مع الثيران، فقال الحظ: أنا له الآن فلا تقربه، فأقبل عليه وصادف محراثه ثقبة كنز مملوء من الجواهر الكريمة، فاستخرجها ولا يعقل ما يعمل بها، فألقى مقداراً منها في معلف الثيران، وصنع منها قلائد وعلقها على عنقها وأذنابها وقرونها، فشرعت تتلألا في الصحراء، كأنها كوكب دري، وخرج ملك البلاد للصيد، ومرّ على هذه الناحية فاستجلبه بهاء هذه الجواهر وتلألؤها، فعكف عنانه نحوها، فرأى اليتيم وراء الثيران، وأعجب به حساً وكياسة، وقال لأصحابه: ما رأيت غلاماً أحسن ولا أكيس منه قط.

فاحملوه مع هذه الجواهر إلى القصر الملوكي، فحملوه وصار الملك لا يفكر إلاّ فيه، فوقع في روعه أنه لا ولد له يرث ملكه ويحفظه، وإنما له بنت واحدة، فقال: أزوجه بنتي وأجعله وارث ملكي فلا أجد أليق منه، فزوجه ابنته، وأقام الحفلات والمآدب وصار يفتخر به عند الأباعد والأقارب، حتّى زفّ مع بنت الملك ونام معها في فراشها.

فقال الحظ للعقل: هذا عملي رفعت يتيماً عارياً من وراء الثور إلى فراش بنت الملك، والآن أفارقه وأسلمه إليك بما لك من التدبير والإزدهار.

فلمّا فارق حظه ورجع إليه العقل، ذهب النوم من رأسه وجعل يفكر في عاقبة أمره، فقال لنفسه: أنت ما تعلم فلو سألك الملك بالبارحة عن أبيك وأسرتك ما تقول له؟ ولو علم بلؤم نسبك وحسبك لقتلك في الساعة، فمن حكم العقل الهرب من هذا الضرر المهلك، ودبّر العلاج في الهرب عارياً في ظلمة هذه الليلة، فخلع لباسه الملوكي وألقى بنفسه من

جدار القصر وراح يهرول في البادية هراباً، فتوجه الحظ إلى العقل وقال: هذا من عملك.

وقد سمع في حديث أنه عليه السلام يدعو بهذا الدعاء:

«اللّهم ارزقني حظاً يخدمني به ذوو العقول، ولا ترزقني عقلاً أخدم به ذوي الحظوظ».

* * *

وفي (في ظلال نهج البلاغة)[1] قال ابن مغنية:

المراد بإقبال الدنيا على الإنسان أن ينال منها ما يغبط عليه أو يحسد، والمراد بإعارته محاسن غيره أن يرفع فوق منزلته كمن ساد، وما هو أهل للسيادة.

وليس من الضروري أن تنسب إليه فضائل الآخرين، كما توهم الشارحون؛ بل قد يكون ذلك، وقد لا يكون، المعيار أن يقدّر بأكثر من ثمنه.

والمراد بسلبته محاسن نفسه أن تبخس أشياؤه، ويهبط حقه ومقامه، والأمثلة على ذلك لا تحصى كثرة، منها أن يؤلفَ شهير كتاباً، فيقبل عليه الناس ويشتروه بأغلى الأثمان، ويكيلوا له المدح بلا حساب، ويستشهدوا بكلماته كدليل على الحق!

ولو نسب هذا الكتاب بالذات إلى مغمور مجهول لأعرضوا عنه. وربما سخروا منه.

وفي بعض خطب الإمام عليه السلام أوضح السبب الموجب وبيّنه بقوله. «فهو عبد لها ـ أي للدنيا ـ ولمن في يده شيء منها، حيثما زالت زال

(١) ج ٤: ٢٢٢.

إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها»، إنه يقبل ويُدبر بوحي من دنياه ومصلحته، وهو يظن أنه ما فعل وما ترك إلاّ بإملاء الحق والعدل.

* * *

أقول: جاء في (مجمع البحرين):[١] و(الدنيا) مقابل الآخرة، سميت بذلك لقربها.

وفي الحديث: «الدنيا دنياوان: دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة» البلاغ ما يتبلغ به لآخرته، والملعونة بخلافه.

* * *

[ذم الدنيا]:

وقد جاء في ذم الدنيا الكتاب والأحاديث المتواترة.

قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[٢] وذلك مما يندرج تحته جميع المهلكات الباطنة: من الغلّ والحسد والرياء والنفاق والتفاخر وحب الدنيا وحب النساء.

قال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

قال بعض العارفين: وليس الدنيا عبارة عن الجاه والمال فقط؛ بل هما حظان من حظوظها، وإنما الدنيا عبارة عن حالتك قبل الموت، كما أن الآخرة عبارة عن حالتك بعد الموت، وكلّما لك فيه حظ قبل الموت فهو دنياك، وليعلم الناظر أنما الدنيا خلقت للمرور منها إلى الآخرة، وأنها

---

(١) ج ٢: ٦١.

(٢) الحديد: ٢٠.

مزرعة الآخرة في حق من عرفها، إذ يعرف أنها من منازل السائرين إلى الله، وهي كرباط بُني على طريق أعدّ فيها العلف والزاد وأسباب السفر، فمن تزود لآخرته فاقتصر منها على قدر الضرورة من المطعم والملبس والمنح وسائر الضروريات، فقد حرث وبذر وسيحصد في الآخرة ما زرع، ومن عرج عليها واشتغل بلذاتها وحظوظها هلك، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾[1] وقد عبّر العزيز عن حظك منها بالهوى فقال: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.[2] انتهى.

وفي (محيط المحيط): الدنيا نقيض الآخرة، وهذا العالم سميت به لدنوها أي قربها أو انحطاطها في مقابلة العليا... والدنيا عند أهل السلوك ماشغلك عن الله تعالى.

بيان صفة الدنيا بالأمثلة:

في المجلد السادس من المحجة البيضاء (ص ٩):

١ _ اعلم أن الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء، تَعِدُ بالبقاء ثمّ تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة إرتحالاً سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يتحسر عند انقضائها، ومثالها الظل فأنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر، لا تدرك حركتها بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة. ولما ذكرت الدنيا عند بعضهم أنشد وقال:

أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدعُ

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) النازعات: ٤٠ و٤١.

وكان الحسن بن عليّ عليهما السلام يتمثل بهذا البيت:

يا أهل لذات دنياً لا بقاء لها إنّ اغتراراً بظلّ زائل حمقُ

ويقال: إنه نزل أعرابي بقوم، فقدّموا إليه طعاماً فأكل، ثمّ قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك، فاقتلعوا الخيمة فاصابته الشمس فانتبه، وقام وهو يقول:

ألا إنما الدنيا كظلّ بنيتة ولا بدّ يوماً أنّ ظلك زائلُ

وكذلك قيل:

وإن امرءاً دنياه أكبر همّه لمستمسك منها بحبل غرورِ

٢ ـ مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها، ثمّ الافلاس منها بعد إفلاتها، يشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدنيا حلم، وأهلها عليها مجازون ومعاقبون».

وقال يونس بن عبيد: ما شبّهت نفسي في الدنيا إلاّ كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينا هو كذلك إذا انتبه، فكذلك الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به.

وقيل لحكيم: أي شيء أشبه بالدنيا؟ فقال: أحلام النيام.

٣ ـ مثل آخر للدنيا في عداوتها لأهلها، وإهلاكها لبنيها:

اعلم أنّ طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أوّلاً، والتوصل إلى الإهلاك آخراً، وهي كامرأة تتزين للخطاب حتّى إذا نكحتهم ذبحتهم، فقد روي، أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلّهم مات عنك أم كلهم طلّقك؟ قالت: بل كلهم قتلتُ، فقال عيسى:

بؤساً لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين؟ كيف تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر؟

٤ ـ مثال آخر للدنيا في مخالفة باطنها لظاهرها:

إعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر، وهي تشبه عجوزاً متزينة، تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها، فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الإغترار بظاهرها.

وعن ابن عبّاس قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاً، أنيابها بادية مشوهة خلقها، فتشرف على الخلائق، فيقال لهم: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثمّ يقذف بها في جهنم، فتنادي: أي ربّ أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عزّ وجلّ: إلحقوا بها أتباعها وأشياعها.

وقال الفضيل بن عياض: بلغني أنّ رجلاً عرج بروحه إلى السماء فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلي والثياب، وإذا لا يمرّ بها أحد إلاّ جرحته، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس، وإذا أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس، عجوز شمطاء زرقاء عمشاء، قال: قلت: أعوذ بالله منك، قالت: لا والله لا يعيذك الله مني حتّى تبغض الدرهم، قال: قلت: من أنت؟ قالت: أنا الدنيا.

٥ ـ مثال آخر الدنيا وعبور الإنسان بها:

إعلم أن الأحوال ثلاثة: حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل. وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا وهي ما بعد موتك

إلى الأبد. وحالة متوسطة بين الأبد والأزل، وهي أيام حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار طولها وانسبه طرفي الأزل والأبد، حتّى تعلم أنه أقلّ من منزل قصير في سفر طويل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف، فرفعت له شجرة، فقام تحت ظلها ساعة، ثمّ راح وتركها». ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إلى الدنيا ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضرّ وضيق أو في سعة ورفاهة، بل لا يبني لبنة على لبنة. توفي رسول الله ﷺ وما وضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة.

ورأى ﷺ بعض أصحابه يبني بيتاً من جص، فقال: «أرى الأمر أعجل من هذا» وأنكر ذلك، وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها».

هذا مثال واضح فإنّ الحياة الدنيا معبر الآخرة، والمهد هو الميل الأوّل على رأس القنطرة، واللحد هو الميل الثاني، وبينهما مسافة محدودة، فمن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبقَ له إلاّ خطوة واحدة وهو غافل منها، وكيف كان فلا بدّ له من العبور.

فالبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان.

٦ ـ مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها:

إعلم أن أوائل أمور الدنيا تبدو هيّنة لينة، يظن الخائض فيها أنّ حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها، وهيهات، فالخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد. وقد كتب عليّ عليه السلام إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه بمثالها فقال:

«مثل الدنيا مثل الحيّة يلين مسّها ويقتل سمّها، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها، وكن آنس ما تكون منها أحذر ما تكون منها، فإنّ صاحبها كلّما اطمأن منها إلى سرور أشخصته عنه مكروهة، والسلام».

٧ ـ مثال آخر للدنيا وتعذّر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها:

قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء، هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه؟».

وهذا يعرّفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم، وقلوبهم عنها مطهرة، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة، وتلك مكيدة الشيطان، بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها، فكما أن المشي في الماء يقتضي بللاً لا محالة يلتزق بالقدم، فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب، بل علاقة القلب مع الدنيا تمنع حلاوة العبادة.

قال عيسى عليه السلام: «بحقّ أقول لكم: كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة المرض، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حبّ الدنيا. بحق أقول لكم: الدابة إذا لم تركب ولم تمتهن تصعب وتغير خلقها. كذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت وبنصب العبادة تقسو وتغلظ. بحق أقول لكم: إنّ الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء العسل، كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات، أو يدنسها الطمع، أو يقسيها النعيم، فسوف تكون أوعية للحكمة».

وقال نبينا صلى الله عليه وآله: «إنما بقي من الدنيا بلاءٌ وفتنةٌ، وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وذا خبث أعلاه خبث أسفله».

٨ ــ مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالإضافة إلى ما سبق:

عن النبي ﷺ: «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوّله إلى آخره، فبقي متعلّقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع».

٩ ــ مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتّى الهلاك:

قال عيسى عليه السلام: «مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما إزداد شرباً إزداد عطشاً حتّى يقتله».

١٠ ــ مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها، ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها:

أعلم أنّ شهوات الدنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهية والنتن والقبح مايجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها. وكما أن الطعام كلما كان ألذّ طعماً وأكثر دسماً وأظهر حلاوة، كان رجيعه أقذر وأشدّ نتناً. فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذّ وأقوى فتنتها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشدّ، بل هي في الدنيا مشاهدة، فإنّ من نهبت داره وأخذ أهله وولده وماله، فتكون مصيبته وألمه وتفجّعه في كلّ ما فقده بقدر لذّته فيه وحبه له وحرصه عليه، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ، فهو عند الفقد أدهى وأمرّ، وما للموت معنى إلاّ فقد ما في الدنيا.

وقد روي أنّ النبي ﷺ قال للضحاك بن سفيان الكلابي: «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح، ثمّ تشرب اللبن عليه والماء؟» قال: بلى، قال: «فإلى من يصير؟» قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله، قال: «فإن الله عزّ وجلّ قد ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم».

وقال ﷺ: «إنّ الله تعالى ضرب الدنيا لمطعم بن آدم مثلاً، وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً، فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم، وأن قزحه وملحه إلى ما يصير».

قيل: وقد رأيتهم يطيبونها بالأفاوية والطيب، ثمّ يرمون به حيث رأيتم، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾[1] قال ابن عبّاس: إلى رجيعه.

قيل لبعضهم: إذا قضى أحدنا حاجته، فقام ينظر إلى ذلك منه؟ قال: نعم، إنّ الملك ليقول له: هذا ما بخلت به، أنظر إلى ماذا صار.

١١ ـ مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة:

قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلاّ بمثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع إليه من الأصل».

١٢ ـ مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة، وحسراتهم العظيمة بسببها:

إعلم أن أهل الدنيا في غفلتهم، مثلهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاّح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذّرهم المقام وخوّفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى بعضهم الحاجة وبادر إلى السفينة فصادف المقام خالياً، فأخذ أوسع الأماكن وأليقها وأوفقها لمراده، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة وغياضها الملتفة، ونغمات طيورها الطيبة، وألحانها الموزونة الغريبة، فصار يلتقط من أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال، الحسنة المنظر، العجيبة النقوش،

---

(١) عبس: ٢٧.

السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجها وعجائب صورها، ثمّ تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلاّ مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقر فيه. وبعضهم أكبّ على تلك الأصداف والأحجار، وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها، فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة إلاّ مكاناً ضيقاً وزاده ما حمله من الحجارة ضيقاً، وصارت ثقلاً عليه ووبالاً فندم على أخذها ولم يقدر على رميها، ولم يجد مكاناً لوضعها، فحملها في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذها، وليس ينفعه التأسف.

وبعضهم تولّج في الفيافي ونسي المركب وبعد من متفرّجه ومتنزّهه منها، حتّى لم يبلغه نداء الملاّح لاشتغالها بأهل تلك الثمار والتشمم لتلك الأنوار، والتفرج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خالٍ من السقطات والنكبات، ولا ينفكّ عن شوك ينشب بثيابه، وغصن يجرح بدنه، وحسكة تدخل في رجله، وصوت هائل يفزع منه، وعوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته، ويمنعه من الإنصراف لو أراده، فلما بلغهم نداء أهل السفينة انصرف بعضهم مثقلاً بما معه، ولم يجد في المركب موضعاً، فبقي على شاطئ البحر حتّى مات جوعاً.

وبعضهم لم يبلغهم النداء وسارت السفينة، فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه على وجهه حتّى هلك، ومنهم من مات في الأوحال، ومنهم من نهشته الحيّات، وتفرقوا كالجيف المنتنة، وأمّا من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار المزبرجة، فقد استرقّته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها، وقد ضيق عليه مكانه فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار، وكمدت ألوان الأحجار، وظهر نتن

رائحتها، فصار مع كونه مضيقاً عليه متأذياً بنتنها ووحشتها، فلم يجد حيلة إلاّ أن ألقاها في البحر، هارباً منها وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلاّ بعد أن ظهرت عليه من الأسقام بتلك الروائح، فبلغ سقيماً مدنفاً. ومن رجع قريباً ما فاته إلاّ سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، ومن رجع أوّلاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً.

فهذا مثال أصناف أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم.

وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغرّه أحجار الأرض، وهي الذهب والفضة وهشيم النبت، وهي زينة الحياة الدنيا، وشيء منه لا يصحبه عند الموت؛ بل يصير كّلاً ووبالاً عليه، وهو في الحال شاغل له بالخوف والحزن عليه، وهذا هو حال الخلق كلهم إلاّ من عصمه الله ﷻ.

١٣ ـ مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم بقول الله تعالى في تحذيره إيّاهم غوائل الدنيا:

روي أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتّى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي؟ أنفدوا الزاد وخسروا الظهر، وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبيناهم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلّة يقطر رأسه ماءً، فقالوا: هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلاّ من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء، قالوا: يا هذا، قال: على ما أنتم؟ فقالوا: على ما ترى قال: أرأيتكم أن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله،

فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً، قال: فأوردهم ماءً رواءً ورياضاً خضراً، فمكث فيهم ما شاء الله، ثمّ قال: يا هؤلاء، قالوا: يا هذا، قال: الرحيل، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، وإلى رياض ليست كرياضكم، فقال أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتّى ظننا أنا لم نجده، وما نصنع بعيش خيراً من هذا، وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيئاً؟ وقد صدقكم في أوّل حديثه، فوالله ليصدقنّكم في آخره، فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم، فبدر بهم عدو فأصبحوا من بين أسير وقتيل».

١٤ ــ مثال آخر لتنعّم الناس بالدنيا ثمّ تفجّعهم على فراقها:

اعلم أنّ مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا، مثل رجل هيأ داراً وزيّنها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً واحداً بعد واحد، فدخل واحد داره، فقدّم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمّه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه ويأخذه، فجهل رسمه فظن أنّه قد وهب ذلك له، فتعلق به قلبه لما ظن أنّه له، فلمّا استرجع منه ضجر وتفجع، ومن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره وردّه بطيبة قلب وانشراح صدر. فكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم أنّها دار ضيافة سُبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافر بالعواري، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتّى تعظم مصيبتهم عند فراقها.

فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها.

أقول: وههنا مثال آخر أورده شيخنا الصدوق رحمه الله في كتاب (كمال الدين وتمام النعمة) ناقلاً عن بعض الحكماء لا بأس بايراده، وهو هذا:

١٥ ــ مثال آخر: ما أشبه حال الإنسان واغتراره بالدنيا وغفلته عن

الموت وما بعده من الأهوال، وانهماكه في اللذات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات بشخص مدليٍّ في بئر، مشدود وسطه بحبل، وفي أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجه إليه منتظر سقوطه، فاتح فاه لالتقامه، وفي أعلى ذلك البئر جرذان أبيض وأسود لا يزالان يقرضان ذلك الحبل شيئاً فشيئاً، ولا يفتران عن قرضه آناً من الآنات، وذلك الشخص مع أنه يرى ذلك الثعبان ويشاهد انقراض الحبل آناً فآناً، قد أقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر، وامتزج بترابه واجتمع عليه زنابير كثيرة، وهو مشغول بلطعه، منهمك فيه، ملتذ بما أصاب منه، مخاصم لتلك الزنابير عليه، قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك، غير ملتفت إلى ما فوقه وإلى ما تحته.

فالبئر هو الدنيا والحبل هو العمر، والثعبان الفاتح فاه هو الموت، والجرذان الليل والنهار القارضان للأعمار.

والعسل المختلط بالتراب هو لذّات الدنيا الممتزجة بالكدورات والآلام، والزنابير أبناء الدنيا المتزاحمون عليها.

وما أشدّ انطباق هذا المثال على الممثَّل له، فنسأل الله الهداية والبصيرة، ونعوذ به من الغفلة والغواية.

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد:

إعلم أنّ معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة وما هي وما الذي ينبغي أن يجتنب، وما الذي لا يجتنب؟ فلا بدّ أن نبيّن الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي؟

فنقول: دنياك وآخرتك عبارتان عن حالتين من أحوال قلبك.

والقريب الداني منهما يسمّى دنيا، وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمّى آخرة وهو ما بعد الموت، وكل ما لك فيه حظّ وغرض ونصيب وشهوة ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك، إلاّ أنّ جميع ما لَك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم، بل هي ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: ما يصحبك في الدنيا ويبقى معك ثمرته بعد الموت، وهو شيئان: العلم والعمل فقط، وأعني بالعلم العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله، وملكوت أرضه وسمائه، والعلم بشريعة نبيه، وأعني بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله، وقد يأنس العالم بالعلم حتّى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده فيهجر النوم والمنكح والمطعم في لذته؛ لأنّه أشهى عنده من جميعها، فقد صار حظاً آجلاً في الدنيا، ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعدّ هذا من الدنيا أصلاً، بل قلنا: إنه من الآخرة، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته ويستلذها بحيث لو مُنعت عنه لكان ذلك أعظم العقوبات عليه حتّى قال بعضهم:

ما أخاف من الموت إلاّ من حيث إنه يحول بيني وبين قيام الليل، وكان آخر يقول: اللّهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر، فهذا قد صارت الصلاة من حظوظه العاجلة، وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطبق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو، ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك.

وقد قال ﷺ: «حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرّة عيني في الصلاة» فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا، وذلك لأنّ كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو عالم الشهادة وهو من الدنيا،

والتلذذ بتحريك الجوارح بالسجود والركوع إنما يكون في الدنيا؛ فلذلك أضافها إلى الدنيا، إلاّ أنّا في هذا الكتاب لسنا نتعرض إلاّ للدنيا المذمومة فنقول: هذه ليست من الدنيا.

القسم الثاني: وهو المقابل للقسم الأوّل على الطرف الأقصى كل ما فيه حظّ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً، كالتلذذ بالمعاصي كلها، والتنعّم بالمباحات الزائدة على قدر الضرورات والحاجات الداخلة في جملة الرفاهية، والرعونات كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، والغلمان والجواري والخيول والمواشي، والقصور والدور المشيدة، ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة. فحظ العبد من هذه كلها هي الدنيا المذمومة، وفيما يعدّ فضولاً أو في محل الحاجة نظر طويل.

القسم الثالث: وهو متوسط بين الطرفين، كل حظ في العاجل معين على الأعمال الآخرة، كقدر القوت من الطعام، والقميص الواحد الخشن، وكل ما لا بدّ منه، ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل، وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأوّل؛ لأنه معين على القسم الأوّل ووسيلة إليه. فمهما تناوله العبد على قصد الإستعانة على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدنيا، ولم يصرْ به من أبناء الدنيا، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا، ولا يبقى مع العبد عند الموت إلاّ ثلاث صفات:

صفاء القلب، أعني طهارته عن أدناس الدنيا، وأنسه بذكر الله، وحبّه لله.

واعلم أنّ صفاء القلب وطهارته لا تحصل إلاّ بالكف عن شهوات

الدنيا، والأنس لا يحصل إلاّ بكثرة ذكر الله، والمواظبة عليه، والحبّ لا يحصل إلاّ بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلاّ بدوام الفكرة.

وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت، وهي الباقيات الصالحات. أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهي من المنجيات إذ تكون جنّة بين العبد وبين عذاب الله، كما ورد في الخبر: «إن أعمال العبد تناضل عنه، فإذا جاء العذاب من جهة رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه، وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه» الحديث.

فأمّا الأُنس والحب فهما من المسعدات وهما موصلان للعبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل الجنّة، فيصير القبر روضة من رياض الجنّة، وكيف لا يكون القبر عليه روضة ولم يكن له إلاّ محبوب واحد، وكانت العوائق تعوقه عن الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله فارتفعت العوائق، وأفلت من السجن، وخلّي بينه وبين محبوبه، فقدم عليه مسروراً، سالماً من الموانع، آمناً من الفراق، وكيف لا يكون محبّ الدنيا عند الموت معذباً، ولم يكن له محبوب إلاّ الدنيا، وقد غصب منه وحيل بينه وبينه، وسدّت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه، وقد قيل في ذلك:

ما حال من كان له واحد غُيِّب عنه ذلك الواحدُ

وليس الموت عدماً إنما هو فراق لمحابّ الدنيا، وقدوم على الله تعالى، فإذاً سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث: وهي الذكر والفكر والعمل الذي يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغّض إليه ملاذّها ويقطعه عنها.

وكل ذلك لا يمكن إلاّ بصحة البدن، وصحة البدن لا تنال إلاّ بالقوت والملبس والمسكن، ويحتاج كل واحد إلى أسباب، فالقدر الذي لا بدّ منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا، وكانت الدنيا في حقه مزرعة الآخرة، وإن أخذ ذلك على قصد التنعم ولحظ النفس صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها، إلاّ أنّ الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الله في الآخرة، ويسمى ذلك حراماً، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العُلا، ويعرضه لطول الحساب، ويسمى ذلك حلالاً.

والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضاً عذاب، فمن نوقش في الحساب عُذّب؛ فلذلك قال رسول الله ﷺ: «حلالها حساب وحرامها عذاب» وقد قال أيضاً: «وحلالها عذاب» إلاّ أنه أخفّ من عذاب الحرام، لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت من الدرجات العلى في الجنة، وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها بحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها هو أيضاً عذاب، وقسْ به حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنياوية، كيف ينقطع قلبك عليها حسرات، مع علمك بأنها سعادات منصرمة لا بقاء لها، ومنغّصة بكدورات لا صفاء لها، فما حالك في فوات سعادات لا يحيط الوصف بعظمتها، وتنقطع الأزمان والدهور دون غايتها؟

وكل من تنعّم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر، أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فهو ينقص من حظه في الآخرة أضعافه، والتعرض لجواب السؤال فيه ذلّ وخوف وخطر ومشقة وانتظار، وكل ذلك من نقصان الحظ، فالدنيا قليلها وكثيرها، حلالها وحرامها ملعونة إلاّ ما أعان على تقوى الله فإن ذلك القدر ليس من الدنيا، وكل من كانت معرفته أقوى وأيقن كان حذره من

نعيم الدنيا أشد، حتّى أن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام، ثمّ رمى به إذ تمثل له إبليس وقال: رغبت في الدنيا.

وحتّى أن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس من لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهاناً وشدة، فإن الصبر عن لذيذ الأطعمة مع وجودها أشد، ولهذا زوى الله تعالى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وآله فكان يطوي أيّاماً، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع.

ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء، ثمّ الأمثل، كل ذلك نظراً لهم وامتناناً عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم، كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذيذ الفواكه، ويلزمه ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحباً له لا بخلاً عليه. وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا، وما هو لله فليس من الدنيا.

فإن قلت: فما الذي هو لله؟ فأقول: الأشياء ثلاثة أقسام: منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذي يعبّر عنه بالمعاصي والمحظورات وأنواع التنعمات في المباحات، وهي الدنيا المحضة المذمومة، فهي الدنيا صورة ومعنى، ومنها ما صورته لله ويُمكن أن يُجعل لغير الله، وهو ثلاثة: الفكر، والذكر، والكفّ عن الشهوات، فهذه الثلاثة إذا جرت سرّاً ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر، فهي لله وليست من الدنيا، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به، وطلب القبول بين الخلق باظهار المعرفة، أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن أو الاشتهار بالزهد، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى، وإن كان يظن بصورته أنه لله، ومنها ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يجعل معناه لله، وذلك كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده، فإن

كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا. وإن كان القصد الإستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه، وإن كان صورته صورة الدنيا.

قال عليه السلام: «من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر» فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد، فإذاً الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة، ويعبّر عنه بالهوى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.(١)

واعلم أنّ مجامع الهوى خمسة أمور، وهي ما جمعه الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾.(٢)

والأعيان التي منها تحصل هذه الأمور الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.(٣)

فقد عرفت أنّ كل ما هو لله، فليس من الدنيا، وقدر ضرورة القوت وما لا بدّ منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله، والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله، وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة، ولها طرفان وواسطة: طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر، فإنّ الإقتصار على حد الضرورة غير ممكن، وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه، وينبغي أن يحذر، وبينهما وسائط متشابهة (ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه).

والحزم في الحذر والتقوى والتقرب من حدّ الضرورة ما أمكن اقتداءً

---

(١) النازعات: ٤٠ و٤١.

(٢) الحديد: ٢٠.

(٣) آل عمران: ١٤٠.

بالأنبياء، والأولياء، إذ كانوا يردّون أنفسهم إلى حد الضرورة، حتّى أن أويساً القرني كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه، فبنوا له بيتاً على باب دارهم فيأتي عليه السنة والستتان ما يرون له وجهاً، وكان يخرج أوّل الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة...، وهكذا كانت سيرته، ولهذا عظم رسول الله ﷺ أمره فقال: «إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن» إشارة إليه، ولقد كان أويس رجلاً إلهياً مقدماً لم يخطأ طريق الحق والإعتدال شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام صفين وفاز بالشهادة بين يديه.

* * *

والآن فلننتقل إلى بعض ما قيل في الدنيا من الشعر:

ديوان الشعر:

مما قرأته من الشعر في المجلد الثاني من (المستطرف):[1]

قيل: إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فرّ وإن تركته تبعك وفيه قال بعضهم:

إنما الرزق الذي تطلبه ... يشبه الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متبعاً ... وهو إن ولّيت عنه تبعك

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

رأيت خيال الظل أعظم عبرة ... لمن كان في علم الحقائق راقي

شخوصاً وأصواتاً يخالف بعضها ... لبعض وأشكالاً بغير وفاق

تجيء وتمضي بابة بعد بابة ... وتفنى جميعاً والمحرك باقي

---

(١) ص ٥٩٩.

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك:

ما أنعم الله على عبده ... بنعمة أوفى من العافيه

وكلّ من عوفي في جسمه ... فإنه في عيشة راضيه

والمال حلو حسن جيّد ... على الفتى لكنه عاريه

ما أحسن الدنيا ولكنها ... مع حسنها غدارة فانيه

وتوفي رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... إنّ الحِمام بكم علينا قادمُ

لو تنزلون بشعبنا لعرفتم ... أن المفرّط في التزوّد نادمُ

لا تستعزّوا بالحياة فانكم ... تبنون والموت المفرق هادمُ

ساوى الردى ما بيننا في حفرة ... حيث المخدّم واحد والخادمُ

* * *

وقال آخر:

عن قليل أصير كوم تراب ... وتقول الرفاق هذا فلانٌ

صار تحت التراب عظماً رميماً ... وجفاه الأصحاب والخلاّنُ

وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر:

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا ... فلا كانت الدنيا القليل سرورها

فلا تعجبي يا نفس مما ترينه ... فكل أمور الناس هذا مصيرها

وقال شرف الدين بن أسد:

يا من تملّك ملكاً لا بقاء له ... حمّلت نفسك آثاماً وأوزارا

هل الحياة بذي الدنيا وإن عذبت ... إلاّ كطيف خيال في الكرى زارا

وقال بعضهم:

وغاية هذي الدار لذة ساعة ويعقبها الأحزان والهمّ والندمُ
وهاتيك دار الأمن والعز والتقى ورحمة ربّ الناس والجود والكرمُ

وقال غيره:

حسّنت ظنّك بالأيام اذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وقال آخر:

فإن كنت لا تدري متى الموت بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

وقال بعضهم:

مقيم بالحجون رهين رمس وأهلي راحلون بكل وادِ
كأني لم أكن لهم حبيباً ولا كانوا الأحبّة في السوادِ
فعرجوا بالسلام فإن أبيتم فأوصوا بالسلام على البعادِ

* * *

وقال بعض الحكماء المتقدمين: وهل الدنيا إلاّ قدرٌ يغلى وكنيف يملى.

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم فتبسمت عجباً ولم تبدِ
حتّى مررت على الكنيف فقال لي أموالهم ونوالهم عندي

وقال بعض الحكماء من أصحاب الإسكندر: لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس، أخذه أبو العتاهية فقال:

كفى حزناً بدفنك ثمّ إني نفضت تراب قبرك في يديّا

وكانت في حياتك لي عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال عبد الله بن المعتز:

نسير إلى الآجال في كل ساعة ... فأيّا منا تطوى وهنّ مراحلُ
ولم أرَ مثل الموت حتّى كأنه ... إذا ما تخطّته الأماني باطلُ
وما أقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب في الرأس شاعلُ
ترحّل من الدنيا بزاد من التقى ... فعمرك أيام تعد قلائلُ

وقال بعضهم:

يا خلّ انّك أن توسّد ليناً ... وسِدْت بعد اليوم صمّ الجندلِ
فامهد لنفسك صالحاً تسعد به ... فلتندمنَّ غداً إذا لم تفعل

وقال آخر:

من كان يعلم أن الموت يدركه ... والقبر مسكنه والبعث يخرجه
وانه بين جنّات مزخرفة ... يوم القيامة أوتار ستنضجه
فكل شيء سوى التقوى به سمج ... ومن أقام عليه منه أسمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطناً ... لم يدرِ أن المنايا سوف تزعجه

* * *

قال وهب بن منبّه: أصبت على قصر غمدان، وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة، مكتوباً بالقلم السندي ترجم بالعربي، فإذا هي أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهي هذه الأبيات:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غُلبُ الرجال فلم تنفعهم القللُ
واستنزلوا من أعالي عزّ معقلهم ... فأُسكنوا حفرة يا بئس ما نزلوا

نـاداهمُ صـارخ مـن بعـد مـا دفنـوا أيـن الأسـرة والتيجـان والحلـلُ
أيـن الوجـوه التـي كانـت محجّبـة وكـان مـن دونهـا الأسـتار والكلـلُ
قـد طالمـا أكلـوا دهـراً ومـا شـربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

ووجـد مكتوبـاً علـى قصـر قـد خربـت أركانـه وبـادت أهلـه واظلمّـت نواحيه هذه الأبيات:

هــذي منــازل أقــوام عهــدتهم يوفـون بالعهـد مـذ كـانوا وبالـذمم
تبكـي علـيهم ديـار كـان يطربهـا تـرنم المجـد بـين الجـود والكـرم

وقال في المعنى:

بـالله ربـك كـم قصـر مـررت بـه قـد كـان أُعمـر باللـذات والطـربِ
نـادى غـراب المنايـا فـي جوانبـه وصـاح مـن بعـده بالويـل والحـربِ

وفيه أيضاً:

أيهــا الرافــع البنــاء رويــداً لا يــردّ المنــون عنــك البنــاء

ولبعضهم:

قــف بالــديار فهــذه آثــارهم تبكــي الأحبــة حســرة وتشــوقا
كـم قـد وقفـت بهـا أسـائل أهلهـا عــن حالهــا مترحمــاً أو مشــفقا
فأجابني داعـي الهـوى فـي رسـمها فارقـت مـن تهـوى وعـزّ الملتقـى

ولبعضهم:

أيّهــا الربــع الــذي قــد دثــرا كــان عينــاً ثــم أضــحى أثــرا
أيــن ســكانك مــاذا فعلــوا خبّــرن عــنهم ســقيت المطــرا
فلقــد نــادى منــادي دارهــم رحلــوا واســتودعوني عــبرا

ولما بنى المأمون قصره الذي ضرب به المثل، نام فيه فسمع قائلاً يقول:

أتبني بناء الخالدين وإنما ... بقاؤك فيها إن عقلت قليلُ

لقد كان في ظل الأراك كفاية ... لمن كل يوم يقتضيه رحيلُ

فلم يلبث بعدها إلاّ قليلاً ومات، وقال:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض ... على الماء خانته فروجُ الأصابع

ووجد مكتوباً على قصر باد أهله:

هذي منازل أقوام عهدتهم ... في خفض عيش نفيس ما له خطرُ

صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا ... إلى القبور فلا عين ولا أثرُ

ولو قيل للدنيا صفي نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وما الناس إلاّ هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريقُ

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت ... له عن عدوٍّ في ثياب صديقٌ

* * *

ومما قرأته في الجزء الثاني من (العقد الفريد):[1]

ما الناس إلاّ مع الدنيا وصاحبها ... فحيث ما انقلبت يوماً به انقلبوا

يعظمون أخا الدنيا وإن وثبت ... يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال آخر:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها ... تنحَ عن خطبتها تسلم

إنّ التي تخطبُ غرّارة ... قريبة العرس من المأتم

(١) ص ٢٩٠.

وقال أبو العتاهية:

رضيت بذي الدنيا لكل مكاثر ... ملحّ على الدنيا وكل مُفاخر
ألم ترها ترقيه حتى إذا صبا ... فَرتْ حلقه منها بشفرة جازرِ
ولم يرضَ بالدنيا ثواباً لمؤمن ... ولم يرض بالدنيا عقاباً لكافر

وقال أيضاً:

هي الدنيا إذا كملت ... وتمّ سرورها خذلت
وتفعل في الذين بقوا ... كما فيمن مضى فعلت

وقال بعض الشعراء يصف الدنيا:

لقد غرّت الدنيا رجالاً فأصبحوا ... بمنزلة ما بعدها متحولُ
فساخط أمر لا يبدّل غيره ... وراض بأمر غيره سيبدلُ
وبالغ أمر كان يأمل دونه ... ومختلج من دون ما كان يأملُ

وقال آخر في صفة الدنيا:

فرحنا وراح الشامتون عشيّة ... كأنّ على أكتافنا فلق الصخر
لحا الله دنياً تدخل الستر أهلها ... وتهتك ما بين الأقارب من ستر

وقال أبو العتاهية:

كلنا نكثر الملامة للدنيا ... وكل بحبها مفتونْ
والمقادير لا تناولها الأوهام ... لطفاً ولا تراها العيونْ
ويمر الفتى وفي كل يوم ... حركات كأنهنّ سكونْ

ومن قولنا في وصف الدنيا:

ألا إنما الدنيا نضارة أيكة ... إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ

هـي الـدار مـا الآمـال إلا فجـائع عليهـا ولا اللّـذات إلا مصـائبُ
فكـم سـخنت بـالأمس عـين قريـرة وقـرّت عيـون دمعهـا اليـوم سـاكبُ
فـلا تكتحـل عينـاك فيهـا بعبـرة علـى ذاهـب منهـا فإنـك ذاهـبُ

وقال أبو العتاهية:

أصـبحت الـدنيا لنـا فتنـة والحمـد لله علـى ذالكـا
قـد أجمـع النـاس علـى ذمهـا مـا أن تـرى مـنهم لهـا تاركـا

* * *

وقال إبراهيم ابن أدهم:

نرقّـع دنيانـا بتمزيـق ديننـا فـلا ديننـا يبقـى ولا مـا نرقّـعُ

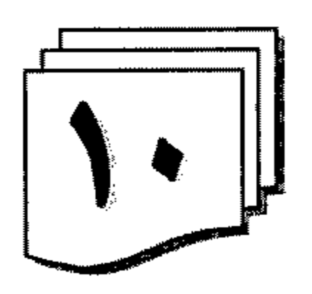
* * *

ومـا سـمعت فـي صـفة الـدنيا والسـبب الـذي يحبهـا النـاس لأجلـه بـأبلغ من قول القائل:

نراع بذكر الموت في حين ذكره وتعتـرض الـدنيا ونلهـو ونلعـبُ
ونحـن بنـو الـدنيا خلقنـا لغيرهـا ومـا كنـت منـه فهـو شـيء محبـبُ

* * *





قوله عليه السلام:

خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ.

(نهج البلاغة ٤: ٤)



[الاختلاط والمعاشرة]

قال ابن أبي الحديد:

وقد روي خنوا بالخاء المعجمة من الخنين وهو صوت يخرج من الأنف عند البكاء، والى يتعلق بمحذوف أي خنوا شوقاً إليكم، وقد ورد في الأمر بإحسان العشرة مع الناس الكثير الواسع.

وفي الخبر المرفوع: «إذا وسعتم الناس ببسط الوجوه وحسن الخلق وحسن الجوار، فكأنما وسعتموهم بالمال».

وقال أبو الدرداء: إنا لنهش في وجوه أقوام وإنّ قلوبنا لتقليهم.

وقال محمّد بن الفضل الهاشمي لأبيه: لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته؟

قال: أخبيء ناراً وأقدح عن ودّ.

وقال المهاجر بن عبد الله:

وإني لأقصى المرء من غير بغضة ... وأدنى أخا البغضاء منّي على عمد

ليحدث وداً بعد بغضاء أو أرى ... له مصرعاً يردي به الله من يردي

وقال عقال بن شبّة التميمي: كنت ردف أبي، فلقيه جرير بن الخطفاء على بغلة. فحيّاه أبي وألطفه، فلما مضى قلت له: أبعد أن قال لنا ما قال؟

قال: يا بني أفأوسع جرحي؟

وقال محمّد بن الحنفية: قد يدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه.

وقال الحسن عليه السلام: «حسن السؤال نصف العلم، ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤنة».

ومدح ابن شهاب شاعر فأعطاه، وقال: إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر.

قال الشاعر:

وأنزلني طول النوى دار غربة   متى شئت لاقيت امرءاً لا أشاكله

أخا ثقة حتّى يقال سجية   ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وفي الحديث المرفوع: «للمسلم على المسلم ست: يسلّم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويحب له ما يحب لنفسه، ويشيع جنازته إذا مات». ووقف صلى الله عليه وآله على عجوز، فجعل يسألها ويتحفاها وقال: إنّ حسن العهد من العهد من الإيمان، إنها كانت تأتينا أيام خديجة.[1]

* * *

قال ابن ميثم البحراني:

نبه عليه السلام بذلك على حسن المعاشرة للناس ومعاملتهم بمكارم الأخلاق، وكنّى عن ذلك بقوله: «إن متّم...» إلى آخره إذ من لوازم حسن المعاشرة للمخالط الحنة إليه في حياته، وافتقاده، والبكاء عليه بعد وفاته، والجملة الشرطية في موضع نصب صفة المخالطة.[2]

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٠٧.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٧.

وقال في (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[١]

(خالطه) مخالطة وخلاطاً: عاشره، (حنّ) حنيناً إليه: اشتاق.

المعنى:

هذا بيان جامع لأدب المعاشرة والخلطة مع الناس، والمقصود أن تكون المخالطة وديّة، وعلى قصد الإعانة للناس، وجلب قلوبهم، والتفاني في مصالحهم، بحيث يحسّون من فقده فقدَ محبٍّ ومعين فيبكون من فقده وفراقه، وإذا كان حياً يشتاقون إلى لقائه.

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

فرق بين النفاق وحسن المعاشرة، فالنفاق أن تضمر البغض وتظهر الحب، أمّا حسن المعاشرة فهي أن تحسن ولا تسيء، وتحب ولا تكره، وتعين ولا تخذل... وبهذا تكون محبوباً عند الناس، يبكون عليك إن متّ، ويحنوّن عليك إن غبت، قال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٢] وقديماً قيل: (أحبب لغيرك ما تحب لنفسك)، و(لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)، ومن أقوال الإمام عليه السلام: «أسوأ الناس حالاً من لم يثق بأحد لسوء ظنه، ولم يثق به أحد لسوء فعله». وقال: «القريب من قربته الأخلاق، والغريب من لم يكن له حبيب».[٣]

* * *

---

(١) ج ٢١: ٢٥.

(٢) البقرة: ٨٣.

(٣) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٢٣.

أقول: جاء في (مجمع البحرين):[1]

المخالطة: المعاشرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾[2] أي الخليط.

وفي (محيط المحيط): وعاشره معاشرة، خالطه وصاحبه، والاسم العشيرة، وتعاشر القوم تخالطوا وتصاحبوا.

جاء في كتاب (أخلاق آل محمد) تأليف العلامة الشيخ موسى السبيتي رحمه الله قال تحت عنوان:

الأخوة الإسلاميّة:

نقل (كِنت) عن أرسطو أنه قال: يا أصدقائي الأعزاء، ليس في الدنيا أصدقاء. وناقشها النقاد قائلين: إن (كنت) لم يفهم كلمة أرسطو، ولكن أرسطو في كتابه الكبير يقول: لا يمكن أن يكون للإنسان أكثر من صديق واحد.

إن موضوع الصداقة فكّر فيه الإنسان منذ وجد اجتماعياً، ولا يمكن أن يكون إنسان غير إجتماعي إلاّ إذا كان شاذاً، أو معتوهاً أو مجرماً.

وكان التفكير في الصداقة امراً مستطاباً مرغوباً فيه جذاباً، كما أنّ الإنسان عملياً يشعر في قرارة نفسه أنه محتاج إلى أصدقاء تربطه بهم روابط وثيقة من تقارب طباع، وتناسب أخلاق، واتفاق مشارب، ووحدة مبادئ.

فكّر المفكرون قديماً، كما فكّر المفكرون حديثاً، ولا يزالون

---

(١) ج ٣: ١٨٦.

(٢) الحج: ١٢.

يفكرون في اجتذاب الأحباء واكتساب الأصدقاء، ونوّعوا صداقة الناس إلى أنواع ثلاثة: صداقة المنفعة، صداقة اللذة، صداقة الفضيلة.

هذه نظرة الفلاسفة قد بدا قصورها، وانهم حاموا حول غرض ولكن لم يصلوا إليه، وفتشوا عن كنز حافل بالذخائر ولكنهم لم يبلغوه، والدين الإسلامي بمبادئه، ورجال الإسلام بأعمالهم، أثبتوا للناس أن المجتمع صالح جداً أن تكون بين أفراده أخوّة متينة وصداقة ثابتة، لا تخشى عليها من رياح الشهوات أن تعصف بها، ولا من ثوران الفتن أن تبدد شملها.

عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جده عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «المؤمن غرّ كريم، والمنافق خبّ لئيم وخير المؤمنين من كان مألفة للمؤمنين، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

قال الصادق عليه السلام: «وطّن نفسك على حسن الصحابة لمن صحبت في حسن خلقك، وكفّ لسانك، واكظم غيظك، وأقلّ لغوك، وتفرش عفوك، وتسخو نفسك».

قال الربيع الشامي: دخلت على أبي عبد الله والبيت غاص بأهله... إلى أن قال عليه السلام: «يا شيعة آل محمّد اعلموا أنه ليس منّا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالفة من خالفه، ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره، وممالحة من مالحه».

قال عليّ عليه السلام: «ليجتمع في قلبك الإفتقار إلى الناس، والإستغناء عنهم، يكون الإفتقار إليهم في لين كلامك، وحسن سيرتك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزّك».

نجد أهل البيت عليهم السلام اتّباعاً لجدهم الرسول صلى الله عليه وآله يريدون أن يكون المسلمون جميعاً أسرة واحدة، يشملهم شعور واحد، وتنظمّهم عقيدة واحدة، بأن يراعي كل إنسان عواطف الآخرين ويتنازل عن كثير من عواطفه، إذا كانت تسبب تباعداً في القلوب، وتبايناً في الحياة العملية، وذلك بأن يملك الإنسان زمام أهوائه واندفاعاته في سبيل المحافظة على سلامة القلوب وصفاء المودة، ووثاقة الأخوة؛ بل كانوا يطلبون من أحبائهم وأتباعهم، ان يغرسوا لهم المحبة في القلوب، ويجعلوا بينهم وبين الناس صداقة راسخة البنيان قوية الدعائم.

قال كثير بن علقمة: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أوصني، فقال: «أوصيك بتقوى الله والورع والعبادة، وطول السجود، وأداء الأمانة، وصدق الحديث وحسن الجوار، فبهذا جاءنا محمّد صلى الله عليه وآله، صلوا عشائركم وعودوا مرضاكم، واشهدوا جنائزكم، وكونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً، حبّبونا إلى الناس ولا تبغّضونا إليهم، فجرّوا إلينا كل مودة، وادفعوا عنا كل شرّ».

إنّ أهل البيت يبذلون جهدهم في حمل الناس على الحبّ والصداقة، حيث إن غرض الإسلام وهدفه توثيق الصلة والمحبة والصداقة بين المسلمين، وكانوا عليهم السلام يعلّمون الناس حقوق الصداقة وواجباتها وأعباءها التي ينبغي أن يبادر إليها كل إنسان نحو صديقه.

قال الصادق عليه السلام: «لا تكون الصداقة إلاّ بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها، فانسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء منها فلا تنسبه إلى الصداقة، فأولها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة، والثانية: أن يرى زينك زينه وشينك شينه، والثالثة: أن لا يغيّره

عليك ولاية ولا مال، الرابعة: أن لا يمعنك شيئاً تناله مقدرته، والخامسة: وهي تجمع هذه الخصال: أن لا يسلمك عند النكبات».

فإذا كانت هذه واجبات الصداقة، فكل مسلم لكل مسلم أخ وصديق، وينبغي أن يعرف كل مسلم أنه أخ، عليه واجبات تجاه الأخوة الإسلاميّة التي هي أهم مقاصد الدين.

قال الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشّه، ولا يعدُه عِدة فيخلفه».

قال الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه».

سأل المعلى بن خنيس الصادق عليه السلام عن حقوق الأخوة الإسلاميّة التي تفرضها المباديء الإسلاميّة على معتنقيها.

قال المعلى له: ما حق المسلم على المسلم؟ قال له: «سبعة حقوق واجبات ما منهنّ حق إلاّ وهو عليه واجب، إن ضيّع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته، ولم يكن لله فيه نصيب» قلت: جعلت فداك وما هي؟ قال: «يا معلى إنيّ عليك شفيق أخاف أن تضيّع ولا تحفظ، وتعلم ولا تعمل» قلت: لا قوة إلاّ بالله، قال: «أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. والحق الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره. والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك. والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته. والحق الخامس: أن لا تشبع ويجوع، ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى، الحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فوجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه. والحق السابع: أن تبرّ

قسمه، وتجيب دعوته، وتعود مريضه، وتشهد جنازته. وإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها ولا تلجئه إلى أن يسألكها، ولكن تبادره مبادرة، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك».

حينما كان المسلمون ينعمون بهذه الروح العالية كانوا كالجسم الواحد، يتشاركون في واجبات الحياة، وينهضون بتكاليفها من أيسر تكليف إلى أصعب تكليف، ويحملون روح التضحية في سبيل المجموع، ومحافظة على الأصول الإسلاميّة التي صيغت على وفقها نفوسهم، وانطبعت أخلاقهم، واتحدت مشاعرهم، وتمت أحاسيسهم، فلا يعرفون ضائقة نزلت بغير المجموع، ولا عناء أصاب غير المجموع، ولا شقاء حاق بغير المجموع. عند ذاك كانوا قوة يرهب جانبها، ودولة يخشى بأسها، وأمّة ترعى حقوقها، وكانت تفرض إرادتها، ولا تتراجع عن تصميمها، وكان أفقر رجل وأضعف إنسان في المسلمين يشعر بأنه مطالب بالتكاليف التي يبلغها اقتداره، كما يطالب الخليفة بتكاليفه وواجباته حسب مركزه ومكانته، فيسير المسلم بوحي ضميره وإرشاد دينه ومعتقده إلى واجبه مرتاح الخاطر رابط الجأش مطمئن النفس بحريته واختياره من دون قسر قاسر وإلزام مسيطر. لا فرق بين شاب وطاعن في السن وبين غني وفقير.

ويتحدّث إلينا أيضاً في كتابه المذكور تحت عنوان:

كيف تكسب الأصدقاء:

في كل نفس حلم جميل ساحر، وأمنية ملازمة مغرية، في نفس كل إنسان يذهب ويجيء ويروح ويغدو، رغبة صادقة أن يكون محبوباً

على كل إنسان مكرماً في كل مكان ينزل به، مثنياً عليه في المحافل والأندية، بل كثيراً ما يلقى أناساً يهوى أن يكون بينه وبينهم قديم ودّ وسابق عهد، ليجاذبهم الحديث ويربح مجالستهم ويغنم شرف صحبتهم، وأعرب المتبني عن هذا بقوله:

وكاد سروري لا يفي بندامتي ... على تركه في عمري المتقادم

إنّ صحبة الناس وأخوّتهم ليست بالشيء الذي يترك إلى القضاء والقدر، وليس القانع بصحبة النزر اليسير من الناس بعيد الهمة كبير القلب، طامح النفس فسيح الأمل، إنما أرحب الناس صدراً وأوسعهم أفقاً، من كان له في كل أرض منازل، وفي كل قبيلة أحباب، وفي كل مجتمع معارف، يسرّون بقربه ويبتهجون لمنظره.

هب أنّ الصداقة التي تكوّن الحد الأعلى من المحبة والإيثار أمر مستصعب، وطمح إليه الفلاسفة فلم يبلغوه وفتشوا عنه فلم يجدوه، وحاولوا خلقه وإبداعه فوقفوا حسرى عاجزين، لأن للحياة فروضاً وأحكاماً فوق أحلام الفلاسفة وأخيلة المثاليين، ولكننا نجد بين الحدّ الأعلى للصداقة وبين الحد الأدنى مراتب كثيرة نستطيع أن نصل إليها بقليل من الجهد ويسير من العناء.

وما زالت الحياة ترضينا بأقل قليل مما نطلب، وأيسر أمر مما نرغب، ومتى حققت لنا الأيام أهدافنا، وبلّغتنا رغائبنا وكنا لصنيع الأيام شاكرين.

نحن نريد أصدقاء، ونريد إخواناً، ونريد أحباباً، ولا نصل إلى ما نريد إلاّ بالعمل والسعي لاكتساب الأصدقاء، وقد علّمنا الإسلام وأهل البيت عليهم السلام عن جدّهم صلى الله عليه وآله كيف نعامل الناس لنربح عطفهم ونكسب صداقتم ونعم بمودّتهم.

قال الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا بني عبد المطلب إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر».

لا ريب أنّ من تلقاه بوجه مشرق، وأسارير مستنيرة، وثغر باسم، طبعاً تنعكس ملامحك في وجهه ويشرق سرورك على نفسه، فيرتدّ إليك النور قوياً مضاعاً، وما أكثر ما كانت ابتسامة صادقة مفتاحاً لحل مشكل، وسداً لباب فتنة، وإطفاء لنار مضرمة.

قال موسى الكاظم عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حسن البِشر يذهب بالسخيمة» أي الحقد.

روي عن أهل البيت عليهم السلام: «صنائع المعروف وحسن البشر، يكسبان المحبة ويدخلان الجنّة، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار».

قال الباقر عليه السلام: «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله: فقال: يا رسول الله أوصني، فكان فيما أوصاه: أن ألق أخاك بوجه منبسط».

فإذا لقي الإنسان أخاً في الإسلام أو أخاً في الإنسانية بوجه طلق وثغر مشرق، فلا بدّ أن يجذب قلبه إليه، ويثني عنان التفاته وانتباهه نحوه، فإذا جذب انتباهه فلا بدّ أن يكون تهيأ القلب لخلق ألفة ومحبة بينه وبينه، ومستعداً لأن ينفذ إلى قلبه بالوسائل الممكنة، وأهم الوسائل بعد انبساط الوجه وابتسامة الثغر، أن يكون رفيقاً بصاحبه، يعتمد اللين والسهولة، ويجتنب القوة والخشونة، ويبتعد عن العنف والشدة، ويسلك معه الإيناس واللطف والمداراة والتجمل، فيجتنب الصراحة إن كانت مؤلمة، ويترك الحقيقة إن كانت منفرة، ويبذل الجهد في الأسباب التي تقرّبه منه، وتدنيه إليه.

قال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لم يوضع على شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه».

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

وقال رسول الله ﷺ: «لو كان الرفق خلقاً يُرى ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه».

من هذا القسم من الأحاديث نستفيد أن الرفق من أخلاق الله، فهو يُنزل النعمة ويرسل الرحمة على العصاة كما يرسلها على غيرهم، ويتحبب إلى الخلق باللطف والمعروف، ويعدهم الدرجات الرفيعة إذا آمنوا به، ويتجنب معهم النقمة والنكال.

وإذا كان الرفق من أخلاقه فهو يحب كل من يتحلى بصفة الرفق، ويثيب المتحبب إلى الناس الرفيق بهم ثواباً عظيماً جداً، ثمّ جعل الرسول ﷺ الرفق جمالاً لكل شيء، والعنف والثورة والقسوة طبعاً تكون في كلّ شيء نقصاً وضَعة، الرفق يكون في كل حركة سواء أكانت حركة نمو وبالهوينى، فإنها جمال أم حركة انتقال كهبوب النسيم الرقيق، فإنه جمال ولذة، على العكس من ثوران العاصفة فإنها رعب وخوف وضرر، وهكذا الرفق جمال ومتعة.

بل أوضح الرسول ﷺ مكانة الرفق بأن استعمل التجسيم بحيث لو كان الرفق من الكائنات المحسوسة بالبصر والسمع لكان الرفق أجمل كائن طبيعي مخلوق.

قال رسول الله ﷺ: «ما اصطحب اثنان إلاّ كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه».

قال رسول الله ﷺ: «الرفق يمنٌ، والخرق شؤم».

ونظم الشاعر هذا المعنى:

فإن ترفقي يا هند فالرفق أيمن   وإن تخرقي يا هندُ فالخرق أشأمُ

في تأثير الرفق واللين وعلوه على العنف والشدة

ذكر(كارتيجي) في كتابه (كيف تكسب الأصدقاء):

أسطورة الشمس والرياح:

اختلفت الشمس والرياح؛ هذه تقول: إنها أقوى وأفعل وأشد باساً، وتلك تزعم هذه الصفات لنفسها دون الأخرى.

قالت الرياح للشمس: أترين هذا العجوز المتدثر بمعطفه؟ أتحدّاك أن تجعليه يخلع معطفه بأسرع مما استطيع، فقبلت الشمس التحدي، وأهابت بالرياح أن تثبت قولها، وأسرعت الشمس فاختبأت وراء غمامة ثقيلة، بينما زمجرت الرياح وراحت تصول وتحول، ولكنها كلما ازدادت عصفاً كلما أحكم الرجل معطفه حول جسده وشدّ أطرافه إليه، فلما يئست الرياح سلّمت باخفاقها والقت سلاحها، وهنالك بزغت الشمس من وراء الغمامة وابتسمت في دعة ورفق للعجوز، فما لبث أن تخفف من معطفه، وعندئذٍ قالت الشمس للرياح: إن الرفق واللين قوة تفوق ما للغضب والعنف.

قال الرسول ﷺ: «من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة».

قال النراقي عليه الرحمة: ثمّ التجربة شاهدة بأنّ إمضاء الأمور

وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق، فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه. وإن كان فظاً غليظاً اختل أمره وانفضّ الناس من حوله وزال ملكه وسلطانه في أسرع زمان، وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والأمراء وغيرهما من ذوي المناصب الجليلة وأرباب المعاملة والمكاسب وأصحاب الصنائع والحرف.

إذا كان من موجبات الأخوة الرفق بالناس وحسن التأني لهم، والعزوف عن العنف والشدة والتباعد عن الغلظة والقوة فأولى بالمداراة لهم، والموافقة على مشاربهم التظاهر بالموافقة لهم بكل ما يذهبون إليه ويعتقدونه ويعملون به. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أتدرون من يحرم على النار؟، كل هيّن لين، سهل قريب».

قال الرسول صلى الله عليه وآله: «المداراة نصف الإيمان».

وقال صلى الله عليه وآله: «ثلاث من لم يكن فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يردّ به جهل الجاهل».

يقول الرسول صلى الله عليه وآله: «أمرني ربي بمداراة الناس، كما أمرني بإقامة الفرائض».

قال الصادق عليه السلام: «إنّ قوماً من الناس قلّت مداراتهم للناس فنفوا من قريش، وأيم الله ما كان بأحسابهم من بأس. وإنّ قوماً من قريش حسنت مداراتهم فالحقوا بالبيت الرفيع»، ثمّ قال: «من كفّ يده عن الناس فإنما يكفّ عنهم يداً واحدة ويكفون عنه أيدي كثيرة».

إذا لقيت الناس رفيقاً بهم مدارياً لهم، فكن حريصاً على معرفة أسمائهم، وخاطبهم بها لأول مرة فإنها تزرع لك المودة في القلوب، وتغرس لك المحبة في النفوس، فان مناداة الرجل باسمه تفعل في جذب

انتباهه فعل السحر، وتستولي على قلبه ومشاعره،وهذا أحمد الأمور التي اعتمدها كارتيجي في جلب الأهواء واستمالة القلوب، وأهل البيت عليهم السلام علّمونا وأوصونا مؤكدين أن نسأل من نعاشره عن اسمه ونسبه لتزداد علاقتنا به وثوقاً، وصلتنا به متانة، وأن نحدث بذلك مودة وأخوة وصداقة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «العجز أمور ثلاثة: الثانية منها أن يصحب الرجل منكم الرجل، أو يجالسه يحب أن يعلم من هو؟ ومن أين هو؟ فيفارقه دون أن يعلم ذلك منه».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أعجز العجز رجل لقي رجلاً فأعجبه فلم يسأله عن اسمه، ونسبه، وموضعه».

قال الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا أحب أحدكم أخاه المسلم فليسأله عن اسمه واسم ابيه واسم قبيلته وعشيرته، فإنّ من حقه الواجب، وصدق الإخاء أن يسأله عن ذلك وإلاّ فإنها معرفة حمق».

وينبغي أن تبدأ من تلقاه بالتحية، والتحية الإسلاميّة هي شعار الإسلام، وتعطي من تقابله بالتحية، مؤداها أن المخاطب في ضمانة السلام، والأمن من المتكلم، ومن الشرّ بصورة عامة، فالدين الإسلامي هو سلام وأمن، وإذا قلت: سلام عليكم فحواها أن السلام والأمن أعلنته من قبل نفسك، ولذلك رغب الرسول وأهل البيت في إفشاء السلام وإذاعته.

قال الصادق عليه السلام: «البادي بالسلام أولى بالله ورسوله»، يعني أن عنوان السلام وشعاره هو (السلام عليكم) ومن بدأ بالسلام فهو أولى بالسلام؛ لأنّ الدين الإسلامي ركناه الأساسيّان شهادة الإنسان بالله ورسوله.

قال الصادق عليه السلام: كان عليّ يقول: «لا تغضبوا، ولا تُغضبوا، أفشوا السلام، وأطيبوا الكلام، وصلّوا بالليل».

قال عليّ بن الحسين عليه السلام: «من أخلاق المؤمن الإنفاق على قدر الإقتار، والتوسع على قدر التوسع، وإنصاف الناس، وابتداؤه إياهم بالسلام».

قال الصادق عليه السلام: «إنّ ملكاً مرّ برجل على باب، فقال له: ما يقيمك على باب هذه الدار؟ فقال: أخ لي فيها أردت أن أسلّم عليه، فقال له الملك: بينك وبينه قرابة؟ أو نزعتك إليه حاجة؟ فقال: لا ليس بيني وبينه قرابة ولا نزعتني إليه حاجة إلاّ أخوة الإسلام وحرمته، فأنا أسلم عليه وأتعهده فقال له الملك: أنا رسول الله إليك وهو يقرؤك السلام، ويقول لك: إياي زرت ولي تعاهدت، وقد أوجبت لك الجنّة وأعفيتك من غضبي وأجرتك من ناري».

وينبغي الابتداء في السلام قبل المحادثة، قال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «إبدأوا بالسلام قبل الكلام، فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»، والسلام مستحب وطاعة مقربة، وردّ السلام واجب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «السلام تطوع والردّ فريضة».

هكذا نجهل الأصدقاء:

ويتحدّث إلينا أيضاً تحت هذا العنوان بقوله:

إن إيجاد الصداقة أمر ميسور المنال، ولكن المهم في الحياة المحافظة عليها واستبقاؤها، وكل إنسان قدير وبإستطاعته أن يتخذ الأصدقاء والأحباء، ولكن الصفوة النادرة هي التي تحافظ على الصداقة فلا تدعها تجف ولا تذبل أزهارها: ولا تخف حرارتها.

إنّ كثيراً من الناس يضيعون صداقة الناس لأتفه الأسباب، ويعرضون عن أصدقائهم وينصرفون عن مودتهم، وينسون صحبتهم لبادرة من قول، أو فلتة من طبع، وتقصير في واجب قد يكون عن غفلة وانشغال فكر، وارتباك عقل، وفورة غضب، ولا يوازنون بين إساءة عارضة، وتقصير غير مقصود، وبين ماضٍ حميد وصلات طيبة وصحبة نقية، وعشرة سعيدة؛ بل يهدمون الصرح المشيد لأجل لبنة فيها شعث، أو رخامة فيها كلف، نعم أمثال المتنبي ونظرائه يعرفون أن يوازنوا فيقول:

وإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللآتي سررن ألوفُ

كثير من الناس تطغى عليهم كبرياؤهم، وتستحوذ عليهم عاطفة الإعجاب، فيعلنون أنهم لا يبالون بصديق قديم، ولا يحفلون بصاحب جديد، لفلتة طبع أو بادرة غضب، أو نزوة طيش، في حين إنّ الذين يفكرون في عواقب الأمور وأوائلها يحرصون أن يكونوا في الحبّ قدوة تحتذى، ومثلاً ينطبع الناس على غراره في التحبب إلى الناس والمداراة لهم والرفق بهم، والتماس المعاذير، ويجرب الإنسان أن يتخذ خيالاً موقفهم، ويفرض أن ظروفهم محيطة به، وعواطفهم في ذلك الوقت مستأثرة بقلبه ولسانه، ودواعيهم متمكنة من نفسه، وليكن هو الحاكم في ذلك الوضع وتلك الحالة، فلا محالة يجد أسباباً كثيرة تخفف من إساءتهم، وتبرر أعمالهم وتصحح غلطهم، ولو راجعنا أنفسنا وألقينا نظرة فاحصة على تاريخ حياتنا وتبعناها مرحلة مرحلة، طبعاً نجد عندنا من الأخطاء والهفوات مع أصحابنا وأصدقائنا ما يربو على هفوات أصدقائنا وبوادرهم نحونا.

قال الباقر عليه السلام: «كفى بالمرء عيباً أن يتعرف من عيوب الناس ما يعمى عليه من أمر نفسه، أو يعيب على الناس أمراً هو فيه، لا يستطيع التحول عنه إلى غيره، ويؤذي جليسه بما لا يعنيه».

ولا ريب أن خسارة الأصحاب والرفقاء بهذه الموجبات مردّها إلى جهل مستحكم، ونفس غير مرتاضة على حساب أخطائها ومراجعة تاريخها، وعاجزة عن المقارنة بين الأحوال الطارئة على الناس والأحوال الطارئة عليه في أمثال هذه المواقف، هذه موجبات ضعيفة، ولكن هناك موجبات بعيدة الأثر في المجتمع منها الحسد والغضب والغيبة وغير ذلك.

ويتحدّث إلينا أيضاً تحت عنوان:

هكذا نخسر الأصدقاء:

إن الإنسان إذا كان عنده شعور صادق بالدين، فشعوره الديني يمنعه أن يسيء إلى الناس لأن الدين المعاملة، الدين النصيحة لأن المتدين إذا عامل لا يظلم، وإذا حدّث لا يكذب، وإذا وعد لا يخلف، وإذا أؤتمن لا يخون، والدين ليس صلاة ولا صياماً مجردين عن النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي.

الإنسان إذا كان عنده وجدان يوحي إليه بشرف الإنسانية التي يحملها، أو شرف الأسرة التي ينتمي إليها، أو شرف العمل الذي يمارسه، وجدانه يحجزه أن يتناول أحداً بأذى ولا يرهف لسانه مدية حادة يفري بها لحوم الناس، ويقطع أوصالهم ويهدم بنيانهم.

الإنسان إذا كان يعيش في مجتمع، ويشعر أنه يحيا في مجتمع، ويشعر بأن المجتمع أقوى من الفرد بجميع ما يمتاز به الإنسان، ويدعي لنفسه الإمتياز على

الناس، فالمجتمع هو المستودع الذي لا تنضب موارده، فالملوك والطغاة والأعيان مفتقرون إلى المجتمع، منه يستمدون سلطانهم وطغيانهم ووجاهتهم، فإذا تخلّى عنهم المجتمع تجردوا من لباس العزة والمهابة، واصبحوا عراة من القوة التي سطوا بها، فقراء من الثروة التي ازدانوا ببريقها.

فالشعب مصدرالقوة وواهب العظمة للعظماء، بالأمس كان فاروق معقد آمال، فلما تخلت عنه مصر فإذا هو غريب، لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا سكن، فمن كان يشعر أنه يعيش في مجتمع فلا يتطاول على الناس بالسباب ولا يجاهرهم بالعداء، ولا يحتقر أحداً ولا يبغي على أحد، فإن سبّ الناس سبّه الناس، وإن احتقر الناس احتقره الناس، وإن بغى على الناس فعليه تدور الدائرة، فالذي يحيا في مجتمع يبادل حباً بحب وتكريماً بتكريم، والفضل أن تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من منعك. انتهى.

* * *

ومما اخترناه من (الخلق الكامل) تأليف محمّد أحمد جاد المولى بك (مج ١ ص ٩٨ ط الأولى بمصر ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م)، ذكر تحت عنوان:

إختيار الخلطاء:

عنى الباحثون وعلماء الأخلاق والدين والمثقفون في كل أمّة وعصر بوصف العشراء والخلطاء، وأرسلوا القول في ذلك شعراً ونثراً، ما شاءت لهم البلاغة ووحي البيان، ولم تفرّط الشريعة الإسلاميّة في شيء من ذلك، والأحاديث الواردة فيها أكثر من أن تعيها أذن واعية، أو يلمّ بها قلب حافظ أو راوية.

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «مثل الجليس الصالح كمثل

الداري إن لم يجذِكَ من عطره يعلقك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القين إن لم يحرقك بشرره يؤذك بدخانه».

وقوله: «من أراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحاً، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه».

ذلك لأنّ للمخالطة أثراً بيناً في تكوين أخلاق الإنسان، وفيما يصدر عنه من أفعال الخير والشر، وفيما يناله من سعادة وشقاء، ونعيم الحياة وبؤسها، ولأنّ الإنسان موسوم بسمات من يخالطه، ومنسوب إليه فعله، قال عبد الله بن مسعود: ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب.

وقال عدي بن زيد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

لهذا ينبغي للإنسان أن يعرف فيمن يختارهم لمخالطته ويصطفيهم لمعاشرته أموراً لا بدّ منها لتستقيم الصحبة وتدوم الألفة.

خلال الخليط:

فمن ذلك أن يكون العشير موفور العقل، كامل التجربة، لأن الأحمق لا تدوم مودته، ولا تطول عشرته، وقد يصيب الإنسان بضرره أكثر مما يصيبه بخيره، وقد أبان القرآن الكريم عن هذا أوضح بيان:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾.[1]

---

(١) الفرقان: ٢٧ – ٢٩.

وقال رسول الله ﷺ: «البذاءُ لؤمٌ، وصحبة الأحمق شؤم».

وقال بعض الحكماء: «عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الأحمق».

ومنها أن يكون ذا دين يقف به على الخير وينهاه عن الشر، لأن تارك الدين عدو نفسه. فكيف يكون صديق غيره. ولهذا قال بعض الحكماء: اصطفِ من الاخوان ذا الدين والحسب، والرأي والأدب، فإنه ردءٌ لك عند حاجتك، ويدٌ لك عند نائبتك، وأنسٌ عند وحشتك، وزين عند عافيتك.

ومنها أن يكون رضي الأخلاق، حميد الفعال، يؤثر الخير على الشر، ويفعله ويأمر به، فإن مخالطة سيء الخلق تكسب العداوة، وتفسد الأخلاق، ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث صاحبها مذمة وملامة. قال بعض العقلاء: مخالطة الأشرار على خطر، والصبر على صحبتهم كركوب البحر، من سلم منه ببدنه من التلف لم يسلم بقلبه من الحذر منه.

ومنها أن يكون ذا ميل إلى الصحبة، ورغبة في المعاشرة؛ فإن ذلك أوكد لها، وأمدّ لأسباب المصافاة، وأرعى إلى الاستفادة.

هل يُكثر الإنسان من الاخوان والأصحاب؟

سؤال يتردد في جوانب نفس كل إنسان، فإذا ألقيت به على قوم انقسموا فيه ثلاث فرق: فرقة ترى الإكثار، وفرقة ترى الإقلال، وفرقة ترى ألا يكون واحد منهما. ولا بدّ لمن يريد علم هذا أن يقف على رأي المتقدمين من علماء الأخلاق والدين وممن بلوا الأيام، وعركوا الحوادث، فعرفوا خيرها وشرها، فإن ذلك أدعى إلى اطمئنان النفس، وأهدى إلى سبل الخير. يرى بعض هؤلاء أن الاستكثار من الأصحاب

ضرورة تدعو إليها حاجة الإنسان إلى المعاضدة والمعاونة. وفي هذا قيل: (حلية المرء كثرة إخوانه)، وقيل: (المرء قليل بنفسه كثير باخوانه)، وفي الأمثال: (يد واحدة لا تصفق). ويرى فريق آخر أن الإقلال منهم خير من الاكثار، لأنه أخف مؤونة وأيسر كلفة وأذهب للبغضة والتنازع الذي يحدث من الكثرة. ولهذا قال الإسكندر: (المستكثر من الإخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة، والمقلّ من الاخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر). وقال إبراهيم بن العبّاس: (مثل الاخوان كالنار، قليلها متاع، وكثيرها بوار).

وقال ابن الرومي:

عدوّك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرنْ من الصحابِ

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشرابِ

ودع عنك الكثير فكم كثير ... يُعاف وكم قليل مستطابِ

فما اللجج الملاح بمرويات ... وتلقى الري في النطف العذابِ

وفريق ثالث يرى الخير في الوحدة، والإنصراف عن الناس جملة فإنّ هذا أصون للدين وأحفظ للوقت، وأضمن لراحة الإنسان وسلامته، وأذهب للعناء الذي يجده الإنسان عادة من تكلف ما يترضى به كل واحد من إخوانه.

وخير الآراء ثانيها، وهو الأجدر بالتقدمة والأولى بالاتباع. إذ لا إفراط فيه ولا تفريط، ولكن على الإنسان أن يتعرف فيمن يختاره لصحبته ما تقدم من الصفات، وأن لا يثق به قبل ابتلائه، ولاسيّما في هذا الزمان الذي كثر شرّه، وقل خيرّه، وأتقن الناس فيه التصنع ولباس الرياء، حتّى أنه ليعجز أعقل الناس، وأكثرهم دهاء وحزماً عن كشف ما انطوت

عليه نفوسهم من خبث وسوء نية، وإنّ في الحوادث التي يسوقها الدهر كل يوم عِظات بالغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

آثار المخالطة الصالحة:

للمخالطة الصالحة نتائج حسنة، إذ يستحي الإنسان في الغالب إظهار عيوبه أمام رفقائه والمتّصلين به، ولاسيّما من عرفوا منهم بالترفع عن الدنايا، وفي هذا ما يبعده عن الشر ويدنيه من الخير، كما يأمن على الخلاقه بمعاشرتهم، ومن آثارها أن يذكّره إخوانه بالخير فيفعله، والشر فيجتنبه، وأنه يكتسب بصحبتهم شرفاً، ويجد منهم عوناً في الملمات، وعضداً في النائبات.

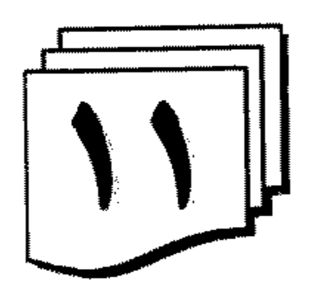
فالمخالطة عامل من عوامل التربية: ومن أجل ذلك يجب على الآباء والمربين أن يعيروا المخالطة عنايتهم كلها، لأنّ أثرها في التربية تنقطع دونه جميع الأسباب، ولتحقيق الغرض الصالح منها يجب أن يمنع الأطفال من مخالطة من ساءت أخلاقهم، ولو زمناً قليلاً، وأن يمنعوا من الذهاب إلى المجتمعات العامة وحدهم، ولاسيما التي يغشاها ذوو الدناءة والأخلاق السيئة، وأن يختار لهم آباؤهم وأولياؤهم إذا بعثوهم ليتعلموا في بلد بعيد ناساً ممن عرفوا بكرم الأخلاق وصحة الآداب، ليشرفوا عليهم، وألا يتركوا لهم الحبل على الغارب في اختيار الأصدقاء والخلاّن، فإن قلة خبرتهم ونقص تجربتهم تدعوهم في الغالب إلى اختيار من يضرون ولا ينفعون، ويفسدون ولا يصلحون.

وقد أدرك الناس على اختلاف منازلهم ومنازعهم خطر المخالطة، واتصال عدواها بالدين والأخلاق والعادات والمعتقدات، فانتحى كلّ فريق ناحية في أسلوب معيشته، وسلك سبيلاً خاصة به، في تربيته وتعليمه وعاداته وآدابه،

وأسلوبه في مأكله ومشربه وحديثه وملبسه، حتّى في إشاراته وحركاته وسكناته ليمتاز عن سواه، وقد سرى هذا التميز في كل شيء تقريباً.

فحيث تلتفت لا تجد إلاّ ذلك: ففي قطر سكة الحديد ومركبات الكهرباء ومشارب القهوة والفنادق والمطاعم والملاهي ودور التمثيل والمستشفيات والمصاحّ ومحالّ التجارة والمدارس التي هي أماكن تهذيب وتعليم، ترى أماكن للخاصة وأخرى للعامة، حتّى لتجد هذا في أرباب المهن والحرف والصنّاع: كالخيّاطين والنجّارين والبنّاءين والمهندسين والأطباء والمدراء، ممن جعلوا لهم جعلاً خاصلاً صاروا بسببه يختصون بطبقة من الناس دون طبقة.

* * *



قوله عليه السلام:

إذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

(نهج البلاغة ٤: ٤)



[العفو عند المقدرة]

قال ابن أبي الحديد:

قد أخذت أنا هذا المعنى، فقلت في قطعة لي:

إنّ الأماني أكساب الجهول فلا	تقنع بها واركب الأهوال والخطرا
واجعل من العقل جهلاً واطّرح نظراً	في الموبقات ولا تستشعر الحذرا
وإن قدرت على الأعداء منتصراً	فاشكر بعفوك عن أعدائك الظفرا

شجر بين أبي مسلم وبين صاحب مرو كلام أربى فيه صاحب مرو عليه، وأغلظ له في القول، فاحتمله أبو مسلم، وندم صاحب مرو وقام بين يدي أبي مسلم معتذراً وكان قال له في جملة ما قال: يا لقيط، فقال أبو مسلم: مه، لسان سبق، ووهم أخطأ والغضب شيطان، وأنا جرأتك علي باحتمالك قديماً، فإن كنت للذنب معتذراً فقد شاركتك فيه، وإن كنت مغلوباً فالعفو يسعك. فقال صاحب مرو: أيها الأمير إنّ عظيم ذنبي يمنعني من الهدوء، فقال أبو مسلم: يا عجباً! أقابلك بإحسان وأنت مسيء، ثمّ أقابلك باساءة وأنت محسن، فقال: الآن وثقت بعفوك.

وأذنب بعض كتّاب المأمون ذنباً، وتقدم إليه ليحتج لنفسه، فقال: يا هذا قف مكانك فإنما هو عذر أو يمين فقد وهبتهما لك، وقد تكرر منك ذلك فلا تزال تسيء ونحسن، وتذنب ونغفر، حتّى يكون العفو هو الذي يصلحك.

وكان يقال: أحسن أفعال القادر العفو، وأقبحها الانتقام، وكان يقال: ظفر الكريم عفو، وعفو اللئيم عقوبة، وكان يقال: ربّ ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به، ولا يجاوز به حدّ الارتفاع إلى الإيقاع، وكان يقال: ما عفا عن الذنب من قرع به.

ومن الحلم الذي يتضمن كبراً مستحسناً ما روي أن مصعب بن الزبير لما ولي العراق عرض الناس ليدفع إليهم أرزاقهم، فنادى مناديه: اين عمرو بن جرموز؟ فقيل له: أيها الأمير، أنه أبعد في الأرض، قال: أوَ ظنَّ الأحمق أني أقتله بأبي عبد الله، قولوا له فليظهر آمناً وليأخذ عطاءه مسلماً.

وأكثر رجل من سبّ الأحنف وهو لا يجيبه، فقال الرجل: ويلي عليه، والله ما منعه من جوابي إلاّ هواني عنده.

وقال لقيط بن زرارة:

فقل لبني سعد ومالي ومالكم ترقون مني ما استطعتم وأعتقُ
أغركم أني بأحسن شيمة بصير وإنّي بالفواحش أخرقُ
وأنك قد سابتني فقهرتني هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذقُ

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي لما ظفر به: إني قد شاورت في أمرك فأشير علي بقتلك، إلاّ أني وجدت قدرك فوق ذنبك، فكرهت قتلك للازم حرمتك، فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين إن المشير أشار بما تقتضيه السياسة وتوجبه العادة، الاّ أنك أبيت أن تطلب النصر إلاّ من حيث عودته من العفو، فإن قتلت فلك نظراء وإن عفوت فلا نظير لك، قال: قد عفوت، فاذهب آمناً.

* * *

ضلّ الأعشى في طريقه فأصبح بأبيات علقمة بن علاثة (أو علائة) فقال قائده وقد نظر إلى قباب الأدم: وا سوء صباحاه، يا أبا بصير هذه والله أبيات علقمة، فخرج فتيان الحي فقبضوا على الأعشى فأتوا به علقمة فمثل بين يديه، فقال: الحمد لله الذي أظفرني بك من غير ذمّة ولا عقد، قال الأعشى: أو تدري لِم ذلك جعلت فداك؟ قال: نعم؛ لأنتقم اليوم منك بتقوالك على الباطل مع إحساني إليك، قال: لا والله، ولكن أظفرك الله بي ليبلو قدر حلمك فيّ، فأطرق علقمة فاندفع الأعشى فقال:

أعلقم قد صيّرتني الأمور إليك ... وما كان بي منكصُ

كساكم علاثة أثوابه ... وورثكم حلمه الأحوصُ

فهب لي نفسي فدتك النفوس ... فلا زلت تنمى ولا تنقصُ

فقال: قد فعلت، أما والله لو قلت فيّ بعض ما قلته في عامر بن عمر؛ لأغنيتك طول حياتك ولو قلت في عامر بعض ما قلته فيّ ما أذاقك برد الحياة.

* * *

قال معاوية لخالد بن المعمر السدوسي: على ماذا أحببت علياً؟ قال: على ثلاث: حلمه إذا غضب، وصدقه إذا قال، ووفاؤه إذا وعد.[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

وقال عليه السلام: «إذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه».

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٠٩.

وهو تنبيه على فضيلة العفو، وجذب إليه بكونه شكراً للقدرة، أي ملازم للشكر عليها، وذلك أنّ القدرة على العدّو نعمة من الله تعالى يجب شكرها، والاعتراف لله والخضوع له، ويلزمه الرقة وفتور الغضب، وتبع ذلك العفو فأقامه مقام الشكر للملازمة بينهما، ولما كان الشكر واجباً كان العفو لازماً.[١]

* * *

وقال في (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[٢]

قدر: قدراً... على الشيء: قوي عليه، (العداوة) الخصومة والمباعدة، والعدّو جمع الأعداء.

المعنى:

القدرة من أفضل النعم وأمجد الكرم، الذي منّ الله به على الكائنات، فالقدرة هي النشاط والحركة التي بها يستكمل كل وجود سيره، ويصعد على درجات الكمال، وبها تتصور المادة على أنواع شتى الكائنات، فالقدرة حركة في ذاتها ودفاع عن مضاداتها، وكل عائق عن الحركة عدوّ لدود لا بدّ من دفعه والمضي في سبيل الرقي والكمال.

وأفضل الدفاع عن العدّو تسخيره وتحويله إلى رفيق مساعد كما يشاهد في استكمال القوى الحيوية فانها تعمل في مضاداتها وتجعل منها آلاتها ومعدّاتها، فإذا ظهر تجاه الإنسان عدّو يضاده ويعانده، وأنعم الله على عبده بالقدرة على عدوه، فليحذر سلّ سيف الانتقام، بل يعفو عنه

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٧.

(٢) ج ٢١: ٢٦.

شكراً على هذه النعمة، ويجعله بمنّه من أصدقائه ومعاونيه، فالشكر من موجبات مزيد النعم ووفور الكرم، والعفو عن المسيء يوجب ذلك بتحول العدو صديقاً، والساخط محباً رفيقاً.

وسير الأنبياء والأكابر مليء بالعفو عند القدرة، كيف والعفو من صفات الله تعالى أقدر القادرين، والقاهر فوق المذنبين كل حين.

ونقل في السير أنه لما دخل كورش الأكبر معبد بابل، كمن له أرتب على شجرة في طريقه ليرميه بسهم قاتل: ولما رمى بسهمه كبا فرس كورش وهبط إلى الأرض، فأخطأ السهم، فأخذ أرتب ومثل بين يدي كورش، ولا يظن أحد أنه ينجو من القتل ولا طمع هو فيه، ولكن كورش عفا عنه فصار من أخلص أصدقائه وأوفى خدمه وجنده، وحضر معه كافة المعارك حتّى أصيب كورش بجرح ومات قتل أرتب نفسه فوق جنازته، ولم يحب الحياة دونه بعده، وهذا من أغرب آثار العفو عن العدوّ المذنب بعد القدرة عليه.

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):[١]

علمتني التجربة وتكرارها أشياءً، منها أن من فرّ إلى الله وقرع بابه مخلصاً أغاثه وشمله بعنايته، ومنها أن من شكر القليل من فضله تعالى زاده أضعافاً، ومن رفضه وتبرم به طلباً للكثير عاقبه بالحرمان، وإنّ من أبى إلاّ القصاص بيده ممن أساء إليه، تركه سبحانه وشأنه يشفي غيظه من عدوه إن استطاع، وإن من عفا عن حقه الخاص لوجه الله كان له

---

(١) ج ٤: ٢٢٣.

ناصراً، وعوّض عليه أضعافاً مضاعفة، ويأتي قول الإمام عليه السلام: «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة».

وقوله عليه السلام: «أوّل عوض الحليم من حلمه أنّ الناس أنصاره على الجاهل».

* * *

أقول: قال عفيف عبد الفتاح طبارة في كتابه (روح الدين الإسلامي):

العفو من الصفات الحميدة التي يتحلى بها الإنسان؛ لأنها لا تصدر إلاّ من نفس كبيرة، راجحة العقل صبرت على اعتداء الغير وأذاه.

إن اعتداء الغير علينا لا يكون إلاّ من نفس مريضة، حجب الشر صوابها، فما أحرى بنا أن نغفر لها.

إننا كثيراً ما نزلّ فنفتقر إلى العفو والغفران، وإن لم نغفر لمن أساء إلينا فلا يُغفر لنا، وإن أردنا الانتقام من المعتدي فلننتقمنّ بالإحسان إليه؛ لأن مقابلة الإساءة بالإحسان تنزع من المعتدي البغضاء وتتركه مندهشاً فيرتد ـ في الكثير ـ عن غيّه وتقلب بغضاؤه إلى مودة.

ولهذا مدح الله العفو في كثير من المواضع في القرآن: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

ووصف المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾[2].

ودعا الله إلى مقابلة شرور الناس بالإحسان إليهم، لأن ذلك داعيةَ إلى

---

(١) التغابن: ١٤.

(٢) الرعد: ٢٢.

نزع العداوة من صدورهم وإحلال المودة مكانها، ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.[(١)]

[القصاص والعفو بين الإسلام والمسيحية]:

ولما كانت بعض النفوس جبلت على الاعتداء فقد وضع الإسلام علاجاً لها لمنعها من التمادي في غيّها، وهو مقابلتها بالمثل بدون إسراف أو ظلم، ولكن بالرغم من هذا لم يغفل من ترجيح العفو، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.[(٢)] وقال سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.[(٣)]

هذا هو مذهب الإسلام بالعفو.

أما المسيحية فهي تزيّن العفو مطلقاً، جاء في الإصحاح الخامس من متى: (٣٨) سمعتم أنه قيل عين بعين وسن وبسن، (٣٩) وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً، (٤٠) ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. (٤٣) سمعتم إنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. (٤٤) وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، احسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم.

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) النحل: ١٢٦.

(٣) الشورى: ٤٠ - ٤٣.

وقد سئل صديقنا العلامة الشيخ محمّد الشال عن العفو في القرآن من قبل أحد الباحثين الأميركيين: ألا ترى أن المسيحية أسمح من الإسلام لأنها تقول: إنّ من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر، والإسلام يدعو إلى القصاص أوّلاً وإلى العفو ثانياً؟!

فأجابه الأستاذ بقوله: إن ما دعا إليه الإسلام هو ما تدعو إليه الفطرة السليمة؛ بل لا أغالي إذا قلت: إن الإسلام أسمح من المسيحية في هذا؛ لأنه إذا أعطى حق القصاص للمعتدى عليه فقد أراحه نفسياً حيث قد جعل له سلطاناً يؤيده الحق، ثمّ دعاه وهو صاحب السلطان في القصاص إلى العفو وهو لا يكون إلاّ معه.

ولا شك أن الإنسان إذا عفا وهو متمكن من القصاص كان عفوه فيه رحمة وعزة، أما إذا دعوناه إلى العفو من أوّل الأمر ولم نجعل له حقاً في القصاص كما دعت إليه المسيحية، فإن استجاب ـ وقلّما يستجيب ـ فعل ذلك وهو برم وساخط؛ لأنه عفو الضعيف لا عفو القدرة والعزة كما دعا الإسلام.

والعفو كما دعا إليه الإسلام قد يؤدي في كثير من الأحيان إلى صداقة قوية بين المتخاصمين، لأن المعتدي يؤلمه هذا العفو من قادر على القصاص فيعمل على إرضائه ومحو أثر الاعتداء من نفسه، أما العفو كما دعت إليه المسيحية فإنه عفو العاجز عن القصاص كما ذكرنا، وهذا عفو لا يشعر صاحبه بالرضا لأنه صادر عن عجز، ولا يشعر المعفو عنه بالمنة لأنه لا سلطان لمن عفا على القصاص حتّى يكون في عمله رحمة وفضل.

* * *

قال النراقي في المجلد الأوّل من جامع السعادات (ص ٣٠٢):

ضدّ الانتقام (العفو)، وهو إسقاط ما يستحقه من قصاص أو غرامة، ففرقه عن الحلم وكظم الغيظ ظاهر، والآيات والأخبار في مدحه وحسنه أكثر من أن تحصى.

قال تعالى سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾.(١)

وقال سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾.(٢)

وقال: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.(٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً لحلفت عليهنّ: ما نقصت صدقة من مال، فتصدّقوا، ولا عفا رجل من مظلمة يبتغي بها وجه الله إلاّ زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر».

وقال صلى الله عليه وآله: «العفو لا يزيد العبد إلاّ عزاً، فاعفوا يعزكم الله».

وقال صلى الله عليه وآله لعقبة: «ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة، تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك».

وقال صلى الله عليه وآله: «قال موسى: يا رب أي عبادك أعزّ عليك؟ قال: الذي إذا قدر عفا».

وقال سيد الساجدين عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد، ثمّ ينادي منادٍ أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فتلقاهم الملائكة، فيقولون: وما فضلكم؟ فيقولون: كنّا

---

(١) الأعراف: ١٩٩.

(٢) النور: ٢٢.

(٣) البقرة: ٢٣٧.

نصل من قطعنا، ونعطي من حرمنا، ونعفو عمّن ظلمنا، قال: فيُقال لهم صدقتم، ادخلوا الجنّة».

وقال الباقر عليه السلام: «ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة: تعفو عمّن ظلمك...» إلى آخر الحديث.

وقال أبو الحسن عليه السلام: «ما التقت فئتان قط إلاّ نصر أعظمهما عفواً».

وكفى للعفو فضلاً وشرافة أنه من أجمل الصفات الإلهية، وقد يمدح الله تعالى به في مقام الخضوع والتذلل، قال سيد الساجدين عليه السلام: «أنت الذي سمّيت نفسك بالعفوّ فاعفُ عني» وقال عليه السلام: «أنت الذي عفوه أعلى من عقابه». انتهى.

* * *

ومما قرأته في كتاب (الأخلاق في الإسلام) تأليف الدكتور محمّد يوسف موسى، تحت عنوان:

احتمال الأذى والعفو:

لو أحبّ كل إنسان لإخوانه في الدين والوطن والإنسانية ما يحب لنفسه، وكره لهم ما يكره لنفسه، لعشنا بعيدين عن الأذى الذي يصيب به بعضنا بعضاً، ولمرّت الحياة في راحة وأمن وسلام.

ولكن الأمر ليس كذلك دائماً في كل حال، بل لعل هذا ليس من طبيعة الإنسان بصفة عامة؛ ففي بعض النفوس نزعة إلى العنف، وميل إلى ألوان من الأذى يصيب به الغير، وهنا يجد من وقع عليه الأذى نفسه بين حالات أربع كلها أشار إليها القرآن والحديث، وكلّ واحدة منها لها نتيجتها.

إنه إما أن يقابل الأذى والشر بمثله، فيقاوم ويرد بالشرّ والأذى، منتصفاً لنفسه ممن أساء إليه، وإما أن يحتمل الأذى وهو قادر على دفعه، ويسلّم أمره إلى الله الذي ينتصف له إن شاء.

وإما أن يسمو في طريق الخير درجة أخرى، بأن يعفو عمّن أساء إليه بغير حقّ ويغفر له، وأخيراً إما أن يرتفع إلى الذروة من الخير، فهو يقابل الشر بالخير، ويحسن إلى من أساء إليه.

فإن اختار لنفسه الحالة الأولى، فأخذ بحقه غير متجاوز الحد، لم يكن ظالماً لمن اعتدى عليه؛ بل كان متخلقاً بالعدل، وهو من أخلاق الإسلام كما هو معروف.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[١] كما يقول في موضع آخر من القرآن: ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[٢].

وإن جنح إلى عدم دفع الأذى بمثله وهو قادر عليه، بل رأى ألاّ ينتصف لنفسه، وكظم غيظه وأخفاه، وسلّم أمره لله، إن شاء عاقب وإن شاء عفا، كان متخلقاً بخلق إسلامي آخر، وهو الرضا والتسليم لصاحب الأمر كله، وهو حينئذٍ يكون إلى الخير أقرب، فربّما كان هذا باعثاً إلى أن يندم المعتدي ويرتد إلى الصواب.

وإن احتمل الأذى وكظم غيظه ممن اعتدى عليه بلا سبب مشروع، وارتفع إلى الخير درجة أخرى فعفا عنه، كان رجلاً قد تخلق حقاً بخلق العفو الذي ندب إليه الإسلام، وبه يصلح أمر الأفراد والجماعات.

---

(١) الشورى: ٤١ و٤٢.

(٢) النحل: ١٢٦.

وفي هذه الحالة والثانية التي قبلها، يقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.(١)

وأخيراً إن لم يكتفِ المعتدى عليه بالعفو، والغفران للمعتدي، بل قابل أذاه بالإحسان إليه، فقد وصل إلى القمة من الخلق الجميل، وكان ممتثلاً حقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.(٢)

احتمال الأذى والعفو عن المسيء فضيلة إذن، وهذا مع مقابلة السيئة بالحسنة فضيلة أعظم، ومن أجل ذلك نرى القرآن يحثّ على هذه وتلك، ويجعل الثانية فضيلة أُولي العزم من الصابرين على الأذى، مع أنهم يملكون الانتصار لأنفسهم، وهي فضيلة من جعل له الله الحظ العظيم من الفضل والخير.

والعفو عن المذنب من وسائل رضا الله ومغفرته ولهذا يأمرنا ـ تعالت حكمته ـ بالعفو والصفح عن المسيء، فيقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.(٣)

واحتمال الأذى والعفو عن صاحبه، من المنازل الرفيعة العالية التي لا تنال إلاّ بعزيمة قوية، ومن ثمّ يقول جلّ شأنه في سورة الشورى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.(٤)

---

(١) آل عمران: ١٣٣ و ١٣٤.

(٢) فصلت: ٣٤ و ٣٥.

(٣) النور: ٢٢.

(٤) الشورى: ٤٣.

وقد كان الرسول ﷺ في حياته مثلاً أعلى في هذه الناحية، ولا عجب، فقد كان ينبغي أن يكون القدوة المثلى لأصحابه وأمّته جميعاً في كل خلُق جميل محمود، وهو الذي أمره الله بقوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[1] ولا يكون جميلاً إلاّ مع القدرة على الانتصاف.

وفي الحديث: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، إلاّ أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله تعالى».

ومن المعروف أنه قد نزل به ﷺ من المشركين أذى شديد حتّى لقد أذن الله _ كما جاء في الحديث الصحيح _ له أن يأمر ملك الجبال فيطبق على المكذبين من قومه جبلي مكّة، فلا تبقى منهم باقية، فأبى وقال: «بل أرجو ربي أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً» وهكذا كان بحمد الله تعالى.

وحين اشتد به الأذى ذات يوم، حتّى أدموا وجهه الشريف، لم يزد على أن قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وهكذا كان حرّياً حقاً بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾،[2] وبقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.[3]

وفي ذلك أيضاً نذكر أن سيدنا حمزة بن عبد المطلب، عمّ الرسول قُتل في يوم أحد، ومثّل المشركون بجثته تمثيلاً بشعاً، وكان الذي تولى قتله غلام رقيق يسمى (وحشياً).

---

(١) الحجر: ٨٥.

(٢) القلم: ٤.

(٣) التوبة: ١٢٨.

فلما فتح الرسول مكّة المكرمة، خاف وخشي على نفسه منه، فهرب، ولما اشتد به اليأس من النجاة قدم على النبي فجأة وأعلن إسلامه، فلم يزد ﷺ بعد أن سمع منه كيف قتل عمّه ﵁ على أن قال له: «غيّب عني وجهك فلا أرينّك»، وعفا عنه بعد أن قتل أعز الناس لديه.

وأخيراً لما دخل الرسول مكّة، وذهبت الظنون بصناديد قريش ومن كانوا معهم على إيذاء الرسول واضطهاده كل مذهب، قال لهم: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وقد كان الرسول ﷺ حريصاً كلّ الحرص على أن ينتفع أصحابه بتعاليمه، وعلى أن يقتدوا في سلوكهم بسيرته، وما ضرب لهم من مُثل رائعة عليا وللبشرية جمعاء.

ونذكر في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه: من أن رجلاً جاء إليه ﷺ وقال له: يا رسول الله إنّ لي قرابة أصلُهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال له الرسول: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ـ أي الرماد الحار أي تلقمهم ـ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

[عدم الصفح والعفو في بعض المواطن]:

ومهما يكن من أن الحلم والعفو من أخلاق الإسلام وفضائله التي وصىّ بها، وحثّ أبناءه على أخذ أنفسهم بها في سلوكهم أفراداً وجماعات، فهناك مواطن وحالات لا يباح فيها العفو عن المذنب المسيء؛ بل يجب فيها الغضب وأخذ المعتدي بما جنت يداه، ونشير من هذا إلى هذه الحالات:

الأولى: أن يكون المعتدي المسيء فاجراً وقحاً ممعناً في إساءته

ولا يصلحه العفو، فهنا ينبغي الانتقام منه مع عدم مجاوزة الحدود، ولذلك نرى الله العلي الحكيم يذكر في معرض المدح، والانتصار من البغاة الظالمين فيقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[١] وهذا حتّى لا يجترىء المعتدون الذين لا ضمائر لهم تردعهم عن الشر.

والثانية: أن ينتهك إنسان حرمة من حرّم الله تعالى ويتعدى حداً من حدوده، فحينئذ يجب الغضب لله وعقاب الآثم بما يستحقه.

ومن هذا أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: من يجرؤ عليه إلاّ أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال الرسول: أتشفع في حدٍّ من حدود الله تعالى؟

ثمّ قام فخطب الناس وقال: «إنما أهلكَ الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف زكّوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها».

والثالثة: وهي الحالة الأخيرة من الحالات التي ينبغي فيها ردّ الإعتداء وعقاب المعتدي لا الصفح والعفو، هي أن يقع الاعتداء على الأمّة من أمّة أخرى، كما حدث ويحدث كثيراً في كلّ عصر وزمان، إنه في هذه الحالة أيضاً يكون من الواجب شرعاً وخلقاً ردّ الاعتداء بمثله محافظة على حقوق الأمّة وكرامتها.

وإن ترك الانتقام في هذه الحالات والتمسك بخلق العفو، لا يرضى به الإسلام وأخلاقه وآدابه، وذلك لأنه يكون سبباً للفساد والفتنة، ويجعل المعتدي يجرؤ على البغي والعدوان.

---

(١) الشورى: ٣٩.

إن الله لا يحب المعتدين، كما لا يحب الذين يرضون لأنفسهم الذلّ والصغار، بل يحبّ المؤمن القوي بالله ونفسه، الذي يقوم بما عليه من واجبات، ويأخذ ما له من حقوق، فبه وبأمثاله يرتقي الدين والوطن. انتهى.

* * *

ومما قرأت في (مناهل الأشواق)[1] تحت عنوان:

الصفح:

نص القانون الإسلامي على الصفح عمّن أساء، وهو من مكارم الأخلاق.

الصفح هو الإعراض المستتبع عمن أساء، وهو من صفات الأنبياء والأوصياء والعرفاء والأولياء، وبه امتازوا، وعليه عمل ذوو الشهامة والضمائر الشريفة، وهو من دعائم مكارم الأخلاق، ومن الصفات الجميلة والمزايا الحميدة.

إنّ صدق العفو والصفح يتوقف على أن يكون من له الحق قادراً على استيفائه، وإلاّ لم يكن تركه لحقه مع عدم قدرته على استيفائه صفحاً ولا عفواً؛ بل للعجز عن وصوله إليه.

[شروط الصفح]:

إنّ حسن الصفح والعفو يتوقف على شروط ثلاثة:

الأوّل: أن يكون الحق خاصاً بمن يعفو ويصفح، أو تكون له عليه الولاية ونحوها، والمصلحة التي يجب عليه قصدها في جانب العفو

---

(١) للسيد محمّد حسين صفي الدين قاضي الجعفرية في لبنان سابقاً، وهو مطبوع بصيدا. (الذريعة ٢٢: ٣٥٣).

والصفح، وإلاّ كان تصرفاً في حق الغير وهو قبيح بدون إذن ولا إمضاء، لأنه عدوان محض.

الثاني: أن يكون ذلك الحق قابلاً للعفو والصفح والسقوط، وأما ما لا يقبل ذلك فإنّ العفو والصفح والإسقاط لا يصادف محله، كما في حقّ الأبوين الذي جعله الله لهما، فإنه لا يسقط عن الولد بالعفو والصفح، وحق الزوج في استمتاعه بزوجته، وحق الجار على جاره، وحق الحاكم باعتبار ولايته، فكل واحد من هذه الحقوق لا يمكن سقوطه ولا إسقاطه، ولا العفو والصفح عنه، مثلاً لو قال الوالد لولده عفوت عن حقي عليك من الخدمة والإطاعة والاحترام، وأسقطته عنك إلى سنة، كان ذلك في غير محله ولا أثر له، ويبقى حقه كما هو، وكذلك لو قال الزوج لزوجته فيما يخصه من الحق، أو الجار لجاره، وهكذا قول الحاكم فإنه لا وجه لتأثيره؛ لأنّ الله سبحانه جعل هذه الحقوق ثابتة بنحو التجدد في كل آن، فالذي يمكن إسقاطه هو ما ثبت لا ما لم يثبت، فإنه إسقاط ما لم يجب.

الثالث: أن لا يكون العفو والصفح سبباً لوقوع العفو بمثل ما ارتكبه أو بأعظم منه، والاّ فانّ العفو مضر؛ لأنّ حفظ النظام بين أفراد الإنسان لا يتحقق إلاّ بالقصاص في جملة الموارد، ولذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الأَلْبابِ﴾.[١]

إنّ هذه الآية قد فاقت سواها في فنون البلاغة والبيان وضروب الإيجاز والإعجاز، حتّى حارت البلغاء في مناظرتها، وكان أحسن ما جاء

---

(١) البقرة: ١٧٩.

به أحدهم مماثلاً لها بعد حول كامل قوله: (القتل أنفي للقتل)، أي ان القتل يقلل القتل وينفيه، واين هذا من قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فان كلمة القصاص في الآية الشريفة عمت أنواع العقوبة من القتل وغيره، كقطع الأنف بالأنف والأذن بالأذن والعين بالعين والسنّ بالسنّ وهكذا، وكلمة القتل الأولى في كلام العرب تخص القتل نفسه ولا تعم شيئاً من المذكورات، وكلمة القتل الثانية في كلامهم قاتلة لبلاغة الكلام وفصاحته بعد التأمل والإلتفات، أما كلمة الحياة في الآية الشريفة فإنّ فيها الحياة حقيقة وبلاغة، حيث أبانت بجوهرها أن الحياة في القصاص، والحياة هنا بما لها من سعة المعنى تشمل حفظ النظام الذي هو حقيقة الحياة لا بل روحها، وتشمل معنى إراقة الدماء وتمنع قتل النفس بغير النفس، وكله مسبب عن القصاص في محله، ولسنا الآن بصدد بيان إعجاز القانون الإسلامي والقرآن الرباني، وإنما كان هذا البيان الاجمالي بنحو الاستطراد.

وحاصل ما نحن بصدده، أن العفو على ما فيه من الحسن قد لا يكون متصفاً به إذا كان ترك العقوبة موجباً لتكرر الجناية ممن ناله العفو أو لوقوعها من غيره، وهذا مما لا يتطرق إليه النزاع ولا تناله يد المناقشة؛ لأنه من القضايا المسلّمة، وسيرة العقلاء في نظامهم على ذلك.

الصفح في محله من شيم الكرام، ويلازمه معنىً العفو والتجاوز، وأصل معنى الصفح هو الإعراض بصفحة الوجه، والصفوح من أبنية المبالغة، أي من الالفاظ التي يقصد بها كثرة الصفح ممن تصفه بها والصفح من أسماء السماء، ولذلك يقال: ملائكة الصفح الأعلى، أي ملائكة السماء العليا.

أمر الله سبحانه في القرآن المجيد بالصفح فقال سبحانه مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.(١)

أي أعرض عنهم وتجاوز عن أفعالهم وأقوالهم السيئة وقد كانت سيرة النبي ﷺ مع مشركي قريش وغيرهم في منتهى التجاوز والصفح والحلم، وتحمل الأذى، وكانت همته ﷺ منصرفة إلى بث الدعوة الإسلاميّة، وأعظم ما يؤذيه عدم قبولهم الإيمان بالله مع شدة حرصه على هدايتهم، فكان في نفسه ﷺ حسرات وزفرات، ولذلك خاطبه سبحانه بقوله:

﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾.(٢)

[معنى قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾]:

وأمره الله بالصفح الجميل فقال سبحانه:

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾.(٣)

ويتجه لشرح هذه الآية الشريفة وجهان:

الأوّل: أن يكون المراد من الصفح الجميل هو الإعراض عمنّ خالفه وآذاه إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء، أي إعراضاً حسناً.

الثاني: أن يكون المراد من الصفح الجميل، هو الصفح في مورد يحسن فيه الصفح ويصادف محله، وقد عرفت أن الصفح في غير محله مضرّ ومخلّ بحفظ النظام، والمعنى حينئذٍ، اصفح الصفح الذي لا يكون مضراً ولا مخلاً بالهيئة النظامية، ولذلك قيّده سبحانه بالصفح الجميل، ولم يكن مطلقاً، كما في الآية السابقة وإنما تظهر فائدة التقييد إذا حملنا الآية على المعنى الثاني؟

---

(١) المائدة: ١٣.

(٢) فاطر: ٨.

(٣) الحجر: ٨٥.

وقال سبحانه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً﴾.[١]

أي أفنضرب تذكيرنا إياكم بما كان في القرون الخالية من العقوبة بأنواع البلاء من المسخ والخسف والطوفان والغرق والصيحة والهدم، أفنضرب الذكر عنكم صفحاً أي إعراضاً.

والألف في أفنضرب هي همزة الاستفهام على نحو التوبيخ والإنكار عليهم لما هم عليه من الإصرار على الطغيان بعد قيام الحجة والبيان والتذكير والإنذار والوعيد، فجاء سبحانه بلفظة الصفح ليبين لهم فتح باب الإمهال والتجاوز في دار الدنيا، وتأخير الانتقام والعذاب، لأنّ الحكمة الربانية كما اقتضت سرعة الانتقام بأنواع العذاب في دار الدنيا ممن ضلّ وأضل ولم يهتدِ سواء الطريق في الأمم السابقة، كما نطق به القرآن وسطّره التاريخ، فكذلك اقتضت الحكمة الربانية الصفح والعفو والإمهال والتجاوز في دار الدنيا، بعد أن بعث الله خاتم الأنبياء محمّداً ﷺ رحمة للعالمين.

وهذا الإمهال والصفح من أسرار صاحب الدعوة الإسلاميّة، ولذلك قال سبحانه:

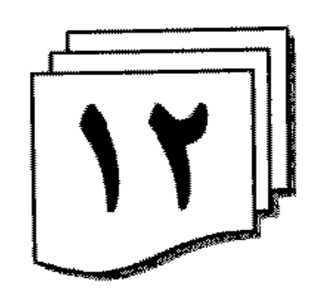
﴿إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصارُ﴾،[٢] أي ليوم الحشر والنشر، نسأله سبحانه اللطف والعفو والتجاوز في الدارين إنه أرحم الراحمين. انتهى.

* * *

---

(١) الزخرف: ٥.

(٢) إبراهيم: ٤٢.



قوله عليه السلام:

أعْجَزُ النَّاس مَنْ عَجَزَ عَن اكْتِسَابِ الإخْوَانِ وَ أعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ.

(نهج البلاغة ٤: ٤)

[العجز الاجتماعي والأخلاقي]

قال ابن أبي الحديد:

في الحديث المرفوع: أن النبي ﷺ بكى لما قُتل جعفر بمؤتة، وقال: «المرء كثير بأخيه».

وقال جعفر بن محمّد عليه السلام: لكلّ شيء حيلة وحيلة الرجل أودّاؤه.

وأنشد ابن الأعرابي:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ... ولكن إخوان الصفاء الذخائر

وكان أبو أيّوب السجستاني يقول: إذا بلغني موت أخ لي فكأنما سقط عضو مني، وكان يقال: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء يحتاج إليه عند المرض، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً.

وكان يقال: صاحبك رقعة في قميصك فانظر بما ترقّع قميصك.

وكان يونس بن عبيد يقول: إثنان ما في الأرض أقلّ منهما، ولا يزدادان إلاّ قلة: درهم يوضع في حق، وأخ يسكن إليه في الله.

وقال الشاعر:

أخاك أخاك إنّ من لا أخاً له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازي بغير جناح

وقال آخر:

ولن تنفكَّ تُحسَد أو تُعادى فأكثِر ما استطعت من الصديق
وبغضنا التقي أقل ضراً وأسلم من مودة ذي الفسوق

وأوصى بعضهم ابنه فقال: يا بني إذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرجال، فاصحب من إذا صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإن عرضت لك مؤونة أعانك، وإن قلت صدّق قولك، وإن صلت شدّ صولتك، وإن مددت يدك لأمر مدها، وإن بدت عنك عورة سدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن سألته أعطاك، وإن سكتَّ إبتداك، وإن نزلتْ بك ملمّة واساك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختار عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق.

ومن الشعر المنسوب إلى عليّ عليه السلام:

إنّ أخاك الحق من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

ومن الشعر المنسوب إليه عليه السلام أيضاً:

أخوك الذي إن أجرضتك ملمة من الدهر لم يبرح لها الدهر واجما
وليس أخوك بالذي إن تشعّبت عليك أمور ظلّ يلحاك لائما

وقال بعض الحكماء: ينبغي للإنسان أن يوكل بنفسه كالئين أحدهما يكلأه من أمامه، والآخر من ورائه: وهما عقله الصحيح، وأخوه النصيح، فإن عقله وإن صح فلن يبصره من عيبه إلاّ بمقدار ما يرى الرجل بوجهه في المرآة ويخفي عليه ما خلفه، وأما أخوه النصيح فيبصره ما خلفه وما أمامه أيضاً.

وكتب ظريف إلى صديق له: انني غير محمود على الانقياد إليك؛ لأني صادقتك من جوهر نفسي، والنفس يتبع بعضها بعضاً.

وفي الحديث المرفوع: «إذا أحبّ أحدكم أخاه فليعلمه».

قال الأحنف:

خير الإخوان من إذا استغنيت عنه لم يزرك وداً، وإن احتجت إليه لم ينقصك.

وقال أعشى باهلة يرثي المنتشر بن وهب:

أما سلكت سبيلاً كنت سالكها ... واذهب فلا يعبدنْكَ اللهُ منتشرُ

من ليس في خيره شرّ ينكده ... على الصديق ولا في صفوه كدرُ

وقال آخر يرثي صديقاً له:

أخٌ طالما سرّه ذكره ... وأصبحت أشجي لدى ذكرهِ

وقد كنت أغدو إلى قصره ... فأصبحت أغدو إلى قبرهِ

وكنت أراني غنياً به ... عن الناس لو مدّ في عمرهِ

إذا جئته طالباً حاجة ... فأمري يجوز على أمرهِ

رأى بعض الحكماء مصطحبين لا يفترقان فسأل عنهما فقيل: صديقان، قال: فما بال أحدهما غنياً والآخر فقيراً.[١]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

الاخوان جمع أخو، كحزب وحزبان، وأراد عليه السلام الأصدقاء

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٢ - ١١٤.

الصادقين، وفي الكلمة حثّ على مكارم الأخلاق، لأنّ الإخوان لا يكتسبون إلاّ بها، وإنما جعل العاجز عن تحصيلهم أعجز الناس؛ لأن ذلك لا يحتاج إلى إتعاب قوة بدنية ولا إعمال فكرة عقلية، وإنما يفتقر إلى كرم الأخلاق وحسن المعاشرة والملاقاة بالبشر والطلاقة، وهي أمور طبيعية في أكثر الناس، ومن أهون الأشياء عليهم، فكان العاجز عنها أعجز الناس، وإنما جعل من ظفر به منهم ثمّ ضيعه أعجز، لأن المكتسب لا بدّ له من كلفة ما في اكتسابهم، وأما الظافر فهو غير محتاج إلى ذلك القدر من الكلفة، فكان سبب حفظ الإخوان أسهل من سبب تحصيلهم، فكان المضيع لحفظهم أعجز عن اكتسابهم، لعجزه عن حفظ الأمر الأسهل.

فإن قلت: فقد قال إن المضيّع لهم أعجز من أعجز الناس، فلا يكون أعجز الناس أعجز، هذا خلف، قلت: لفظ الناس لفظ مطلق وإنما يلزم الخلف أن لو كان للعموم.[١]

* * *

وجاء في (الدرة النجفية) في شرح نهج البلاغة:

الاخوان جمع أخ، كحزب وحزبان، وأراد عليه السلام الأصدقاء الصادقين، وفي الكلمة حث على مكارم الأخلاق، ولأن الاخوان لا يُكتسبون إلاّ بها، قال جعفر بن محمّد عليهما السلام لكل شيء حِلية وحلية الرجل أوداؤه.

وأنشد ابن الأعرابي:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ... ولكن أخوان الصفاء الذخائر

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٧.

أقول: لعمري، الاخوان والأصدقاء في زماننا هذا كبريت أحمر، فهل رأيت الكبريت الأحمر.

* * *

وقال في(منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[١]

يشير الحديث إلى أن الإنسان كما يتوجه إلى المال ويصرف عمره في تحصيله، فلا بدّ من توجهه إلى أمر آخر، وهو صرف الوقت في تحصيل الاخوان والأصدقاء، وكما أن الوصول إلى الأموال عادة لا يكون على وجه الصدفة والاختيار، ولا يعتمد الناس في تحصيل المال عليها، كذلك الأصدقاء والاخوان لا يجتمعون حول الإنسان على وجه التصادف، فلا بدّ من صرف الهمة وبذل الثروة في تحصيلهم، فإنه أهون من تحصيل الأموال، حيث إنّ حسن المعاشرة وبذل المعاونة مما يكتسب به الأصدقاء ولا مؤونة فيه، وربّما يحصل الصديق بمسابقة السلام والتحية وبالزيارة والعيادة، وسائر الروابط الحسنة الاجتماعية المعمولة بين الناس، فمن ترك كل ذلك في سبيل تحصيل الأصدقاء والاخوان فهو من أعجز الناس، وكما أن المال بعد تحصيله محتاج إلى الحفظ والتنمية حتّى يبقى، كذلك الصداقة والأخوّة تحتاج إلى التودّد وحفظ الروابط حتّى تبقى، فمن اكتسب صديقاً ثمّ تركه وضيّعه كان أعجز من الأعجز.

* * *

---

(١) ج ٢١: ٢٧.

وقال الشيخ ابن مغنية في(في ظلال نهج البلاغة):[1]

قالوا في تعريف الصديق وصفاته وأكثروا، والوصف الداخل في ماهيته أو اللازم لها هو أن الصديق حقاً وواقعاً يرفض الشائعات عن صديقه حتّى ولو كان على جهل بمصدرها، وهذا الصديق ثروة وعدّة في الدين والدنيا، قال تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.[2]

وقيل لحكيم قديم: ما أفضل ما يقتنيه الإنسان؟ فقال: الصديق المخلص.

وإذا كان الاخوان أفضل قوة وثروة يقتنيها الإنسان، فمن العجز أن تعيش بلا أصدقاء، وإن ضيّعت واحداً منهم بعد الظفر به فأنت أخسر الفاشلين، كما قال الإمام عليه السلام.

قال بعض الشارحين: للصداقة طرق وأسباب، وعدّ منها الملاقاة بالبشر والطلاقة، والحق أنّ السبب الوحيد للصداقة هو التوافق في الطباع، حتّى الطيور على أشكالها تقع، واشتهر عن نبي الرحمة صلى الله عليه وآله: «الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها أئتلف، وما تناكر منها اختلف».

وبعد، فلا متعة أعذب وأطيب من حديث تنفض به عن قلبك غبار الآلام والأشجان، أمام صديق يصغي إليك بروح زاكية تطمئن إليها، وعاطفة دافئة تلجأ إليها. ومن فقد متعة الإحساس بالصداقة فقد حرمه الله أجمل ما في الحياة، وإن كان بيته مترفاً ومزخرفاً.

أقول:

---

(١) ج ٤: ٢٢٤.

(٢) الشعراء: ١٠٠ و١٠١.

ما هو الاخاء؟

تتردد لفظة الاخاء على ملايين الألسن عند كل مطلع شمس، ولكنك لا ترى بين هذه الملايين إلاّ لساناً أو لسانين يدرك معناها الذي وضعت له، ويعطيها حقها اللازم بها.

الإخاء غاية من غايات النفوس الطيبة، وأمل من آمال العقول الناضجة، يُسعى إليه بكل طريق، ويُتوسل على نيله بكل وسيلة، حتّى إذا ما سمقت غصونه، وأينع ثمره اهتزت له النفوس طرباً، واطمأنت إليه القلوب ارتياحاً.

ولقد عرف الاخاء كثير ممن تقدم، فأجاد بعضهم، وفشل بعض.

ولا أريد أن أجيء على ما قالوه بهذا الصدد، إذ أنّ ذلك يحدو بنا إلى الاسهاب، ونحن لا نودّ ذلك، وإنما نريد أن نصف الاخاء وكل فصل من فصوله بطريقة موجزة إلاّ ما تدعو إليه الحاجة وترمي إليه الضرورة.

الاخاء هو امتزاج الروحين وتلاؤم القلبين، واتفاق العواطف، وخلوص النية في السر والعلانية، وما الحبّ الشريف في جميع أدواره إلاّ الاخاء الصحيح.

ولست أرى شيئاً من أمورالدنيا أبعد مثلاً وأعظم شأناً، وأقرب للنفوس، وأطيب للقلوب، وأدعى إلى السرور، وأعذب ارتشافاً، وأغلى ثمناً، وأنصع جوهراً، وأكرم حسناً من الإخاء.

ولقد شرّق قوم وغرّب قوم في طلب الاخاء الصحيح، والاسترواح بنسيمه والتطيب بخمائله فلم يظفر به إلاّ نفر قليل منهم فأصبحوا مضرباً للأمثال، ومطمحاً للأنظار، وقدوة حسنة لمن أراد أن يقتدي بهم.

وقد يدرك بعض أهل زماننا الاخاء وجماله إدراكاً مغلوطاً ويتمنى هؤلاء ــ أي الذين يدركون الاخاء مغلوطاً ــ لو وجدوا الأخ الصادق حتّى إذا ما تحققت رغباتهم ووجدوا بغيتهم تناسوا كل ما كانوا يرددونه في كل نادٍ ومجلس.

وما أكثر الذين يضربون المثل باخاء ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب، ووفائهما، وهم لا يملكون من الوفاء فتيلاً وما هؤلاء إلاّ أناس تجردوا عن الشرف، ورغبوا في أن يجدوه عند غيرهم، أو بعبارة أوضح من هذه، انّهم كشفوا عن لؤم وختل كان مستتراً في ضمائرهم الخبيثة، فلم تستطع ألسنتهم إلاّ اظهاره، وهم عن ذلك غافلون ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[1].

وليست هذه الغرائز وليدة العصر الجديد، وإنما وجدت حيث وجد الإنسان، وما أكثر الأمثال على ذلك ولا نريد أن نجيء عليها كلها وإنما نكتفي بمثل واحد:

كان عمر بن مسعدة رجلاً من رجالات الأدب العربي، وقد تكلّم عن الاخاء كلاماً طويلاً وتفنن في وصفه ووصف واجباته وحقوقه حتّى ليكاد الإنسان الذي يقرأ عباراته الرقيقة في الاخاء يجزم بأنه الرجل الوحيد الذي يقدّر الاخاء حق قدره.

وجملة القول أنّ الاخاء من مستلزمات البشرية ويجدر بالإنسان الكامل أن يتطلبه ويتوصل إليه بجميع الوسائل بعد أن يتجرد من كل ما هو مكدّر لمناهله ومصادره، ومتى ما وجده، ووجد نفسه متهيئة إلى ذلك فليلق عصا الترحال ويصدف عن جشع الأيام، ولا يحدّث نفسه بالسأم والانتقال، فإن ذلك منقصة الرجال.

---

(١) المائدة: ١٤.

ثم إنه إن ترك صاحبه الأوّل لا يتمكن من الاطمئنان إلى غيره، ولو ابتعدت الأيام. ولقد نبّه أبو تمام إلى هذا الأمر بقوله:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّل
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأوّل منزل

لماذا نؤاخي؟

انتفض البشر على وجه الغبراء كأحد مخلوقات الله، إن جاع طلب موضع الأكل حتّى يصيبه، وإن ظمأ قصد المناهل حتّى يعثر بها فيرتوي منها، ولكن الله سبحانه لم يشأ أن يترك البشر تائهاً في خضم الحياة لا يعرف شيئاً عنها، يركب ظلمائها ويخبط عشواءها، لا يهدأ فيفكّر، أو يترك للعقل مجالاً يستطيع فيه الجولان، فيتدبر في خلق السماوات والأرض وما بينهما من مخلوقات الله المنبثة هنا وهناك.

أجل لم يشأ الله ذاك، فركّب في الإنسان غريزة التآلف والتعاون، وحين نمت شجرتها اغتنم العقل هذه الفرصة فبدد ظلام التوحش بنور الإيناس، ومزّق الجهل بمعرفته، وسار بالإنسان سيراً حثيثاً من هوة الغفلة إلى قمة اليقظة، لا يكلّ ولا يملّ، وحين تنسّم الإنسان رياح النصر في ظل العقل والتآلف تمسّك بهما، واهتدى بهديهما حتّى نطق لسانه: (الإنسان مدني بالطبع)، ثمّ اتخذ من هذه الكلمة سلاحاً يحارب به كل ما خالفها، ولم يزل يدأب فوق المجموعة الأرضية، حتّى تم له ما أراد، وأصبح يتمتع بلذات الحياة، وكلما استنفد لذّة فكّر في إيجاد أخرى تطيباً لنفسه وإرضاء لشهوته، وأخذ يركض وراء ما يوثّق عُرى المدنية والحضارة ويكسوها من فسيح عقله برود الزينة وينفحها من روائح

الطيب، حتّى لا يجد لذلك سبيلاً فقد اتجه إلى البحار المتلاطمة، فخاض عبابها آمناً مطمئناً، ونظر إلى السماء فدوّم فيها كما يدوم الطير، وأخذ يتكلم من في المغرب يسمعه من في المشرق، وهو الآن في طريق اختراعات جديدة واكتشافات غريبة.

هكذا استطاع البشر أن يمتاز عن بقية مخلوقات الله وأن يفارقها من حيث وجدت إلى حيث أوجد، بما آتاه الله من حبّ التآلف والتآزر والميل إلى شكله، ولولا الهوى الذي يخالف العقل في كل ما يروم وما يبتغي، لرأينا البشر الآن يرفل في حلل الطمأنينة لا يخاف دركاً ولا يخشى حادثاً، ولكن الهوى ـ أعاذنا الله من آفاته ـ وقف على قدميه حين حبى العقل على يديه، وتسلّح، والعقل أعزل، فصار يدفع بالبشر إلى ما يتعبه، ويحدو به إلى ما يريده، ويسوقه إلى ما يؤلمه، ولولا القوة المعنوية التي تتمشى في مناكب العقل لما شهدت الأرض ما تشهده اليوم.

ورغم كل ذلك لا نستطيع أن نسلّم بأنّ العقل استطاع أن يفعل ما يريد، أو أن يحصل على ما تصبو إليه غريزته.

ومن هذا يتبين لنا أنّ الإنسان لم يجد الحضارة والمدنية، والرفاه إلاّ بفضل التآلف، كما يتبين لنا إنّنا بغير التآلف لا نتميّز عن الحيوانات الصامتة، وإذا كان الأمر على مثل ذلك ـ ونحن به مؤمنون ـ فما أجدرنا أن نطلب الإخاء، وأن نعمل على إصلاح ما يفسده، كالطمع والغدر والخيانة والكذب، والتلون والمراوغة، والغش، والتذبذب وما إلى ذلك من الخِلال التي تعمل على هدم نظام المجتمع وتقويض صرح المدنية، وأن نحارب كل من نجده يخالف قواعد الاخاء الصحيح، إذا ما رأيناه لا يرضخ للرشد ولا يزداد إلاّ غياً كلما طلبنا هداه.

أخو الود وأخو الرحم:

يجمع الرحم أخوين، فلم يسقطا على الأرض إلاّ ويتنازعان، ولم ينشآ إلاّ ويفترقان ويذهب كل منهما يفتش عن أخ، ويبحث عن خليل، فإذا أصابا بُغيتيهما وظفرا بما يصبوان إليه، أنسا بالحياة وتنسما ريحها الشذي وبهجتها الجذابة، وتعلّما الكرم والوفاء، وحفظ الأسرار والحميّة، وكل فعل نزيه ومكرمة سامية، وخلق كريم، وسجية طيبة وعمل مبرور.

هذا أمر يدعو إلى العجب والتفكير في كثير من الأحيان، وعندي أنّه لا عجب فيه، ولكن فيه أمراً غامضاً سرعان ما ينكشف لمن يتروّى ويتدبّر.

لكل إنسان ميول وسجايا تختلف كل الاختلاف عن غيره، ولا نستطيع أن نجد أخوين حملا سجايا متفقة وأخلاقاً واحدة، وإذا ما عرفنا هذا أُرغمنا على التسليم بأنّ الإنسان يميل إلى من يشابه أخلاقه وعاداته، ولا عبرة بالفلسفة القديمة القائلة: (إن الأرواح تتعارف قبل أن تحلّ الأجساد) فهذا أمر لا يكاد يصدقه العقل، وإنما الذي نستطيع أن نقرّ به ونعترف بحقيقته هو ما قدمناه ـ أي أن الأخلاق هي العامل الوحيد في الاتفاق ـ.

ثمّ أن هناك أموراً غير هذه تدعو الإنسان إلى ترك أخيه ومؤاخاة غيره إخاءً ودياً يجد فيه لذة ومتعة، وحياة طيبة لا يظفر بها إن بقي ملازماً أخا رحمه، وراضع ثديه، وهذه الأمور هي:

١ ـ إن الإنسان يحتاج إلى من يبيحه أسراره، ويفشي إليه ما يتحدّث به قلبه ويفضي له بخلجات صدره، والأسرار التي تخص المرء لا يسعه أن يظهر عليها أخاه في الرحم، إذ ربما لا يوافقه، بل ربما يوبّخه عليها.

٢ ـ إما أن يكون أصغر من أخيه أو أكبر، فإن كان أصغر منه غلب عليه الاحترام والمجاملة، وهو محتاج إلى نبذ المجاملة وارتداء ثوب المؤانسة، ومن الحق أن نعترف أن المجاملة قيد ثقيل وغلّ مملّ لا يقوى كل إنسان على حمله والصبر عليه، وإذا كان أكبر منه غلب عليه احتقار أخيه. وعدم الثقة بآرائه وعقله، ولا يرتاح إلى مشورته، وإذا ما حصل هذا تعذر على الإنسان أن يرتبط مع أخيه برابط الود، وسهل عليه أن يذهب مفتشاً عن خليل يرتاح إليه ضميره، وتأنس به روحه، ويهشّ إلى أخلاقه، فيضحي له بكل غالٍ ورخيص، ويقاسمه همومه.

ولقد سئل بزرجمهر عمّن يحب، أخاه أم صديقه؟ فقال: أخي إذا كان صديقي.

وفي هذا ما يدلّ على أن الصديق أكثر حباً وأقرب مودة، وأحكم إخاءً وأشفى للنفس، وفيه انّ الإنسان يميل إلى شبيه أخلاقه قبل أن يميل إلى قريبه. فقول بزرجمهر: (أخي إذا كان صديقي) إشارة بليغة إلى أن القربى لا يتمكن حبّها في القلب إن لم تكن مودة، والمودة لا تزكو إلاّ بالمشاكلة والموافقة، وما أحسن ما قال أبو تمام:

وقلت أخي قالوا أخ من قرابة فقلت لهم إنّ الشكول أقاربُ

وبالتالي وبعد كل شيء نقتنع بانّ الخليل منيةُ كل إنسان، وإن كل إنسان محتاج إليه مهما كثر إخوانه من الرحم، وتزايد أقرباؤه وأعوانه.

* * *

وفي المجلد الرابع من الخلق الكامل (ص ٢٢٠) قال:

وقال بعض الفلاسفة: خليق بالعاقل ألا يغفل عن مؤاخاة الإخوان،

وإعداده إياهم للنوائب والحدثان، وألا يعدّ في الأوداء إخاء من لم يواته في الضراء ولم يشاركه في السرّاء، وقد يكون أخو الاخاء خيراً من الأخ في النسب.

ومن أتم حفاظ الأخوة تفقد الرجل أمور من يودّه، والود الصحيح هو الذي لا يميل إلى نفع، ولا يفسده منع، والمودة أمن، كما أن البغضاء خوف، والعاقل لا يؤاخي إلاّ من خالفه على الهوى، وأعانه على الرأي، ووافق سرّه علانيته، وليس الغرض من المؤاخاة الاجتماع والمواكلة والمشاربة، فالسراق يتجمعون ويشتركون في المأكل والمشرب، ولا يزدادون بذلك مودة، ولكن من أسباب المؤاخاة التي يجب على المرء لزومها.. مشي القصد، وخفض الصوت وقلة الإعجاب، ولزوم التواضع، وترك الخلاف، وألا يكثر على إخوانه المؤونات فيبرمهم، وألاّ يمنعهم شيئاً يحتاجون إليه ليجبروا به مصائبهم أو يفرّجوا به كربتهم.

والعاقل لا يؤاخي لئيماً؛ لأنّ اللئيم كالحية الصمّاء ليس عندها إلاّ اللدغ والسمّ، ولا يصل اللئيم لأنه لا يؤاخي إلاّ عن رغبة أو رهبة، والكريم يودّ الكريم على لقية واحدة، ولو لم يلتقيا بعدها أبداً، والحذر ممن لم يستصغر الجفوة اليسيرة؛ لأن من استصغر الصغير يؤشك أن يجمع إليه صغيراً، فإذا الصغير كبير.

قال أبو حاتم: اللبيب لا يؤاخي إلاّ ذا فضل في الرأي والدين والعلم والأخلاق الحسنة، وذا عقل نشأ مع الصالحين، ومن أضاع تعهد الود من إخوانه حرم ثمرة إخائهم، وآيس الإخوان من نفسه، ومن ترك الإخوان مخافة تعاهد الود أن يوشك أن يبقى بغير أخ، وليس من السرور شيء يعدل صحبة الإخوان، ولا غمّ يعدل غم فقدهم.

قال داود لابنه سليمان عليهما السلام: يا بني لا تستقل عدواً واحداً، ولا تستكثر ألف صديق، ولا تستبدل بأخ قديم أخاً مستحدثاً ما استقام لك.

وقال شبيب بن شَبة: إخوان الصفاء خير من مكاسب الدنيا، زينة في الرخاء: وعدّة في البلاء، ومعونة على الأعداء.

وقالوا: خير الاخوان من أقبل عليك إذا أدبر الزمان عنك.

وقال الشاعر:

فإن أولى الموالي أن تواليه ... عند السرور لمن واساك في الحزن

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

وأنشد محمّد يزيد المبرد لعبد الصمد بن المعذّل في إبراهيم بن الحسن:

يا من فدت نفسه نفسي ومن جعلت ... له وقاء لما يخشى وأخشاهُ

أبلغ أخاك وإن شطّ المزار به ... أني وإن كنت لا ألقاه ألقاهُ

وأنّ طرفي موصول برؤيته ... وإن تباعد عن مثواي مثواهُ

الله يعلم أني لست أذكره ... وكيف يذكره من ليس ينساهُ

* * *

ومما اخترته من كتاب الأخلاق في حديث واحد (مجلد ١ ص ٣٠٧):

لكلمة أخ معانٍ كثيرة:

منها: معنى الصاحب، ومن ذلك قول الشاعر:

فإن تكُ فاتتك السماء فإنني ... بأرفع ما حولي من الأرض أطولا

أخا الحرب لبّاساً إليها جلالها ... وليس بولاّج الخوالف أعقلا

وهما من أبيات فلاح بن حرن السعدي، المكنى بأبي خناشير، يصف فيهما نفسه بالشجاعة وممارسته للحروب، والمراد بالأخ هنا المصاحب، لبّاساً للمبالغة، أي لباس الحرب، وليس بولاج الخوالف أي الذي يضطرب في الحرب، أعقلا، أي ليس من الذين تصطك ركبتاه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ هُوداً﴾[١] أي: واحد منهم، يا أخا العرب: أي واحد من العرب.

ومنها: يراد به المشاكلة والمشابهة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ﴾[٢] أي المُشاكل لهم، لأنّ الأخوة إذا كانت في غير الولادة كانت المشاكلة والاجتماع في الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾[٣] أي من التي تشبهها.

ومنها: الصديق، لي أخوان: أي أصدقاء.

قال بعضهم: إخوان الصفا خير من مكاسب الدنيا، زينة في الرخاء، وعدة في البلاء، ومعونة على الأعداء.

حدّث أبو حامد العلوي وكان من الحجاز، سنة سبعين وثلثمائة بمدينة السلام، قال: رمي أعرابي من بني هلال عن حيّه بأطراف الشام، فقيل له: من خلفت وراءك؟ فقال: خلّفت والداً ووالدة، وأختاً وابن عم، وبنت عم، وعشيقاً وصديقاً، قيل له: فكيف حنينك إليهم؟ قال: أشد حنين، قيل: فصفه لنا، قال: أما حنيني إلى والدي فللتعزز به، فإن الوالد عضد وركن يعاذ به ويؤوى إليه.

---

(١) هود: ٥٠.

(٢) الإسراء: ٢٧.

(٣) الزخرف: ٤٨.

وأما نزاعي إلى الوالدة فللشفقة المعهودة منها، ولدعائها الذي لا يعرج إلى الله مثله.

وأما شوقي إلى الأخت؛ فللصيانة لها والتروح إليها.

وأما شوقي إلى ابن العم فللمكاتفة والانتصار به.

وأما ابنة العم فلأنها لحم على وضم، أتمنّى أن أشبل عليها بالرقة، وأصلها ببعض من يكون لها كفواً ويكون لنا أيضاً إلفاً.

وأما صبابتي بالعشيق فذلك شيء أجده بالفطرة والارتياح الذي قلّما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي المجون جواد راكض.

وأما الصديق فوجدي به فوق كل ما أنعته لك، لأني أباثّه بما أجلّ أبي عنه، وأجبأ أمي فيه، وأطويه عن أختي خجلاً منها، وأداجي ابن عمّي عليه خوفاً من حسد يفقأ ما بيني وبينه، وكل هؤلاء مع شرف موقعهم مني، وانتسابهم إليّ، دون الصديق، أرى الدنيا بعينه إذا رنوت، وأجد فاقتي عنده إذا دنوت، وإذا عززت له ذلّ لي، وإذا ذللت له عزّ لي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة، وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة، لا يتوارى عني إلاّ حافظاً للغيب، ولا يتراءى لي إلاّ ساتراً للعيب.

قيل: فهل نعي إليك خبره منذ بان عنك أثره؟ قال: نعم، لحقني بعض فتيان الحي أمس، فسألته عن قرابتي وعشيرتي، فنعت لي كلاً وأطاب أخبارهم، حتّى إذا ما سألته عن الصديق، قال: ما له هجيري سواك، إن عبّر فبأسمك يستقل، فإن تنفس فبذكرك يقطع، وإن أوى إلى ندوة الحي فبلسانك ينشر، وجودك يذكر، لا يمرّ بمعهد لك إلاّ حيّاه، ولا بمكان حلّه معك إلاّ انتواه، فقلت له: كفّ قليلاً فقد أجّجت في صدري ناراً كانت خافية، قال أبو حامد: فضرب والله كبد راحلته إلى حيّه.

لا تكون الصداقة والخلة إلاّ في اربع خصال:

الأولى: عقل وافر يهديك إلى طريق الحق، ويرشدك إلى الصواب، ويريد لك الخير بخلاف الأحمق، لأن الحمق من الجهل، قال بعض البلغاء: من الجهل صحبة ذوي الجهل.

الثانية: الدين فإنه يدل صاحبه إلى الخير، بخلاف المنافق فإنه عدو لنفسه، فكيف يرجى منه المودّة.

قال بعض الحكماء: اصطفِ من الإخوان ذا الدين والحسب، والرأي والأدب فإنه ردء لك عند حاجتك، ويدلّك عند نائبتك، وأنس عند وحشتك، وزين عند عافيتك، قال حسان بن ثابت:

وكل أخ يقول أنا وفيٌّ ... ولكن ليس يفعل ما يقولُ

سوى خلّ له حسب ودين ... فذاك لما يقول هو الفعولُ

الثالثة: أن يكون محمود الأخلاق، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، فإن من لا أخلاق له لا يؤمن شرّه، ولا يرجى خيره.

الرابعة: الرغبة في المؤاخاة، فإذا كملت هذه الصفات حسنت المؤاخاة، لأن صاحب العقل والدين والأخلاق والرغبة تحصل الثقة به.

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبته ... فالطبع مكتسب من كل مصحوبِ

ومن واجب الإخاء المواساة بينهما في الأخذ والعطاء، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، إذا جاع أطعمه، وإذا عرى كساه، ويغفر زلته، ويستر عيوبه.

ومن المؤاساة قال الواقدي: كان لي صديقان أحدهما هاشمي، وكنا كنفس واحدة فنالتني ضيقة شديدة وحضر العيد، فقالت إمرأتي:

أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم، لأنهم يرون صبيان الجيران وقد تزينوا في عيدهم، وأصلحوا ثيابهم، وهم على هذه الحال من الثياب الرثة، فلو احتلت بشيء تصرفه في كسوتهم.

فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة علي فوجّه إلي كيساً مختوماً ذكر أنّ فيه ألف درهم، فما استقر قراري حتّى كتب إليَّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي، فوجّهت إليه الكيس بحاله، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلي مستحياً من امرأتي، فلما دخلت عليها استحسنت ما كان مني ولم تعنّفني عليه، فبينما أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته، فقال: أصدقني عمّا فعلته فيما وجهت إليك، فعرفته الخبر على وجهه، فقال: إنك وجهت إليَّ وما أملك على الأرض إلاّ ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المؤاساة، فوجه إليَّ بهذا الكيس، فتواسينا الألف ثلاثاً، ثمّ نمى الخبر إلى المأمون فدعاني، فشرحت له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار، لكل واحد ألفا دينار، وللمرأة ألف دينار.

وقال بعضهم: الأصدقاء والأخوان، فإنهم العدد والأعوان.

وقيل: إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه فيما يدّعيه من المودة، وسميّ العدو عدّواً لعدوه عليك إذا ظفر بك، وينسب لأمير المؤمنين عليه السلام من غرر الحكم:

«من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا صديق له لا ذخر له».

ومن منثور الحكم: الرجل بلا أخ، شمال بلا يمين.

ومنها: من لا يرغب بالاخوان، بُلي بالعداوة والخذلان.

ومنها: اتخاذ الاخوان، مسلاّت للأحزان.

وقال ابن حجة:

ومــوجـــب الصـــداقة المســـاعدة　　　ومقتضـــى المـــودة المعاضـــدة
لاســيّما فـــي النـــوب الشـــدائد　　　والمحـــن العظيمـــة الأوابـــد
وإن مـــن عاشـــر قومـــاً يومـــا　　　ينصـــرهم ولا يخـــاف لومـــا
وإنمـــا الرجـــال بـــالإخوان　　　كاليـــد بالســـاعد والبنـــان

ومنه قولهم: الصديق كاليد توصل باليد، والعين تستعين بالعين.

وقالوا: الصديق ثاني النفس، وثالث العين.

وقالوا: الأخ الصالح خيرٌ لك من نفسك، لأنّ النفس أمّارة بالسوء، والأخ الصالح لا يأمرك إلاّ بالخير.

الرفق بالأخ:

أما الرفق بالأخ: إرشاده إذا كان خارجاً عن الطريق، ونصيحته عند طلب النصيحة، ويحب دوام وجوده، ويعزّ عليه فقده، وحبه لذاته لا لحظّ يناله منه، وإن كان الإنسان عبد الإحسان، كما قال بعضهم:

أحسِن إلى الناس تستعبد قلوبهم　　　فطالما استعبد الإنسان إحسانٌ

وقد جبلت النفوس على حبّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللّهم لا تجعل لفاجر عليَّ يداً فيحبّه قلبي».

فينبغي أن تكون محبته لأخيه ذاتية، ويكون له عوناً في المهمات والشدائد، وتحمّل المشاق لأنه قوّته وسلاحه، وبه كمال وجود نفسه، إذ بوجوده يرى نفسه عزيزاً، لأنّ الإنسان مركب من وجودات متعددة، فإذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض أجزاء وجوده.

[تنوع الوجود في الإنسان]:

الوجود الأوّل: هو وجود أخيه لأنه قوته وسلاحه.

قال عليّ بن الحسين عليه السلام:

«وأما حقّ أخيك، فأن تعلم أنه يدك وعزّك وقوّتك، فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله، ولا عدّة للظلم لخلق الله، ولا تدع نصرته على عدوه، والنصيحة له، فإن أطاع الله، وإلا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوة إلاّ بالله».

الوجود الثاني: وجود الولد، لأنه الخلف من بعده.

الوجود الثالث: وجود العشيرة، لأنها الجناح المكمل للإنسان، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في جملة ما أوصى به ولده الحسن عليه السلام: «وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول».

وقال بعضهم:

أخوك أخوك من تنأى وتدنو ... مودته وإن دعي استجابا

إذا حاربت حارب من تعادي ... وزاد غناؤه عنك اقترابا

فنعمة الأقارب والعشيرة نفعها ظاهر في الدنيا والآخرة، وهي وسيلة إلى المهمات، فإنه مهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل العين والأيدي، فيتيسّر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد لطال شغله، وكل ما يفرغ قلبك من ضروريات الدنيا فهو معين لك على الدين.

ومن لوازم الرفق عطف الكبير على الأخ الصغير بالرفق والمودة والرحمة عليه، وعلى الأخ الصغير احترام الأخ الكبير لأنه بمنزلة أبيه، وعلى كلّ منهما الإخلاص في المودة، والمساعدة عند الشدة في كل المهمات حتّى في حالة الإعسار والغنى.

وفي مجموعة ورام[١] من بعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة، وعند صدوده على اللطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدّته على اللين، وعند جرمه على العذر، حتّى كأنك له عبد، وكأنه ذو نعمة عليك، وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه، أو أن تفعله في غير أهله».

ومن الرفق بالإخوان التفقد لهم، ومن التفقد للإخوان، قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إياك أن تهمل حق أخيك، إتكالاً على ما بينك وبينه، فليس لك بأخ متى أضعت حقه».

ومثله ما قال عليه السلام في خبر آخر: «إياك أن تغفل عن حق أخيك إتكالاً على واجب حقك عليه، فإن لأخيك عليك من الحق مثل الذي لك عليه».

ويقال: إضاعة الحقوق داعية العقوق؛ لأنه بالإهمال ينقطع حبل المودة، ولا يختص حسن التفقد بالإخوان؛ بل هو مطّرد في كل ما يختص من الأهل والعيال، في كل أمر وفي كل لحظة وكلمة، وعند القيام والقعود، وعلى كل حال. انتهى.

* * *

[المودّة سبب القوة]:

ومما جاء في المجلد الأوّل من كتاب (المستطرف):[٢]

إعلم أن المودة والأخوة والزيارة سبب التآلف، والتآلف سبب القوة، والقوة سبب التقوى والتقوى حصن منيع وركن شديد، بها يُمنع

---

(١) ويعرف أيضاً بـ(نزهة الناظر) للشيخ ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥هـ).

(٢) ص ٢٦٤ - ٢٧٦.

الضيم وتُنال الرغائب وتُنجح المقاصد، وقد منّ الله تعالى على قوم وذكّرهم نعمته عليهم، بأن جمع قلوبهم على الصفاء، وردّها بعد الفرقة إلى الإلفة والإخاء، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[١] ووصف نعيم الجنّة وما أعدّ فيها لأوليائه من الكرامة إذ جعلهم إخواناً على سرر متقابلين.

وقد سنّ رسول الله ﷺ الإخاء وندب إليه، وآخى بين الصحابة وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم إذ يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٢] وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين»، وأنشد في ذلك:

وما المرء إلاّ بإخوانه ... كما يقبض الكفّ بالمعصم

ولا خير في الكف مقطوعة ... ولا خير في الساعد الأجذم

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء الاخوان، فإنهم معونة على حوادث الزمان، ونوائب الحدثان، وعون في السرّاء والضراء، ومن كلام عليّ عليه السلام:

عليك باخوان الصفاء فإنهم ... عماد إذا استنجدتهم وظهورُ

وإنّ قليلاً ألف خلٍّ وصاحب ... وإن عدوّاً واحداً لكثيرُ

وقال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب إن لم تكن مثله شانته، وقال عبد الله بن طاهر: المال غادٍ ورائح، والسلطان ظلّ زائل، والاخوان كنوز وافرة.

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) الشعراء: ١٠٠ و١٠١.

وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة، قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خبز الحنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الوطيء، والنظر إلى الحسن من كل شيء. قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال؟ قال: صدقت، وهي أولاهنّ. وقال سليمان بن عبد الملك: أكلت الطيّب ولبست الليّن، وركبت الفاره، وافتضضت العذراء، فلم يبق من لذاتي إلاّ صديق أطرح معه مؤونة التحفظ.

وأنشدوا في ذلك:

وما بقيت من اللذات إلاّ ... محادثة الرجال ذوي العقول

وقد كنّا نعدّهم قليلاً ... فقد صاروا أقل من القليل

وقال لبيد:

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالحُ

وقال آخر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالاً لزلّته عذرا

وقيل لابن السمّاك: أي الاخوان أحق ببقاء المودة؟ قال: الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملّك على القرب، ولا ينساك على البعد، إن دنوت منه دناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله، وأنشدوا في المعنى:

إنّ أخاك الصدق من يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعكْ

ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعكْ

وقال غيره:

ولـيس أخـي مـن ودّنـي بلسـانه ... ولكن أخي من ودّني وهو غائبُ

ومـن مالـه مـالي إذا كنـت معـدماً ... ومـالي لـه إن أعوزتـه النوائـبُ

وقال أبو تمام:

مـن لـي بإنسـان إذا أغضـبته ... وجهلـت كـان الحلـم ردَ جوابـهِ

وإذا صبوت إلى المدام شربت من ... أخلاقـه وسـكرت مـن آدابـهِ

وتـراه يصـغي للحـديث بطرفـه ... وبقلبـه ولعلـه أدرى بـهِ

وقيـل لخالـد بـن صـفوان: أيّ إخوانـك أحـب إليـك؟ قـال الـذي يسـد خلتي ويغفر زلتي، ويقبل عثرتي، وقيل: من لا يؤاخي إلاّ من لا عيب فيه قلّ صديقه، ومن لم يرضَ من صديقه إلاّ بايثاره على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه وكثر نصبه. قال الشاعر:

ومن لم يغمّض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتبُ

وقال آخر:

إذا كنـت فـي كـل الأمـور معاتبـاً ... صـديقك لـم تلـقَ الـذي لا تُعاتبهْ

وقالوا: إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه، أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله، ولا تصرم ودّه، ولكن داوِ كلمته واستر عورته، وأبقه وابرأ من عمله.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] فلم يأمره بقطعهم، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيء.

---

(١) الشعراء: ٢١٦.

وقال رسول الله ﷺ: «الأرواح أجناد مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف»، وقال ﷺ: «إن روحي المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم، وما رأى أحدهما صاحبه».

وفي ذلك قال بعضهم:

هويتكم بالسمع قبل لقائكم ... وسمع الفتى يهوى لعمري كطرفهِ

وخبّرت عنكم كل جود ورفعة ... فلما التقينا كنتم فوق وصفهِ

وقال آخر:

تبسم الثغر عن أوصافكم فغدا ... من طيب ذكركم نشراً فأحيانا

فمن هناك عشقناكم ولم نرَكم ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقالوا: اصحب من الأخوان من أولاك جمائل كثيرة، فكافأته بجميلة واحدة، فنسي جمائله وبقي شاكراً ذاكراً لجميلتك، يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل، وقال ابن عائشة: لقاء الخليل شفاء الغليل، وقال بعض الحكماء: إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهدك.

قال عبد الله بن طاهر:

خليليّ للبغضاء حال مبيّنة ... وللحب آثار تُرى ومعارفُ

فما تنكر العينان فالقلب منكر ... وما تعرف العينان فالقلب عارفُ

وقال آخر:

وكنت إذا الصديق أراد غيظي ... وشرّقني علي ظمأً بريق

غفرت ذنوبه وكظمت غيظي ... مخافة أن أعيش بغير صديق

وقال آخر:

وليس فتى الفتيان من جل همّهِ صبوح وإن أمسى ففضل غبوق

ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا لضرّ عدوٍ أو لنفع صديق

قال بعض الحكماء: ينبغي للعاقل أن يتخذ صديقاً ينبهه على عثرته وعيوبه، فإن الإنسان لا يرى عيب نفسه.

ما ناصحتك خبايا الودّ من رجل ما لم ينلْك بمكروه من العذلِ

محبتي فيك تأبى أن تطاوعني بأن أراك على شيء من الزلل

وأقل الأصدقاء حالة من إذا شكوت إليه سمع الشكوى وأصغى لها؛ لأن سماع الشكوى وبثّها فيه تخفيف عن الكروب، والنفس تتروح إليه، ولهذا قال الشاعر:

ولا بدّ من شكوى إلى ذي مروة يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ

لأنك إن شكوت إما يواسيك في غمّك، وهذه الرتبة العلياء، وهو الصديق الحميم، ذو المروّة، وإمّا أن يسليك في غمّك وهي الرتبة الوسطى، وهو الصديق الحميم المهذب ذو التجارب الذي جرّب صروف الدهر، وإمّا أن يتوجع وهذه الرتبة السفلى وهو الصديق العاجز، فان خلا الصديق من هذه الثلاث كان عدمه ووجوده سواء، بل عدمه خير من وجوده.

إذا كنت لا علم لديك تفدنا ولا أنت ذو دين فنرجوك للدين

ولا أنت ممن يرتجى لكريهة عملنا مثالاً مثل شخصك من طين

وأما ما جاء في الاخوان القليلي الموافاة العديمي المكافاة الذين ليس عندهم لصديق مصافاة.

فقال وهب بن منبّه: صحبت الناس خمسين سنة، فما وجدت رجلاً غفر لي زلة، ولا أقالني عثرة، ولا ستر لي عورة.

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «إذا كان الغدر طبعاً، فالثقة بكل أحد عجز».

وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمى، وحيوان غير موجود.

قال الشاعر:

سمعنا بالصديق ولا نراه　　على التحقيق يوجد في الأنام

وأحسبه محالاً نمقوه　　على وجه المجاز من الكلام

وقال جعفر الصادق عليه السلام لبعض إخوانه: «أقلِل من معرفة الناس، وأنكِر من عرفت منهم، وإن كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين، وكن من الواحد على حذر». وقيل لبعض الولاة: كم لك من صديق؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير، وأنشد:

الناس إخوان من دامت له نعم　　والويل للمرء إن زلت به القدمُ

ولما نكب عليّ بن عيسى الوزير لم يُنظر ببابه أحداً من أصحابه الذين كانوا يألفونه في ولايته، فلما ردّت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانياً فقال:

ما الناس إلاّ مع الدنيا وصاحبها　　فلما انقلبت يوماً به انقلبوا

يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت　　يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال آخر:

فما أكثر الأصحاب حين تعدّهم　　ولكنهم في النائبات قليلُ

ديوان الشعر:

قال البحتري:

إيــاك تغتــر أو تخــدعك بارقــة ... مـن ذي خـداع يـرى بشـراً وألطافا

فلـو قلبـت جميـع الأرض قاطبـة ... وسرت في الأرض أوساطاً وأطرافا

لـم تلـقَ فيهـا صـديقاً صـادقاً أبـداً ... ولا أخاً يبذل الإنصاف إن صافى

وقال بعضهم في المعنى أيضاً:

خليلـــيّ جرّبـــت الزمـــان وأهلـــه ... فمـا نـالني منهم سوى الهمّ والعنا

وعاشـرت أبنـاء الزمـان فلـم أجـد ... خلـــيلاً يـــوفّي بـــالعهود ولا أنـــا

وقال آخر:

لمـا رأيـت بنـي الزمـان ومـا بهـم ... خـــلّ وفـــيٌّ للشـــدائد أصـــطفي

فعلمـــت أنّ المســـتحيل ثلاثـــة ... الغـــول والعنقـــاء والخـــلّ الـــوفي

بيت مفرد:

وكـــل خليـــل لـــيس فـــي الله وده ... فـــإني بـــه فـــي ودّه غيـــر واثـــق

* * *

إذا مـــا كنـــت متخـــذاً خلـــيلا ... فـــلا تـــأمن خليـــك أن يخونـــا

* * *

وقال آخر:

فإنّـــك لـــم يخنـــك أخ أمـــين ... ولكـــن قلمـــا تلقـــى أمينـــا

* * *

وقال آخر:

تحـــبّ عـــدوّي ثـــم تـــزعم أننـــي ... أودك أن الـــرأي عنـــك لعـــازبُ

وليس أخي من ودّني بلسانه ... ولكنْ أخي من ودني وهو غائبُ

ومن ماله مالي إذا كنت معدماً ... ومالي له إن أعوزته النوائبُ

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة، وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زوّر عنه كتاباً إلى أعدائه وعزله لم يأتِ إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجّع له، ثمّ أنّ السلطان ظهر له في بقية يومه أنه بريء مما نُسب إليه، فخلع عليه وردّ إليه وظائفه، فأنشد يقول هذه الأبيات:

تحالف الناس والزمان ... فحيث كان الزمان كانوا

عاداني الدهر نصف يوم ... فانكشف الناس لي وبانوا

يا أيها المعرضون عنا ... عودوا فقد عاد لي الزمانْ

ومثله في المعنى:

أخوك أخوك من يدنو وترجو ... مودته وإن دعي استجابا

إذا حاربت حارب من تعادي ... وزاد سلاحه منك اقترابا

وقال أبو بكر الخالدي:

وأخ رخصت عليه حتّى ملنّي ... والشيء مملول إذا ما يرخصُ

ما في زمانك من يعزّ وجوده ... إن رمته إلاّ صديق مخلصُ

فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلاّ من له دين وتقوى، فإنّ المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة، وما أحسن ما قال بعضهم:

وكل محبة في الله تبقى ... على الحالين من فرج وضيق

وكل محبة فيما سواه ... فكالحلفاء في لهب الحريق

وأما زيارة الإخوان والاستدعاء إليها:

فقد قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتباذلين فيّ، والمتزاورين فيّ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلاّ ظلي».

وقال ﷺ: «من عاد مريضاً أو زار أخاً، نادى منادٍ أن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنّة منزلاً».

وقيل: المحبة شجرة أصلها الزيارة.

قال الشاعر:

زر من تحب وإن شطّت بك الدار ... وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنّك بعد من زيارته ... إنّ المحب لمن يهواه زوار

ولتكن الزيارة غبّاً لقوله ﷺ: «زر غبّاً تزدد حبّاً».

قال الشاعر في معنى ذلك:

عليك بأغباب الزيارة إنّها ... إذا أكثرت صارت إلى الهجر مسلكا

ألم تَر أن الغيث يسأم دائماً ... ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

ويقال: الاكثار من الزيارة مملّ، والإقلال منها مخلّ، وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة ... فما فضل قرب الدار منّا على البعد

وقال آخر:

وإن مروري بالديار التي بها ... سليمى ولم ألمم بها لجفاءُ

وقال آخر:

قد أتانا من آل سعدى رسول ... حبذا ما يقول لي وأقولُ

وقال آخر:

أزور بيوتاً لاصقات ببيتها ... وقلبي في البيت الذي لا أزوره

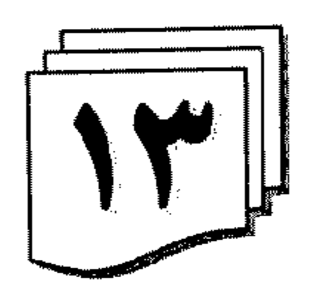
وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة:

نحن في أفضل السرور ولكن ... ليس إلاّ بكم يتمّ السرورُ

عيب ما نحن فيه يا أهل ودّي ... أنكم غبتم ونحن حضورُ

فأجدّوا المسير بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا

* * *



قوله عليه السلام:

إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ.

(نهج البلاغة ٤: ٥)

[قِلّة الشكر سبب في زوال النعم]

قال ابن أبي الحديد:

قال بعضهم: ما شيبتني السنون بل شكري من احتاج أن أشكره، وقالوا: العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى، وقالوا: من سعادة المرء أن يضع معروفه عند من يشكره.

ومن جيّد ما قيل في الشكر قول أبي نواس:

قد قلت للعباس معتذراً ... من ضعف شكري له ومعترفا

أنت امرؤ حملتني نعماً ... أوهت قوى شكري فقد ضعفا

نالتك مني اليوم معذرة ... جاءتك بالتصريح منكشفا

لا تسدينّ إليّ عارفة ... حتّى أقوم بشكر ما سَلَفا

* * *

وقال البحتري:

فإن أنا لم أشكر لنعماك جاهداً ... فلا نِلتَ نعماً بعدها توجب الشكرا

وقال أيضاً:

سأجهد في شكري لنعماك أنني ... أرى الكفر للنعماء ضرباً من الكفر

وقال ابن طاهر:

شكرت علياً برّه وبلاءه ... فقصّر بي شكري وانّي لجاهدُ

وما أنا من شكري علياً بواحد ... ولكنه في الفضل والجود واحدُ

وقال أبو الفتح البستي:

لا تظـنن بـي وتركـي حـي إنّ شكري لشكر غير موات

أنـا أرض وراحتـاك سـحاب والأيادي وبل وشكري نباتي

وقال أيضاً:

وخَرّ لما أوليت شكري ساجداً ومثل الذي أوليت يعبده الشكر

وقال البحتري:

أراك بعين المكتسي ورق الغنا بآلائك اللاتي يعددها الشكرُ

ويعجبني فقري إليك ولم يكن ليعجبني لولا محبتك الفقرُ

* * *

وقال آخر:

بدأت بمعروف وثنّيت بالرضا وثلّثت بالحسنى وربّعت بالكرم

وباشرت أمري واعتنيت بحاجتي وأخّرت لا عني وقدمت لي نعم

وصدّقت لي ظني وأنجزت موعدي وطبت به نفساً ولم تتبع الندم

فإن نحن كافأنا بشكر فواجب وإن نحن قصّرنا فما الودّ متّهم[١]

* * *

قال ابن ميثم البحراني:

نبّه عليه السلام على وجوب الشكر على النعمة، لغرض دوامها، ونفّر عن قلّته بما يستلزمه من كونه تنفيراً لما يُستقبل منها، واستعار لفظ التنفير ملاحظة لشبهها بالطير المتّصل إذا سقط أوّله اتّصل به آخره إن لم ينفر،

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٦ - ١١٨.

وفيه إيماء إلى أنّ دوام الشكر مستلزم لدوامها وكثرتها، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] [2].

* * *

ومما جاء في (منهاج البراعة):[3]

اللغة:

(الأطراف): جمع طريف وهو المكتسب من المال حديثاً، كما في المنجد.

(النعمة): جمع نعم وأنعم الحالة التي يستلذّها الإنسان، وفلان واسع النعمة أي كثير المال. (المنجد).

(نفر): ينفر نفوراً الدابة جزعت وتباعدت، ونفر ينفر الظبي شرد وأبعد. (المنجد).

المعنى:

نال المسلمون في عصرهم نعماً لم يسبقوها، ولم يكونوا يطمعوا فيها من السيادة والعزّة والأموال الكثيرة التي مادّتها غنائم الجهاد السريع الناجح، والفتوحات الواسعة التي أرسلت إلى المدينة سيلاً من طرائف الغنائم من ناحية فارس والروم.

وقلّما يصل البائس والفقير إلى نعمة وافرة إلاّ بطر وطغى، والبطر والطغيان كفران النعمة، وقد شاهد عليه السلام كيف أثرت هذه الوضعية في

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٨.

(٣) ج ٢١: ٢٨.

روحية المسلمين، وشرعت تفسدهم وتغررهم حتّى كبار الصحابة، أمثال طلحة والزبير وعمرو بن العاص، فخاف عليهم عواقب هذه الغرة والطغيان الموجب للكفران وزوال النعم.

فقد كان عليه السلام يتوقع للإسلام نفوذاً عاماً يشمل البشرية بأجمعها، ويجعلها تخضع لحكومة واحدة عادلة ملؤها الأخلاق الفاضلة والتوحيد والعدل والسلام والاسلام، وهي النعمة القصوى التي ينظر إليها بعينه النافذة، وحذّر المسلمين من تنفيرها، ولكن هيهات هيهات، ويا أسفاً أسفا من هذه الخلافات التي نفّرت هذه النعم وأبعدتها إلى ظهور الحجة عليه السلام.

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):[١]

المراد بأطراف النعم أوائلها أو القليل منها، وبأقصاها نموّها وزيادتها، والمعنى أنّ الله سبحانه إذا أحدث لك نعمة فاحفظها وعظّمها بالشكر والتدبير، من أي نوع كانت وتكون، وإن حقّرتها وقصّرت في حفظها وشكرها سلبها الله منك، وحرمك من غيرها، وقال عليه السلام في مقام آخر: «واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليك، ولا تضيعن نعمة من نعم الله عندك».

وقد منّ الله على المسلمين بدولة كريمة فلم يشكروها بالجهاد والإخلاص، وأضاعوها بالخلافات واتّباع الشهوات، فسيموا بالخسف جزاءاً وفاقاً.

* * *

---

(١) ٤: ٢٢٤.

أقول: إذا توفّرت عليك نعم الله وتواصلت، فالزم الشكر والحمد له تعالى، ولا تنفّر النعم بترك الشكر، ولا تنفّرها بالكفران والعصيان. وما لا يرضي الله سبحانه.

وقد انعقد الاجماع على وجوب الشكر للمنعم عقلاً وشرعاً، وإنّ من أنعم الله عليه وأحسن إليه، ولم يمدح المنعم ويشكر المحسن، لجدير أن يحكم عليه بلؤمه وخساسته، وأن يُسلب النعمة، وينقطع عنه مددها.

ولعظم خُلق الشكر جعله الله تعالى خُلقاً من أخلاق الألوهية، فقال: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾،[1] ولأنه لا يصل إليه ولا يقوم به إلاّ القليل من الناس الذين يعرفون الله، ويعرفون أنه المنعم المتفضل، فيجب القيام بشكره على كل نعمة نالها منه، (وما أكثر نعمه على عباده).

كما يجب شكر كل من قدّم لنا خيراً من الناس، لهذا يقول جلّ ذكره: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾،[2] ويقول: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

وقد وعد الله الشاكرين بالخير العظيم غير المحدود من غير تخصيص ولا تعليق على شروط، وذلك إذ يقول: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾،[4] ويقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.[5]

وقد علم العرب والمسلمون بشهادة الواقع والتجربة، فضلاً عما

---

(١) التغابن: ١٧.

(٢) سبأ: ١٣.

(٣) الأعراف: ١٧.

(٤) آل عمران: ١٤٥.

(٥) إبراهيم: ٧.

قررّه القرآن الكريم، أن الشكر خلق يستزيد النعمة ويستديمها، وبه يأمن الإنسان زوالها وانقطاعها، ومن هنا قال قائلهم: الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير.

كما عرفوا أيضاً بشهادة التجربة والواقع كذلك، أن الشكر مطلوب دائماً على النعمة.

والشكر درجات مختلفة بحسب صاحب النعمة، وصاحب الجميل، وفي هذا يقال: الشكر ثلاث منازل: لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإفضال عليه.

[تعريف الشكر]:

قال عفيف عبد الفتاح طبارة:

عرّف العلماء الشكر بأنه: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءاً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

فالشاكر من يكون لسانه مشتغلاً بالثناء على ربه معترفاً له بنعمته، ويكون قلبه مملوءاً محبة لله على هذه النعم، وشهوداً بأنها منه فضل وإحسان، وتكون جوارحه مشتغلة بطاعة الله استسلاماً له وانقياداً.

لهذا كان الشكر من مظاهر العبادة التي دعا إليها القرآن؛ لأنه يجعل العبد ذاكراً ربه عابداً متعلقاً بخالقه. قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[١].

وكلمة الشكر من الكلم الجوامع التي تنتظم كل خير، وتشمل كل ما يصلح به قلب الإنسان ولسانه وجوارحه. فالذي لا يحب الله ولا يشهد قلبه بأن ما

---

(١) البقرة: ١٧٢.

فيه من النعم إنما هو من الله فضلاً وإحساناً ليس بشاكر، والذي لا يثني على ربه ولا يحمده بلسانه، ويخوض في الباطل، ويشتغل لسانه بلغو القول ولهو الحديث ليس بشاكر، والذي يعطيه من العلم شيئاً ولا يعمل به، ولا يعلّمه الناس ليس بشاكر، والذي يعطيه من المال ما يستعين به على طاعته بصرفه في وجوه الخير والبر، ويبخل به أو يصرفه في معاصي الله ليس بشاكر.

لهذا دعا الله إلى التخلّق بالشكر في كثير من الآيات، ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.[١]

ومدح نبيه إبراهيم لقيامه بواجب الشكر ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[٢]

كما تفضل الله بعدم عذابهم ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾.[٣]

ووعد الشاكرين بأن يزيد لهم النعم في الدنيا ويحفظها لهم فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.[٤]

[وجوب شكر الخالق]:

والإنسان عليه واجب الشكر نحو خالقه فإن لم يفعل كان بذلك مقترفاً أشنع أنواع الجحود والنكران، ألا ترى انّنا ننكر على الشخص الذي لا يُسدي الشكر لمن أحسن إليه من البشر، فما بالك بمن لا يُسدي

---

(١) الزمر: ٦٦.

(٢) النحل: ١٢٠.

(٣) النساء: ١٤٧.

(٤) إبراهيم: ٧.

الشكر لله خالقه مصدر كل النعم، ولا يمكن أن نكون مقربين إلى الله من غير شكره، وهذا ما أمر الله به في آيات متعددة بعد أن ذكر فيها بعض النعم التي أنعمها على الإنسان، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.(١) ويقول سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾.(٢)

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾.(٣) ويقول سبحانه في موضع: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.(٤)

ولكن الناس أمام هذه النعم وغيرها قليلاً ما يشكرون، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾.(٥)

ومنفعة الشكر لا تعود على الناس فإنه لا ينتفع بشكر الشاكرين،

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) يس: ٣٣ - ٣٥.

(٣) الجاثية: ١٢ و١٣.

(٤) القصص: ٧١ - ٧٣.

(٥) يونس: ٦٠.

ولا يتضرر بكفر الكافرين، وإنما منفعة الشكر عائدة على الشاكر، فهو يطهر النفوس ويقربها من الله، ويوجّه إرادتها إلى الوجهة الصالحة في إنفاق النعم في وجوهها المشروعة، ولهذا يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.(١)

أما كفران النعم فيعرّضها للزوال؛ لأنها تجعل المرء غير مبال بما يعمل ويبدد الثروة بدون منفعة، ويتلف ما أنعم الله به عليه من نعم الصحة والعافية، ويسير على غير المنهج الذي رسمه له الخالق، فيؤدي به إلى غضب الله والبعد عن رحمته.

والقرآن يخبر بأن خراب الأمم كان سببه كفران النعم وعدم الشكر لله، قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ﴾.(٢)

وذكر القرآن قصة قوم سبأ، ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾.(٣)

فالشكر من الدعائم لسعادة الأمم، والتنكب عنه لا يجلب غير الدمار والخراب، حبّذا لو فهمته الشعوب وعملت به لتحصل على السعادة التي تنشدها وهي عنه غافلة.

---

(١) لقمان: ١٢.

(٢) النحل: ١١٢.

(٣) سبأ: ١٥ ـ ١٧.

قال الشيخ النراقي في المجلد الثالث[١] من جامع السعادات:

الشكر أفضل منازل الأبرار، وعمدة زاد المسافرين إلى عالم الأنوار، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء، وقد ورد به الترغيب الشديد، وجعله الله سبباً للمزيد، قال سبحانه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[٢] وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣] وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٤] وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[٥].

ولكونه غاية الفضائل والمقامات، ليس لكل سالك أن يصل إليه؛ بل ليس الوصول إليه إلاّ لأوحدّي من كمّل السالكين، ولذا قال رب العالمين: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٦].

وكفى به شرفاً وفضلاً أنه خلق من أخلاق الربوبية، كما قال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[٧] وهو فاتحة كلام أهل الجنّة وخاتمته كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[٨] وقال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٩].

---

(١) ص ١٩١.

(٢) النساء: ١٤٧.

(٣) إبراهيم: ٧.

(٤) البقرة: ١٥٣.

(٥) آل عمران: ١٤٥.

(٦) سبأ: ١٣.

(٧) التغابن: ١٧.

(٨) الزمر: ٧٤.

(٩) يونس: ١٠.

[أحاديث في فضيلة الشكر]:

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمعطي الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع».

قال صلى الله عليه وآله: «إنّ للنعم أوابد كأوابد الوحش فقيّدوها بالشكر».

وقال صلى الله عليه وآله: «ينادي مناد يوم القيامة ليقوم الحمّادون، فيقوم زمرة، فينصب لهم لواء فيدخلون الجنّة» فقيل: من الحمّادون؟ فقال: «الذين يشكرون الله على كل حال».

وقال السجاد عليه السلام: «إن الله سبحانه يحبّ كل عبد حزين، ويحبّ كل عبد شكور».

وقال الباقر عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً».

قال: «وكان يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله تعالى: ﴿طه * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾[1]».

وقال الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتم كلامه حتّى يؤمر له بالمزيد».

وقال عليه السلام: «ثلاث لا يضرّ معهن شيء: الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة».

وقال عليه السلام: «في كل نفس من أنفاسك شكر لازم لك، بل ألف أو أكثر،

---

(١) طه: ١ و٢.

وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله تعالى من غير علة يتعلق القلب بها دون الله ﷻ، أو الرضا بما أعطى، وألاّ تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته، فكن لله عبداً شاكراً على كل حال تجد الله رباً كريماً على كل حال، ولو كان عند الله تعالى عبادة تعبّد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال لأطلق لفظة منهم عن جميع الخلق بها، فلما لم يكن أفضل منها خصها من بين العبادات وخصّ أربابها، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾».

وتمام الشكر الاعتراف بلسان السرّ خاضعاً لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره؛ لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها، وهي أعظم قدراً، وأعزّ وجوداً من النعمة التي من أجلها وفقت له، فيلزمك على كل شكر شكر أعظم منه إلى ما لا نهاية له، مستغرقاً في نعمه، قاصراً عاجزاً عن درك غاية شكره، وأنّى يلحق العبد شكر نعمة الله، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه، والعبد ضعيف لا قوة له أبداً إلاّ بالله ﷻ، والله غني عن طاعة العبد، قوي على مزيد النعم على الأبد، فكن لله عبداً شاكراً على هذا الأصل ترى العجب.

ثمّ كما أنّ الشكر من المنجيات الموصلة إلى سعادة الأبد وزيادة النعمة في الدنيا، فضدّه أعني الكفران من المهلكات المؤدية إلى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم، قال الله سبحانه: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2] وقال الصادق عليه السلام: «أشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت، الشكر زيادة في النعم، وأمان من الغِيَر» ـ أي من التغيير ـ.

---

(١) النحل: ١١٢.

(٢) الرعد: ١٦.

الشكر نعمة يجب شكرها:

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله، فالشكر على كل نعمة أن تعرف كونها من الله وتصرفها في جهة محبته، ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضاً نعمة من الله، إذ جميع ما يتعاطاه باختيارنا نعمة من الله، لأنّ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا ودواعينا، وإفاضة المعارف علينا وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا، بل نفس حركاتنا من الله.

وعلى هذا فالشكر على كل نعمة نعمة أخرى من الله سبحانه تحتاج إلى شكر آخر، وهو أن تعرف أن هذا الشكر أيضاً نعمة من الله سبحانه فيُفرح به ويعمل بمقتضى فرحه، وهذه المعرفة والفرح تحتاج إلى شكر آخر، وهكذا فلا بدّ من الشكر في كل حال، وليس يمكن أن تنتهي سلسلة الشكر إلى ما لا يحتاج إلى شكر، فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن أداء حق شكره تعالى، إذ عرفان عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم حتّى شكره من الله، وغاية غاية ما يمكن للعبد.

ويشهد بذلك ما روي أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا موسى أشكرني حق شكري» فقال: يا رب كيف أشكرك حق شكرك، وليس من شكر أشكرك به إلاّ وأنت أنعمت به عليّ، قال: «يا موسى الآن شكرتني حيث علمت أن ذلك مني».

وكذلك أوحى ذلك إلى داود عليه السلام فقال: «يا رب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلاّ بنعمة ثانية من نعمك».

وفي لفظ آخر: «إذا عرفت أن النعم مني رضيت منك بذلك شكراً»،

وروي أن السجاد عليه السلام إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها﴾[١] يقول: «سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمة إلاّ المعرفة بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم بأنه لا يدركه، فشكره تعالى معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً، كما علم علم العارفين بأنهم لا يدركونه، فجعله إيماناً علماً منه أنه قد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك، فإن شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته فكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف، تعالى الله علواً كبيراً.

وقال أبو الحسن عليه السلام: «من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد لله أفضل من تلك النعمة» يعني أنه نعمة فوق تلك النعمة يستدعي شكراً آخر». انتهى.

* * *

[أقسام الشكر]:

وفي كتاب (مناهل الأشواق) تأليف محمّد صفي الدين الحسيني العاملي (ج ١):

الشكر هو الاعتراف بالنعمة بما للاعتراف من المظاهر بحسب حال المنعم، ومقدار تلك النعمة، فتارة يكون الشكر على نعمة المنعم بذكره ومدحه والثناء عليه، وتارة يكون بالانقياد إليه بامتثال أوامره ونواهيه، وتارة يكون بمقابلة النعمة بمثلها.

واعلم بأن القسم الثالث لا يمكن تصوره فضلاً عن وقوعه بالنسبة إلى شكر الله سبحانه على نعمه، لأنّ نعم الله سبحانه على الإنسان لا

(١) النحل: ١٨.

تحصى وما هو منها في حيّزه الإحصاء لا يقدر الإنسان على أن يأتي بمثل بعضه، وأما بالنسبة إلى شكر الإنسان المنعم على مثله، فإنّ المقابلة تتحقق فيه بالبداهة، لإمكان مقابلة الإحسان من الإنسان لمثله بمثله.

وأما القسمان الأولان فإنهما كما يكونان مصداقين لشكر الله سبحانه على نعمه، كذلك يكونان مصداقين لشكر الإنسان لمثله، والعقل يحكم بوجوب شكر المنعم على مقدار نعمته، وإن كان إنساناً وكان دون المنعم عليه، فإن من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الخالق، وبهذا المعنى ورد النص عن أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة عليهم الصلاة والسلام.

إنّا نجد من أنفسنا أن من قابل الإحسان بالإساءة كان بعيداً عمّن أحسن إليه، ولا يناله منه بعد ذلك إحسان، وكل من اطّلع على إساءته لمن أحسن إليه يراه بعيداً عن الكمالات النفسية، منحطاً عن صفات الإنسانية، لا يستحق من الإحسان شيئاً، ونجد من أنفسنا الثناء الجميل على من قابل الإحسان بمثله، ونصفه بالوفاء، ونودّ أن نقدر على الإحسان إليه، وهذا كله ممّا يستقل به العقل، ويحكم به الوجدان، ويراه من الأخلاق الفاضلة، ومما تنتظم به أكوان الإنسان في النشأتين.

إنّ الشكر لله سبحانه وتعالى هو أساس الإعتراف بالله، وعليه مدار العبودية له، وبه قامت الموجودات وثبتت الكائنات، قال سبحانه:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾.[1]

وتسبيح العوالم الموجودة بحمده سبحانه وتعالى هو الشكر له على نعمه،

---

(١) الأسراء: ٤٤.

وهو لا محالة على مقدار استعداد الموجودات. إن مراتب الأنبياء والأوصياء والملائكة على مقدار قيامهم بشكره سبحانه، وسبقهم في سبيل الإنقياد إليه، وقد اتصف نوح عليه السلام بالعبد الشكور كما قال سبحانه:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً﴾.[1]

الشَكور بفتح الشين هو المتمحض لأداء الشكر، الباذل وُسعه فيه، قد شغل فيه قلبه ولسانه وجوارحه إعتقاداً واعترافاً وكدحاً.

وعن جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام قال: «إنّ نوحاً كان إذا أصبح وأمسى يقول: اللهم ما أصبح وأمسى بي من نعمة في دين أو دنيا فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها علي حتّى ترضى وبعد الرضا، كان يقولها إذا أصبح ثلاثاً أو أمسى ثلاثاً، فهذا شكره».

نعم هذا هو الإعتراف بالنعمة وتمام الشكر عليها، ولذلك امتاز من سبق إليها بصفة العبد الشكور؛ لأن الله لا يضيع عمل عامل، وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة.

الشكر لله سبب الإيمان به، فهو متقدم على الإيمان تصوّراً وتعقلاً، وإن كان في مرتبة العمل متأخراً عن الإيمان؛ لأن العاقل إذا التفت إلى ما هو عليه وفيه من النعم العظيمة، حكم عليه العقل بشكر المنعم، وحيث لا يقدر على الشكر إلاّ بالمعرفة فيكون الشكر سبب الإيمان فإذا تحقق الإيمان بالله شكره بما يقدر عليه ويسوقه التوفيق إليه، ولذلك قدم سبحانه الشكر على الإيمان في كتابه المجيد فقال سبحانه:

---

(١) الإسراء: ٣.

﴿ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾.[١]

والمعنى: أنه سبحانه لا يعذب من كان مؤمناً به شاكراً له على نعمه، ممتثلاً لأمره ونهيه.

الشكر سبب لزيادة النعمة من المنعم بحكم العقل والعقلاء، والقانون الإسلامي ناطق به قال سبحانه:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.[٢]

في هذه الآية الشريفة نصّ صريح بأن الشكر سبب الزيادة في الرزق وغيره، مما هو من نعمه سبحانه على عباده، وإنك لتجد أنّ شكر المنعم على العامة موجب لتحريك عاطفة المنعم بأضعاف ما كان منه، كما سطر في التاريخ ما كان ولم يزل من تضاعف الإحسان عند سرعة الخاطر ممن ناله الإحسان بالثناء على المحسن بما يناسبه، فكم من مال عظيم بُدَراً معدودة وخيلاً عتاقاً، وقصوراً مشيّدة حازها الشاكرون بما كان من شكرهم لمن أنعم عليهم، وإنّ ما أعدّ للشاكرين لله سبحانه في الدار الآخرة دونه جميع نعم الدنيا، لفناء هذا ودوام ذاك. انتهى.

* * *

وقال محمّد أحمد جاد المولى في المجلد الرابع من الخلق الكامل (ص ٣٢٤):

من الأشياء ما جعله الله متاعاً مباحاً للناس، لا يحتاجون في الانتفاع به إلى معارضة ولا ثمن، فهم فيه سواء، لا تمييز بين فقير وغني، وقوي وضعيف، كالماء، والهواء، وضوء الشمس والقمر، ولشدة حاجة الناس إليها لم يختص بها

---

(١) النساء: ١٤٧.

(٢) إبراهيم: ٧.

سبحانه وتعالى قوماً دون قوم ولا مكان دون مكان، ليعظم الانتفاع بها، وليكون هذا أظهر لفضله تعالى، وأتم لنعمته على خلقه.

ومن الأشياء ما لا يمكن الإنتفاع به أو امتلاكه إلاّ بثمن، فإذا وصل إلى الإنسان شيء بدون عوض كان جزاء فاعله شكره، والثناء عليه بما هو أهله؛ لأنه اختصه ببرّه، واصطنع الإحسان إليه دون عوض، فشكره على هذا، والإعتراف بجميله أقل ما يكافأ به على إحسانه، قال عليه السلام: «من أودِعَ معروفاً فلينشره، فإن نَشَرَهُ فقد شكره، وإن كتمه فقد كَفَرهُ».

وحبّ الثناء طبيعة الإنسان، والميل إلى سماع عبارات الحمد والتنزه عما يقبح من الأفعال غاية يسعى إليها الناس جميعهم حتّى من لم تحسن أفعالهم، ولم تستقم أمورهم، ولم يكونوا للحمد أهلاً، ولا للشكر موضعاً، وأبين ما يكون هذا في الأطفال والنساء، وإنك لتجد الطفل يباهي بحلّة يلبسها في كل يوم عيد أو حفل، ويمر أمام الناس مرة بعد أخرى، يرجو أن يسمع كلمة ثناء عليه، وإعجاب بحلته.

وقد عرف التجار هذا الميل في النساء، وشدة رغبتهن في الثناء، فهم لا يفتؤون يعلنون عن بضائعهم وسلعهم بما يستهوي أفئدتهن، ويحملهن على اقتنائها، وإن غلا ثمنها، وقلّ غناؤها، وإنهنّ ليبادرن إلى محدثة الأزياء، ويسبقنها رغبة في الظفر بما جل الثناء.

والشكر المتعارف بين الناس هو إظهار النعمة والتحدّث بها، وبسط اللسان بالمحمدة، والتعظيم للمنعم بها، والتنويه بذكره، ورفع قدره، وقد انعقد الإجماع على وجوب الشكر للمنعم عقلاً وشرعاً، وإن من أنعم الله عليه وأحسن إليه، ولم يمدح المنعم، ويشكر المحسن لجدير أن يحكم عليه بلؤمه وخساسته، وأن يُسلب النعمة، وينقطع عنه مددها.

ولقد أنصف بعض بني أمية، وقد سئل بعد زوال ملكهم، وانقراض سعادتهم، وانقضاء دولتهم، ما كان سبب هذا الحادث المجحف بكم، والبلاء النازل عليهم؟

فقال: قلة شكرنا لله تعالى على ما أنعم الله به علينا، واشتغالنا بلذتها عن النظر في مصالحنا، وتفويضنا أمورنا إلى من لا دين له، ولا أمانة عنده، وظلم نوابنا لرعايانا، وغفلتنا عنهم، ففسدت علينا النيات، واختلف علينا الجند لقلة عطاياهم، فاستدعاهم أعداؤنا، فأجابوهم وأعانوهم علينا، واستترت عنا الأخبار لقلة الأنصار، وآل أمرنا إلى ما آل!!

وأوجب الشكر شكر الله تعالى؛ لأنه أفاض النعم على الإنسان من حيث يعلم، ومن حيث لا يعلم حتّى حارت العقول في وصف بعض نعمه، والإحاطة بشيء من فضله.

وليس شكره تعالى ثمناً لنعمه، فانها تجلّ عن كل ثمن، وينقطع دون الوفاء بحقها كل عدّ وثناء، وإنما هو للإستزادة من فضله، وطلب المزيد من كرمه، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.(١)

وشكره جلّ شأنه يكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وصرف ما أنعم به من صحة، ومال، وعلم، وجاه، فيما ينفعه، وينفع الناس.

ويكون الشكر للآباء والمربين ومن في منزلتهم باحترامهم ومحبّتهم، والإعتراف لهم بفضل التأديب والتربية، ومساعدتهم عند الحاجة، ولقائهم بالبِشر والسرور، إذ هذا أقل ما يُجزون به على ما أسدوا من معروف لا كفاء له.

---

(١) إبراهيم: ٧.

ويكون لمن في منزلة الإنسان بالمكافأة بمثل فعله، فإذا أهدى إليك إنسان في منزلتك شيئاً كان شكره أن تهدي إليه مثل هديته أو فوقها، وإذا أعانك في ضائقة كنت له عوناً في مثلها.

ويكون لمن دونك بالأجر، فالفقراء أكثر ما يكونون رغبة في الثواب من مال ونحوه دون عذب القول وجميل الشكر، لأن حاجتهم إلى المال أشد، ورغبتهم فيه أبلغ على أن في بعض الفقراء من كبرت نفوسهم، وعظمت هممهم، وشرفت مقاصدهم، فهؤلاء يطربهم الحمد، ويزدهيهم الشكر، ويبلغ من نفوسهم ما لا يبلغه المال، وينبغي أن يعوّد الأحداث الشكر، ويعتادوا قول: (أشكرك) لمن يتقدم إليهم بشيء، ويفهموا معنى هذا.

الشكر في كثير من مواطنه يكون مستوجباً للمزيد، وداعياً إلى متابعة الإحسان، والإستزاده من فعل الجميل، كما يكون مهذباً للنفوس الخيّرة، مقوّماً للأخلاق والآداب، وهو مما لا يستغني عنه أحد.

ومن ثمرته أن تنمّ به الإلفة بين الشاكر والمشكور، وتتوثق المحبة بينهما.

قال رجل لرجل شكره في معروف أسداه إليه:

لقد نبتت في القلب منك محبة كما نبتت في الراحتين الأصابعُ

واصطنع رجل رجلاً فسأله يوماً، اتحبني يا فلان؟ قال: نعم أحبك حباً لو كان فوقك لأظلك، أو كان تحتك لأقلك.

ذلك لأن من شكر الإحسان، ونشر فضل المنعم قد أدى حق النعمة، وقضى موجب الصنيعة، ولهذا قيل: المعروف رِقّ، والمكافأة عتق.

كما أنّ شكر المنعم يستدر أخلاف الإزدياد، فكذلك كفران النعم يعرضها للزوال والنفاد، ويلبس جاحدها لباس سوء النعمة بين العباد، وقديماً خص الازدياد من شكر، وحل الإنتقام بمن كفر.

وفي قضية مكة حفظها الله تعالى وحال أهلها عبرة لمن استبصر، وموعظة لمن تذكّر، فإنّ الله تعالى لما أفاض على أهلها سوابغ نعمه، وجعلها بلداً آمناً، وشرفه، فوسمه بحرمه، ومنحهم من لطائف رفده فضلاً ومنّاً، وأوسعهم غاية مرامهم غنى وأمناً، فقال في كتابه العزيز:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا﴾[1]

ثمّ بعث من بينهم محمّداً ﷺ رسولاً من أنفسهم، فدعاهم إلى الإيمان، وتلا عليهم القرآن، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وحرّضهم على صلة الرحم، وحثّهم على مكارم الأخلاق، فكذّبوه وكفروا نعمة الله التي أنعمها عليهم، لمّا كان كذلك سلّط عليهم أنواع الإنتقام، وضرب بهم المثل لذوي الأفهام فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.[2] وفي هذا تنبيه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. انتهى.

* * *

[أنواع الشكر الواجب]:

جاء في المجلد الأوّل من (المستطرف):[3]

الفصل الثاني من هذا الباب في شكر النعمة:

---

(١) القصص: ٥٧.

(٢) النحل: ١١٢.

(٣) ص ٥٠٣ – ٥٠٨.

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق:

فشكر القلب: وهو أن يعلم العبد انّ النعمة من الله ﷻ، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلاّ وبدايتها من الله تعالى حتّى يكون الشكر لله عن نفسك وعن غيرك، والدليل عن أنّ الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[1] أي أيقنوا أنها من الله، وقيل: الشكر معرفة العجز من الشكر، وقد روي أنّ داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك، فأوحى الله تعالى إليه الآن قد شكرتني. وفي هذا يقال: الشكر على الشكر أتمّ الشكر، ولمحمود الورّاق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة	علي له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلاّ بفضله	وإن طالت الأيام واتصل العمرُ
إذا مسّ بالسرّاء عمّ سرورها	وإن مسّ بالضرّاء أعقبها الأجرُ
فما منهما إلاّ له فيه نعمة	تضيق بها الأوهام والسرّ والجهرُ

وفي مناجاة موسى عليه السلام: «إلهي خلقت آدم بيدك، وفعلت وفعلت، فكيف شكرك؟ فقال: علم أنّ ذلك مني، فكانت معرفته بذلك شكره لي».

وأمّا شكر اللسان: فقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾،[2] يروى عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدثّ بالنعم شكر».

---

(١) النحل: ٥٣.

(٢) الضحى: ١١.

وقال عمر بن عبد العزيز: تذكروا النعم فإن ذكرها شكر.

وأمّا الشكر الذي على الجوارح: فقد قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ...﴾[1] الآية، فجعل العمل شكراً، وروي أنّ النبي ﷺ قام حتّى تورمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وقال أبو هريرة: دخلت على أبي حازم فقلت له: يرحمك الله ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرته، وإذا رأيت بهما شراً سترته، قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً حفظته، وإذا سمعت بهما شراً نسيته.

وفي حكمة إدريس عليه السلام: لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فأدِم مواساة الفقراء، وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر، فقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2] وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه ومالُهُ في نقصان علمنا أنه قد أخلّ بالشكر، أمّا أنه لا يزكي ماله أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخّره عن وقته، أو يمنع حقاً واجباً عليه من كسوة عريان، أو اطعام جائع أو شبه ذلك، فيدخل في قول النبي ﷺ: «لو صدق السائل ما أفلح من ردّه»، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[3] وإذا غيّروا ما بهم من الطاعات غيّر الله ما بهم من الإحسان.

---

(١) سبأ: ١٣.

(٢) إبراهيم: ٧.

(٣) الرعد: ١١.

وقال بعض الحكماء: من أُعطي أربعاً لم يُمنع من أربع: من أعطي الشكر لم يمنع المزيد، ومن أُعطي التوبة لم يُمنع القبول، ومن أعطي الإستخارة لم يُمنع الخيرة، ومن أُعطي المشورة لم يُمنع الصواب.

وكان الحسن يقول: ابن آدم متى تنفكّ من شكر النعمة وأنت مرتهن بها، كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك، فأنت لا تنفكّ بالشكر من نعمة إلاّ إلى ما هو أعظم منها.

وقال عليّ عليه السلام: «إحذروا نفار النعم، فما كل شارد مردود».

وعنه عليه السلام: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم، فلا تنفّروا أقصاها بقلة الشكر».

وقيل: إذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشكر ثلاث منازل: ضمير القلب، ونشر اللسان، ومكافأة اليد. قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة: كان يقال ما أنعم الله على عبده نعمة فظلم بها، إلاّ كان حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه. وأنشد أبو العبّاس بن عمارة في المعنى:

أعارك ماله لتقوم فيه ... بواجبه وتقضي بعض حقه

فلم تقصد لطاعته ولكن ... قويت على معاصيه برزقه

وقال آخر:

ولو أنّ لي في كل منبت شعرة ... لساناً يطيل الشكر كنت مقصّرا

* * *

وسئل بعض الحكماء ما أضيع الأشياء؟ قال: مطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد في الشمس، وجارية حسناء تزفّ إلى أعمى، وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها.

وقال عبد الأعلى بن حمّاد: دخلت على المتوكل، فقال: يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور، فقلت: يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمّد الصادق أنه قال: «من لم يشكر الهمّة لم يشكر النعمة».

وأنشدته:

لأشكرن لك معروفاً هميت به فإن همك بالمعروف معروف

ولا الوحك إن لم يمضه قدرٌ فالشر بالقدر المحتوم مصروف

وقال أبو فراس بن حمدان:

وما نعمة مكفورة قد صنعتها إلى غير ذي شكر تمانعني أخرى

سآتي جميلاً ما حييت فإنني إذا لم أفد شكراً أفدت به أجرا

وعن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الأجر ما يعطي الصائم القائم، إنّ الله شاكر يحب الشاكرين»[1].

وعن محمّد بن عليّ عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من الله إلاّ كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها، ولا أذنب عبد ذنباً فعلم أنّ الله قد اطّلع عليه إن شاء غفر له وإن شاء آخذه قبل أن يستغفره إلاّ غفر الله له قبل أن يستغفره».

---

(١) مشكاة الأنوار: ٦٦.

وأولى رجل رجلاً أعرابياً خيراً، فقال: لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك.

وأنشد بعضهم وأجاد:

سأشكر لا أني أجازيك منعماً ... بشكري ولكن كي يزاد لك الشكرُ

وأذكر أياماً لديّ اصطنعتها ... وآخر ما يبقى على الذاكر الذكرُ

وقال آخر:

أوليتني نعماً أبوح بشكرها ... وكفيتني كل الأمور بأسرها

فلأشكرنك ما حييت وإن أمت ... فلتشكرنك أعظمي في قبرها

وقال آخر:

أيا رب قد أحسنت عوداً وبدأة ... إليّ فلم ينهض بإحسانك الشكرُ

فمن كان ذا عذر لديك وحجة ... فعذري إقراري بأن ليس لي عذرُ

وقال محمود الورّاق:

إلهي لك الحمد الذي أنت أهله ... على نعم ما كنت قط لها أهلا

إن إزددت تقصيراً تزدني تفضلاً ... كأني بالتقصير استوجب الفضلا

وقد أحسن نصيب في وصف الثناء والشكر بقوله:

فعاجوا وأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

وقال رجل من غطفان:

الشكر أفضل ما حاولت ملتمساً ... به الزيادة عند الله والناس

انتهى.

* * *

أخبار وآثار من أصول الكافي في الشكر:

في المجلد الثاني من (أصول الكافي):[١]

١ ـ عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمعطى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع».

٢ ـ وبهذا الاسناد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما فتح الله على عبد باب شكر، فخزن عنه (عليه) باب الزيادة».

٣ ـ محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن جعفر بن محمّد البغدادي، عن عبد الله بن إسحاق الجعفري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مكتوب في التوراة اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنّه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير».

٤ ـ عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن محمّد بن عليّ، عن عليّ بن أسباط، عن يعقوب بن سالم، عن رجل، عن أبي جعفر، أو أبي عبد الله عليهما السلام قال: «المعافى الشاكر له من الأجر ما للمبتلى الصابر، والمعطي الشاكر له من الأجر كالمحروم القانع».

٥ ـ عنه، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن داود بن الحصين، عن فضل البقباق، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٢] قال: «الذي أنعم عليك بما فضّلك وأعطاك وأحسن إليك»، ثمّ قال: «فحدّث بدينه، وما أعطاه الله، وما أنعم به عليه».

---

(١) ج ٢: باب الشكر/ ص ٩٤ - ٩٩.

(٢) الضحى: ١١.

٦ _ حميد بن زياد، عن الحسن بن محمّد بن سماعة، عن وهيب بن حفص، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً، قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿طه * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾[١]».

٧ _ عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، عن ابن فضّال، عن حسن بن جهم، عن أبي اليقظان، عن عبيد الله بن الوليد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ثلاث لا يضرّ معهن شيء: الدعاء عند الكرب، والإستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة».

٨ _ عدّة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن يحيى بن المبارك، عن عبد الله ابن جبلة، عن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أعطي الشكر أعطي الزيادة، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢]».

٩ _ أبو عليّ الأشعري، عن محمّد بن عبد الجبّار، عن صفوان، عن إسحاق بن عمّار، عن رجلين من أصحابنا، سمعاه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه، وحمد الله ظاهراً بلسانه، فتمّ كلامه حتّى يؤمر له بالمزيد».

١٠ _ عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن بعض أصحابنا، عن محمّد بن هشام، عن ميسر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله ربّ العالمين».

---

(١) طه: ١ و٢.

(٢) إبراهيم: ٧.

١١ ـ عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عليّ بن عيينة، عن عمر ابن يزيد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله عزّ وجلّ عليها».

١٢ ـ عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن إسماعيل بن مهران، عن سيف بن عميرة، عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: «نعم»، قلت: ما هو؟ قال: «يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما أنعم عليه في حاله حقّ أداه، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿سُبْحانَ الذِي سَخَّرَ لنا هذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[1] ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾،[2] وقوله: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً﴾[3]».

١٣ ـ عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن عيسى، عن معمّر بن خلاّد، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد أفضل من تلك النعمة».

١٤ ـ محمّد بن يحيى، عن أحمد، عن عليّ بن الحكم، عن صفوان الجمّال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: «ما أنعم الله على عبده بنعمة صغرت أو كبرت، فقال: الحمد لله، إلاّ أدّى شكرها».

١٥ ـ أبو عليّ الأشعري، عن عيسى بن أيّوب، عن عليّ بن مهزيار، عن القاسم بن محمّد، عن إسماعيل بن أبي الحسن، عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه، فقد أدّى شكرها».

---

(١) الزخرف: ١٣.

(٢) المؤمنون: ٢٩.

(٣) الإسراء: ٨٠.

١٦ ـ عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن منصور بن يونس، عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء، فيوجب الله له بها الجنّة»، ثمّ قال: «إنّه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمّي ثمّ يشرب فينحيه وهو يشتهيه، فيحمد الله، ثمّ يعود فيشرب، ثمّ ينحيه فيحمد الله، ثمّ يعود فيشرب، ثمّ ينحيه فيحمد الله، فيوجب الله عزّ وجلّ بها له الجنّة».

١٧ ـ ابن أبي عمير، عن الحسن بن عطيّة عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني سألت الله عزّ وجلّ أن يرزقني مالاً فرزقني، وإني سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني ولداً، وسألته أن يرزقني داراً فرزقني، وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً، فقال: «أما والله مع الحمد فلا».

١٨ ـ الحسين بن محمّد، عن معلّى بن محمّد، عن الوشاء، عن حمّاد بن عثمان، قال: خرج أبو عبد الله عليه السلام من المسجد، وقد ضاعت دابّته، فقال: «لئن ردّها الله علي لأشكرنّ الله حق شكره»، قال: فما لبث أن أُتي بها، فقال: «الحمد لله»، فقال له قائل: جعلت فداك أليس قلت: لأشكرنّ الله حق شكره؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ألم تسمعني قلت: الحمد لله؟».

١٩ ـ محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن القاسم بن يحيى، عن جدّه الحسن بن راشد، عن المثنّى الحنّاط، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ورد عليه أمر يسرّه قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتمّ به قال: الحمد لله على كل حال».

٢٠ ـ عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي أيّوب الخزّاز، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تقول ثلاث مرات إذا نظرت إلى المبتلى من غير أن تسمعه: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، ولو شاء فعل، قال: من قال ذلك لم يصبه ذلك البلاء أبداً».

٢١ ـ حميد بن زياد، عن الحسن بن محمّد بن سماعة، عن غير واحد، عن أبان ابن عثمان، عن حفص الكناس، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من عبد يرى مبتلى فيقول: (الحمد لله الذي عدل عني ما ابتلاك به، وفضّلني عليك بالعافية، اللهم عافني مما ابتليته به) إلاّ لم يبتل بذلك البلاء».

٢٢ ـ عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن عثمان بن عيسى، عن خالد بن نجيح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا رأيت الرجل وقد ابتلى وأنعم الله عليك فقل: اللهم إني لا أسخر ولا أفخر، ولكن أحمدك على عظيم نعمائك عليّ».

٢٣ ـ عنه، عن أبيه، عن هارون بن الجهم، عن حفص بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله ولا تسمعوهم فإنّ ذلك يحزنهم».

٢٤ ـ عنه، عن عثمان بن عيسى، عن عبد الله بن مسكان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في سفر يسير على ناقة له، إذ نزل فسجد خمس سجدات، فلمّا ركب قالوا: يا رسول الله إنا رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه؟ فقال: «نعم استقبلني جبرئيل عليه السلام فبشّرني ببشارات من الله عزّ وجلّ، فسجدت لله شكراً لكل بشرى سجدة».

٢٥ ـ عنه، عن عثمان بن عيسى، عن يونس بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا ذكر أحدكم نعمة الله عزّ وجلّ فليضع خدّه على التراب شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزل فليضع خدّه على التراب، وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة، فليضع خدّة على قربوسه، وإن لم يقدر فليضع خدّه على كفّه ثمّ يحمد الله على ما أنعم الله عليه».

٢٦ ـ عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عليّ بن عطية، عن هشام بن أحمر، قال: كنت أسير مع أبي الحسن عليه السلام في بعض أطراف المدينة، إذ ثنّى رجله عن دابته، فخرّ ساجداً، فأطال وأطال، ثمّ رفع رأسه وركب دابّته، فقلت: جعلت فداك قد أطلت السجود؟ فقال: «إنني ذكرت نعمة أنعم الله بها عليّ فأحببت أن أشكر ربي».

٢٧ ـ عليّ، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي عبد الله صاحب السابريّ فيما أعلم أو غيره، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام يا موسى أشكرني حق شكري، فقال: يا رب وكيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلاّ وأنت أنعمت به علي؟ قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك مني».

٢٨ ـ ابن أبي عمير، عن ابن رئاب، عن إسماعيل بن الفضل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا أصبحت وأمسيت فقل عشر مرات: (اللهم ما أصبحت بي من نعمة أو عافية من دين أو دنيا فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها علي يا رب حتى ترضى وبعد الرضا)، فإنك إذا قلت ذلك كنت قد أدّيت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة».

٢٩ ـ ابن أبي عمير، عن حفص بن البختري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان نوح عليه السلام يقول ذلك إذا أصبح، فسمّي بذلك عبداً شكوراً. وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من صدّق الله نجا».

٣٠ ـ عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن القاسم بن محمّد، عن المنقري، عن سفيان ابن عينية، عن عمّار الدّهني قال: سمعت عليّ بن

الحسين عليهما السلام يقول: «إنّ الله يحبّ كل حزين ويحبّ كل عبد شكور، يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم لله أشكركم للناس». انتهى.

* * *

وفي كتاب معاني الأخبار (ص ١٤١):

حدّثنا أبي رضي الله عنه قال: حدّثنا سعيد بن عبد الله، قال: حدّثنا محمّد بن عيسى بن عبيد، قال: حدّثنا عبيد الله بن عبد الله الدهقان، عن درست بن أبي منصور الواسطي، عن عمر بن أذينة، عن زرارة، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من صنع مثل ما صُنع إليه فإنما كافئ، ومن أضعف كان شاكراً، ومن شكر كان كريماً، ومن علم أنّ ما صُنع إليه إنما يصنع لنفسه لم يستبطئ الناس في شكرهم، ولم يستزدهم في مودّتهم، واعلم أنّ الطالب إليك الحاجة لم يكرم وجهه عن وجهك، فأكرم وجهك عن ردّه».

* * *

وفي المجلد الأوّل من (إرشاد القلوب) للديلمي:

روي أن الصادق عليه السلام قال لشقيق: «كيف أنتم في بلادكم؟» فقال: بخير يا بن رسول الله إن أعطينا شكرنا، وإن منعنا صبرنا، فقال له عليه السلام: «هكذا كلاب حجازنا يا شقيق». فقال له: كيف أقول: فقال له: «هلاّ كنتم إذا أعطيتم آثرتم، وإذا منعتم شكرتم». وهذه درجته ودرجة آبائه عليهم السلام.

وروي أن سبب رفع إدريس إلى السماء، أنّ ملكاً بشّره بالقبول والمغفرة، فتمنى الحياة، فقال له الملك: لِم تمنيت الحياة؟ قال: لأشكر الله

تعالى، فقد كانت حياتي لطلب القبول وهي الآن لبلوغ المأمول، قال: فبسط الملك جناحه ورفعه إلى السماء.

والشاكر يلاحظ المزيد لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] والصابر يشاهد ثواب البلاء فهو مع الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2] فهو أعلى درجة، ولهذا فضّل معتقد البلوى نعمة على غيره.

وروي أن أوّل من يدخل الجنّة الحامدون على كل حال، فله الحمد على ما دفع وله الشكر على ما نفع.

وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام ارحم عبادي المبتلى منهم والمعافى. قال: يا ربّ قد عرفت رحمة المبتلى فما بال المعافى؟ قال: لقلة شكره، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها﴾[3] أي لا تقوموا بشكرها كلها، وذلك صحيح؛ لأنّ في اللحظة الواحدة ينظر الإنسان نظرات لا تحصى، ويسمع بأذنه حروفاً لا تحصى، ويتكلّم كلمات لا تحصى، وتسكن منه عروق لا يعلم عددها، وتتحرّك منه عروق لا يعلم عددها، ويتنفّس بأنفاس لا تحصى، ويتناول من الهواء أنفاساً لا تحصى، وكذلك تتحرّك جوارحه بحركات كثيرة، فهذا في اللحظة الواحدة فكيف في يومه وسنته وطول عمره، صدق الله العليّ العظيم.

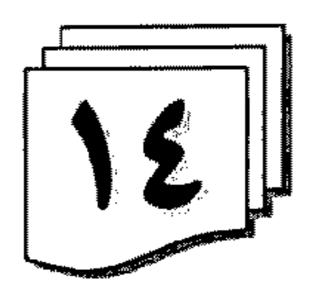
* * *

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) البقرة: ١٥٣.

(٣) النحل: ١٨.



قوله عليه السلام:

مَنْ ضَيَّعَهُ الأقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الأبْعَدُ.

(نهج البلاغة ٤: ٥)



[الرعاية الإلهية للعبد]

قال ابن أبي الحديد:

إنّ الإنسان قد ينصره من لا يرجو نصره، وإن أهمله أقربوه وخذلوه، فقد تقوم به الأجانب من الناس، وقد وجدنا ذلك في حق رسول الله ﷺ ضيّعه أهله ورهطه من قريش وخذلوه وتمالؤا عليه، فقام بنصره الأوس والخزرج وهم أبعد الناس نسباً منه؛ لأنه من عدنان وهم من قحطان، وكل واحد من الفريقين لا يحب الآخر حتّى تحب الأرض الدم، وقامت ربيعة بنصر عليّ عليه السلام في صفين وهم أعداء مضر الذين هم أهله ورهطه، وقامت اليمن بنصر معاوية في صفين وهم أعداء مضر، وقامت الخراسانية ـ وهم عجم ـ بنصر الدولة العبّاسية وهي دولة العرب، وإذا تأملت السير وجدت هذا كثيراً شائعاً.[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

«من ضيّعه الأقرب أتيح له الأبعد» أي قدّر وأراد أن الله سبحانه جعل لكل شيء سبباً يجب معه وبه، ولمّا كانت منافع الإنسان وضروراته في الأغلب يقوم بها من كان أقرب إليه من أهله وعشيرته، ولم يجب في الحكمة أن لا يكون له

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٨.

نفع إلاّ من جهتهم، لا جرم أنهم إذا ضيّعوه وأهملوه لا بدّ أن يقدّر الله له من يقوم بمصالحه ومعاونته ممن هو أبعد عنه.[١]

* * *

وفي (الدرّة النجفية) قال:

حول قوله عليه السلام: «من ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد».

أي قدّر ويسّر، أراد أن الإنسان قد ينصره من لا يرجو نصره وإن أهمله أقربوه وخذلوه، فقد تقوم به الأجانب، وقد وجدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ضيّعه أهله ورهطه من قريش، فقام بنصره الأوس والخزرج وهم أبعد الناس نسباً منه، لأنه من عدنان وهم من قحطان، كل واحد من الفريقين لا يحبّ الآخر أبداً.

* * *

وجاء في (منهاج البراعة):[٢]

اللغة:

(ضيّع) الشيء: أهمله، أهلكه، فقده، (تاح) توحاً له الشيء: تتهيأ. المنجد.

المعنى:

كل موجود له أثر، ويترتب عليه غرض في نظام التكوين، فالموجودات كلها كلمات الله، وليس في كلماته كلمة مهملة من الذرّة إلى الدرّة، وكل فرد من أفراد الإنسان عضو في عالم الكون، وجزء مؤثّر في الاجتماع البشري، أياً من كان من عامل وزارع وتاجر وعالم ووصيّ ونبيّ، فنظام الخلقة يقتضي ظهور ما

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٨.

(٢) ج ٢١: ٣٠.

له من الأثر بما له من الاستعداد والثمر، وينبغي أن يثمر كل موجود في محيط وجوده، وكل إنسان في عشيرته وأقربائه، ولكن يشترط أن يكون المحيط مستقبلاً لذلك، والأقرباء مستعدون للإستفادة من هذا الفرد فإن رفضوه وطردوه يتهيأ له مناخ يثمر فيه ويؤثّر أثره.

وفي هذه الجملة إشارة وعتاب إلى قريش حين ضيّعوا النبي صلى الله عليه وآله وطردوه ولم يستفيدوا من مقام نبوّته، ولم ينصروه في بثّ دعوته، فأُتيح له من قبائل الأوس والخزرج الأباعد فنصروه وآزروه،حتى بثّ دعوته، واستكمل رسالته.

وإلى قريش وأتباعهم في المدينة حيث رفضوا ولايته وإمامته بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وتركوه، فأتيح له أنصار من الموالي وسائر العرب حتّى بثّ دعوته وأظهر إمامته، في الجمل وصفين، وبثّ تعاليمه العالية في الكوفة بين أظهر سائر الملل.

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية في (ظلال نهج البلاغة):[1]

لا تيأس إذا أصابك شر من الأقارب والأرحام، فأبواب الخير والنجاح عند الله لا يبلغها الأحصاء، فإن أغلق دونك باب منها فتح الله عليك ما هو خير وأجدى...

ومن توكل عليه كفاه حتّى ولو كاد له أهل السماوات والأرض ومن بينهنّ.

* * *

(١) ج ٤: ٢٢٥.

[شخصيات تاريخية تدافع عن عليّ عليه السلام]:

أقول: وهكذا أتيح لعليّ عليه السلام جمهرة من الرجال والنساء ممن لم ينتموا إليه بنسب، ولم تجمعهم معه رابطة قرابة، وهم من خيرة الصحابة والتابعين وتابع التابعين، فنشروا فضائله وأظهروا مزاياه الكريمة، لم تأخذهم لومة لائم مع شدة المواقف الخطرة الرهيبة.

هذا وقد تكالب أعداؤه على إطفاء نوره واخماد ذكره، ولكن أبى الله تعالى إلاّ أن يتم نوره على رغم الحاسدين وكيد المناوئين.

ولقد أحسن وأجاد من قال:

لقد كتمت أسرار آل محمّد ... محبوّهم خوفاً وأعداؤهم بغضا

وقد شاع من بين الفريقين نبذة ... بها ملأ الله السماوات والأرضا

وقد ذكر لنا التاريخ مواقف رجال ونساء أبت نفوسهم الزكية، وسمت هممهم الشريفة أن يسمعوا في عليّ عليه السلام كلاماً يحط من مقامه السامي ومنزلته العليا.

فمن ذلك ما ذكره العلامة المجلسي في المجلد (٤٦) من البحار الطبعة الجديد المطبعة الإسلاميّة في طهران (ص ٣٢٠):

[أعرابي يمدح علياً عليه السلام في مجلس الوليد]:

قال: روى أبو الحسن اليشكري، عن عمرو بن العلا، عن يونس النحوي اللغوي.

قال: حضرت مجلس الخليل بن أحمد العروضي، قال: حضرت مجلس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وقد استكثر في سبّ علي واثعنجر في ثلبه، إذ خرج عليه أعرابيّ على ناقة له، وذِفراها يسيلان

لأغذاذ السَّير دماً، فلمّا رآه الوليد لعنه الله في منظرته قال: أئذنوا لهذا الأعرابي فإني أراه قد قصدنا، وجاء الأعرابي فعقل ناقته بطرف زمامها، ثمّ أذن له بالدخول فدخل، فأورده قصيدة لم يسمع السامعون مثلها جودة قط، إلى أن انتهى إلى قوله:

ولمّا أن رأيت الدهر آلى	علي ولحّ في إضعاف حالي
وفدت إليك أبغي حسن عقبى	أسدّ بها خصاصات العيالِ
وقائلة إلى من قد رآهُ	يؤمّ ومن يرجّي للمعالي
فقلت إلى الوليد أزّم قصداً	وقاه الله من غير الليّالي
هو الليث الهصور شديد بأسٍ	هو السيف المجرّد للقتالِ
خليفة ربنا الداعي علينا	وذو المجد التليد أخو الكمالِ

قال: فقبل الوليد مدحته وأجزل عطيته، وقال له: يا أخا العرب قد قبلنا مدحتك وأجزلنا صلتك، فاهجُ لنا علياً أبا تراب.

فوثب الأعرابي (لما سمع) يتهافت قطعاً، ويزأر حنقاً ويشمذر شفقاً، وقال: والله إنّ الذي عنيته بالهجاء، لحق أحقّ منك بالمديح، وأنت أولى منه بالهجاء، فقال له جلساؤه أسكت نزحك الله، قال: علام ترجوني؟ وبم تبشروني؟ ولما أبديت سقطاً، ولا قلت شططاً، ولا ذهبت غلطاً، على أنني فضلت عليه من هو أولى بالفضل منه، عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي تجلبب بالوقار، ونبذ الشنار، وعاف العار، وعمد الإنصاف، وأبد الأوصاف، وحصّن الأطراف، وتألّف الأشراف، وأزال الشكوك في الله بشرح ما استودعه الرسول من مكنون العلم الذي نزل به الناموس، وحياً من ربّه ولم يفتر طرفاً، ولم يصمت الفاً، ولم ينطق خلفاً، النبي

شرفه فوق شرفه، وسلفه في الجاهلية أكرم من سلفه، لا تعرف الماديات في الجاهلية إلاّ بهم، ولا الفضل إلاّ فيهم، صفة من اصطفاها الله واختارها.

فلا يغتر الجاهل بأنه قعد عن الخلافة بمثابرة من ثابر عليها، وجالد بها، والسلاسل المارقة، والأعوان الظالمة، ولئن قلتم ذلك كذلك إنما استحقها بالسبق، تالله ما لكم الحجّة في ذلك، هلاّ سبق صاحبكم إلى المواضع الصعبة، والمنازل الشعبة، كما سبق إليها عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي لم يكن بالقبعة ولا الهبعة ولا مضطغناً آل الله، ولا منافقاً رسول الله.

كان يدور عن الإسلام كل أصبوحة، ويذبّ عنه كل أمسيّة، ويلج بنفسه في الليل الديجور المظلم الحلكوك، مرصداً للعدوّ، هوّذل تارةً وتضكضك أخرى، ويا ربّ لزبة آتية قسيّة وأوان أن أرونات قذف بنفسه في لهوات وشيجة، وعليه زغفة ابن عمّه الفضفاضة، وبيده خطيّة عليها سنان لهذم، فبرز عمرو بن ود القوم الأود، والخصم الألدّ، والفارس الأشد، على فرس عنجوج كأنما نجر نجره باليلنجوج، فضرب قونسه ضربة قنع منها عنقه.

أو نسيتم عمرو بن معدي كرب الزبيدي إذ أقبل يسحب ذلاذل درعه، مدلاً بنفسه، قد زحزح الناس عن أماكنهم، ونهضهم عن مواضعهم، ينادي أين المبارزون يميناً وشمالاً؟ فانقضّ عليه (عليّ) كسوذنيق أو كصيخورة منجنيق، فوقصه وقص القطام بمجره الحمام، وأتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله كالبعير الشارد، يقاد كرهاً، وعينه تدمع، وأنفه ترمع، وقلبه يجزع.

هذا وكم له من يوم عصيب برز فيه إلى المشركين بنيّة صادقة، وبرز غيره وهو أكشف أميل أجمّ أعزل، ألا وإني مخبركم بخبر علي أنه منّي باوباش كالمراطة بين لغموط وحجايه وفقامه، ومغذمر ومهزمر، حملت به شوهاء شهواء في أقصى مهيلها، فأتت به محضاً بحتاً، وكلّهم أهون على علي من سعدانة بغل.

أفمثل هذا يستحق الهجاء، وعزمه الحاذق، وقوله الصادق، وسيفه الفالق، وإنما يستحقّ الهجاء من سامه إليه، وأخذ الخلافة، وأزالها عن الوارثة، وصاحبها ينظر إلى فيئه، وكأن الشبادع تلسبه، حتّى إذا لعب بها فريق بعد فريق، وخريق بعد خريق، اقتصروا على ضراعة الوهز، وثرة الأبز، ولو ردّوه إلى سمت الطريق والمِرت البسيط، والتامور العزيز، ألفوه قائماً، واضعاً الأشياء في مواضعها، لكنهم انتهزوا الفرصة، واقتحموا الغصّة، وباؤوا بالحسرة.

قال: فاربدّ وجه الوليد وتغيّر لونه، وغصّ بريقه، وشرق بعبرته، كأنما فقئ في عينه حب المضّ الحاذق، فاشار عليه بعض جلسائه بالإنصراف وهو لا يشكّ أنه مقتول به، فخرج ووجد بعض الأعراب الداخلين، فقال له: هل لك أن تأخذ خلعتي الصفراء وآخذ خلعتك السوداء واجعل لك بعض الجائزة حظّاً، ففعل الرجل، وخرج الأعرابي فاستوى على راحلته، وغاص في صحرائه، وتوغّل في بيدائه، واعتقل الرجل الآخر فضرب عنقه، وجيئ به إلى الوليد، قال: ليس هو هذا صاحبنا، وأنفذ الخيل السراع في طلبه فلحقوه بعد لأي، فلما أحسّ بهم أدخل يده إلى كنانته يخرج سهماً سهماً يقتل به فارساً بعد فارس، إلى أن قتل من القوم أربعين وانهزم الباقون، فجاؤوا إلى الوليد فأخبروه بذلك، فأغمي عليه يوماً وليلة أجمع، (فلما أفاق) قالوا: ما تجد يا أمير المؤمنين؟ قال: أجد على قلبي غمة كالجبل من فوت هذا الأعرابي.

* * *

[أعرابي يمدح علياً عليه السلام في مجلس معاوية]:

وروى المجلسي أيضاً في المجلد الثامن من البحار (ص ٥٨٥ ط الأولى):

إنه دخل أعرابي على معاوية وعنده أهل الشام ليس فيهم غيرهم، ومعاوية يكلّمهم ويقول لهم: يا أهل الشام قد عرفتم حبي لكم وسيرتي فيكم، وقد بلغكم صنيع علي بالعراق، وتسويته بين الشريف وبين من لا يعرف قدره. فقال رجل منهم: لا يهدّ الله ركنك، ولا يعدّ لك ولدك، ولا يرينا فقدك، قال: فما تقولون في أبي تراب؟ فقال رجل منهم: ما أراد، ومعاوية ساكت وعنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم، فتذاكرا عليّاً بغير الحق، فوثب الأعرابي من آخر المجلس فقال: يا معاوية تسأل أقواماً في طغيانهم يعمهون، اختاروا الدنيا على الآخرة، والله لو سألتهم عن السُّنّة ما أقاموها، فكيف يعرفون عليّاً وفضله، أقبل علي أخبرك ثمّ لا تقدر أن تنكر أنت ولا من عن يمينك يعني عمرو بن العاص:

هو والله الرفيع جاره، الطويل عماده، دمّر الله به الفساد وأباد به الشرك، ووضع به الشيطان وأوليائه، وضعضع به الجور، وأظهر به العدل، ونطق زعيم الدين، وأطاب المورد وأضحى الداجي، وانتصر به المظلوم، وهدم به بنيان النفاق وانتقم به من الظالمين وأعزّ به المسلمين، كريح رحمة أثارت سحاباً متفرقاً بعضها إلى بعض حتّى التحم واستحكم فاستغلظ فاستوى ثمّ تجاوبت نواتقه، وتلألأت بوارقه، واسترعد خرير مائه، فأسقى وأروى عطشانه، وتداعت جنانه واستقلت به أركانه، واستكثر وابله، ودام رزانه، وتتابع مهطوله، فرويت البلاد، واخضرّت وأزهرت.

ذاك عليّ بن أبي طالب سيد العرب وإمام الأمّة، وأفضلها وأعلمها وأحكمها وأجلّها، أوضح للناس سيرة الهدى بعد السعي في الردى.

وهو والله إذا اشتبهت الأمور، وهاب الجسور، واحمرّت الحُدَق وانبعث القلق، وأبرقت البواتر، استربط عند ذلك جأشه، وعُرف بأسه، ولاذ بِهِ الجبان الهلوع، فنفّس كربته وحمى حمايته، مستغنٍ برأيه عن مشورة ذوي الألباب برأيٍ صليب، وعلم أريب، مجيب للصواب مصيب.

قال: فأمسك القوم جميعاً وغضب معاوية وقال: أخرجوه، فأخرجوه من المجلس سحباً.

* * *

[حكاية أخرى]:

وقرأت في الجزء التاسع من حلية الأولياء (ص ١٤٥):

حدّثنا أبي، ثنا أحمد بن محمّد بن يوسف أبو نصر المصري، ثنا أبو عبيد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي ابن وهب، ثنا محمّد بن إدريس الشافعي قال:

دخل رجل من بني كنانة على معاوية بن أبي سفيان، فقال له: هل شهدت بدراً؟ قال: نعم، قال: مثل من كنت؟ قال: غلام قمدود مثل عطباء الجلمود، قال: فحدّثني ما رأيت وحضرت. قال: ما كنا إلاّ شهوداً كأغياب، وما رأينا ظفراً كان أوشك منه، قال: فصف لي ما رأيت قال:

رأيت في سرعان الناس عليّ بن أبي طالب غلاماً شاباً ليثاً عبقرياً يفري الفري، لا يثبت له أحد إلاّ قتله، ولا يضرب شيئاً إلاّ هتكه، لم أر من الناس أحداً قط أنفق منه، يحمل حملة، ويلتفت التفاتة كأنه ثعلب زواغ، وكأن له عينين في قفاه، وكأن وثوبه وثوب وحش يتبعه رجل، معلم بريش نعامة كأنه جمل يحطم يبساً، لا يستقبل شيئاً إلاّ هدّه، ولا

يثبت له شيء إلاّ ثكلته أمّه، شجاع أبله، يحمل بين يديه ولا يلتفت وراءه، قيل هذا حمزة بن عبد المطلب عم محمّد ﷺ.

قال: فرأيت ماذا؟ قال: رأيت ما وصفت لك، ورأيت جدك عتبة وخالك الوليد حين قُتلا، ورأيت ما وصفت لمن حضر من أهلك لم يعفو عنه، قال: فكنت في المنهزمين؟ قال: نعم ما انهزمت عشيرتك فإني كنت منهم؟ قال: لما انهزمت كنت في سرعانهم، قال: فأين رحت؟ قال: ما رحت حتّى نظرت إلى الهضاب، قال: لقد أحسنت الهرب، قال: فعلى ما احتسبه أبوك وبعده ما اتعظت بمصرع كمصرع جدك وخالك وأخيك، قال: إنك لغليظ الكلام، قال: إني ممن يفر، قال: إنكم تبغضون قريشاً، قال: أما من كان منهم أهله فنبغضه، قال: ومن الذين هم أهله؟ قال: من قطع القرابة واستأثر بالفيء وطلب الحق، فلما أعطيه منعه، قال: ما فيكم خير من أن يسكت عنك، قال: ذاك إليك، قال: قد فعلت، قال: قد سكت.

* * *

[الطرماح والمرادي والحميري عند معاوية]:

وما انتخبته من كتاب بشارة المصطفى (ص ١٢ ط النجف سنة ١٣٦٩هـ)، ورواه شيخ الإسلام الحمويني في الباب الثامن والستين من فرائد السمطين (ص ٣٧٤ ط بيروت سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ط الأولى):

أخبرنا الشيخ أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن شهريار الخازن بمشهد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في شوال سنة اثنى عشر وخمسمائة، قال: حدّثني الشيخ أبو عبد الله محمّد بن الحسن الخزاعي، قال: حدّثنا أبو الطيب عليّ بن محمّد بن بنان، قال: حدّثنا أبو القاسم الحسن بن

محمّد السكري من كتابه، قال: حدّثنا أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن مسروق ببغداد من كتابه، قال: حدّثنا محمّد بن دينار الضبي، قال: حدّثنا عبد الله بن الضحاك، قال: حدّثنا هشام بن محمّد عن أبيه:

قال: اجتمع الطرماح، وهشام المرادي، ومحمّد بن عبد الله الحميري عند معاوية بن أبي سفيان، فأخرج بدرة فوضعها بين يديه وقال: يا معشر شعراء العرب قولوا قولكم في عليّ بن أبي طالب عليه السلام ولا تقولوا إلاّ الحق، وأنا نفي من صخر بن حرب إن أعطيت هذه البدرة إلاّ من قال الحق في عليّ.

فقام الطرماح وتكلم في عليّ عليه السلام ووقع فيه، فقال معاوية: اجلس فقد عرف الله نيتك وعرف مكانك.

ثمّ قام هشام المرادي فقال أيضاً ووقع فيه، فقال معاوية: اجلس فقد عرف الله مكانكما. فقال عمرو بن العاص لمحمّد بن عبد الله الحميري، وكان خاصاً به تكلم ولا تقل إلاّ الحق، ثمّ قال: يا معاوية قد آليت أن لا تعطي هذه البدرة إلاّ لمن قال الحق في عليّ؟ قال: نعم أنا نفي من صخر بن حرب أن أعطيتها منهم إلاّ من قال الحق في عليّ، فقام محمّد بن عبد الله فتكلم ثمّ قال:

[قصيدة في مدح عليّ عليه السلام عند معاوية]:

بحق محمّد قولوا بحق ... فإنّ الإفك من شيم اللئام

أبعد محمّد بأبي وأمي ... رسول الله ذي الشرف الهمام

أليس علي أفضل خلق ربي ... وأشرف عند تحصيل الأنام

ولايته هي الإيمان حقاً ... فذرني من أباطيل الكلام

وطاعــــة ربنــــا فيهــــا وفيهــــا ... شــــفاء للقلــــوب مــــن الســــقامِ

علــــي إمامنــــا بــــأبي وأمّــــي ... أبــو الحسـن المطهــر مــن حــرامِ

إمــــام هــــدى أتــــاه الله علمــــاً ... بــه عــرف الحــلال مــن الحــرامِ

ولــو أنــي قتلــت الــنفس حبــاً ... لــه مــا كــان فيهــا مــن أثــامِ

يحــــل النــــار قومــــاً أبغضــــوه ... وإن صــلّوا وصــاموا ألــف عــامِ

ولا والله لا تزكــــــو صــــــلاة ... بغيــر ولايــة العــدل الإمــامِ

أميــر المــؤمنين بــك إعتمــادي ... وبــالغر الميــامين اعتصــامي

فهــذا القــول لــي ديــن وهــذا ... إلــى لقيــاك يــا رب كلامــي

برئــت مــن الــذي عــادى عليــاً ... وحاربــه مــن أولاد الحــرامِ

تناســوا نصــبه فــي يــوم (خــم) ... مــن البــاري ومــن خيــر الأنــامِ

بــرغم الأنــف مــن يشــنأ كلامــي ... علــي فضــله كــالبحر طــامي

وأبــــرأ مــــن أنــــاس أخــــروه ... وكــان هــو المقــدم بالمقــامِ

علــــي هــــزّم الأبطــــال لمّــــا ... رأوا فــي كفــه ذات الحســامِ

علــى آل الرســول صــلاة ربــي ... صــلاة بالكمــال وبالتمــامِ

* * *

فقال معاوية: أنت أصدقهم قولاً، فخذ هذه البدرة.

مقام ضرار الصدائي مع معاوية:

جاء في كتاب (الإستيعاب) لابن عبد البر القرطبي على هامش الإصابة (مج ٣ ص ٤٤) ما نصه:

حدّثنا عبد الله بن محمّد بن يوسف قال: حدّثنا يحيى بن مالك بن عاعد، قال: حدّثنا أبو الحسن محمّد بن محمّد بن سلمة البغدادي بمصر، قال: حدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد، قال: أخبرنا العكلي عن الحرمازي رجل من همدان:

قال: قال معاوية لضرّار الصدائي: يا ضرار صف لي عليّاً، قال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنّه، قال: أما إذ لا بدّ من وصفه:

فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته.

وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن.

كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منّا لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظّم أهل الدين، ويقرّب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «يا دنيا غري غيري، إليّ تعرضّتِ أم إليّ تشوّقتِ، هيهات هيهات قد باينتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق» فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها وهو في حجرها. انتهى.

وذكر ذلك أيضاً ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة مج ٤: ص ٢٧٦/ ط الأولى بمصر):

موقف الوليد بن جابر الطائي مع معاوية:

ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة (مج ٤ ص ٤٩ ط الأولى بمصر):

كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائي، ممن وفد على رسول الله ﷺ فأسلم، ثمّ صحب علياً عليه السلام وشهد معه صفين، وكان من رجاله المشهورين، ثمّ وفد على معاوية في الإستقامة، وكان معاوية لا ينسبه معرفة بعينه، فدخل عليه في جملة الناس، فلما انتهى إليه استنسبه فانتسب له، فقال: أنت صاحب ليلة الهرير؟ قال: نعم، قال: والله ما تخلو مسامعي من رجزك تلك الليلة، وقد علا صوتك أصوات الناس وأنت تقول:

شدوا فداءاً لكم أميّ وأب ... فإنما الأمر غداً لمن غلب

هذا ابن عم المصطفى والمنتخب ... تنميه للعلياء سادات العرب

ليس بموصوم إذا نص النسب ... أول من صلى وصام واقترب

قال: نعم أنا قائلها، قال: فلماذا قلتها؟ قال: لأنا كنا مع رجل لا يعلم خصلة توجب الخلافة، ولا فضيلة تصير إلى التقدمة إلاّ وهي مجموعة له.

كان أوّل الناس سلماً، وأكثرهم علماً، وأرجحهم حلماً، فات الجياد فلا يشق غباره، واستولى على الأمد فلا يخاف عثاره، وأوضح منهج الهدى فلا يبيد مناره، وسلك القصد فلا تدرس آثاره، فلما ابتلانا الله تعالى بافتقاده، وحول الأمر إلى من يشاء من عباده، دخلنا في جملة المسلمين، فلم ننزع يداً عن طاعة، ولم نصدع صفاة جماعة، على أن لك منا ما ظهر، وقلوبنا بيد الله، وهو أملك بها منك، فاقبل صفونا وأعرض عن كدرنا، ولا تتركوا من الأحقاد فإنّ النار تقدح بالزناد.

قال معاوية: وإنك لتهددني يا أخا طي بأوباش العراق أهل النفاق ومعدن الشقاق، فقال: يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق، وحبسوك في المضيق، وذادوك عن سنن الطريق، حتّى لذت منهم بالمصاحف ودعوت إليها من صدّق بها وكذّبت، وآمن بمنزلها وكفرت، وعرف من تأويلها ما أنكرت...

مقام طارق بن عبد الله الهندي عند معاوية:

قال ابن أبي الحديد في المجلد الأوّل من شرح النهج (ص ٢٦٧ ط الأولى بمصر):

إن عليّاً عليه السلام لما حدّ النجاشي (لشربه الخمر) غضبت اليمانية لذلك، وكان أخصهم به طارق بن عبد الله بن كعب النهدي، فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيّان في الجزاء، حتّى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحرث، فأوغرت صدورنا، وشتت أمورنا، وحملتنا على الجادة التي كنا نرى سبيل من ركبها النار. فقال عليّ عليه السلام: «﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، يا أخا نهد وهل هو إلاّ رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرم الله، فأقمنا عليه حداً كان كفارته، إن الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1]».

قال: فخرج طارق من عنده، فلقيه الأشتر فقال: يا طارق أنت القائل لأمير المؤمنين أوغرت صدورنا وشتت أمورنا، قال الطارق: نعم أنا قائلها، قال: والله ما ذاك كما قلت، إن صدورنا له لسامعة، وإن أمورنا له لجامعة، فغضب طارق وقال: ستعلم يا أشتر انّه غير ما قلت، فلما جنّه

(١) المائدة: ٨.

الليل همس هو والنجاشي إلى معاوية، فلمّا قدما عليه دخل آذنه فأخبره بقدومهما، وعنده وجوه أهل الشام منهم عمرو بن مرّة الجهني، وعمرو بن صيفي وغيرهما، فلما دخلا نظر معاوية إلى طارق وقال: مرحباً بالمورق غصنه، والمعرق أصله المسود غير المسود من رجل كانت منه هفوة ونبوة، باتّباعه صاحب الفتنة ورأس الضلالة والشبهة، الذي اغترز في ركاب الفتنة حتّى استوى على رحلها، ثمّ أوجف في عشوة ظلمتها وتيه ضلالتها، واتبعته رجرجة من الناس واشابة من الحثالة لا أفئدة لهم، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

فقام طارق فقال: يا معاوية إني متكلّم فلا يسخطك، ثمّ قال وهو متكئ على سيفه: إن المحمود على كل حال ربّ على فوق عباده فهم منه بمنظر ومسمع، بعث فيهم رسولاً منهم لم يكن من قبله يتلو كتاباً ولا يخطه بيمينه إذاً لارتاب المبطلون، فعليه السلام من رسول كان بالمؤمنين براً رحيماً.

أما بعد فإنّ ما كنا نوضع فيما أوضعنا فيه بين يدي إمام تقى عادل مع رجال من أصحاب رسول الله ﷺ أتقياء مرشدين، ما زالوا مناراً للهدى ومعالم للدين خلفاً عن سلف، مهندين أهل دين لا دنيا، كل الخير فيهم، واتبعهم من الناس ملوك وأقيال وأهل بيوتات وشرف، ليسوا بناكثين ولا قاسطين، فلم يكن رغبة من رغب عنهم وعن صحبتهم إلاّ لمرارة الحق حيث جرعوها، ولوعورته حيث أسلكوها، وغلبت عليهم دنياً مؤثرة وهوى متبع، وكان أمر الله قدراً مقدورا. وقد فارق الإسلام قبلنا جبلة بن الأيهم فراراً من الضيم وأنفاً من الذلة، فلا تفخّرن يا معاوية أن شددنا نحوك الرحال وأوضعنا إليك الركاب، أقول: قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولجميع المسلمين.

فعظم على معاوية ما سمعه وغضب لكنه أمسك، وقال: يا عبد الله إنّا لم نرد بما قلناه أن نوردك مشرع ظمأ، ولا أن نصدرك عن مكرع ري، ولكن القول قد يجري بصاحبه إلى غير ما ينطوي عليه من الفعل، ثمّ أجلسه معه على سريره، ودعا له بمقطعات وبرود فصبها عليه وأقبل نحوه بوجهه يحدّثه حتّى قام، وقام معه عمور بن مرّة وعمرو بن صيفي الجهنيان، فأقبلا عليه بأشد العقاب وأمضّه، يلومانه في خطبته وما واجه به معاوية، فقال طارق: والله ما قمت بما سمعتاه حتّى خيّل لي أن بطن الأرض خير لي من ظهرها عند سماعي ما أظهر من العيب والنقص لمن هو خير منه في الدنيا والآخرة، وما زهت به نفسه وملكه اعجبه، وعاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله واستنقصهم، فقمت مقاماً أوجب الله علي فيه أن لا أقول إلاّ حقاً، وأي خير فيمن لا ينظر ما يصير إليه غداً. فبلغ علياً عليه السلام بالعراق قوله: فقال: لو قتل النهدي يومئذٍ لقتل شهيداً.

قصيدة عمرو بن العاص المعروفة بالجلجلية وقد أرسلها إلى معاوية:

جاءت هذه القصيدة في المجلد الثاني (ص ١١٤) من كتاب الغدير مع ضبط أسانيدها:

معاوية الحال لا تجهل	وعن سبل الحق لا تعدلِ
نسيت احتيالي في جلّق	على أهلها يوم لبس الحلي
وقد أقبلوا زمراً يهرعون	مهاليع كالبقر الجفلِ
وقولي لهم إنّ فرض الصلاة	بغير وجودك لم تقبل
فولّوا ولم يعبؤوا بالصلاة	ورمت النفار إلى القسطل
ولما عصيت إمام الهدى	وفي جيشه كل مستفحل
ابالبقر البكم أهل الشام	لأهل التقى والحجى أبتلي

فقلت: نعم قم فاني أرى ... قتال المفضّل بالأفضل
فبي حاربوا سيد الأوصياء ... بقولي: دم طُلّ من نعثل
وكدت لهم أن أقاموا الرماح ... عليها المصاحف في القسطل
وعلّمتهم كشف سوءاتهم ... لردّ الغضنفرة المقبل
فقام البغاة على حيدر ... وكفوا عن المشعل المصطلي
نسيت محاورة الأشعري ... ونحن على دومة الجندلِ
ألين فيطمع في جانبي ... وسهمي قد خاض في المقتل
خلعت الخلافة من حيدر ... كخلع النعال من الأرجل
وألبستها فيك بعد الأياس ... كلبس الخواتيم بالأنمل
ورقّيتك المنبر المشمخر ... بلا حدّ سيف ولا منصل
ولو لم تكن أنت من أهله ... وربّ المقام ولم تكمل
وسيّرت جيش نفاق العراق ... كسير الجنوب مع الشمألِ
وسيّرت ذكرك في الخافقين ... كسير الحمير مع المحمل
وجهلك بي يا بن آكلة ... الكبود لأعظم ما أبتلي
فلولا موازرتي لم تطلع ... ولولا وجودي لم تُقبل
ولولاي كنت كمثل النساء ... تعاف الخروج من المنزلِ
نصرناك من جهلنا يا بن هند ... على النبأ الأعظم الأفضل
وحيث رفعناك فوق الرؤوس ... نزلنا إلى أسفل الأسفل

* * *

وكم قد سمعنا من المصطفى ... وصايا مخصّصة في علي
وفي يوم خمّ رقى منبراً ... يبلّغ والركب لم يرحل
وفي كفّه كفّه معلناً ... ينادي بأمر العزيز العلي
ألست بكم منكم في النفوس ... بأولى؟ فقالوا: بلى فافعل
فأنحله إمرة المؤمنين ... من الله مستخلف المنحل
وقال فمن كنت مولى له ... فهذا له اليوم نعم الولي
فوالِ مواليه ياذا الجلال ... وعادِ معادي أخ المرسل
ولا تنقضوا العهد من عترتي ... فقاطعهم بي لم يوصل
فبخبخ شيخك لما رأى ... عرى عقد حيدر لم تحلل
فقال وليّكم فاحفظوه ... فمدخله فيكم مدخلي

* * *

وإنا وما كان من فعلنا ... لفي النار في الدرك الأسفل
وما دم عثمان منج لنا ... من الله في الموقف المخجل
وإنّ علياً غداً خصمنا ... ويعتزّ بالله والمرسل
يحاسبنا عن أمور جرت ... ونحن عن الحق في معزلِ
فما عذرنا يوم كشف الغطا ... لك الويل منه غداً ثم لي
ألا يا بن هند أبعت الجنان ... بعهد عهدت ولم توف لي
وأخسرت أخراك كي ما تنال ... يسير الحطام من الأجزلِ
وأصبحت بالناس حتى استقام ... لك الملك من ملك محولِ

وكنت كمقتنص في الشراك ... تذود الظماء عن المنهل

كأنك أنسيت ليل الهرير ... بصفّين مع هولها المهولِ

وقد بتّ تذرق ذرق النعام ... حذاراً من البطل المقبل

وحين أزاح جيوش الضلال ... وافاك كالأسد المبسل

وقد ضاق منك عليك الخناق ... وصار بك الرحب كالفلفل

وقولك يا عمرو أين المفرّ ... من الفارس القسور المسبل

عسى حيلة منك عن ثنيه ... فإن فؤادي في عسعل

وشاطرتني كلما يستقيم ... من الملك دهرك لم يكمل

فقمت على عجلتي رافعاً ... أكشف عن سوأتي أذ يلي

فستر عن وجهه وانثنى ... حياءاً وروعك لم يعقل

وأنت لخوفك من بأسه ... هناك ملأت من الأفكل

ولما ملكت حماة الأنام ... ونالت عصاك يد الأولِ

منحت لغيري وزن الجبال ... ولم تعطني زنة الخردلِ

وأنحلت مصراً لعبد الملك ... وأنت عن الفيّ لم تعدلِ

وإن كنت تطمع فيها فقد ... تخلى الغطا من يد الأجدلِ

وإن لم تسامح إلى ردّها ... فإني لحوبكم مصطلي

بخيل جياد وشمّ الأنوف ... وبالمرهفات وبالذبّل

وأكشف عنك حجاب الغرور ... وأيقظ نائمة الأثكل

فانك من إمرة المؤمنين ... ودعوى الخلافة في معزلِ

ومالـــك فيهـــا ولا ذرّة ... ولا لجـــدودك بـــالأوّلِ

فـإن كـان بينكمـا نسـبة ... فـأين الحسـام مـن المنجـل

وايـن الحصـا مـن نجـوم السـما ... وأيـن معاويـة مـن علـي

فـإن كنـت فيهـا بلغـت المنى ... ففـي عنقـي علـق الجلجـل

* * *

مقام بعض النساء العربيات في مجلس معاوية:

قصة دارمية الحجونية مع معاوية:

ذكر ابن عبد رَبه الأندلسي في (الجزء الأوّل)[1] من (العقد الفريد):

عن سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه، قال: حج معاوية، فسأل عن امرأة من بني كنانة، كانت تنزل بالحجون، يقال لها دارمية الجونية، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها، فبعث إليها، فجن بها، فقال: ما جاء بك يا ابنة حام؟ فقالت: لست لحام إن عبتني، أنا امرأة من بني كنانة قال: صدقت، أتدرين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلاّ الله، قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليّاً وأبغضتني، وواليته وعاديتني؟ قالت: أوَ تعفيني، قال: لا أعفيك، قالت: أمّا إذا أبيَت، فإني أحببت عليّاً على عدله في الرعية، وقسمه بالسويّة، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق، وواليت عليّاً على ما عقد له رسول الله ﷺ من الولاء، وحبه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك الهوى، قال: فلذلك انتفخ بطنك، وعظم ثدياك، وربت عجيزتك، قالت: يا هذا بهذه والله كان يضرب

---

(١) ص ١٢٣.

المثل في ذلك لأبي، قال معاوية: يا هذه أربعي فإنا لم نقل إلاّ خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تمّ خلق ولدها، وإذا عظم ثدياها تروي رضيعها، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها، فرجعت وسكتت.

قال لها: يا هذه، هل رأيت عليّاً؟ قالت: إي والله، قال: فكيف رأيته؟ قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك، قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم والله فكان يجلو القلب من العمى، كما يجلو الزيت صدأ الطست، قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم، قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها، قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذو بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر. قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحلّ عندك محل عليّ بن أبي طالب؟ قالت: سبحان الله أو دونه، فأعطاها ذلك، ثمّ قال: أما والله لو كان عليّ حياً ما أعطاك منها شيئاً، قالت: لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين.

قيام أمّ الخير بنت حريش في مجلس معاوية:

ذكر ابن عبد ربّه في (الجزء الأوّل)[1] من (العقد الفريد):

عن عبد الله بن عمر الغسّاني عن الشعبي، قال: كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقي برحلها، وأعلمه اني مجازيه بالخيرخيراً وبالشر شراً بقولها فيه، فلما ورد عليه كتابه ركب إليها، فقرأها كتابه، فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري، فلما شيّعها وأراد مفارقتها، قال لها: يا أمّ الخير، إن أمير المؤمنين

(١) ص ١٢٣.

كتب إليّ أنه يجازيني بالخير خيراً وبالشر شراً، فمالي عندكِ؟ قالت: يا هذا لا يطمعك برك بي أن أسرك بباطل، ولا يؤيسك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق، فسارت خير مسير، حتى قدمت على معاوية، فأنزلها مع الحرم ثم أدخلها في اليوم الرابع، وعنده جلساؤه.

فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير بحق ما دعوتني بهذا الأسم، قالت: يا أمير المؤمنين لكلّ أجل كتاب، قال: صدقت، فكيف حالك يا خالة، وكيف مسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية حتّى صرت إليك، فأنا في مجلس أنيق عند ملك رفيق، قال معاوية: بحسن نيتي ظفرت بكم، قالت: يا أمير المؤمنين يعيذك الله من دحض المقال، وما تؤدّ عاقبته، قال: ليس هذا أردنا، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمّار بن ياسر؟ قالت: لم أكن زورته من قبل، ولا رويته بعد، وإنما كانت كلمات نفثها لساني عند الصدمة، فإن أحببت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت.

فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين، قال: هات، قال: كأني بها بين بردين زئبريين كثيفي النسيج، وهي على جمل أزمك وبيدها سوط منتشر الضفيرة، وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول:

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، إنّ الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبيّن السبيل، ورفع العَلَم ولم يدعكم في عماء مدلهمة، فأين تريدون رحمكم الله، أفِراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق، أما سمعتم

الله جل ثناؤه يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾[1] ثمّ رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمّة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى وألّف القلوب على الهدى، وأردد الحق إلى أهله، هدّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والرضي التقي، والصديق الأكبر، إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية، وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثارات بني عبد شمس.

ثمّ قالت: قاتلوا الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتبهون، صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، فكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، فرت من قسورة، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وعما قليل ليصبحن نادمين، حتّى تحلّ بهم الندامة، فيطلبون الإقالة، ولات حين مناص، إنه من ضل والله عن الحق وقع في الباطل، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها، فالله الله أيها الناس قبل أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود، وتقوى كلمة الشيطان، فالى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عمّ رسول الله ﷺ وصهره وأبي سبطيه؟ خلق من طينته وتفرّع من نبعته، وجعله باب مدينته (دينه)، وأبان ببغضه المنافقين، وها هو ذا مفلق الهام، ومكسّر الأصنام، صلى والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون.

فلم يزل في ذلك حتّى قتل مبارزيه، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرّق به جمع أهوائهم، فيا لها من

---

(١) محمّد: ٣١.

وقائع زرعت في قلوب نفاقاً، وردة وشقاقاً، وزادت المؤمنين إيماناً، قد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أمّ الخير ما أردت بهذا الكلام إلاّ قتلي، ولو قتلتكِ ما خرجت في ذلك. قالت: والله ما يسوؤني أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائه، قال: هيهات يا كثيرة الفضول...

مقام أروى بنت عبد المطلب في مجلس معاوية:

في (الجزء الأوّل)[1] من (العقد الفريد):

العبّاس بن بكار، قال: حدّثني عبد الله بن سليمان المدني وأبو بكر الهذلي، أن أروى بنت الحرث بن عبد المطلب، دخلت على معاوية وهي عجوز كبيرة، فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلاً يا خالة، فكيف كنت بعدنا؟ فقالت: يا ابن أخي، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسمّيت بغير اسمك، وأخذت غير حقك، من غير دين كان منك، ولا من آبائك، ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفرتم برسول الله ﷺ، فأتعس الله منكم الجدود وأضرع منكم الخدود، وردّ الحق إلى أهله، ولو كره المشركون.

وكانت كلمتنا هي العليا ونبينا ﷺ هو المنصور، فَوليّتم علينا من بعده وتحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ، ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان عليّ بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنّة وغايتكم النار.

---

(١) ص ١٢٣.

فقال لها عمرو بن العاص: كفي أيتها العجوز الضالة، وأقصري عن قولك مع ذهاب عقلك إذ لا تجوز شهادتك وحدك، فقالت له: وأنت يا ابان النابغة تتكلم وأمّك كانت أشهر امرأة تغني بمكّة وآخذهن لأجرة، إدعاك خمسة نفر من قريش، فسُئلت أمّك عنهم، فقالت: كلهم أتاني فانظروا أشبههم به فالحقوه به، فغلب عليه شبه العاصي بن وائل فلحقت به، فقال مروان: كفي أيتها العجوز، واقصري لما جئت له. فقالت: وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم، ثمّ التفتت إلى معاوية، فقالت: والله ما جرأ علي هؤلاء غيرك، فإنّ أمّك القائلة في قتل حمزة:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان لي من عتبة من صبر ... وشكر وحشي علي دهري

حتّى ترمّ أعظمي في قبري

فأجابتها بنت عمي، وهي تقول:

خزيت في بدر وبعد بدر ... يا ابنة جبار عظيم الكفر

قال معاوية: عفا الله عما سلف يا خالة هات حاجتك، قالت: ما لي إليك حاجة، وخرجت عنه.

كلام غانمة بنت غانم في شرف بني هاشم وفخرهم، في مجلس معاوية:

روى البيهقي في (الجزء الأوّل) من (المحاسن والمساوي):

قيل: ولمّا بلغ غانمة بنت غانم سبّ معاوية وعمرو بن العاص بني هاشم، قالت لأهل مكّة: أيها الناس إن قريشاً لم تلد من رَقم ولا رُقم، سادت وجادت، ومُلكت فملكت، وفضِلَت ففضلت، واصطُفيت

فاصطفت، ليس فيها كدر عيب ولا أفن ريب، ولا حشروا طاغين، ولا حادوا نادمين، ولا المغضوب عليهم ولا الضالين.

إنّ بني هاشم أطول الناس باعاً، وأمجد الناس أصلاً، وأحلم الناس حلماً، وأكثر الناس عطاءً.

منا عبد مناف الذي يقول فيه الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقّت فالمخّ خالصُها لعبد مَنافِ

وولده هاشم الذي هشم الثريد لقومه، وفيه يقول الشاعر:

هشم الثريد لقومه وأجارهم ورجال مكّة مسنتون عِجافَ

ثمّ منا عبد المطلب الذي سُقينا به الغيث وفيه يقول الشاعر:

ونحن سنّي المحَل قامَ شفيعنا بمكّة يدعو والمياهُ تَغورَ

وابنه أبو طالب عظيم قريش، وفيه يقول الشاعر:

آتيتُهُ ملكاً فقام بحاجتي وترى العلَيجَ خائباً مذَموما

ومنا العبّاس بن عبد المطلب، أردفه رسول الله ﷺ فأعطاه ماله، وفيه يقول الشاعر:

رديف رسول الله لم أر مثلَهُ ولا مثلُهُ حتّى القيامة يوجد

ومنا حمزة سيد الشهداء، وفيه يقول الشاعر:

أبا يعلى لك الأركان هُدّت وأنت الماجد البرّ الوصولُ

ومنا جعفر ذو الجناحين، أحسنُ الناس حسناً، وأكملهم كمالاً، ليس بغدارٍ ولا ختّار، بدّله الله جل وعزّ له بكل يد له جناحاً يطير به في الجنة، وفيه يقول الشاعر:

هاتوا كجعفرنا ومثل علينا ألسنا أعزّ الناس عند الحقائق

ومنا أبو الحسن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أفرس بني هاشم وأكرم من احتفى وتنعّل بعد رسول الله ﷺ ومن فضائله ما قصُر عنكم ابناؤها، وفيه يقول الشاعر:

وهذا عليّ سيّد الناس فاتقوا عليّاً باسلام تقدّم من قبلُ

ومنا الحسن بن عليّ رضي الله عنه سبط رسول الله ﷺ وسيّد شباب أهل الجنّة، وفيه يقول الشاعر:

ومن يك جدّه حقاً نبياً فإنّ له الفضيلة في الأنام

ومنا الحسين بن عليّ رضوان الله عليه حمله جبرئيل عليه السلام على عاتقه وكفى بذلك فخراً، وفيه يقول الشاعر:

نفى عنه عيب الآدميين ربّه ومَن مجدُهُ مجدُ الحسين المطهّرُ

ثمّ قالت: يا معشر قريش والله ما معاوية بأمير المؤمنين، ولا هو كما يزعم، هو والله شانيء رسول الله ﷺ وإني آتية معاوية وقائلة له بما يعرق منه جبينه، ويكثر منه عويله.

فكتب عامل معاوية إليه بذلك، فلما بلغه أن غانمة قد قربت منه، أمر بدار ضيافة فنظّفت وألقي فيها فرش، فلما قربت من المدينة استقبلها يزيد في حشمه ومماليكه، فلما دخلت المدينة أتت دار أخيها عمرو بن غانم، فقال لها يزيد: إن أبا عبد الرحمن يأمرك أن تصيري إلى دار ضيافته، وكانت لا تعرفه، فقالت: من أنت كلأك الله؟ قال: يزيد بن معاوية، قالت: فلا رعاك الله يا ناقص، لست بزائد، فتغير لون يزيد، فأتى أباه فأخبره، فقال: هي أسنّ قريش وأعظمهم، فقال يزيد: كم تعدّ لها يا أمير المؤمنين؟ قال: كانت تعدّ على عهد رسول الله ﷺ أربعمائة عام،

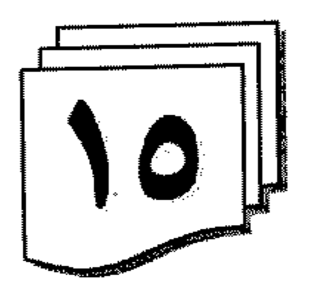
وهي من بقية الكرام، فلما كان من الغد أتاها معاوية فسلّم عليها فقالت: على المؤمنين السلام، وعلى الكافرين الهوان، ثمّ قالت: من منكم ابن العاص؟ قال عمرو: ها أنا ذا، فقالت: وأنت تسبّ قريشاً وبني هاشم وأنت أهل السبّ وفيك السب، وإليك يعود السبّ، يا عمرو إني والله لعارفة بعيوبك وعيوب أمّك، وإني أذكر لك ذلك عيباً عيباً، وُلِدتَ من أمة سوداء، مجنونة حمقاء، تبول من قيام ويعلوها اللئام، إذا لامسها الفحل كانت نطفتها أنفذ من نطفته، ركبها في يوم واحد أربعون رجلاً، وأما أنت فقد رأيتك غاوياً غير راشد، ومفسداً غير صالح، ولقد رأيت فحل زوجتك على فراشك فما غرت ولا أنكرت.

وأما أنت يا معاوية فما كنت في خير ولا ربيت في خير، فما لك ولبني هاشم، أنساء بني أمية كنسائهم؟ أم أعطي أمية ما أعطي هاشم في الجاهلية والإسلام، وكفى فخراً برسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال معاوية: أيتها الكبيرة أنا كاف عن بني هاشم، قالت: فإني أكتب عليك عهداً كان رسول الله صلى الله عليه وآله دعا ربه أن يستجيب لي خمس دعوات، فأجعل تلك الدعوات كلها فيك. فخاف معاوية وحلف لها أن لا يسبّ بني هاشم أبداً.

* * *





قوله عليه السلام:

تَذِلُّ الأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ.

(نهج البلاغة ٤: ٥)



[التقدير الإلهي في مصير البشرية]

قال ابن أبي الحديد:

إذا تأمّلت أحوال العالم وجدت صدق هذه الكلمة ظاهراً، ولو شئنا أن نذكر الكثير من ذلك لذكرنا ما يحتاج في تقييده بالكتابة إلى مثل حجم كتابنا هذا، ولكنا نذكر لمحاً ونكتاً وأطرافاً ودرراً من القول: فرش مروان بن محمّد وقد لقي عبد الله بن علي أنطاعاً وبسط عليها المال وقال: من جاءني برأس فله مائة درهم، فعجزت الحفظة والحراس عن حمايته، واشتغلت طائفة من الجند بنهبه، وتهافت الجيش عليه لينتهبوه، فغشيهم عبد الله بن علي بعساكره فقتل منهم ما لا يحصى وهزم الباقون.

وكسر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن جيش أبي جعفر المنصور بباخمرى، وأمر أصحابه باتباعهم، فحال بينهم وبين أصحاب أبي جعفر ماء ضحضاح، فكره إبراهيم وجيشه خوض ذلك الماء وكان واسعاً، فأمر صاحب لوائه أن يتعرج باللواء على مسناة كانت على ذلك الماء يابسة، فسلكها صاحب اللواء وهي تقضي بانعراج وانعكاس إلى الأرض اليبس، فلما رأى عسكر أبي جعفر أن لواء القوم قد تراجع القهقرى ظنوهم منهزمين، فعطفوا عليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وجاء سهم غرب فأصاب إبراهيم فقتله.

وقد دبّرت قريش من قبل في حماية العير بأن نفرت على الصعب والذلول لتدفع رسول الله ﷺ عن اللطيمة، فكان هلاكها في تدبيرها.

وكسرت الأنصار يوم أحد بأن أخرجت النبي ﷺ عن المدينة ظنّاً منها أن الظفر والنصرة بذلك، وكان سبب عطبها وظفرت قريش بها، ولو أقامت بين جدران المدينة لم تظفر قريش منها بشيء.

ودبّر أبو مسلم أمر الدولة الهاشمية وقام بها حتّى كان حتفه في تدبيره.

وكذلك جرى لأبي عبد الله المحتسب مع عبد الله المهدي بالمغرب. ودبّر أبو القاسم بن المسلمة رئيس الرؤساء في إخراج البساسيري عن العراق حتى كان هلاكه على يده، ولذلك أيضاً انعكس عليه تدبيره في إزالة الدولة البويهية من الدولة السلجوقية، ظناً منه أنه يدفع الشر بغير الشر، فدفع الشر بما هو شر منه، وأمثال هذا ونظائره أكثر من أن يحصى.[(١)]

* * *

وقال ابن ميثم في شرحه:

«تَذِلُّ الأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ».

استعار ذلّ الأمور لمطاوعتها للقدر، وجريانها على وفق القضاء، ولمّا كان الإنسان جاهلاً بأسرار القدر جاز أن يكون من غايات مطاوعة الأمور للقدر كون ما يعتقده الإنسان الجاهل مصلحة، ويفعله تدبيراً لمنفعة سبباً لحتفه وهلاكه، وفيه إيماء إلى وجوب أسباب الأمور إلى الله وعدم التوكل على التدبير والإنقطاع إليه.[(٢)]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٩ - ١٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٨.

وقال في (منهاج البراعة):[١]

اللغة:

(ذلّ) ذُلاً وذِلاً، البعير سهل انقياده (المقدار) جمع مقادير (الحتف) جمع حتوف: الموت.

المعنى:

الإنسان مختار في أعماله وأفعاله، فصار مكلّفاً يثاب ويعاقب، وموظفاً يستحسن ويعاقب، ولكن أحاطت به أمور كثيرة لا يقدر على تغييرها، ولا يتمكن من تغيير مسيرها، وهو مع ذلك لا يحيط علماً وخبراً بما يترتّب على أعماله من نتائج، ولا يتيسّر له تدبير كل الحوائج، فربما يهرب من عدوّ ويقع في الحبالة، وربّما يتداوى بدواء فيزيده داء، فهو بماله من القدرة والمنعة كألعوبة في يد المقادير، وكباحث حتفه بظلفه، وإن كان حاذقاً في التدبير.

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):[٢]

يحذر الإمام عليه السلام بهذا من المخبآت والمفاجآت التي لا تراها العيون، ولا تومىء إليها القرائن من قريب أو بعيد، يحذّر كل إنسان من ذلك كي يحتاط ويحترس، على أن الوقاية من الهلاك قد تكون هي السبب الموجب له، كالطبيب يصف نوعاً من الدواء لمريضه بقصد الشفاء، فيقضي عليه، أو يتحصن الجيش من عدوّه في مكان ملغوم، أو يفرّ من الجهاد طلباً للسلامة فيقع فيما هو أدهى وأمر.

---

(١) ج ٢١: ٣٢.

(٢) ج ٤: ٢٢٥.

القضاء والقدر:

قوله عليه السلام:

«تَذِلُّ الأمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ» وهو استعراض للقضاء والقدر.

أقول: لقد سبق لنا البحث عن القضاء والقدر في المجلد الأوّل من كتابنا (الجواهر الروحية) وحيث استدعى المقام أن نعود ثانية، لمكان قوله عليه السلام: «تَذِلُّ الأمُورُ لِلْمَقَادِيرِ...» فينبغي لنا أن نبسط الحديث فيه.

لذلك فنحن نستوحي بحثاً عن القضاء والقدر من كتاب (الدين والإسلام) لمؤلفه الحجة الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء رضوان الله عليه، فقد ذكر في (ص ١٥٨) من الكتاب ما هذا نصه:

نعم إن شأن العلم والمعرفة لغريب، وكل شيء له ناموس أبت العناية إلاّ أن يجريَ عليه، وناموس الأشياء ان تظهر بالعلم، وناموس العلم أن يظهر بنفسه، ويندفع إلى الخارج بذاته مهما حاولت كتمانه وحاولت إخفاءه، كالنور بل هو هو في خاصيته، به تستنير الأشياء وهو يستنير بنفسه ويظهر بذاته، كما أنه يتطلب المخرج لأشعته على رغم الحُجب الكثيفة والموانع العنيفة حتّى يشع ويستنير.

كلما حاولتُ أن أتجاوز هذا المقام، وأطوي هذه المباحث دون أن أخوض هذه اللجّة (لجّة القضاء والقدر) وجدتُ كأنّ دافعاً يهزّني ورقيباً علي من ضميري يستفزني، إلاّ عن مشاطرتها بعضاً من الكلام فيها على ساقة أخواتها من المستعصيات... ولكني راغب في أن أجلو جوهرتها المخبأة ومنيعتها المخدّرة بأبدع زينة وأزهى حُلّة، وأسهل تقريب وبيان، وبالحريّ أن نقدّم مثلاً للتقريب أمام المقصود.

ألست أنت وكلّ بصير جدّ خبير أن كل جماعة وأمّة دخلت تحت جامعة واحدة وجهة عامة لا محالة تحتاج إلى وضع نواميس تجري عليها، وتخرج بها عن الفوضى والسراح المودي بها والمؤدي إلى هلاكها بدون إقامة تلك الحدود والموازين مهما كان واضعها وشارعها فرداً أو جماعة، ملكاً حكيماً أو رئيساً متبعاً، أو مؤتمراً منتخباً أو غير ذلك.

ولنفرض أن ملكاً حكيماً نظر في صالح رعاياه، فرأى أن يضع لها نواميس تتكفل بنظم سعادتها، وجعلها في صفوف الأمم الراقية التي لا ندحة لها عن تلك النظامات، وهذا هو ما تنهج على منواله اليوم كل إدارة وجمعية في العالم، ولا ترى لنفسها حياة ومجداً إلاّ به، ومهما اختلفت المشروعات والأحكام، فإنّ ضرورة الأمم إلى النظام لا تختلف على حال من الأحوال، وبحسب صحة قوانين كلّ أمّة وانطباقها على الوسط التي هي فيه، وجريها على تلك النواميس الموافقة الجالبة لخيرها وسعادتها، يكون حظّها من التمدن والعمران، وعلى مثل هذا سير الحكومات المتمدنة اليوم، كما أنّ من الجليّ ان ليست تلك النظامات أموراً خصوصية، وأحكاماً شخصية، ومواداً جزئية، كالحكم على هذا الشيخ أو تلك الذات أو هذا الموجود الخصوصي، وإنما هي قضايا كلية وأحكام عمومية تجري على جمهور من الناس في دهور من العصور، حتّى يحدث ما يقضي بتغييرها حسب الظروف، فتغيّر أيضاً على ذلك الوجه الكلي.

وضع ذلك الملك الحكيم كل حكم من الأحكام التي يتوقف عليها النظام، والسير إلى السعادة النوعية حسب علمه بصالح أمّته، ولم يدع نقيراً ولا فتيلاً إلاّ وعيّن كليّاً ما يجري له وما يجري عليه، فالجندي ومهنته ومؤونته، والزراع وعمله وضريبته، وكل صانع ومحترف، وجانٍ ومقترف، وقاسط وجائر، وواقف وسائر، ومتوانٍ ومجدّ، وساعٍ وواهن، وأمين وخائن، وجعل لكل ذلك

أسباباً ومسبّبات، وعللاً وغايات يوجب بعضها بعضاً، وينجرّ بعضها إلى بعض على نواميس معيّنة وحدود مبينة سبقت كلمته وقضت حكمته أن تسير على ذلك ولا تقف، ولا تنخرم ولا تختلف، ثمّ أمر بعض مهرة كتّابه أن يسجّل تلك القضايا الكلية، والنواميس العامة، بأسبابها ومسبّباتها، وعللها ومعلوماتها، ومبادئها وغاياتها، وأصولها وثمراتها، أمره بعناية منه ملحوظة، أن يسجّلها في ألواح محفوظة، لا حذراً من أن ينسى الملك شيئاً منها، أو مخافة أن تغيب عنه أو يغيب عنها، كلاّ فإنه الحفيظ الذي لا ينسى والحكيم الذي لا يغفل، والعليم الذي لا يجهل، ولكن إظهاراً لسعة علمه وتعاظم قدرته، ونفوذ مشيّته، وسعة سلطانه وملكه، ولكي يوقف عليها الخاصة من حاشيته وملازمي حضرته، والمهيمنين على أسراره، فيتكاملون معرفة ويقيناً، وتقيداً وخضوعاً.

ثمّ بعد أن أبرم أحكامه وحكم إبرامه، وأجرى في اللوح بما شاء أقلامه، ذرأ بريته واستبرأ فيهم مشيّته، ومنحهم فأفضل، وأعطاهم فأجزل، فكان أشرف ما منحهم به ووهبهم إيّاه جوهرين شريفين انتزعهما من وساماته، واخترعهما من خزانة ذاته _ ألا وهما جوهر العقل، والثاني جوهر حرية الاختيار وإطلاق الارادة وسراح المشية، وتلك هي الكلمة التي سبقت من ربك، ولولاها لما تأنست المدن، ولا تمدّن الإنسان، ولا اعتمر النظام ولا انتظم العمران، عرض هذين الجوهرين الشريفين أمانةً على السماوات والأرض فأبين عن حملها، وحملها الإنسان فكان ظلوماً لهما باستعبادهما لشهواته، واستعمالهما تحت سيطرة إمارته، جهولاً بالغاية التي وجدا لها، والثمرة التي أودعا فيه من أجلها.

أعلن الملك منشوراً في رعيته يقرؤه كل أحد من وجدانه وصحيفة نفسه، يحسّ ويجد قائلاً يقول له همساً في ضميره قبل كل

شيء: ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١] ليعمل كل عاملٍ ما أراد، وما اختار لنفسه، وليضعها أينما شاء وحيثما أراد، فإنّ السبل له ميسّرة، والأسباب والوسائل حاضرة، وغاية كل سبيل معلومة، والغايات لازمة، والعنايات قائمة والحجة واضحة، والإعلام لايحة والحجة بالغة، والأعمال كلها حسب التمكين والتكوين سابغة، والمعونة والمساعدة حسب الإرادة والسعي لكل عاملٍ مبذولة ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٢] فهديناه النجدين نجد الخير والشر والسعادة والشقاء، ثمّ بعد أن استتّبت هذه المقامات واستحكمت عند الملك وخاصته تلك النظامات، أمر ذلك الكاتب الذي جعله خزانة أسراره، ومستودع مفاتيح غيبه، وهو من صنعه وعالمه، أمره أن يسجّل في لوح خصوصي له جميع المواد الجزئية والقضايا الشخصية، فجعل يُملي على كاتبه إظهاراً لمزيد علمه وشمول قدرته واحاطته بشؤون أفراد رعيته ومقتضيات استعداداتهم وأهوائهم ورغباتهم وشقاوتهم وسعادتهم، جعل يُملي ما يجري على حياة كل فردٍ فرد منهم، وما سيختاره بحرّية إرادته وصرف مشيته، دون أدنى إجبار أو إكراه، أو تعمية أو اشتباه، وضمّنه كل ما يمرّ عليه في صحائف أيامه ولياليه، مما يدخل في قدرته وإرادته، وما ليس من ذلك من مدّة أجله وغاية عمله وحظوظه من نِعَم الحياة وبسط العيش ونعيم الدنيا، بالأولاد والاحفاد، والصحة والعافية والملك والسلطنة وامتداد

(١) فصلت: ٤٠.

(٢) الإنسان: ٢ و٣.

البقاء، ومساعدة الأيام بالهدوّ والسكينة والراحة والطمأنينة وأشباه ذلك مما ليس هو على الحقيقة الراهنة، من مجهودات المرء وخصوصياته، فإنّ في وسع الإنسان أن يسعى فيصير عالماً أخلاقياً، أو طبيباً نطاسياً، أو حكيماً فلسفياً، أو مخترعاً صناعياً، ولكن ليس في وسعه أن يسعى فيصير ملكا مطاعاً أو قهرماناً شجاعاً، أو ذا نسل متكاثر بعدد مخصوص أو ما أشبه هذه المناحي، فإنّ جميع هذه النعم والغايات مقادير وحدود وأحاظٍ قُسمت وجدود.

والغرض أنه سجّل في هذا اللوح تفاصيل كل ما يجري على كل واحد من الرعية مما هو خارج عن دائرة اختياره وما هو داخل فيها، ولكن لا يعزّبن عنك اسلوب ذلك الكتب في ما هو مفوّض إلى العبد، وله فيه حريّة الإرادة والاختيار، فإنه كُتِبَ في سجلّ التكوين لا التشريع أن سيفعل كذا، وانّه يختار كذا، لا كُتب عليه أن يفعل كذا وان يختار كذا، حتّى تبطل الإرادة، وينقلب الاختيار إلى ضده، وتتحوّر المشية عن حقيقتها، والفرق بين العبارتين كالفرق بين الحقيقتين في غاية الجلاء والوضوح، وقد أصبح اليوم من الجليات أنّ العلم لا أثر له في المعلوم، وأنّ المعلوم يوجد بأسبابه وسلسلة علله، لا بعلم العالم أو جهل الجاهل.

بيد أن العلم لا يتعلق إلاّ بحقيقة راهنة، فلو أنّ صيرورته حقيقة راهنة بالعلم لدار واستحال، وهذا اللوح كسجل التفصيل، كما أن السابق كسجل الجملة، وحيث قضى الملك ما أراد من النظام جملة وتفصيلاً، وأبرم القضاء فيما شاء إنشاءاً وتسجيلاً، وبلغ المقام إلى دور العمل ومرحلة العين وفسحة الوجود، جعل يوجد ما في العين على طبق تلك الألواح المسطورة والنواميس المقرّرة،

ولكل إيجاد وانشاء تعيّن خاص وطور من أطوار الملك ومظهر قوّةٍ له تعبّر عنه باسم موعزٍ إلى معنىً خصوصي يُشار به إلى ذات الملك باعتبار هذا الأثر الصادر منه، ولكثرة الصوادر تكثّرت الاسماء والصفات، ولكن أمّهات الأسماء ومفاتيحها محصورة، وهي أمّهات الانواع، ومفاتيح أغلاقها، ومقدّسات هياكلها، فباعتبار الخلق خلاّق، وبالنظر إلى الرزق رزّاق، ومن حيث إيجاد موجد، ونظراً لرحمته رحيم، وهكذا سوى أنّ جلالة الملك بعد أن كتب ما كتب وسطر ما سطر، ودبّر ما دبّر، وربط تلك القضايا المسطورة خاصها وعامها بأسمائه الخاصة والعامة (تعالى وتعاظم) فجعل لنفسه حرية الإرادة المقدّسة وسَراح المشيّة المنيعة، واطلاق الاختيار الأقدس، كما جعل شيئاً منها لرعيته، فإنه هو أحق منهم بذلك، وأحرى أن تكون له تلك الميزة والخاصة؛ لأنه يتصرف في ملكه ويتقلّب في حقوقه، فأولى أن لا تكون يده مغلولة، وتصرّفاته محجورة بل يداه مبسوطتان وهو كل يوم في شأن، وأن لا تسلبه مستودعات قضائه ومستطرات ألواحه، شيئاً من حرية اختياره واطلاق مشيئته؛ بل تكون هي نظراً إلى حسب الاقتضاءات والأغلبيّة، فإنه هو رابط الأسباب بالمسبّبات والعلل بالمعلولات، فلو شاء في مقام أن لا يجعل النار مؤثرة في الإحراق، ولا الماء مقتضياً للرواء، ولا الدواء ناجعاً من الداء كان له ذلك، وكثيراً ما يفعله حسب الظروف التي تقتضيه، وتخرجه عن نواميسه الأولى، وهذه المرتبة أعني السيطرة والحاكمية للارادة والمشية على تلك المسجّلات، هو المقام الذي اختصه الملك لنفسه ولم يُطلع على شيء منه أحداً من رعيته، لا كاتب ولا وزير، ولا نديم ولا سمير.

وهو مقام الغيب وأمّ الكتاب الذي لا يُغيّر ولا يُبدّل، والذي جفّ فيه القلم، وبه ترتبط الأسماء المخزونات المكنونات التي لم يظهر عليها أحد من خلقه، لا

ملك مقرّب ولا نبيّ منتجب، ولا عبد مصطفى، هي التي استأثر بها في علم الغيب عنده، وجعل مفاتحها لديه، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلا هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إلا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾[١] وهذا الكتاب المبين الذي هو مجموع لوحي الجملة والتفصيل، هو مظهر تنزّلات البداء وتغيّرات ما يتجلّى فيه لمطالعيه من المقربين وذوي الكرامة.

[مبادي البداء]:

أمّا مبادي البداء فهي تنشأ من ذلك الكتاب المخزون المغلق بمفاتيح الغيب وأقفال العلم المصون التي لا سبيل لاحد إلى استطلاع ما ورائها، ومن هنا مقام الخوف والفزع والحزن والجزع، والرهبة والرغبة التي تلازم المقرّبين وملازم الحضرة فانهم وان وجدوا في الواح الكتاب المبين انهم من الأولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولكن لا يعلمون ما خبأ لهم الغيب وراء استاره من التقلّبات، والمحو والاثبات المنبعثة من الإرادة الحرّة والمشية المطلقة، فهم على أبواب حصونها المنيعة ضارعون خاشعون خائفون، فزعون يرصدون أن يلمّ بخواطرهم وظواهرهم من الخطأ ما يتخطى بنظر العناية عنهم فتزلّ بهم مزالق التوفيق إلى حيث لا يعلمون.

ثمّ بعد هذا كله لا أراك إلاّ وقد عرفت جهات التطبيق والموازنة في هذا المثل الجلي، فليكن الملك، هو مالك الملك وعزيمته على وضع النواميس لصالح من في قبضته هي العناية الأولى، والكاتب بين يديه هو

---

(١) الأنعام: ٥٩.

القلم الأعلى، واللوح الذي رسم فيه الكليّات وسلسلة الأسباب والمسبّبات هو لوح القضاء، والآخر الذي قدّر وفصّل فيه الاختصاصيات وأعيان الموجودات، ومجاري الكائنات هو لوح القدر، لوح المحو والاثبات، وعلى نحو ذلك فقس ساير خواص التمثيل، ونحن بعونه تعالى نفصّل كل هذه الجملة، ونوضح بعض تلك المبهمات على طراز الصناعة ولسان العلم، ونضع بيانها في عدة أمور:

[بيان أمور شارحة للقضاء والقدر]:

الأوّل: في العناية الأولى والقضاء والقدر، والفرق فيما بينها: أما القضاء فهو عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء على وجهٍ كلي في مجرّدٍ، نسميه بالعالم العقلي، والقدر عبارة عن حصول صور الموجودات على وجه جزئي في مجرّد نسمّيه بالعالم النفسي _ أعني ما يرتبط لما في الخارج من الكوائن المترتبة مستنداً لأسبابها واجبة بها لازمة لأوقاتها _ أما العناية الأولى فهي عبارة عن إحاطة علمه تعالى بالكل إحاطة كلية تامة في مقام الكشف التفصيلي، فهي محيطة بالقضاء مشتملة عليه وهو مشتمل على القدر محيط به، والقدر محيط بالواقع مشتمل عليه سوى أنّ العناية لا محلّ لها، إذ ليس هي سوى علمه تعالى بذاته الذي هو حضوره لذاته على وحدتها الذاتية، وما يلزم لحضرته من التعيّنات اللازمة لذاته بالمرتبة التفصيلية، وتلك الحقيقة الأحدية اقتضت أوّل ما اقتضت من تعيّناتها، جوهراً روحانياً يسمى بالروح الأولى والعقل الأوّل والقلم الأعلى، وغير ذلك.

ثمّ تسلسلت الموجودات مجرّدة ومادّية، طوليّة وعرضية على ترتيب الأنوار المتعاكسة في المرايا المتقابلة، على ما ذكره علماء

الإشراق مما لا يتسع المقام لذكره، سوى أن ذلك الجوهر المجرّد هو روح العالم، وفيه ينتقش جميع صور الأشياء على ما عليه نظامها وهيئاتها وكمالاتها على وجه كلي، والباري يعلمه بتمامه مع الصور الثابتة فيه بأعيانها، لا بصور زايدة عليها؛ بل بمجرّد حضورها له كحضور مُنشآت النفس لها، وذلك الحضور هو العناية العامة، فإذا تدبّرت هذه النظريّة، وأحطت علماً نحفايا هذه الجملة ظهر لك أنّ العناية لا محلّ لها.

الثاني: في محلّ القضاء، حيث ثبت وجود مجرّد قادر قاهر حيّ، وبه حياة كل موجود وكيانه، أمكنك من هنا أن تتفطّن وتحصّل البرهان على وجود وسائط في الفيض، وهي جواهر مجرّدة عن المواد، منزّهة عن الفساد، خالية عن القوّة والاستعداد، إذ هي فعلياتٌ محضة غير واقعة في صراط الحركة والإستكمال، مدركة لذواتها ولما عداها بذواتها، فهي أنوار قاهرة مؤثرة فيما دونها من النفوس والاجرام بتأثير الله فيها، فقاهريّتها التي هي تأثيرها في غيرها رشحٌ من قاهرية الله وأثر من آثار قدرته، كما أن ذواتها ونوريتها سُبحة من سبحات وجهه، وبهذا الاعتبار تسمّى هذه المجردات بالملائكة المقربين، والروحانيين، والكروبيين، وهم سادات الملائكة، وعالمها عالم القوة والقدرة وجبر نقصانات إمكانها، وامكانات ما دونها بما تفيضه من فيضان الحق عليها من الكمالات، وبهذا الاعتبار من الجبر والقاهرية تُسمّى بعالم الجبروت، وهي صورة صفة جبّار لله تعالى، ومعلوم أن تلك الحقائق والكمالات الفايضة منها لو لم تكن ثابتة فيها حاصلة لها لم يكن فيضانها عنها، فإذاً تلك الحقائق الامكانية بأعيانها وكمالاتها منتعشة فيها، وهذا النقش

والارتسام هو صورة القضاء الإلهي ومحلّة عالم الجبروت، وأمّ الكتاب واللوح الذي رسم القلم الأعلى، والعقل الأوّل فيه تلك النواميس، وعنه يفيض إلينا كل ما نصيبه من الحقائق والعلوم الصحيحة، ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾،[١] وتلك الجواهر المجردة هي أحدى خزائن غيبه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾[٢] ولا شك أنها متعالية عن تعلّق الزمان ومقدسة عن تغيّر الحدثان، فالقضاء مثلها.

الثالث: في محلّ القدر، كما أن العالم الروحاني بجوهره المجرد محلٌّ القضاء، فالعالم الجسماني ـ أعني هذه الكرات المتحركة على مداراتها، والنظامات المستديرة على شموسها، ومنه نظامنا الشمسي بسياراته وأقماره وأروضه هو محلٌّ القدر باعتبار نفوسه المحرّكة له، فإنّ كل متحركٍ لا بدّ له لا محالة من قوى محركة دافعة أو جاذبة، ولا شكّ أنّ تلك القوى ليست أموراً محسوسة، ولا هي المادة نفسها، فهي من عوالم ما وراء الشهادة، ومما بعد الطبيعة، وهذه القوى هي محلّ القدر، إذا الصور الكلية في عالم القضاء لغاية الصفاء لا تتراءى ولا تتمثّل لغيرها لشدّة نوريتها كمرآة مضيئة تردّ البصر عن إدراك ما فيها من الصور بشعاعها، فتنتسخ تلك الصور الجزئية في لوح تلك النفوس، كما ينتقش في قوّتنا الخيالية صور شخصية من معلوماتنا الجزئية، وهذا العالم هو عالم الملكوت، وصقع الملائكة العمّالة بإذنه تعالى المسخّرة بأمره المدبّرة لأمور العالم بإعداد المواد وتهيئة الأسباب، فمحلّ القدر هو عالم الملكوت، كما أنّ محلّ القضاء هو عالم الجبروت، وفي هذا العالم أعني عالم

---

(١) العلق: ٣ – ٥.

(٢) الحجر: ٢١.

الملكوت تتعاقب الحركات وتتلاحق الأوضاع، فتتوالى الصور على تلك القوى الجسمانية المعبّر عنها عندهم بالنفوس الفلكية، وبتواتر الفيض على المواد متتالية حسب استعدادها للصور المتعاقبة متشخّصة مقدّرة في الأجرام الشخصية، وارتسام تلك الصور هو طبق عالم القدر، وفيه يتحقّق المحو والاثبات ويتبعها الكون والفساد في الجسمانيات والطبيعيات، من خلع ولبس أو لبس صورة بعد أخرى، كما تجد في عالم الكون فيما لا يزال وهذا معنى آخر للمحو والاثبات، فتدبّره.

وعلى أيّ حال فالقصارى أنّ من الأوضاع أوضاعاً كلية يتبعها كونُ الأعيان الخارجية وفسادها، ومنها جزئيات يتبعها أحوالها المترادفة وكمالاته المتعاقبة، وهذه الجزئيات متخلّلة بين تلك الكليات متداخلة فيها، فيكون كل طائفة في الأوضاع المترتبة الموجبة لكمال كائن ما أو حدوث حال من أحواله، وتغيّرها منحصرة بين وضعين منها: أحدها يقتضي حدوث ذلك الكائن، والآخر زواله أو تبدّله بصورة أخرى، والإمتداد الواقع بين هذين الوضعين المستمر مع تلك الأوضاع المتخللة الذي هو مجموع مقادير تلك الحركات الموجبة لتلك الأوضاع، هو مدّة بقاء ذلك الحادث ومنتهى أجله، والنقش الحادث عند وضعه الأخير هو كتابه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[1] وهذه التقادير كلها تفاصيل قضائه والله بكل شيء محيط.

الرابع: [زيادة توضيح]: قد ذكروا لتوضيح هذه المشكلات مثلاً مناسباً لاستنزال تلك الشمخات من أوج منعتها إلى فسحة الأذهان بحسن البيان، ويحسن هنا إيراده بتوضيح واختصار: وهو أنّ صورة العالم بعينها كصورة إنسان، فكما أن لأفعال الإنسان عند صدورها منه وبروزها من

---

(١) الرعد: ٣٨.

مكامن غيبها إلى مظاهر شهادتها أربع مراتب: فهي أوّلاً في مكمن روحه الذي هو غيب غيوبه على غاية الخفاء كأنها غير مشعور بها لغاية الصفاء والقرب من التجرّد، ثمّ تتنزل إلى مخزن قلبه عند استحضارها واخطارها بالبال كلية، ثمّ تتنزّل إلى مخزن خياله مشخّصة جزئية، ثمّ ينبعث شوقه وغرادته إليها فتتحرك الأعضاء عند إرادة ايجادها، فتظهر منه في الخارج، فكذلك لما يحدث في الخارج من الحوادث بحسب مادته وأسبابه، إذ الأولى بمنزلة العناية، والثانية بمنزلة القضاء، والثالثة بمقام القدر، والرابعة بمثابة الصور الحادثة في المواد العنصرية.

ولعلّك إذا نظرت إلى حالك في محفوظاتك من قرآن أو حديث أو شعر أو غير ذلك عند إرادة تلاوتها وابرازها إلى خارج الوجود، وجدتها مطابقة لذلك، ولعلّ إلى بعض هذه المراتب الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[1] ومن الجايز (والعلم لله) أن يكون الطور إشارة إلى العرش والعناية المحيطة، والكتاب المسطور هو نقش القضاء الأوّل، والرق المنشور هو ما فصّله القدر ونشره من عالم القضاء، والبيت المعمور هو النفس الناطقة الكلية التي بها حياة عالم الأجسام، والسقف المرفوع هو عالم الفلكيات والأجرام السماوية، وقرنت بالبيت المعمور لنزول الصور منها ونفخ الروح منه، فيتم خلق الحيوان بهما، والبحر المسجور هو العمق الأكبر المذكور في دعاء السمات، وهو بحر الهيولي السيّالة المملوء بالصور، والحقايق لله جلت عظمته، وهو بها أعلم.

لما كانت كلمة الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله في القضاء والقدر

---

(١) الطور: ١ – ٦.

شائكة معقّدة قلّ من يهتدي لفهم المراد منها، رغبنا أن نلحق بها هذا الفصل في القضاء والقدر لأنه أبسط وأوضح لمن يروم كشف المراد.

* * *

فنقول: ذكر الشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهي في الجزء الثاني (ص ٥٤٧) من كتابه (المستطرف في كل فنّ مستظرف):

اعلم أنّ كل ما يجري في العالم من حركة وسكون، وخير وشرّ، ونفع وضر، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكل بقضاء الله وقدره، وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه، ولا حيوان يدبّ على بطنه ورجليه، ولا تطنّ بعوضة، ولا تسقط ورقة إلاّ بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته، كما لا يجري شيء من ذلك إلاّ وقد سبق علمه به.

واعلم أنّ كلّ ما قضاه الله تعالى وقدّره فهو كائن لا محالة، كما أنّ ما في علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب وما قدّر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلاّ بالطلب، والطلب أيضاً من القدر، فإن تعسّر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره، فمن رام أمراً من الأمور ليس الطريق في تحصيله أن يغلق بابه عليه ويفوّض أمره لربّه وينتظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرّعه له فيه، وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين، واتخذ خندقاً حول المدينة حين تحزّبت عليه الأحزاب يحترس به من العدوّ، وأقام الرماة يوم أُحد ليحفظوه من خالد بن الوليد، وكان يلبس لامة الحرب ويهيىء الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه مصالحهم، واسترقى وأمر بالرقية، وتداوى وأمر بالمداواة، وقال: الذي أنزل الداء أنزل الدواء.

فإن قيل: إن النبي ﷺ قال: «من استرقى أو اكتوى فهو بريء من

التوكل»؟ قلنا: أليس قد قال: إعقِلها وتوكل، فإن قيل: فما الجمع بين ذلك؟ قلنا: معناه من استرقى أو اكتوى متّكلاً على الرقيّة أو الكيّ، وإن البرء من قبلهما خاصة، فهذا يخرجه عن التوكل، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله، وقد أمرنا بالكسب والتسبب، ألا ترى إن الله قال لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾[1] فهلاً أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها، وأنشدوا في ذلك:

ألم ترَ أن الله قال لمريم ... وهزّي إليك الجذع يساقط الرطبُ

ولو شاء أن يجنيه من غير هزها ... جنته ولكن كل شيء له سببُ

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً، فلم يحمل أرزاقها إليها في أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدوّ والرواح، وقد بين الطلب والقدر»، فقالوا: إنهما كالعدلين على ظهر الدابة إن حمل في واحد منهما أرجح مما في الآخر سقط حمله وتعب ظهره وثقل عليه سفره، وإن عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وتمت بغيته، وضربوا فيه مثالاً عجيباً فقالوا: إنّ أعمى ومقعداً كانا في قرية بفقر وضرٍّ لا قائد للأعمى ولا حامل للمقعد، وكان في القرية رجل يطعمهما قوتهما في كل يوم احتساباً لله تعالى، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا بعده أياماً، واشتد جوعهما وبلغ الضر منها جهده، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد فيدله المقعد على الطريق يبصّره، فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ويدور وبه يرشده إلى الطريق، وأهل القرية يتصدّقون

---

(١) مريم: ٢٥.

عليهما، فنجح أمرهما، ولولا ذلك لهلكا، فكذلك القدر سببه الطلب والطلب سببه القدر، وكل واحد منهما معين لصاحبه، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثمّ قعد في بيته لم يطأ زوجته ولم يبذر أرضه معتمداً في ذلك على الله واثقاً به أن تلد امرأته من غير مواقعة، وأن ينبت الزرع من غير بذر، كان عن العقول خارجاً ولأمر الله كارهاً.

قال الغزالي: أما المعيل فلا يخرج عن حدّ التوكل بادّخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم، وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخّر شيئاً، وقال: «انفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»، وقال عبد الله بن الفرج: اطلعت على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان بالشام فوجدته مستلقياً على قفاه، وإذا بحية في فمها باقة نرجس، فما زالت تذبّ عنه حتّى انتبه، فحسبك توكّل تؤدي إلى هذا.

وعن عبد الله الهروي قال: كنّا مع الفضيل بن عياض على جبل أبي قبيس، فقال: لو أن رجلاً صدق في توكله على الله ثمّ قال لهذا الجبل: اهتز لاهتزّ، فو الله لقد رأيت الجبل اهتزّ وتحرّك، فقال له الفضيل: لم أعَنِكَ رحمك الله فسكن.

[قصة فيها عبرة]:

وفي الإسرائيليّات: إنّ رجلاً احتاج إلى أن يقترض ألف دينار، فجاء إلى رجل من المتموّلين فسأله في ذلك وقال له: تمهل عليَّ بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فإنّ لي مالاً آتيك به وأوفيك منه، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا وكذا، فقال له: هذا غرر فأنا ما أعطيك مالي

إلاّ أن تجعل لي كفيلاً إن لم تحضر طلبته منه، فقال الرجل: الله كفيل بمالك وشاهد علي أن لا أغفل عن وفائك، فإن رضيت فافعل، فداخل الرجل خشية الله تعالى وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذي ذكره فلمّا قرب الأجل الذي بينه وبين صاحبه، جهّز المال وقصد السفر في البحر فعسر عليه وجود مركب ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركباً، فاغتم لذلك وأخذ الألف دينار وجعله في خشبة وسمّر عليها، ثمّ قال: اللهم اني جعلتك كفيلاً بايصال هذه إلى صاحبها، وقد تعذّر عليَّ وجود مركب، وعزمت على طرحها في البحر، وتوكلت عليك في ايصالها إليه، ثمّ نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال، وطرحها في البحر بيده، وأقام في البلد مدة بعد ذلك إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال فابتدأه وقال: أنت سيّرت الألف دينار في خشبة صفتها كيت وكيت وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال نعم: قال: قد أوصلها الله تعالى إليَّ والله نعم الكفيل، فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك، فوقفت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إليّ ولم أزلها طالباً، فأخذها الغلام ليجعلها حطباً فلما كسرها وجد ما فيها فاخبرني بذلك، فقرأت ما عليها فعلمت أن الله تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل...

وروي في الإسرائيليات أن نبياً من الأنبياء عليهم السلام مرّ بفخّ منصوب، وإذا بطائر قريب منه، فقال له الطائر: يا نبي الله هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيدني به وأنا أنظر إليه. قال: فذهب عنه ذلك النبي، ثمّ

رجع وإذا بالطائر في الفخ، فقال له عجباً لك ألست القائل كذا وكذا آنفاً؟ فقال: يا نبي الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين.

ويروى أن رجلاً قال لبزرجمهر: تعالَ نتناظر في القدر، قال: وما نصنع بالمناظرة، قال: رأيت شيئاً ظاهراً استدللت به على الباطن، رأيت جاهلاً مبروراً، وعالماً محروماً، فعلمت أن التدبير ليس للعباد.

ولما قدم موسى بن نصر بعد فتح الآندلس على سليمان بن عبد الملك، قال له يزيد بن المهلب: أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك في يد سليمان؟ فقال: إن الهدهد ينظر إلى الماء في الأرض على ألف قامة ويبصر القريب منه والبعيد على بعد في التخوم، ثمّ ينصب له الصبي الفخ بالدودة أو الحبة فلا يبصره حتّى يقع فيه، وأنشدوا في ذلك:

وإذا خشيت من الأمور مقدراً ... وفررت منه فنحوه تتوجه

* * *

وقال آخر:

أقام على المسير وقد أنيخت ... مطاياه وغرّد حاداها

وقال أخاف عادية الليالي ... على نفسي وأن ألقي رداها

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها

ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها

ولما قُتل كسرى بزرجمهر وجد في منطقته كتاب فيه: إذا كان القضاء حقاً فالحرص باطل، وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق.

وقال ابن عبّاس وجعفر بن محمّد في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[1] إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله.

وحكى الطرطوشي في كتابه سراج الملوك قال: من عجيب ما اتفق بالاسكندرية، أن رجلاً من خدم نائب الاسكندرية غاب عن خدمته أياماً، ففي بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب فانفلت في بعض الطرق وترامى في بئر، والمدينة إذ ذاك مسردبة بسرداب يمشي الماشي فيه قائماً، فما زال الرجل يمشي إلى أن لاحت له بئر مضيئة فطلع منها فإذا البئر في دار النائب، فلما طلع أمسكه النائب وأدّبه، فكان فيه المثل السائر الفار من القضاء الغالب كالمنقلب في يد الطالب، وأنشدوا فيه:

قالوا تقيم وقد أحا ... ط بك العدو ولا تفرُّ

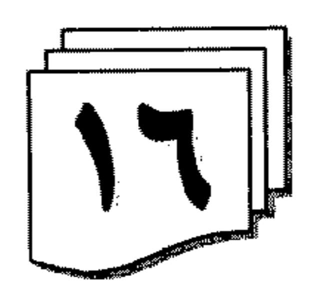
لا نلت خيراً إن بقيت ... ولا عداني الدهر شرُّ

إن كنت أعلم أن غير ... الله ينفع أو يضرُّ

* * *

---

(١) الكهف: ٨٢.



قوله عليه السلام:

... لَعَمْري يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ، لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلاّ أَنْ تَتَجَنَّى فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ وَالسَّلامُ.

(نهج البلاغة ٣: ٧)



[استغلال معاوية لمقتل عثمان]

ضبط الألفاظ اللغوية:

تجنّى ـ كتولى ـ: ادعى الجناية على من لم يفعلها، وتُجنْ ما بدا لك، أي تستره وتخفيه.[1]

قال ابن أبي الحديد:

قال أصحابنا المعتزلة: هذا الكلام حق وصواب؛ لأن أولياء الدم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته، ثمّ يرفعوا خصومهم إليه فإن حكم بالحق استديمت إمامته وإن حاد عن الحق انقضت خلافته، وأولياء عثمان الذين هم بنوه لم يبايعوا علياً عليه السلام ولا دخلوا تحت طاعته، ثمّ وكذلك معاوية ابن عم عثمان لم يبايع ولا أطاع، فمطالبتهم له بأن يقتص لهم من قاتلي عثمان قبل بيعتهم إياه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان.

فإن قلت: إن القصاص من قتلة عثمان موقوف على ما ذكره عليه السلام، أما كان يجب عليه لا من طريق القصاص أن ينهى عن المنكر، وأنتم تذهبون إلى أن النهي عن المنكر واجب على من هو سوقة فكيف على الإمام الأعظم.

قلت: هذا غير وارد ههنا؛ لأن النهي عن المنكر إنما يجب قبل وقوع المنكر لكيلا يقع فإذا وقع المنكر فأيّ نهي يكون عنه، وقد نهى عليه السلام أهل مصر وغيرهم عن قتل عثمان قبل قتله مراراً، ونابذهم بيده

---

(١) نهج البلاغة/ شرح محمّد عبده ٣: ٧.

ولسانه وبأولاده فلم يغن شيئاً، وتفاقم الأمر حتّى قُتل، ولا يجب بعد القتل إلاّ القصاص، فإذا امتنع أولياء الدم من طاعة الإمام لم يجب عليه أن يقتص من القاتلين؛ لأن القصاص حقهم وقد سقط ببغيهم على الإمام وخروجهم عن طاعته، وقد قلنا نحن إن القصاص إنما يجب على من باشر القتل، والذين باشروا قتل عثمان قتلوا يوم قتل عثمان في دار عثمان، والذين كان معاوية يطالبهم بدم عثمان لم يباشروا القتل وإنما كثروا السواد وحصروا عثمان في الدار وأجلبوا عليه وشتموه وتوعدوه، ومنهم من تسوّر عليه داره ولم ينزل إليه، ومنهم من نزل فحضر محضر قتله ولم يشرك فيه، وكل هؤلاء لا يجب عليهم القصاص في الشرع...[١]

* * *

وقال ابن ميثم:

... ثمّ أقسم عليه السلام، إنه على تقدير نظره بعقله دون هواه، يجده أبرأ الناس من دم عثمان، وإنه كان حين قتله في عزلة عنه، والملازمة واضحة، فإنّ القتل إما بفعل أو بقول ولم ينقل عن عليّ عليه السلام في أمر عثمان إلاّ أنه لزم بيته وانعزل عنه، بعد أن دافع عنه طويلاً بيده ولسانه فلم يمكن الدفع، وقوله عليه السلام: «إلاّ أن يتجنّى...» إلى آخره، استثناء منقطع أي إلاّ أن يدّعي عليّ ذنباً لم أفعله، فادّع ما بدا لك، أي ما ظهر في خيالك من الذنوب والجنايات فإن ذلك باب مفتوح لكل أمّة ومحل.

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١٤: ٣٧.

وجاء في (المجلد ١٧) من منهاج البراعة (ص ٢٠٠):

... لما كان هوى النفس قائداً إلى خلاف الحق؛ لأنه قرين سوء يزيّن كل قبيح ويقبّح كل حسن، وكاسفة بيضاء العقل كما قيل: (إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى)، أقسم عليه السلام بعمره لئن نظر معاوية فيما جرى عثمان بعقله الناصح من الهوى، ليجدنّه أبرأ الناس من دمه، وليعلّمن أنه عليه السلام كان في عزلة عن دم عثمان.

قوله عليه السلام: «إلاّ أن تتجنّى فتَجن ما بدا لك والسلام»، يعني به أنك لو خالفت هواك لتجدنّي أبرأ الناس من دم عثمان، إلاّ أن تعزّيني إلى الجناية افتراءً، وتدّعي عليّ ذنباً لم أفعله، فافتر على ما ظهر لك من الذنوب والجنايات.

ثمّ إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما كان أبرأ الناس من دم عثمان، وكان منزّهاً عن جناية وذنب، رأى أنّ معاوية أراد استغواء الناس بذلك الافتراء، وأنّ الإنسان المبريء عن الشيء لا يبالي بأقاويل كاذبة تقال فيه، لأن الباطل يذهب جفاءً، قال: «فتجنّ ما بدا لك».

وبوجه آخر أنه عليه السلام قال لمعاوية: إذا كنت تعلم أني أبرأ الناس من دم عثمان، ومع ذلك تفوه بما خلافه معلوم لك ولا تستحي بالافتراء فإن شئت أن تدّعي عليّ أيّة جناية كانت، وأردت أن تنسب إليَّ أيّ ذنب كان، فافعل، ولا يخفى أنّ كلامه عليه السلام ينبيء عن استخفاف أمر معاوية واستحقار تجنّيه عليه.

* * *

قال ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):

«ولعمري يا معاوية لئن نظرت...» إلخ:

أنت تعلم براءتي من دم عثمان وبدفاعي عنه، ولكنك تكذب مع نفسك،

وتفتري عليّ لمآرب شيطانية، ولو كنت من المتقين لمنعتك التقوى من أساليب المكر والخداع، فافعل ما شاء لك الهوى فإنّ الله بالمرصاد لكل ظالم وآثم.

قال العقاد في (عبقرية الإمام فصل البيعة): كان معاوية أقدر من الإمام على الدفاع عن عثمان، لأنه كان والياً على الشام عزيز الجند، يستطيع أن يرسله إليه ليحميه من الشدة اللازمة حتّى ولو أبى عثمان ذلك... أما عليّ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمنة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب...

كان الثوار يحسبونه أوّل مسؤول عن السعي في الإصلاح، وكان الخليفة يحسبه أوّل مسؤول عن كفّ الثوار: ولم يكن في العالم الإسلامي له رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ولا خلاص.

ثمّ قال العقاد: ومع هذا صنع الإمام غاية ما يصنعه رجل متعلق بالنقيضين... جاءه الثوار وعرضوا عليه البيعة، فلقيهم أسوأ لقاء، وأنذرهم إن عادوا ليكونن جزاؤهم عنده جزاء المفسدين في الأرض.

ومعاوية يعرف ذلك أكثر مما يعرفه العقاد، ولكنه يأبى إلاّ التجني والافتراء على الإمام.

* * *

وقال محمّد عليّ الحوماني في المجلد الرابع من كتابه دين وتمدين (ص ٣٤١):

قال عند قول الإمام عليّ عليه السلام: «ولئن نظرت بعقلك يا معاوية دون هواك...» إلخ:

أنا لا أفهم الماضي أو الحاضر؛ إلاّ أن تكون الصلة بينهما وثيقة العرى، فمن لا ماضي له لا حاضر له، ومن لا حاضر له لا ماضي له، ومن عمد إلى التاريخ فعليه أن يقيس الماضي على الحاضر في كلياته؛ لأن الكليات لا تتحول ولا تتبدل، وإنما التحول ينال الجزئيات، والدين بكلياته لا سلطان للتحوّل أو التطور عليه، وإنما يتطور بجزئياته، وإلى هذا ناظر قوله عليه الصلاة والسلام: «حلال محمّد حلال وحرامه حرام إلى يوم القيامة»، إنما يقصد به الكليات المعبّر عنها بأركان الدين، والأركان إذا اختلت تزعزج البناء، وحتّى السهو والنسيان إنما يترفع حكمه عن المكلف ما لم ينل أركان العبادة.

فالشك في الصلاة (مثلاً) أو السهو لا يتناول أركانها، وإنما يجري على الواجبات التي هي جزئيات بالنسبة إلى كيان الصلاة القائم على الأركان، من هذا نصل إلى أنّ قولهم: (تتغير الأحكام بتغيّر الأزمان) لا يصدق على كلّيات الزمن في تاريخه، فالخلافة في الدين، مثلاً أمر كلّي لا يجوز استبداله بالملكية الذي عبّر الرسول عنها بقوله: «الخلافة بعدي ثلاثون عاماً ثمّ تصبح ملكاً عضوضاً» فالحديث هذا وإن كان حاكياً عما يحدث، إلاّ أنّ كلمة عضوض تفيد تحريم الملك إذا لم يقم على الانتخاب الخلافي الذي ترضى عنه الأمّة بخيارها، أو يقوم على النص من خليفة عادل لخليفة مثله في العدالة. فلينظر القارئ إلى الفروق بين عليّ والصحابة، ثمّ بين معاوية وعليّ عليه السلام فإنّ كليهما جريا على ما تواضع المسلمون عليه بعد الرسول، فكلاهما استخلفه الناس، وكلاهما نص على خليفة من بعده، ولكن الفرق بينهما أنّ عليّاً خلف عثمان في المسلمين، وكانت خلافته صحيحة، ولهذا حكموا جميعاً بأنّ عليّاً أصاب

ومعاوية أخطأ، والفرق بينهما أيضاً أنّ علياً نص على ولديه الحسن والحسين، وأما معاوية فقد نص على يزيد، والمسلمون جميعاً حكموا بصلاح الحسين وفساد يزيد قبل أن يكون خليفة أبيه وبعده.

ولقد قرأت لابن أبي الحديد في شرحه نهج الإمام عليّ عليه السلام، قرأت له وهو يذكر رسائل عليّ لمعاوية وفيها قسوة الإمام المعروفة في الحق، ثمّ يذكر أجوبتها من معاوية أشد قسوة في الباطل، ثمّ يعلق ابن أبي الحديد باللوم على الإمام في مراسلة معاوية، يحسب أن ذلك يحط من قدر عليّ، لأن معاوية غير أهل لمراسلة عليّ، إذ ليس من قبيله ولا من نظرائه، ولكن رأي الإمام في غير هذا، إنّ رأيه أن يراسله ويذمّه ويثبت فساده وظلمه للمسلمين، ومع ذلك نرى كثيراً من المسلمين حتّى اليوم يرضون عن معاوية، فما كان يفعله المسلمون لو أنّ عليّاً أعرض عن معاوية وتوقّى شره؟، أفلا يجعلونه إذ ذاك أولى من عليّ وأفضل منه؟

[عليّ عليه السلام لا يقارن بمعاوية]:

وأمّا عليّاً لا يلتقي ومعاوية في كفاءة الند للند، فقد كان عليّ عليه السلام يعرف ذلك، ولهذا تمثّل بقول الشاعر:

ولو أنّي بليت بهاشمي خؤولته بنو عبد المدانِ
لهان عليّ ما ألقى ولكن تعالَوا فانظروا بمن ابتلاني

وفي قول الإمام كثير مما يدل على ذلك، إذ قال: «متى كنت أقرن إلى هذه النظائر؟...» ولكنه مع ذلك كله راد أن يظهر للناس جرأة معاوية على الحق وإغراقه في الباطل، وتلك هي سُنّة الله في كتابه إذ ناظر الله تعالت عظمته، إبليس في عدة مواطن من فرقانه الأعظم بقوله: ﴿قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا

خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾[2] ثمّ قال: ﴿فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾[3] فهل يلوم ابن أبي الحديد خالق إبليس في مناظرته له؟ كلا، ولكن الحكمة في ذلك إظهار جرأة المخلوق على خالقه والمربوب على ربّه، ومبلغ ذلك من الخروج على الحق وتحذير عباده من أن يجحد الإنسان نعمة أنعمها عليه ربّه، وأسداها إليه إنسان مثله.

العجب كل العجب من مسلمي عهدنا هذا المشرق بالنور والتحرر من كل ما يخطئ المنطق الحق.

أقول: العجب من هؤلاء كيف يتقوّلون بحق عليّ ثمّ يغفرون لابن هند باطلة؟ يقولون: إن عليّاً محق، وهو خليفة الرسول حقاً ثمّ يقرؤون تكفيره لمعاوية، وأنه ليس على شيء من الإسلام، يقرؤون ذلك في نهجه الذي لا مرية فيه، ثمّ يقرون إسلام معاوية، وأنه مأجور فيما بغى به على عليّ، وكان في بغيه سبباً لإزهاق ستين ألفاً من الأنفس المسلمة، كما تسبب في تضليل الأمّة أو أكثرها منذ أكثر من ألف عام حتّى اليوم، فما هو هذا الإسلام الذي نعتنقه ونضفي عليه مثل هذا الكفران من الفرية على الله وعلى رسوله. والخليفة إمام مفترض الطاعة قد اختارته الأمّة ليخلف من سبقه من الخلفاء في قيادة الأمّة وسياستها بالعدل والرحمة، وقد أجمع أئمة التاريخ على أنّ عليّاً لم يحد عن كتاب الله وسُنّة رسوله

---

(١) الأعراف: ١٢ - ١٣.

(٢) ص: ٧٨.

(٣) الأعراف: ١٦ - ١٧.

وسيرة من سبقه من الخلفاء الراشدين، إذن فطاعته من الأمّة فريضة، وإذا كانت طاعته فريضة كان قتاله لمعاوية حقاً، وأن معاوية يستحق القتل ومن استحق القتل كان غير مسلم، سيما إذا اعتقد أن في قتاله الإمام سبباً في إزهاق ألوف من الأرواح المسلمة، والخروج على الإمام كفر مسلّم به، فلماذا إذن اعراض أكثر الأمّة عن أوامر عليّ ونواهيه؟ ولماذا لا يتخذون من أقواله في نهجه دستوراً يعتصمون به من سُنّة معاوية المجرمة التي لا يزال يشبّ الصغير منّا ويهرم الكبير عليها؟ ولم يكن قول الإمام في عنوان هذا البحث قاصراً على قوله: «إلاّ أن تتجنّى فتجنّ ما بدا لك»، ولكن أقوال الإمام التي تثبت كفر معاوية وخروجه عن الإسلام كثيرة، منها جواباً عن خطاب، قوله عليه السلام:

«أمّا بعد، فإنّا كنا نحن وأنتم على ما ذكرت من الألفة والجماعة، ففرّق بيننا وبينكم أنا آمنا وكفرتم، واليوم إنا استقمنا وفتنتم، وما أسلم مسلمكم إلاّ كرهاً».

فماذا بعد هذا من إثبات الكفر والإسلام الزائف لمعاوية؟، وهل يطعن طاعن في صدق الإمام؟ وهل يشكّ مسلم في أن عليّاً لا ينطق عن الهوى، أفليست نفسه نفس رسول الله؟ ألم يقل صلوات الله عليه: «عليّ مني وأنا من عليّ» ومن كانت نفسه نفس الرسول، وكان الرسول من عليّ وعليّ منه، فكيف لا يصدق فيما تقول، ثمّ كيف لا يكون معصوماً لا ينطق عن الهوى؟

لقد ابتلاني الله منذ نعومة أظفاري، أو منذ فقهت الحياة الدنيا على الأقل، لقد ابتلاني بالصراحة فيما أقول وأفعل، أكره المجاملة والمواربة والخداع والغش والتدجيل، وكل صفات إنسان اليوم في عهد العلم

الحديث الذي لم يترك سبيلاً لنا إلى الحق إلاّ فتحه على مصراعيه، منذ درست التاريخ ومنذ سمعته من أفواه الخطباء والمحاضرين، وتمرّ بي في تاريخ الإسلام شخصيات مرموقة من الأجيال، ولكن الكثير منها لم ترمقه عين يبعث فيها النور.

قلب أخلصه الله للحق، وإنما تبصر بقلب ران عليه الجهل واستهوته الشياطين.

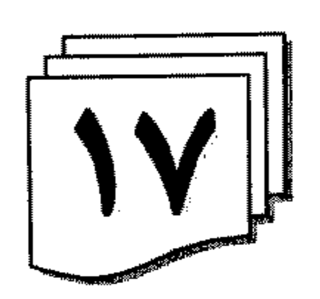
وفي الطليعة من هذه الشخصيات التي يرفعها الناس قديماً وحديثاً في بطون التاريخ، شخصية معاوية بن أبي سفيان، لقد أحطت علماً بتاريخ هذا الرجل قبل الإسلام وبعده فلم أجد فيه ما يتغنّى به الزمن إلاّ ما يسيء به إلى الحق إن كانت الإساءة إلى الحق تصلح لهتاف الزمن وتحياته، ولقد نمت هذه الشخصية في كياني الأدبي، محفوفة بجهل العلل والأسباب التي قام عليها تقديس هذا الرجل وتعظيمه على ألسنة الأغلبية من بني الإنسان، وكلما صعدت في سني ازداد اقتناعاً بأن الناس كما وصفهم الإمام عليه السلام بقوله: «أكثر الناس همج رعاع ينعقون مع كل ناعق».

لذلك أصبحت أرتاب في التاريخ قديماً وحديثاً، وكل حدث جلل مرّ بي منه وقع من نفسي موقع الشك في مصدره وماله، فأعمل على تبيّن الحقائق من وراء ما يحدق به من أغراض الناس وأهوائهم، فإذا اقتنعت بصلاحه أنزلته من نفسي منزلة الحق، وإن لم أقتنع فإن ظهر لي فساده أنزلته من رجلي منزلة الحذاء المتهرئ البالي، ثمّ لا يهمني بعد ذلك أن أكون في نظر التاريخ رفيعاً أو وضيعاً، ويكون أدبي في الأجيال بديعاً أو رفيعاً، ويكون فنّي من وراء ذلك ظريفاً أو سخيفاً، يهمني أن أقنع وجداني وضميري كما اقتنعت عقلاً ونقلاً، بأني على حق فيما أعتنقه من مذهب وأعتصم به من دين.

إني خشيت من وراء عقيدتي هذه، إذا لم أشف نفسي من غلها على هذا الرجل، خشيت أن أموت دون أن أترك أثراً في العالم يمحق باطل معاوية في قلب كل جاهل أفن، ويشفي صدور قوم مؤمنين، ولقد قسوت عدة مرات على معاوية ومن شايعه في الخروج على عليّ عليه السلام كابن العاص وابن الحكم وأضرابهما ممن باعوا دينهم بدنياهم، ولقد قلت إذ ذاك إني لست بنقدي هذا أقصد شخص معاوية لأنه أصبح تراباً، ولكني أعني شخصيته القائمة في نفس كل حاكم أو ملك أو زعيم أوتي حظاً من الدنيا فطلق آخرته من أجله.

ولا يزال هذا الصنف الأناني الجشع المتكالب على الدنيا إلى الآن يتأثر لمعاوية، وليس له ما يبرر عمله إلاّ أن الأمّة ترضى عن معاوية، ومجموعة عمل الحكام والملوك الجائرة منذ معاوية إلى الآن لا تعدل معاوية نفسه في الخرق الذي لا يرتق، والذي سنه شريعة من بعده عنوانها (الغاية تبرراً لواسطة مهما قدحت هذه وحقرّت تلك).

* * *



سُئِلَ عليه السلام عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله : غَيِّرُوا الشَّيْبَ وَلا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ.

فَقَالَ عليه السلام : إِنَّمَا قَالَ صلى الله عليه وآله ذَلِكَ وَالدِّينُ قُلٌّ فَأَمَّا الآنَ وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ فَامْرُؤٌ وَمَا اخْتَارَ.

(نهج البلاغة ٤: ٥)



[ضرورة مواكبة الحالة الاجتماعية والتعاطي على أساسها]

قال ابن أبي الحديد:

اليهود لا تخضب، وكان النبي ﷺ أمر أصحابه بالخضاب ليكونوا في مرأى العين شباباً فيجبن المشركون عنهم حال الحرب، فإنّ الشيخ مظنّة الضعف، قال عليّ عليه السلام: «كان ذلك والإسلام قلّ ـ أي قليل ـ، وأما الآن وقد اتسّعَ نطاقه وضرب بجرانه»، فقد سقط ذلك الأمر وصار الخضاب مباحاً غير مندوب.

والنطاق ثوب تلبسه المرأة لبسة مخصوصة، ليس بصدرة ولا سراويل، وسميت أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين؛ لأنها قطعت من ثوبها ذلك قطعة شدّت بها سفرة لها حملها أبو بكر معه حين خرج من مكّة مع النبي ﷺ يوم الهجرة، فقال النبي ﷺ: «لقد أبدلها الله بها نطاقين في الجنّة». وكان نفر الشام ينادون عبد الله ابنها حين حصره الحجاج بمكّة يشتمونه وينادونه يا ابن ذات النطاقين فيضحك عبد الله منهم، وقال لابن أبي عتيق ألا تسمع يظنونه ذماً، ثمّ يقول: (وتلك شكاة ظاهر عنك عارها).

واستعار أمير المؤمنين عليه السلام هذه اللفظة لسعة رفعة الإسلام، وكذلك استعار قوله: «وضرب بجرانه» أي أقام وثبت، وذلك لأن البعير إذا ضرب بجرانه الأرض، وجرانه مقدم عنقه، فقد استناخ وبرك...

[الخضاب بنظر الإسلام]:

فأما القول في الخضاب فقد روى قوم أن رسول الله ﷺ بدا شيب يسير في لحيته فغيّره بالخضاب، خضب بالحناء والكتم، وقال قوم لم يشب أصلاً، وروي أن عائشة قالت: ما كان الله ليشينه بالشيب، فقيل: أو شين هو يا أم المؤمنين؟ قالت: كلكم يكرهه، وأما أبو بكر فقد صح الخبر عنه بذلك وكذلك أمير المؤمنين، وقيل أنه لم يخضب، وقتل الحسين عليه السلام يوم الطف وهو مخضوب، وفي الحديث المرفوع رواه عقبة بن عامر: «عليكم بالحناء فإنه خضاب الإسلام، إنه يصفي البصر ويذهب الصداع ويزيد في الباه وإياكم والسواد فإنه من سوّد، سوّد الله وجهه يوم القيامة»، وعنه ﷺ: «عليكم بالخضاب فإنه أهيب لعدوكم وأعجب إلى نساءكم» ويقال في أبواب الكناية للمختضب: هو يسوّد وجه النذير، لأن النذير الشيب، قيل في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[1] إنه الشيب، وكان عبد الرحمن بن الأسود أبيض الرأس واللحية، فأصبح ذات يوم وقد حمرهما، وقال: إن عائشة أرسلت إليّ البارحة جاريتها، فأقسمت عليَّ لأغيّرن، وقالت: إن أبا بكر كان يصبغ.

وروى قيس ابن أبي حازم قال: كان أبو بكر يخرج إلينا وكأن لحيته ضرام عرفج، وعن ابن عامر الأنصاري رأيت أبا بكر يغيّر بالحناء والكتم، ورأيت عمر لا يغيّر شيئاً من شيبه، وقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة، ولا أحب أن أغير نوري»، وكان أنس بن مالك يخضب وينشد:

نسوّد أعلاها وتأبى أصولها ... وليس إلى ردّ الشباب سبيل

---

(١) فاطر: ٣٧.

وروى أن عبد المطلب وفد على سيف بن ذي يزن، فقال له: لو خضبت، فلما عاد إلى مكّة خضب، فقالت له امرأته: نثيلة أم العبّاس وضرام، ما أحسن هذا الخضاب لو دام فقال:

فلو دام لي هذا الخضاب حمدته ... وكان بديلاً من خليل قد انصرم
تمتّعت منه والحياة قصيرة ... ولا بدّ من موت نثيلة أو هرم
وموت جهيز عاجل لا سوى له ... أحبّ إلينا من مقالكم حكم

قال: يعني أنه صار شيخاً فصار حكماً بين الناس، من قوله: لا تغبط المرء أن يقال له أضحى فلان لسنه حكماً، وقال أسماء ابن خارجة لجاريته: اخضبيني، فقالت: حتّى متى أرقعك، فقال:

عيرتني خلقاً أبليت جدته ... وهل رأيت جديداً لم يعد خلقا

وأما من يروي أن علياً عليه السلام ما خضب، فيحتج بقوله وقد قيل له: لو غيّرت شيبك يا أمير المؤمنين؟ فقال: الخضاب زينة ونحن في مصيبة، يعني برسول الله ﷺ، سئل الحسن عليه السلام عن الخضاب؟ فقال: هو جزع قبيح، وقال محمود الورّاق:

يا خاضب الشيب الذي ... في كل بالية يعود
إن الخضاب إذا مضى ... فكأنه شيب جديد
فدع المشيب وما يريد ... فلن تعود كما تريد

وقد روى قوم عن النبي ﷺ كراهية الخضاب، وأنه قال: «لو استقبلتم الشيب بالتواضع لكان خيراً لكم».

وقال آخر:

وصبغت ما صَبغ الزمان فلم يدم ... صبغي ودامت صبغة الأيام

يا أيها الرجل المغيّر شيبه كيما تعدّ به من الشبان

اقصر فلو سودت كل حمامة بيضاء ما عدت من الغربان

ويقولون في ديوان عرض الجيش ببغداد لمن يخضب إذا ذكروا (حليته مستعارة) وهي كناية لطيفة، وأنا استحسن قول البحتري: خضبت بالمقراض، كناية عن قص الشعر الأبيض، فجعل ذلك خضابه عوضاً عن الصبغ، والأبيات هذه:

لابس من شيبه أم ناضي ومليح من شيبه أم راضي

وإذا ما امتعضت من ولع الشيب برأسي لم يثن ذاك امتعاضي

ليس يرضى عن الزمان امرؤ فيه لا عن غفلة أو تغاضي

والبواقي من الليالي وإن خالفت شيئاً مشبهات المواضي

وأبت تركي الغديات والآ صال حتّى خضبت بالمقراض

ودواء المشيب كالبخص في العين فيه ثقل في العيون المراض

طال حزني على الشباب وما بيض من لون صبغة الفضفاض

فهل الحادثات يا ابن عويف تاركاتي ولبس هذا البياض[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

وسُئل عليه السلام عن قول النبي صلى الله عليه وآله: «غيّروا الشيب ولا تشبهوا باليهود» فقال عليه السلام: «إنما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قلّ فأما الآن وقد اتّسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار»، (النطاق)

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٢٢ - ١٢٦.

شقة طويلة عريضة تنجرّ على الأرض إذا لبست، وجران البعير صدره، وكان رسول الله ﷺ، في أوّل الإسلام يأمر أهل الشيب من المسلمين بتغيير شيبهم ويبدأهم إليه، وكان ينفّرهم عن تركه بكونه تشبهاً باليهود؛ لأنّ اليهود لم يكونوا يفعلون ذلك فكانوا يخضبون بالسواد، وقيل بالحناء، والغرض أن ينظر إليهم الكفّار بعين القوّة والشبيبة فينفعلون عنهم ولا يطمعون فيهم، فسئل عليه السلام عن ذلك في زمن خلافته، فجعله من المباح دون المندوب، وأشار إلى أن تلك السُنّة إنما كانت حيث كان المسلمون قليلين، فأما الآن وقد كثروا وضعف الكفار فهو مباح، وكنّى عن ذلك بقوله: «فامرؤ وما اختار»، واستعار لفظ (النطاق) لمعظمه وما انتشر منه، ولفظ الضرب بالجران لثباته واستقراره وملاحظة لتشبهه بالبعير البارك.[1]

* * *

وقال ابن مغنية في(في ظلال نهج البلاغة):[2]

الدين قُلّ ـ أي لم ينتشر بين الناس ويكثر أتباعه، والنطاق: الحزام. والجران مقدم البعير يضرب به الأرض إذا استراح، وكان النبي ﷺ قد أمر الشيوخ من أصابه أن كان الإسلام ضعيفاً بقلة أتباعه، أما اليوم وقد ظهر على الدين كله فلم يبق لهذا الحكم من موضوع، فمن شاء فليترك الخضاب، ومن شاء فليخضب، وبهذا القصد ألغى عمر سهم المؤلفة قلوبهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٩.

(٢) ج ٤: ٢٢٦.

[طبيعة الأحكام الشرعية]:

وتسأل: ألا يتنافى هذا مع الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ: «حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة»؟

الجواب:

إن الأحكام الشرعية الإسلاميّة على نوعين: الأوّل: منهما يرتبط بطبيعة الإنسان وفطرته من حيث هو إنسان، وهذا النوع من الأحكام لا يتغير ولا يتبدل تماماً كنظام الكون والأفلاك في حركاتها الدائبة، ولو اختل شيء منه لانهار الكون بما فيه، وهذا النوع هو المقصود بالحديث المشهور. والنوع الثاني: يرتبط بالحياة الاجتماعية، وهذا تتغير أحكامه تبعاً لتغير المجتمع من حال إلى حال حيث يتغير موضوع الحكم وسببه الموجب، وخضاب الشيب أو عدم خضابه من هذا النوع.

* * *

وجاء في (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة):[1]

حيث قال: أمره ﷺ بتغير الشيب بالسواد أو الحناء، ظاهره الوجوب لحكمة ذكره ﷺ فقوله: «فامرؤ وما اختار»، إعلام لنسخه فإنه قد تنسخ السُنّة كما ينسخ القرآن، والظاهر أنه على وجه الاستحباب، فقوله: «فامرؤ وما اختار» ترخيص لتركه، فإن الإستحباب مركب من الأمر وترخيص الترك، ولا ينافي بقاء الحكم الاستحبابي زوال الحكمة التشريعية كما في وجوب أو استحباب غسل الجمعة المشرّعة لا زالت عفونة الابط من الأعراب، ويشمل البريئون منها، فقول ابن ميثم في

---

(١) ج ٢١: ٣٢.

الشرح إنه عليه السلام جعله من المباح، مورد تأمّل فإن الأخبار الواردة في فضل الخضاب واستحبابه مطلقاً غير قابلة للردّ والانكار.

* * *

[الشيب وفضله]:

جاء في المجلد الثاني من كتاب المستطرف (ص ٣٨):

(الفصل الثاني في الشيب وفضله):

أوّل من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وفي الخبر أن الله تعالى يقول: الشيب نوري وأنا أستحي أن أحرقه بناري، وعن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: جاء رجلان إلى النبي ﷺ شيخ وشاب، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ فقال ﷺ: «كبر كبر»، وبهذه الرواية «من وقرّ كبيراً لكبر سنه آمنه الله من فزع يوم القيامة»، وعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: وعزّتي وجلالي وفاقة خلقي إليَّ إني لأستحي من عبدي وأمّتي يشيبان في الإسلام أن أعذبهما»، ثمّ بكى، فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «أبكي ممن يستحي الله منه وهو لا يستحي من الله»، وقال: «من بلغ ثمانين من هذه الأمّة حرمه الله على النار»، وقال: «إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله في الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات»... وقال عبد العزيز بن مروان: من لم يتعظ بثلاث لم ينته بشيء: الإسلام والقرآن والشيب قال الشاعر:

يا عامر الدنيا على شيبه ... فيك أعاجيب لمن يعجبُ

ما عذر من يعمر بنيانه ... وعمره منهدم يخربُ

وقال الشعبي: الشيب علة لا يعاد منها، ومصيبة لا يعزّى عليها، وقال الفرزدق:

ويقـول كيـف يميـل مثلـك للظبـا وعليـك مـن عظـم المشـيب عـذار
والشـيب ينقص فـي الشـباب كأنـه ليـــل يصـــبح بعارضـــيه نهـــار

* * *

وقال أبو دلف في بياض اللحية:

تكـــوّنني هـــم لبيضـــاء نابتـــه لهـا بغضـة فـي مضـمر القلـب ثابتـه
ومـن عجـب أنـي إذا رمـت قصـها قصصت سواها وهي تضحك نابته

* * *

وقال أيضاً:

أرى شـيب الرجـال مـن الغـواني بمبلـــغ شـــيبهنّ مـــن الرجـــال

* * *

وقال ابن المعتز:

فضـــلت أطلـــب وصـــلها بتـــذلل والشـيب يغمزهـا بـأن لا تفعلـي

* * *

قيـل: صـاح شـاب بشيخ أحـدب بكـم ابتعـت هـذا القـوس يـا عمـاه؟ فقـال: يـا بنـي إنـي أعطيتهـا بغيـر ثمـن، ومـر رجـل أشـمط بـامرأة عجيبـة فـي الجمـال، فقـال: يـا هـذه إن كـان لـك فبـارك الله لـك فيـه وإلاّ فأعلمينـا؟ فقالـت: كأنـك تخطبنـي؟ قـال: نعـم. فقالـت: إنّ فـيّ عيبـاً، قـال: ومـا هـو؟ قالـت: شـيب فـي رأسـي، فثنّـى عنـان دابتـه، فقالـت: علـى رسـلك فـو الله مـا بلغـت عشـرين سـنة، ولا رأيـت فـي رأسـي شـعرة بيضـاء ولكننـي أحببـت أن أعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني، فأنشد ويقال أنه لابن المعتز:

رأيـن الغـواني الشـيب لاح بمفرقـي فـأعرضـن عنـي بالخـدود النواضـر

[ديوان شعر]:

وقال آخر:

سألتها قبلةً يوماً وقد نظرت ... شيبي وقد كنت ذا مال وذا نعم

فأعرضت وتولّت وهي قائلة ... لا والذي وجد الأشياء من عدم

ما كان لي في بياض الشيب من إرب ... أفي الحياة يكون القطن حشوفمي

* * *

وقال آخر:

قالت أرى مسكة الشعر البهيم غدت ... كافورة قد أحالتها يد الزمن

فقلت طيب بطيب والتنقل في ... معادن الطيب أمر غير ممتهن

قالت صدقت وما أنكرت ذاك بذا ... المسك للشم والكافور للكفن

* * *

وقال آخر:

قالت أراك خضبب الشيب قلت لها ... سترته عنك يا سمعي ويا بصري

فقهقهت ثمّ قالت من تعجّبها ... تكاثر الغش حتّى صار في الشعر

* * *

وقال ابن نباتة:

تبسّم الشيب بوجه الفتى ... يوجب شح الدمع من جفنه

وكيف لا يبكي على نفسه ... من ضحك الشيب على ذقنه

* * *

وقال ابن المعتز:

فما أقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب في الرأس شامل

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر:

رأت وضحاً في الرأس مني فراعها   فريقان مبيّض به وبهيم
تفاريق شيب في الوساد لوامع   فيا حسن ليل لاح فيه نجوم

* * *

ويقال في الرجل إذا شاب: ليله عسعس وصبحه تنفّس.

إذا نازع الشيب الشباب فأصلتا   بسيفيهما فالشيب لا شك غالب

وقال آخر:

ألا إن شيب العبد من نقرة القفا   وشيب كرام الناس شيب المفارق

* * *

وقال العتبي:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها   إن الشباب جنون برؤه الكبر

* * *

وقال عليّ بن ربيع:

كبرتُ وَدقّ العظم مني وعقّني   بنيّ وزالت عن فراشي العقائد
وأصبحت أعش أضبط الأرض بالعصا   يقودنني بين البيوت الولائد

* * *

وقال آخر:

عريت من الشباب وكنت غصناً   كما يعرى من الورق القضيب
ونحت على الشباب بدمع عيني   فما نفع البكاء ولا النحيب
فيا ليت الشباب يعود يوماً   فأخبره بما فعل المشيب

* * *

وقال ابن النقيب:

وكم كان من عين عليٍّ وحافظ ... وكم كان من واش لها ورقيب

فلما بدا شيبي اطمأنت قلوبهم ... ولم يحفظوني واكتفوا بمشيبي

* * *

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما شبَّهت الشباب إلا كشيء كان في كمي فسقط. قال الشاعر:

شيآن لو بكت الدماء عليهما ... عيناك حتّى يؤذنا بذهاب

لم يبلغا المعشار من حقيّهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

* * *

وقال الجاحظ:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت في زمن الشباب

لقد كذّبتك نفسك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب

* * *

ومما جاء في كتاب (المحاسن والمساوئ) للبيهقي:

قال: دخل منصور النميري على الرشيد فأنشده:

ما كنت أو في شبابي كُنهَ عزّته ... حتّى مضى فإذا الدنيا له تَبَعُ

فبكى الرشيد وقال: يا نميري لا خير في دنياً لا يخطر فيها بحلاوة الشباب، ويستمتع بأيامه، وأنشد:

ولو أنّ الشيبَ رزءٌ حلّ بي ... وقتَ ما استحققتُ شيئاً لم أبل

بل أتاني والصبي يرمقني ... مثلَ ما يأتي الكبيرَ المكتهل

* * *

وأنشد:

حسرت عني القناعَ ظَلومُ ... وتولّت ودمعُها مسجوم

أنكرت ما رأت براسي فقالت ... أمشيب أم لؤلؤ منظوم

قلتُ شيبٌ وليس عيباً فأنت ... أنّة يستثيرها المهموم

واكتست لون مِرطِها ثمّ قالت ... هكذا من توسدّته الهموم

إنّ أمراً جنى عليكَ مشيب الرأ ... س في جمعةٍ لأمرٌ عظيم

شَدّ ما أنكرت تَصَرّفَ دهر ... لم يُداوم وأي شيء يدوم

* * *

ولابن المعتز في الشيب:

قالت وقد راعها مشيبي ... كنتَ ابنَ عَم فصرتَ عَما

واستهزأت بي فقلت أيضاً ... قد كنت بنتاً فصرت أمّاً

كفي ولا تكثري مَلامي ... ولا تزيدي العليل سُقما

من شاب أبصرته الغواني ... بعين من قد عَمى وصَمّا

لو قيل لي اختر عمىً وشيباً ... أيهما شئت قلتَ أعمى

* * *

ولآخر:

رأت طالعاً للشيب أغفلتْ أمرَه ... ولم تتعهّده اكفّ الخواضب

فقالت أشيباً ما أرى قلت شامةٌ ... فقالت لقد شامتكَ بين الحبائب

* * *

ولآخر:

شكوتُ من الشيب حتّى ضجرتُ فدبّ إلى عارضي واشتعل

وسوّد وجهي فسوّدتُه فعلتُ به مثلَ ما قد فعل

* * *

ولآخر:

إذا راقهنّ خدينُ الشباب عطفن كما تعطف الوالده

وإن هنّ عاينّ ذا شيبة فيا لكِ من مَقل زاهده

فويحٌ الشباب وويحَ المشيب عدوّانِ دارُهما واحده

* * *

لابن المعتز:

صَرحت بالجفاء أمُّ حَبابِ حين باشرتُها ببعض الخِطاب

قلتُ لم ذا وقد رأيتَكِ حيناً لا تملّين عِشرتي وعتابي

قالت الشيب قد أتاك فأقصِر عن عتابي فلستَ من أصحابي

فتعللت بالخضاب لأحظى عندها ساعةً بلون الخِضاب

فرأته فأعرضت ثمّ قالت سترُ سَوءٍ على خراب يَباب

* * *

ولابن المعتز أيضاً:

رفعت طرفها إليَّ عَبوساً واستثارت من المَآقي الرسيسا

ورأتني أسرّجُ العاجَ بالعاج فظلت تستحسن الأبنوسا

ليس شيبي إذا تأمّلتِ شيباً إنما الشيب ما أشاب النفوسا

ولآخر:

إن المشيب رداء الحلم والأدب ... كما الشباب رداءُ الجهل واللّعِبِ
تعجبت إذ رأت شيبي فقلتَ لها ... لا تعجبي من يطَل عمرٌ به يَشِبِ
فينا لكنّ وإن شيبٌ بدا اربٌ ... وليس فيكنَ بعد الشيب من أرب
شيب الرجال لهم عزٌ ومكرُمةٌ ... وشيبكنَ لكنَ الويل فاكتئبي

* * *

ولآخر:

الشيبُ في رأس الفتى حِلمٌ به ... والشيبُ في رأس الفتاة قبيح
والخال في خدّ الفتى عيبٌ به ... والخال في خدّ الفتاة مليحُ

* * *

موضوع اللحى في قديم الزمان:

جاء في كتاب (عجائب الخلق) لجرجي زيدان منشئ مجلة الهلال المصرية تحت عنوان:

أكبر لحية في العالم:

قال: طبيعي في الإنسان أن يرسل لحيته كما يرسل شعر رأسه، بل هي أولى بالإرسال، لأنها تميّز الرجل من المرأة ولكن الأمم القديمة اختلفت في هذا الشأن، فالإسرائيليون كانوا يرسلون لحاهم ويحترمونها، وقد حافظوا عليها في أثناء عبوديّتهم بمصر وهم يفتخرون أنهم خرجوا من وادي النيل ولحاهم معهم، أما المصريون فلم يكونوا يرسلون لحاهم، ولكنهم كانوا يوقّرون اللحى، ولذلك كانوا يلبسون لحى مستعارة في الاحتفالات الدينية الكبرى ويصوّرونها في وجوه آلهتهم الذكور.

والعرب كانوا يرسلون لحاهم مثل سائر الشرقيين، وظلّوا على ذلك بعد الإسلام، وتفنّنوا في أشكال اللحى وضروب اصلاحها وأنواع خضابها، وكانت تعد من شعائر التقى والعلم والوجاهة، فالخلفاء والأمراء والفقهاء والعلماء كانوا يرسلونها ويحتفظون بما يقع منها في أثناء التمشيط ويحرقونه حتّى لا تُمسّ كرامته.

وأوّل من خالف هذه القاعدة السلطان سليم الفاتح سنة (١٥١٢م)، فقصّ لحيته وأمر رجاله بذلك، فوقع أمره كالصاعقة على المسلمين، لاسيّما الفقهاء، وفي مقدمتهم قاضي القضاة، فشكا إلى السلطان من هذا الأمر فأجابه مازحاً (قد قصصت لحيتي حتّى لا يبقى لوزيري شيء يقودني به) يشير إلى استبداد الوزراء في ذلك العهد، ولم يطل قصّ اللحى، فعاد الناس إلى إرسالها.

وكان الآشوريون ومن خلفهم من الفرس يرسلون لحاهم ويتفننون في تطبيقها وخضابها، وذكروا حروباً انتشبت بين شعوب آسيا بسبب اللحى، منها: حرب قامت بين التاتار والفرس، وأخرى بين التاتار والصين سفكت فيها دماء غزيرة، وسبب الحرب الأولى أن التاتار كانوا يقصّون لحاهم فاتهموا الايرانيين بالكفر لأنهم لا يقصونها، وتخاصموا ثمّ تحاربوا، وهكذا يقال في سبب الحرب الأخرى.

وكان اليونانيون في أعصرهم الأولى يرسلون لحاهم حتّى ظهور الاسكندر وحمل على العالم فأمر رجاله بقص لحاهم لئلا يستعين الأعداء في ساحة الوغى بالقبض عليها، وكان لهذا البدعة تأثير في العالم الروماني أيضاً، فاقتدى الرومان باليونان وأصبح إرسال اللحى عندهم دليل الهمجيّة؛ ولذلك سموا الشعوب الجرمانية التي تساقطت عليهم من

الشمال (بربر) من باربا في اللاتينية اللحية والباربر صاحب اللحية؛ لأن أولئك الشعوب كانوا يرسلون لحاهم بلا نظام أو ترتيب فتكسبهم هيأة وحشيّة.

ومن تاريخ اللحى في التمدن الحديث: أن بطرس الأكبر قيصر الروم وضع ضريبة على اللحى، والظاهر أن الانكليز سبقوه إلى مثلها وهو قلّدهم، فمن دفع الغرامة أذن له بإرسال لحيته وإلاّ فإنهم يحلقونها له بالقوّة ولم يبق لها مثل هذه القيمة عندهم الآن.

وكان الاسبانيّون يكرمون اللحى كثيراً، ومن أمثالهم بعد أن بطلت هذه العادة (لمّا أضعنا لحانا أضعنا أنفسنا).

وكذلك كان البورتغاليون فإنّ جوان كاسترو لما اقترض ألف بندقيّة من مدينة جوارهن عندهم خصلة من لحيته، وقال: (إن ذهب العالم كله لا يساوي هذا الجزء من أكليل بسالتي). وأما بالنظر إلى الطوائف المسيحية، فالكنيسة الارثوذكسيّة، تدافع عن اللحى وتعد إرسالها ضرورياً، والكنيسة الكاثوليكية ضد ذلك، لا يمكننا أن نتصور بطريكاً بدون لحيتة، كما صعب علينا أن نتصور بابا بلحيتة، وكان من العادات القديمة أن من يقصّر شعر رأسه ويطيل لحيته يكرمونه؛ لأنه يفعل فعل الكهنة، والأوسمة البابوية التي أصدرها البابوات في نابولي من أيام إكلمندوس السابع إلى إسكندر الثاني _ أي من سنة (١٥٢٣م) إلى (١٦٩١م) _ فيها لحية اكلمندوس المذكور طويلة وسوداء. والناس في كل عصر يتفاوتون بطول لحاهم وكثافتها باختلاف الأمزجة والأعمار والأقاليم.

* * *

فصل ووصل:

الشيب هو تبدّل سواد شعر الإنسان بالبياض الناصع، وهذا اللون كاشف عن بلوغ الإنسان الغاية ووصوله النهاية، فدرجة الشيخوخة آخر خطوةٍ للإنسان المخلوق للفناء، فإذا تبدّلت الشعرات السود بالبياض فينبغي لمن لاحت في عارضيه وعلم أنها نذير عمره الفاني، وأنها افتراق روحه عن جسده، أن يدأب في الطاعة المقرّبة له من الجنة، ويتجنّب المعصية المشرفة به على النار، وأن يتهيئ بأحسن هيأة، ويستعد بأجمل استعداد المسافرين في أسفارهم، والراحلين عن أوطانهم، فإنّ سفره من أعظم الأسفار وخطر رحلته من أهمّ الأخطار.

ثمّ الواجب على من لم يبلغ تلك النقطة، ولم يصل بمسراه إلى تلك الخطة، أن يعظّم ذا الشيبة ويحترمه أعظم احترام، ويبجله أحسن تبجيل، ذلك ـ أي احترام ذي الشيبة ـ مما ندب إلى حسنه العقل والنقل.

أطبق العقلاء الكافة وذوو الآراء الذين تقتبس منهم الحقائق المتبّعة على تحبيذ احترام ذي الشيبة، واكرام ذوي السن العالي، وناهيك بالكتاب المجيد والسُنّة النبويّة المقدّسة فيما تضمّنتا من الايصاء والتوصية باكرام ذي الشيب، وما تكفّلتا من التعطّف والتحنن عليه.

جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «إنّ من إجلال الله تعالى إجلال ذي الشيبة»[1] وقال ﷺ: «من عرف فضل كبير لسنّه، فوقّره أمنه الله من فزع يوم القيامة».[2]

---

(١) الكافي ٢: ١٦٥.

(٢) الكافي ٢: ٦٥٨.

وفي الحديث القدسي: «الشيب نوري، والنار خلقي، وأنا أستحي أن أعذّب نوري بناري».(١)

وقال ﷺ: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة يسعى به إلى الجنّة، يقول الله تعالى: مرحباً بعبدي، شاب في الإسلام ولم يشرك بي شيئاً».(٢)

وعن ابن أبي شيبة، قال: نهى رسول الله ﷺ عن نتف الشيب وقال: «هو نور المؤمن».(٣)

جاء رجل من هذيل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيّ الله قد كبر سنّي، ودُقّ عظمي، وضعفت قوتي عما تعوّدته من الصلاة والصيام، فقال ﷺ: «أعِد كلامك عليّ، فما حولك صخرة ولا مدرة إلاّ وبكت رحمةً لك فكيف لا يرحمك الرحمن».(٤)

إنّ الله تعالى أخّر قلب مدائن قوم لوط إلى وقت السحر، فسأله جبرئيل عليه السلام عن سبب ذلك؟ فقال تعالى: «إن فيهم شيخاً ذا شيبة نائماً على قفاه، فلحرمة شيبته أخرّت ذلك حتّى ينقلب على وجهه».

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى ينظر في وجه الشيخ صباحاً ومساءاً، فيقول: يا عبدي كبر سنك، ودُقّ عظمك، ورقّ جلدك، وقرب أجلك، وحان قدومك عليّ، فاستح مني فأنا استحي من شيبتك أن

---

(١) كشف الخفاء ٢: ٢٥٥.

(٢) روضة الواعظين: ٤٧٦.

(٣) المصنف ٦: ١٦٥.

(٤) أنظر نص الرواية في أمالي الصدوق: ١١٠.

أعذّبك في النار»، ثمّ بكى ﷺ فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: أبكي ممن يستحي الله منه وهو لا يستحي من الله».(١)

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله ليكرم أبناء السبعين، ويستحي من أبناء الثمانين، فيأمر بأن تكتب لهم الحسنات وتمحى عنهم السيئات».(٢)

والعلّة في ذلك أنه إذا بلغ الرجل هذا العمر ينهدم قواه، وتكثر أمراضه، ويُحرم من جميع ملاذ الدنيا.

يحدّثنا الطبرسي في (مكارم الأخلاق): إن الناس في بدء الخليقة كانوا لا يشيبون، ولم تكن ميزة بين الرجال، فسأل إبراهيم الخليل عليه السلام ربّه، فقال: يا رب اجعل لي شيئاً أعرف به، فجعل له الشيب فقال: يا رب ما هذا؟ قال تعالى: هذا وقار، فقال: يا رب زدني وقاراً، فابيضّت لحيته.(٣)

كانت اللحية ولا تزال شعار الرجال ومن مميّزاتهم، إذ الفطرة حرمت المرأة من هذا الشعر، فتولدت من هذه مادة المحافظة على اللحى واكرامها بين أكثر الأجيال والشعوب القديمة، شرقية كانت أم غربية، ولم يتفّش في الأقوام حلقها بالصورة العامة إلاّ في هذه القرون الأخيرة.

وكانت الأديان وكذا الأمم المحافظة على آدابها، إنما تحتفظ على اكرام اللحى من الجهة الأدبية أكثر منها من الجهة الصحية، وها إنني أقدم إليكم دلائل الجهتين معاً، أعني جهة الشريعة والطب جميعاً حسبما يفسح لنا المجال والحال:

---

(١) أنظر: بحار الأنوار ٧٠: ٣٩٠.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٣٩١.

(٣) أنظر: مكارم الأخلاق: ٦٨.

[أدلة المنع من حلق اللحية]:

أما الأولى: وهي جهة المنع من حلق اللحية في الشريعة الإسلاميّة فالدلائل عليها كثيرة أوردها العلماء في كتبهم الفقهية ورسائلهم العملية فَلْتُطلب من مظانها والتقتبس من محلّها، ونقتصر منها هنا على ثلاث:

أحدها: حديث الإعفاء ونصّه أنّ رسول الله ﷺ قال: «حفّوا الشوارب، واعفوا اللحى» وظاهر الخبر أن الأمر ظاهر في الوجوب، وقد رواه الصدوق محمّد بن بابويه القمي في جامعه المشهور (من لا يحضره الفقيه)،[١] واعتمد عليه في التحريم أكثر فقهاء المسلمين.

فإن قلت: هذا الحديث مرسل مقطوع السند.

قلت: قال الشيخ سبط الشهيد الثاني في(الدرّ المنظوم والمنثور): والإرسال لا يقدح فيه بعد تعهّد الصدوق أن لا يروي في الفقيه إلاّ ما كان حجة بينه وبين ربّه.

وعن التقي المجلسي قال: إن مراسيل الفقيه كلها مسانيد صحاح.

على أنّ هذا الحديث كاد أن يبلغ من شهرته حدّ التواتر، وقد روي بألفاظه المتقاربة في صحيح مسلم والبخاري والترمذي والنسائي ومسند أحمد بن حنبل، وكتب أحاديث المسلمين على اختلاف طوائفهم وطرقهم.[٢]

الثاني: حديث المسخ وهو الذي رواه ثقة المحدّثين محمّد بن يعقوب الكليني في صحيحه المشهور بالجامع الكافي، في باب ما يفصل

---

(١) ج ١: ١٣٠.

(٢) أنظر: صحيح البخاري ٧: ٥٦؛ صحيح مسلم ١: ١٥٣؛ سنن الترمذي ٤: ١٨٧؛ سنن النسائي ٨: ١٢٩؛ مسند أحمد ٢: ١٦؛ ...

به بين دعوى المحق والمبطل من أبواب الأصول، وفيه أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في ضمن حديث طويل: «إن أقواماً من بني إسرائيل حلقوا اللحى وفتلوا الشوارب فمسخوا...» إلخ.[١]

وقد استدلّ به على تحريم حلق اللحية جماعة من الفقهاء: كالمولى محسن الفيض، والشيخ المجلسي، والشيخ البحراني في الحدائق، وقال الأخير: (الظاهر كما استظهره جملة من أصحابنا هو التحريم لخبر المسخ، فإنه لا يقع إلاّ على أمر محرّم بالغ في التحريم، وتعديل الفقهاء على هذا الحديث لا يقصر عن تصحيح المحدّثين إيّاه).[٢]

الثالث: حديث العارضين وهو الذي يُعتمد عليه ويُستكفى به، دليلاً على تحريم حلق اللحى في الشريعة، وقد رواه شيخ الفقهاء محمّد بن إدريس الحلّي في أواخر كتابه (السرائر)[٣] عن كتاب الجامع لأحمد ابن محمّد البزنطي صاحب مولانا عليّ ابن موسى الرضا عليه السلام وصاحب أبيه موسى ابن جعفر عليه السلام، وعظيم المنزلة عندهما، قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام، عن الرجل هل يصلح له أن يأخذ من لحيته؟ قال: «أما من عارضيه فلا بأس، وأما من مقدّمها فلا».

وروى هذا الحديث الحميري في (قرب الإسناد)[٤] بسنده الصحيح عن مولانا الكاظم عليه السلام ورواه أيضاً عليّ بن جعفر في كتابه[٥] عن أخيه الكاظم

---

(١) أنظر: الكافي ١: ٣٤٦.

(٢) الحدائق الناظرة ٥: ٥٦١.

(٣) ج ٣: ٥٧٤.

(٤) ص ٢٩٦.

(٥) مسائل علي بن جعفر: ١٣٩.

عليه السلام، وكما نثق بصدوره نثق أيضاً بظهوره في المنع عن الحلق، بعد إطلاق قول الإمام: «وأما من مقدّمها فلا»، وكون حلق اللحية أظهر مصاديق الأخذ منها، وكون الإطلاق في حال البيان ظاهر، وظاهر النهي التحريم، نعم يخرج من ذلك الأخذ على سبيل التحسين، ويبقى باقي الأفراد داخلاً في المنع، سيّما الفرد الظاهر من ذلك وهو استيصال شعر الفكّين والذقن.

هذا ويتلو ذلك كله عمل المسلمين الكاشف عن الاجماع، وثبوت الحرمة في الشريعة، فإنه لا ينبغي الريب في أن المتشرّعين من أوّل الإسلام إلى هذا الزمان يعرف من أمرهم أنّ حلق اللحية عندهم من المنكرات في دين الإسلام لا يرتكبه إلاّ متبع الهوى والشهوات، ومن لا يقف عند حدود الشريعة، ولا يبالي بنكير أهل الدين، مضافاً إلى أنه لم يعرف قول عالم معتدّ به بجواز حلق اللحية ونحوه، كفى بذلك دليلاً على الحرمة وأخذهم لها بالتسليم يداً عن يد إلى مصدر الشريعة المطهّرة.

هذا مضافاً إلى استفادة نقل الاجماع عن الشيخ البهائي في رسالته في عقائد الإمامية، من أنّ جماعة العلماء أرسلوا الفتوى بالتحريم إرسال المسلّمات، ولم يشيروا إلى خلاف وشبهة خلاف على ما هو ديدنهم في المسائل الخلافية.

ومن ذلك ما حكي عن يحيى بن سعيد الحلي في جامعه، وفخر المحققين في الحواشي الفخرية على القواعد، والشهيد الأوّل في قواعده، والشيخ علي في الدر المنظوم والمنثور، والحر العاملي في بداية الهداية، والسيد الداماد في مشارع النجاة، والكاشاني في المفاتيح، والشيخ البحراني في الحدائق والشيخ في كشف الغطاء، والشيخ في الجواهر، والمعروفين بالتقليد من زمن الشيخ الأنصاري إلى الآن كما في رسائلهم العملية، بل صرّح بعض بأن التحريم متسالم عليه.

[منافع إبقاء اللحى ومضار حلقها]:

وأما الجهة الثانية وهي: البحث عن منافع إبقاء اللحى ومضار حلقها، وهذا باب واسع النطاق، نختار منه جملة مما ذهب إليه الأطباء الماهرون.

أ ـ ذكر سجعان أفندي الماروني في كتاب (تاريخ أمريكا) ما نصّه: وبعضهم يكرهون اللحى مع أن اعتبارها أولى، فقد قال النطاسي الشهير الدكتور فيكتور جورج: إن اللحية لها نفع عظيم، فإنها تحفظ الفم وتمنع عنه الرطوبة، وتقي الأسنان والغدد اللعابية، ثمّ قال سجعان وقال غيره: إنهم حلقوا مرّة لحى جميع مستخدمي السكك الحديدية في أيام الشتاء فحصل لأكثرهم وجع ونخر في الأضراس والأسنان، وورم في الغدد اللعابية، قال سجعان: ووصف أحد الأطباء لبعض الذين أصيبوا بالرشح ـ أعني داء الزكام ـ أن يطلقوا لحاهم، ففعلوا ذلك وحصّلوا على النتيجة المرغوبة.

ب ـ ذكر الطبيبان الشهيران الدكتور يعقوب صروف، والدكتور فارس نَمر في مجلة المقتطف الشهيرة (ص ٥٣٨) سنة (١٩٠٨م) كلاماً نصّه: إن للشعر والشوارب واللحى فائدة كبيرة في منع دقائق الغبار من دخول الأنف والفم، وفي منع الهواء البارد من تبريد الحلق، وروي أن النوتّية (الملاّحين) الذين ذهبوا للتفتيش عن الرحاله الانكليزي في جهات القطب الشمالي، اشتدّ عليهم البرد القارص ولكنهم لم يصابوا بمكروه؛ لأن الشعر كان يغطي وجوههم فيدرأ عنها البرد، ثمّ لما عادوا إلى انكلترا لقوا هذا الشعر فلم يمض أسبوع حتّى مرضوا كلهم.

جـ ـ ذكرت جريدة العدل العربية التي كانت تصدر في الآستانة بتاريخ (١٩٧٠م) بعدد (١٣٢) ما نصه: تألفت جمعية في انكلترا لمقاومة

استعمال الموسي، ومن مبادئ هذه الجمعية السعي في حمل الناس على إرسال لحاهم بحجة أن الموسي تكون سبباً من أسباب نقل العدوى والأمراض المعدية، وقد طبعت هذه الجمعية منشوراً ووزّعته على كبار الإنكليز وأعيانهم، دعتهم فيه لتأييدها بإرسال لحاهم حتّى يتشبه بهم الشعب، وقد وضعت في المنشور صورتين: واحدة تمثلّ رجلاً حليق الذقن، والأخرى تمثّل رجلاً ذا لحية، وجمعت كل المحاسن في الوجه الثاني كما ملأت الوجه الأوّل بالقبائح.

هذا بعض ما نشرته المطبوعات عن آراء أطبّاء الافرنج وكبار الغربيين.

وأما التوجه إلى كلمات أطبائنا، وضبط التجارب الشرقية، ونقل كلمات عظمائهم حول المسألة فيستدعي إفراد كتاب في الموضوع، ومن الواضح لدى التأمل في المقام أن وجود الشعر حول الفكين والعارضين يحف شطراً كبيراً من الحرارة والأبخرة لمنافعها ومحافظة قواها لأداء وظائفها حال المضغ والابتلاع، وتقوّي أدوات الحلق والغدد اللعابيّة وتحسين الكلام وتسويغ الطعام، ومنع الأعراض الزكامية والأمراض الرشحية ورفع التشنج والقوّة ومنع نخر الأسنان، وتقوية اللسان وغير ذلك، وربما وجد المتتبع في كتب أعلام الفقه وأركان الطب ما ينير الفكر ويوضح الأمر أكثر من هذا، سيما في آثار الأواخر، إذ القدماء قلّ ما اهتمّ أحد منهم بالتعرض لهذا الأمر أو الاستدلال فيه وعليه، وكأنّ شأنه عندهم كان أشهر وأوضح من أن يتسائلوا عنه أو يستدلوا عليه.

حرمة حلق اللحى عند علماء السُنّة والجماعة:

مستخرجة من كتاب الغدير (ج ١١ ص ١٤٩):

١ ـ عن عائشة مرفوعاً: عشرٌ من الفطرة فذكر منها: اعفاء اللحية، وجاء من طريق أبي هريرة أيضاً.

صحيح مسلم (ج ١ ص ١٥٣)؛ سنن البيهقي (ج ١ ص ١٤٩)؛ سنن أبي داود (ج ١ ص ١٠٠٩)؛ صحيح الترمذي (ج ١ ص ٢١٦)؛ مشكل الآثار (ج ١ ص ٣٤٥).

٢ ـ عن ابن عمر مرفوعاً: اعفوا اللحى، واحفوا الشوارب، خالفوا المشركين.

صحيح مسلم (ج ١ ص ١٥٣)؛ سنن النسائي (ج ١ ص ١٦)؛ جامع الترمذي (ج ١٠ ص ٢٢١)؛ بلفظ احفوا الشوارب واعفوا اللحى؛ سنن البيهقي (ج ١ ص ١٤٩) عن الصحيحين؛ المحلّى لابن حزم (ج ٢ ص ٢٢٢)؛ تاريخ الخطيب (ج ٤ ص ٣٤٥).

٣ ـ عن ابن عمر مرفوعاً: خالفوا المشركين، وفرّوا اللحى، واحفوا الشوارب.

أخرجه البخاري في صحيحه (ج ٧ ص ٥٦)؛ ومسلم في الصحيح (ج ١ ص ١٥٣) بلفظ: خالفوا المشركين وحفوا الشوارب وأوفوا اللحى؛ سنن البيهقي (ج ١ ص ١٥٠) عن الصحيحين؛ نيل الأوطار (ج ١ ص ١٤١)، قال: متفق عليه.

٤ ـ عن أبي هريرة مرفوعاً: جزوّا الشوارب وارخوا اللحى، وخالفوا المجوس، صحيح مسلم (ج ١ ص ١٥٣)؛ سنن البيهقي (ج ١ ص ١٥٠)؛ تاريخ الخطيب (ج ٥ ص ٣١٧) بلفظ: احفوا الشوارب واعفوا

اللحى؛ زاد المعاد لابن القيم (ج ١ ص ٦٣) بلفظ: قصّوا الشوارب؛ وفي (ص ٦٤) بلفظ: جزوا الشوارب؛ نيل الأوطار (ج ١ ص ١٤١) عن أحمد ومسلم.

٥ ــ عن ابن عمر قال: عن رسول الله ﷺ أمر باحفاء الشوارب وإعفاء اللحى، صحيح مسلم (ج ١ ص ١٥٣)؛ صحيح الترمذي (ج ١٠ ص ٢٢١)؛ سنن أبي داود (ج ٢ ص ١٩٥)؛ سنن البيهقي (ج ١ ص ١٥١).

٦ ــ عن أبي أمامة قال: قلنا: يا رسول الله إنّ أهل الكتاب يقصّون عثانينهم ويوفرون سبالهم، فقال: «قصوّا سبالكم، ووفّروا عثانينكم، وخالفوا أهل الكتاب». أخرجه أحمد بن حنبل في المسند (ج ٥ ص ٢٦٤).

٧ ــ من حديث ابن عمر في المجوس: إنهم يوفّرون سبالهم، ويحلقون لحاهم، فخالفوهم.

أخرجه ابن حبان في صحيحه كما ذكره العراقي في تخريج الإحياء للغزالي المطبوع في ذيله (ج ١ ص ١٤٦).

٨ ــ عن أنس: احفوا الشوارب، واعفوا اللّحى، ولا تشبهوا باليهود.

أخرجه الطحاوي كما في شرح راموز الحديث (ج ١ ص ١٤١).

٩ ــ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: إن النبي ﷺ كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها. صحيح الترمذي (ج ١٠ ص ٢٢٠).

وذكر ابن حزم الظاهري الاجماع الذي نقله في كتابه مراتب الإجماع (ص ١٥٧): على أنّ حلق جميع اللحية مثلة لا تجوز، ولاسيّما للخليفة، والفاضل، والعالم، وعدّ في (ص ٥٢) ناتف اللحية ممن لا تقبل شهادته.

[كلمات أعلام السُنَّة في حرمة الحلق]:

وهلمّ إلى كلمات أعلام الفقه:

١ _ قال الحافظ العراقي في طرح التثريب (ج ١ ص ٨٣): من خصال الفطرة إعفاء اللحية، وهو توفير شعرها وتكثيره، وأنه لا يؤخذ منه كالشارب، من عفا الشيء إذا كثر وزاد، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر الأمر بذلك (اعفوا اللحى) وفي رواية أوفوا، وفي رواية وفروا، وفي رواية ارخوا، وهي بالخاء المعجمة على المشهور، وقيل بالجيم، من الترك والتأخير، وأصله الهمزة فحذف تخفيفاً كقوله: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾[1] واستدل به الجمهور على أن الأولى ترك اللحية على حالها، وأن لا يقطع منها شيء وهو قول الشافعي وأصحابه، وقال القاضي عياض: يكره حلقها وقصّها وتحريقها. وقال القرطبي في المفهم: لا يجوز حلقها ولا نتعها ولا قصُّ الكثير منها. وقال القاضي عياض: وأما الأخذ من طولها فحسن قال: وتكره الشهرة في تعظيمها كما يكره في قصّها وجزّها.

قال: وقد اختلف السلف هل لذلك حدّ، فمنهم من لم يحدد شيئاً في ذلك إلاّ أنه لا يتركها لحدّ الشهرة ويأخذ منها، وكره مالك طولها جداًّ، ومنهم من حدّد بما زاد على القبضة فيزال، ومنهم من كره الأخذ منها إلاّ في حجّ أو عمرة.

٢ _ قال الغزالي في الإحياء (ج ١ ص ١٤٦): قوله ﷺ: «اعفوا اللّحى» أي كثوها. وفي الخبر إن اليهود يعفون شواربهم ويقصّون لحاهم، فخالفوهم. وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة. وقال في (ص ١٤٨): وقد اختلفوا فيما طال منها، فقيل: إن قبض الرجل على لحيته

---

(١) الأحزاب: ٥١.

وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس، فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين، واستحسنه الشعبي وابن سيرين، وكرهه الحسن وقتادة وقالا تركها عافية أحبّ لقوله ﷺ: اعفوا اللحى، والأمر في هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب، فإن الطول المفرط قد يشوّه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين بالنبز إليه، فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النيّة.

٣ _ قال ابن حجر في فتح الباري (ج ١٠ ص ٢٨٨) عند ذكر حديث نافع: كان ابن عمر إذا حجّ او اعتمر قبض على لحيته فما فضل أخذه. الذي يظهر أن ابن عمر كان لا يخصّ هذا التخصيص بالنسك؛ بل كان يحمل الأمر بالإعفاء على غير الحالة التي تشوّه فيها الصورة بافراط طول شعر اللحية أو عرضه، فقد قال الطبري: ذهب قوم إلى ظاهر الحديث فكرهوا تناول شيء من اللحية من طولها ومن عرضها، وقال قوم: إذا زاد على القبضة يؤخذ الزائد، ثمّ ساق بسنده إلى ابن عمر أنه فعل ذلك، وإلى عمر أنه فعل ذلك برجل. ومن طريق أبي هريرة أنه فعله. وأخرج أبو داود من حديث جابر بسند حسن قال: كنّا نعفي السبال إلاّ في حجّ أو عمرة، وقوله: نُعفّي بضّم أوّله وتشديد الفاء أي نتركه وافراً، وهذا يؤيد ما نقل عن ابن عمر فإنّ السبال بكسر المهملة وتخفيف الموحّدة جمع سبلة بفتحتين، وهي ما طال من شعر اللحية، فأشار جابر إلى أنهم يقصّرون منها في النسك، ثمّ حكى الطبري اختلافاً فيما يؤخذ من اللحية هل له حدّ أم لا؟ فأسند عن جماعة الاقتصار على أخذ الذي يزيد منها على قدر الكف.

وعن الحسن البصري أنه يؤخذ من طولها وعرضها ما لم يفحش، وعن عطاء نحوه، قال: وحمل هؤلاء النهي على منع ما كانت الأعاجم

تفعله من قصّها وتخفيفها، قال: وكره آخرون التعرض لها إلاّ في حجّ أو عمرة، وأسنده عن جماعة واختار قول عطاء، وقال: إن الرجل لو ترك لحيته لا يتعرض لها حتّى أفحش طولها وعرضها لعرض نفسه لمن يسخر به، واستدلّ بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده إنّ النبي ﷺ كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها، وهذا أخرجه الترمذي، ونقل عن البخاري أنه قال: في رواية عمر بن هارون: لا أعلم له حديثاً منكراً إلاّ هذا، وقد ضعّف عمر بن هارون مطلقاً جماعة.

وقال عيّاض يكره حلق اللحية وقصها وتجذيفها، وأما الأخذ من طولها وعرضها إذا عظمت فحسنٌ، بل تكره الشهرة في تعظيمها كما يكره في تقصيرها كذا قال: وتعقّبه النووي بأنه خلاف ظاهر الخبر في الأمر بتوفيرها، قال: والمختار تركها على حالها، وأن لا يتعرّض لها بتقصير ولا غيره، وكان مراده بذلك في غير النسك؛ لأنّ الشافعي نصّ على استحبابه فيه.

وقال في (ص ٢٨٩): أنكر ابن التين ظاهر ما نقل عن ابن عمر فقال: ليس المراد أنه كان يقتصر على قدر القبضة من لحيته بل كان يمسك عليها فيزيل ما شذّ منها فيمسك من أسفل ذقنه بأصابعه الأربعة ملتصقة فيأخذ ما سفل عن ذلك ليتساوى طول لحيته، قال أبو شامة: وقد حدث قوم يحلقون لحاهم وهو أشد مما نقل عن المجوس أنهم كانوا يقصّونها. قال النووي: يستثنى من الأمر بإعفاء اللحى ما لو نبتت للمرأة لحية فإنه يستحب لها حلقها، وكذا لو نبت لها شارب أو عنفقة.

٤ ـ قال المناوي في فيض القدير (ج ١ ص ١٩٨): اعفوا اللحى وفروها، فلا يجوز حلقها ولا نتفها، ولا قصّ الكثير منها، كذا في التنقيح،

ثمّ زاد الأمر تأكيداً مشيراً إلى العلة بقوله: ولا تشبهوا باليهود في زيّهم الذي هو عكس ذلك، وفي خبر ابن حبّان بدل اليهود: المجوس، وفي آخر: المشركين، وفي آخر: آل كسرى. قال الحافظ العراقي: والمشهور أنه من فعل المجوس فيكره الأخذ من اللحية، واختلف السلف فيما طال منها، فقيل: لا بأس أن يقبض عليها ويقصّ ما تحت القبضة كما فعله ابن عمر، ثمّ جمعٌ من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين، وكره الحسن وقتادة، والأصح كراهة أخذ ما لم يتشعّث ويخرج عن السمت مطلقاً.

٥ _ قال السيد عليّ القاري في شرح الشفا للقاضي الذي على هامش شرح الخفاجي (ج ١ ص ٣٤٣): حلق اللحية منهي عنه، وأما إذا طالت زيادة على القبضة فله أخذها.

٦ _ في شرح الخفاجي على الشفا (ج ١ ص ٣٤٣): وتقصير اللحية حسن كما مرّ، وهيأته تحصل بقص ما زاد على القبضة، ويؤخذ من طولها أيضاً، وأما حلقها فمنهي عنه؛ لأنه عادة المشركين.

٧ _ قال الشوكاني في نيل الأوطار (ج ١ ص ١٣٦): إعفاء اللحية توفيرها كما في القاموس، وفي رواية البخاري: وفّروا اللحى، وفي رواية أخرى لمسلم: أوفوا اللحى، وهو بمعناه، وكان من عادة الفرس قصّ اللحية فنهى الشارع عن ذلك وأمر بإعفائها، قال القاضي عياض: يكره حلق اللحية وقصها وتحريقها، وأما الأخذ من طولها وعرضها فحسن، ثمّ نقل الأقوال في حدّ ما زاد.

وقال في (ص ١٤٢): قد حصل من مجموع الأحاديث خمس روايات: اعفوا وأوفوا، وأرخوا، وأرجوا ووفّروا، ومعناها كلها تركها على حالها، قوله: خالفوا المجوس قد سبق أنّه كان من عادة الفرس قصّ اللحية فنهى الشارع عن ذلك.

٨ ـ في شرح راموز الحديث (ج ١ ص ١٤١): أشار إلى العلة في خبر ابن حبّان: المجوس بدل اليهود، وفي آخر، المشركين، وفي أخرى: كسرى، قال العراقي: المشهور أنّه فعل المجوس، فكره الأخذ من اللحية، واختلف السلف فيما طال، ثمّ نقل الأقوال التي ذكرناها.

٩ ـ أحسن كلمة تجمع شتات الفتاوى وآراء أئمّة المذاهب في المسألة ما أفاده الأستاذ محفوظ في (الإبداع في مضار الابتداع) تأليف الأستاذ الكبير الشيخ علي محفوظ أحد مدرسي الأزهر الشريف الطبعة الرابعة، قال (ص ٤٠٥): ومن أقبح العادات ما اعتاد الناس اليوم من حلق اللحية وتوفير الشارب، وهذه البدعة كالتي قبلها سرت إلى المصريين من مخالطة الأجانب واستحسان عوائدهم، حتى استقبحوا محاسن دينهم وهجروا سنة نبيّهم محمّد ﷺ، فعن ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خالفوا المشركين وفروا اللحى واحفوا الشوارب» وكان ابن عمر إذا حجّ أو اعتمر قبض على لحيته فما فضل أخذه، رواه البخاري، وروى مسلم عن ابن عمر أيضاً عن النبي ﷺ قال: أحفوا الشوارب واعفوا اللحى... إلى أن قال بعد ذكر عدة من أحاديث الباب: والأحاديث في ذلك كثيرة وكلها نصّ في وجوب توفير اللحية وحرمة حلقها والأخذ منها على ما سيأتي.

ولا يخفى أن قوله: خالفوا المشركين، وقوله: خالفوا المجوس، يؤيّدان الحرمة، فقد أخرج أبو داود وابن حبّان وصحّحه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من تشبّه بقوم فهو منهم، وهو غاية في الزجر عن التشبه بالفساق أو بالكفّار في أيّ شيء فما يختصون به من ملبوس أو هيأة، وفي ذلك خلاف العلماء منهم من قال: بكفره وهو ظاهر الحديث، ومنهم من قال: لا يكفر ولكن يؤدّب.

فهذان الحديثان بعد كونهما أمرين دالين على أنّ هذا الصنع من هيآت الكفّار الخاصّة بهم، إذ النهي إنما يكون عمّا يختصون به، فقد نهانا ﷺ عن التشبّه به عامّاً في قوله: من تشبّه، ومن أفراد هذا العام حلق اللحية، وخاصّاً في قوله: وفروا اللحى، خالفوا المجوس، خالفوا المشركين.

ثمّ ما تقدم من الأحاديث ليس على إطلاقه، فقد روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كان رسول الله ﷺ يأخذ من لحيته من عرضها وطولها، وروى أبو داود والنسائي: إنّ ابن عمر كان يقبض على لحيته فيقطع ما زاد على الكف. وفي لفظ: ثمّ يقصّ ما تحت القبضة، وذكره البخاري تعليقاً. فهذه الأحاديث تقيّد ما رويناه آنفاً فيحمل الإعفاء على إعفائها من أن يأخذ غالبها أو كلها.

[اجماع المذاهب الأربعة على الوجوب]:

وقد اتفقت المذاهب الأربعة على وجوب توفير اللحية وحرمة حلقها والأخذ القريب منه.

الأوّل: مذهب الحنفيّة قال في (الدر المختار): ويحرم على الرجل قطع لحيته، وصرّح في النهاية بوجوب قطع ما زاد على القبضة (بالضّم) وأما الأخذ منها وهي دون ذلك كما فعله بعض المغاربة ومخنّثة الرجال فلم يبحه أحد. وأخذ كلها فعل يهود الهند ومجوس الأعاجم... إلخ، وقوله: وما وراء ذلك يجب قطعه، هكذا عن رسول الله ﷺ أنه كان يأخذ من اللحية من طولها وعرضها، كما رواه الإمام الترمذي في جامعه، ومثل ذلك في أكثر كتب الحنفية.

الثاني: مذهب السادة المالكية حرمة حلق اللحية وكذا قصّها إذا كان يحصل به مثلة، وأما إذا طالت قليلاً وكان القصّ لا يحصل به مثلة

فهو خلاف الأولى أو مكروه، كما يؤخذ من شرح الرسالة لأبي الحسن وحاشيته للعلامة العدوي رحمه الله.

الثالث: مذهب السادة الشافعيّة، قال في شرح العباب: فائدة، قال الشيخان: يكره حلق اللحية، واعترضه ابن الرفعة بأن الشافعي رضي الله عنه نصّ في الأم على التحريم، وقال الأذرعي: الصواب تحريم حلقها جملة لغير علّة بها... إلخ ومثله في حاشية ابن قاسم العبادي على الكتاب المذكور.

الرابع: مذهب السادة الحنابلة نصّ في تحريم حلق اللحية، فمنهم من صرّح بأن المعتمد حرمة حلقها، ومنهم من صرّح بالحرمة لم يحك خلافاً كصاحب الإنصاف كما يُعلم ذلك بالوقوف على شرح المنتهى وشرح منظومة الآداب وغيرهما.

ومما تقدم تعلم أنّ حرمة حلق اللحية هي دين الله وشرعه الذي لم يُشرّع لخلقه سواه، وأنّ العمل على غير ذلك سفه وضلالة، أو فسق وجهالة، أو غفلة عن هدي سيدنا محمّد ﷺ... إلخ.

نعم: لم يكن الشبلّي ولا الحافظ الذي يثني عليه بحلق لحيته في حبّ الله، ولا الحفّاظ الآخرون الذين أطبقوا القول حول لحية أبي بكر الصديق محتاجين إلى اللحية؛ بل كانوا يفتقرون إلى عقل تام كما جاء فيما ذكره السمعاني في الأنساب في (الرستمي) عن مطين بن أحمد قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت له: يا نبي الله أشتهي لحية كبيرة، فقال: «لحيتك جيّدة وأنت محتاج إلى عقل تام».

* * *

لقد تمّ والحمد لله وله المنّ علينا، المجلد الأوّل من كتابنا (أنوار الحكم ومحاسن الكلم) في اليوم الثالث عشر من شهر ربيع الأوّل سنة ألف وأربعمائة وستة هجرية، بعد أن لطف الجليل جلّ وعلا بنا حيث اخرجنا من السجن بعد أن قضينا فيه سنة وستة أشهر، وقد كتب بقلم مؤلفه حسن السيد عليّ القبانچي النجفي. ويتلوه المجلد الثاني إن شاء الله تعالى وأوّله قوله عليه السلام: «أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إلاّ وَيَدُ اللَّهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ».

* * *

فهرست الموضوعات

* * *

